



جامعة حلوان  
كلية الفنون الجميلة  
قسم التصوير

# تطور فن الفسيفساء في العصر البيزنطي (من القرن التاسع الى القرن الثالث عشر الميلادي )

THE DEVELOPMENT OF MOSAIC IN BYZANTINE AGE  
(FROM NINE<sup>TH</sup> CENTURY TO THRETEEN<sup>TH</sup> CENTURY)

رسالة مقدمة من :

نرمين فتحى المصرى  
المعيدة بقسم التصوير  
كلية الفنون الجميلة - جامعة حلوان

الى قسم التصوير بكلية الفنون الجميلة - جامعة حلوان  
للحصول على درجة الماجستير بـ (جدا، يانث )

إشراف

الأستاذ الدكتور / صبرى محمد منصور

أستاذ بقسم التصوير  
وعميد كلية الفنون الجميلة (الأسق)  
جامعة حلوان

٢٠٠١

يناير





جامعة حلوان  
كلية الفنون الجميلة  
قسم التصوير

**قرار لجنة المناقشة والحكم  
لرسالة الماجستير المقدمة من  
الباحثة / نرمين فتحى المصرى  
المعيدة بقسم التصوير  
كلية الفنون الجميلة - جامعة حلوان**

الموافق ٢٠٠١/٦/٢٠ فى تمام الساعة

انه فى يوم

اجتمع اللحنه المشكله من السادة:

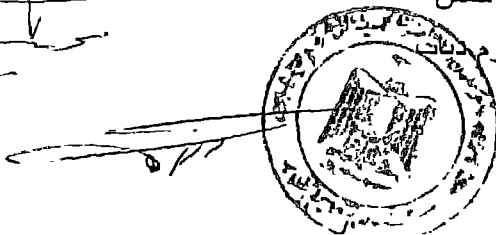
- أ.د. صبري محمد منصور  
أسناد بقسم التصوير  
كلية الفنون الجميله - حامعه حلوان - (مسرفا ومفرراً)
- أ.د. حسن عبد الفتاح حسن  
أسناد مفرع بقسم التصوير  
كلية الفنون الجميله - حامعه جنوب الوادى (عصوا)
- أ.م.د. محمود ابو العزم دياب  
أسناد مساعد بقسم التصوير  
كلية الفنون الجميله - حامعه حلوان (عصوا)
- وذلك لمناقشة الرساله المقدمه من الباحثة / نرمين فتحى المصرى،  
و موصو عنها:

**تطور فن الخسيساء فى العصر البيزنطى  
(من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الميلادى)**

وذلك للحصول على درجة الماجستير فى الفنون الجميله نخصص تصوير حدارى،  
وكان أعضاء اللحنه قد تسلّموا الرساله وقرأها كل منهم واعد تقريراً فردياً بصلاحيها  
للمناقشه ، وبعد الرجوع إلى اللوائح والقوانين المنظمه للدراسات العليا وفحص المادح  
العليه وبعد المداوله. قررت اللحنه منح الباحثة / نرمين فتحى المصرى ، درجة  
الماجستير فى الفنون الجميله تخصص تصوير.

أعضاء اللحنه

- أ.د. صبري محمد منصور
- أ.د. حسن عبد الفتاح حسن
- أ.م.د. محمود ابو العزم دياب





## شكر وتقدير

يسعدنى في النهاية أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير للأسنانا  
الدكتور/صبري محمد منصور أستاذ التصوير بالكلية وعميد الكلية (الأسبق) على  
إشرافه على الرسالة وما قدمه من توجيهات فنية وعلمية وذلك من خلال  
المراحل المختلفة لإعداد الرسالة .

كما أنقدم بخالص الشكر والتقدير إلى السادة الأساتذة أعضاء لجنة  
المناقشة والحكم على تفضلهما بقبول مناقشة هذا البحث وهما :  
الأستاذ الدكتور / حسن عبد الفتاح أستاذ التصوير المتفرغ بكلية الفنون الجميلة  
- وعميد كلية الفنون الجميلة (الأسبق) جامعة جنوب الوادي،  
والدكتور / محمود أبو العزم الأستاذ المساعد بقسم التصوير - كلية  
الفنون الجميلة - جامعة حلوان.

والله ولى التوفيق

الباحثة



١ -

## • فهرس الرسالة •

الموضوع	الصفحة
• فهرس الأشكال	و - ص
• المقدمة	٢

### الباب الأول

#### الفنون المؤثرة في نشأة التصوير البيزنطي

##### الفصل الأول :

##### الفن الساساني وعناصره الزخرفية

• الدولة الساسانية ( نبذة تاريخية )	١١
• الفن الساساني	١٢
• تأثير الفن الساساني وتأثيره في الفنون الأخرى	١٣
• موضوعات الفن الساساني	١٤
• الفسيفساء في الفن الساساني	١٦
• التأثيرات الساسانية في الفسيفساء البيزنطية	٢١

##### الفصل الثاني :

##### الفن الهيلينيستي ومحاكاة الطبيعة

• العصر الهيلينيستي ( نبذة تاريخية )	٢٧
• العصر الهيلينيستي إبان الحكم الروماني	٢٨
• الفن الهيلينيستي ومدى إنتشاره	٢٩
• العوامل التي أثرت في تكوين الفن الهيلينيستي	٣٢
• الفسيفساء الهيلينيستية وأهم موضوعاتها	٣٧
• الفسيفساء الهيلينيستية في الأسكندرية وأنطاكية	٥٠
• التأثيرات الهيلينيستية في الفسيفساء البيزنطية	٥٧

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث :	
الفتون المسيحية المبكرة والموضوعات الدينية الرمزية	
• مقدمة تاريخية .....	٦٦
• الديانة المسيحية .....	٦٨
• الفن المسيحي المبكر .....	٦٩
• رمزية الفن المسيحي .....	٧١
• التصوير المسيحي وأهم موضوعاته .....	٧٣
• سمات الفسيفساء المسيحية .....	٧٥

## الباب الثاني

### فسيفساء العصر البيزنطي

#### الفصل الأول :

#### تأثيرات البيئة المحلية في تكوين الأعمال الفنية

• لمحة تاريخية .....	١٣٣
• الموقع الجغرافي ومميزاته .....	١٣٦
• العوامل السياسية .....	١٣٨
• العوامل الاجتماعية .....	١٤٠
• التأثيرات الدينية وحركة محطمي الصور .....	١٤٥

#### الفصل الثاني :

#### العمارة الكنسية البيزنطية وعلاقتها بفن الفسيفساء

• العمارة البيزنطية والعوامل المؤثرة في نشأتها .....	١٤٩
• الطرز المختلفة للكنائس البيزنطية .....	١٥٥
• نهاية المعمار البيزنطي .....	١٧٢
• العناصر المعمارية المختلفة وإرتباط فن الفسيفساء بها .....	١٧٤

-ج-

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث :	
الموضوعات التي تناولها فن الفسيفساء البيزنطى	
• فسيفساء القرون الأولى .....	١٨٠
• العصر الذهبى الثانى للفسيفساء البيزنطية .....	١٨٥
• أولاً : الموضوعات الدينية .....	١٨٦
• ثانياً : الموضوعات الدينية .....	١٩٤
• اللوحات الصغيرة .....	٢٠١

الباب الثالث

القيم الجمالية لفن الفسيفساء البيزنطى

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول :	
التقنيات المختلفة للإستعمال الفنى لخامة الفسيفساء البيزنطية	
• تعريف الفسيفساء .....	٢٣٦
• أنواع الفسيفساء البيزنطية وإستعمالاتها المختلفة .....	٢٣٨
• كيفية إعداد لوحات الفسيفساء .....	٢٤٠
• تنفيذ لوحات الفسيفساء .....	٢٤٢
• تطور الأساليب التنفيذية فى الفسيفساء البيزنطية .....	٢٤٣
الفصل الثانى :	
تناول العنصر الأدمى والصور الشخصية فى فسيفساء العصر البيزنطى	
• مقدمة .....	٢٥٠
• العنصر الأدمى وأهميته فى الفن البيزنطى .....	٢٥١
• الجسد العارى فى الفسيفساء البيزنطية .....	٢٦٢
• الصورة الشخصية .....	٢٦٤
• الصور الثنائية والجماعية .....	٢٦٥
• أهمية الصورة الشخصية فى الفسيفساء البيزنطية .....	٢٦٦

الموضوع	الصفحة
<b>الفصل الثالث :</b>	
<b>الحركة واللون في تكوينات الفسيفساء البيزنطية</b>	
• الاتجاهات الفنية المختلفة في الفسيفساء البيزنطية .....	٢٧٤
• العناصر الأساسية في تكوينات الفسيفساء .....	٢٨٢
• الحركة .....	٢٨٨
• الحركة في الفسيفساء البيزنطية وأنواعها .....	٢٨٩
• اللون وأهميته في الفسيفساء البيزنطية .....	٢٩٦
• اللون الذهبي في خلفيات الفسيفساء البيزنطية .....	٣٠٥
<b>الفصل الرابع :</b>	
<b>إنتشار الفن البيزنطي وامتداده في الفنون الأخرى</b>	
• تمهيد .....	٣١٢
• ظهور تأثيرات الفن البيزنطي خارج أنحاء الإمبراطورية .....	٣١٤
• الفسيفساء في صقلية .....	٣٢٠
• العناصر البيزنطية في الفسيفساء الإسلامية .....	٣٢٥
• التصوير الجداري القبطي .....	٣٣١
<b>الفصل الخامس :</b>	
<b>تجربة الباحث الفنية ومحاولة استخلاص قيم جمالية معاصرة مستوحاة من الفسيفساء البيزنطية</b>	
• مقدمة .....	٣٤٠
• الخامات المستخدمة .....	٣٤٨
• خطوات الإعداد .....	٣٥٠
• الأساليب التقنية المتبعة في تنفيذ اللوحات .....	٣٥١



الموضوع الصفحة

٤٠٨ نتائج البحث

٤٠٩ ملحق خريطة للإمبراطورية البيزنطية .

قائمتا المراجع

- ٤١١ ..... مراجع باللغة العربية •
- ٤١٣ ..... مراجع باللغة الأجنبية •

ملخصا البحث

- ٤١٧ ..... ملخص البحث باللغة العربية •
- ٤٤٦ ..... ملخص البحث باللغة الإنجليزية •





• فهرس الأشكال •

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
	مجموعة من الرؤوس المتجاورة ( تفصيلية ) من فسيفساء	( ١ )
٨٦	أرضية قصر بيشابور .....	
٨٦	عازفة القيثارة ، فسيفساء أرضية قصر بيشابور .....	( ٢ )
٨٧	عازفة القيثارة ، ( تفصيلية ) فسيفساء أرضية قصر بيشابور	( ١٢ )
٨٧	إحدى سيدات البلاط الملكي ، فسيفساء أرضية قصر بيشابور	( ٣ )
٨٨	سيدة تمسك بباقة زهور ، فسيفساء أرضية قصر بيشابور	( ٤ )
	فتاة صغيرة تجلس أمام جذع شجرة ، فسيفساء أرضية قصر	( ٥ )
٨٨	بيشابور .....	
	فتاة ترتدي ملابس البحر ( تفصيلية ) من فسيفساء أرضية	( ٦ )
٨٩	قصر بيزا أرمينيا .....	
	وجه فتاة صغيرة ( تفصيلية ) ، فسيفساء أرضية قصر	( ٧ )
٨٩	بيشابور .....	
	رؤوس آدمية داخل إطار زخرفي ، فسيفساء كنيسة القديس	( ٨ )
٩٠	فيتال .....	
٩٠	اسد بوضع جانبي ، فسيفساء ساسانية بأنطاكية .....	( ٩ )
٩١	الجديان المجنحة المتقابلة ، فسيفساء ساسانية بأنطاكية .....	( ١٠ )
٩١	تفريعات أوراق الأكانثوس - نقوش حجرية - قصر بيشابور	( ١١ )
	زخارف الطيور وأوراق الأكانثوس ( تفصيلية ) من فسيفساء	( ١٢ )
٩٢	كنيسة القديس فيتال .....	
	مشاهد الصيد والحيوانات المتقابلة ، فسيفساء القصر الملكي	( ١٣ )
٩٢	بياليرمو .....	
	صموئيل يسبح رأس داوديا لزيت ، تصوير جداري بكنيسة دورا	( ١٤ )
٩٣	أورويوس .....	
٩٣	الإمبراطور ، جستنيان ، ، فسيفساء كنيسة القديس فيتال .....	( ١٥ )
٩٤	صورة الملاك المجنح ، نقش حجرى ، تاح بوسطن .....	( ١٦ )
	زخارف نباتية وموضوعات من العهد القديم ، فسيفساء	( ١٧ )
٩٤	كنيسة القديس فيتال .....	
٩٥	فسيفساء الإسكندر ، متحف الآثار بنابولى .....	( ١٨ )
٩٥	قناع وفواكه ، فسيفساء دار إله الغابات ، بومبي .....	( ١٩ )

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
٩٦	صيد الأسد ، فسيفساء مدينة بيلا .....	(٢٠)
٩٦	صيد الغزال ، فسيفساء مدينة بيلا .....	(٢١)
٩٧	١ - صيد الغزال ( تفصيلية ملونة ) فسيفساء مدينة بيلا ..	
٩٧	إختلاف تيزنه لهيلين ، فسيفساء مدينة بيلا .....	(٢٢)
٩٨	تيزون والمينيتور ، فسيفساء مدينة بومبي .. .. .	(٢٣)
٩٨	ديونيسيوس يمتطى الفهد ، فسيفساء دار الأقتعة ، ديلوس	(٢٤)
٩٩	الموسيقيين الجائلين ، فسيفساء فيلا سيسيرون ، بومبي	(٢٥)
٩٩	مشهد زيارة إلى الساحرة ، فسيفساء فيلا سيسيرون ، بومبي	(٢٦)
	إيروس ، إله الجنس ، ( تفصيلية ) من فسيفساء دار أولياء	(٢٧)
١٠٠	العهد ، ديلوس .. .. .	
١٠٠	صور الحمام على الإناء ، فسيفساء فيلا هارديان ، تيفولى ..	(٢٨)
١٠١	الكائنات البحرية ، فسيفساء دار إله الغابات ، بومبي .. .. .	(٢٩)
١٠١	الكائنات البحرية ، فسيفساء دار إله الغابات ، بومبي .. .. .	(٣٠)
	مشاهد نيلية ( تفصيلية ) من فسيفساء دار إله الغابات ،	(٣١)
١٠٢	بومبي .. .. .	
	الإسكندر ، تفصيلية من فسيفساء الاسكندر ، متحف الآثار	( ١٣٢ )
١٠٢	نابولي .. .. .	
١٠٣	دارا ، ملك الفرس ، تفصيلية من فسيفساء الإسكندر .. .. .	( ٣٣ ) ب )
١٠٣	مشاهد نيلية ، فسيفساء بالسترينا .. .. .	(٣٣)
	١ - معبد ديلا فورتونا ، تفصيلية من فسيفساء المشاهد	
١٠٤	النيلية ، بالسترينا .. .. .	
١٠٤	زخارف هندسية ، فسيفساء أرضية منزل بالمعميرة .....	(٣٤)
١٠٥	زخارف هندسية ، فسيفساء أرضية منزل بالشاطبي .. .. .	(٣٥)
١٠٥	طيور وزخارف هندسية ، فسيفساء أرضية منزل بكوم الدكة .....	(٣٦)
١٠٦	تجسيد مدينة الأسكندرية ، فسيفساء من ثيموس .. .. .	(٣٧)
١٠٦	تجسيد مدينة الأسكندرية ، فسيفساء من ثيموس .. .. .	(٣٨)
	ميديا وچيسون ، فسيفساء أرضية ، فيلا بمدينة دافنى ،	(٣٩)
١٠٧	انطاكية .. .. .	
	مشهد مسرحي ، فسيفساء أرضية ، فيلا بمدينة دافنى ،	(٤٠)
١٠٧	انطاكية .. .. .	

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
	فيدرا وهيوليتوس والخادمة، فسيفساء أرضية ، فيلا بمدينة دافنى ، انطاكية .....	(٤١)
١٠٨	باريس وهيلين وأفروديت، فسيفساء أرضية ، فيلا بمدينة دافنى ، انطاكية .....	(٤٢)
١٠٨	مشهد مسرحى ، فسيفساء منزل بانطاكيه .....	(٤٣)
١٠٩	القديس لورانس ، تفصيلية من فسيفساء ضريح جالا بلاسيديا .....	(٤٤)
١٠٩	العذراء تتعلم الوقوف والسير ، فسيفساء كنيسة المخلص .....	(٤٥)
١١٠	مشهد من حياة العذراء ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة المخلص .....	(٤٦)
١١٠	قبلة يهوذا ، فسيفساء دير دافنى ، أتيكا .....	(٤٧)
١١١	مشهد رعوى ، تفصيلية من فسيفساء أرضية فيلا هادريان القديس لوقا ، فسيفساء كنيسة القديس فيتال .....	(٤٨)
١١١	ديكان يحملان ثعلباً ، تفصيلية من فسيفساء أرضية كنيسة القديس مرقص .....	(٤٩)
١١٢	فضول السنة ، أرضية فسيفساء .....	(٥٠)
١١٢	١ - الخريف ، تفصيلية من أرضية الضيفساء السابقة .....	(٥١)
١١٣	فسيفساء صحن منزل الغزال فى هيراكليوم .....	(٥٢)
١١٣	فسيفساء قوس النصر وحنية كنيسة القديس كليمانت بروما تتويج العذراء ، فسيفساء حنية كنيسة القديسة ماريا ماجورى .....	(٥٣)
١١٤	تفريعات أوراق الأكانثوس تتخللها طيور ، فسيفساء من تونس فسيفساء احد الجدران العلوية بضريح جالابلاسيديا .....	(٥٤)
١١٥	تفريعات أوراق الأكانثوس والأروم ( فسيفساء تونسية ) .....	(٥٥)
١١٥	فسيفساء قبة المعمودية الأرثوذكسية براثينا .....	(٥٦)
١١٦	حاملى الأكواب ( فسيفساء أرضية تونسية ) .....	(٥٧)
١١٦	اكليل نبات العار وبعض الزهور والثمار ، إطار زخرفى ، فسيفساء تونسية .....	(٥٨)
١١٧	تفصيلية من فسيفساء الإطار الخارجى بضريح جالابلاسيديا .....	(٥٩)
١١٧		(٦٠)
١١٨		(٦١)

ط.

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
١١٨	سيدة تحمل صولجان ، فسيفساء من قرطاج ، شمال أفريقيا	(٦٢)
١١٩	فسيفساء السيد المسيح الراعى . كاتدرائية اكيليا	(٦٣)
١١٩	السيد المسيح يبدو كالشمس ، فسيفساء قبة الضريح بكنيسة القديس بطرس	(٦٤)
١٢٠	قصة نوح ، فسيفساء ارضية كاتدرائية الأسقف تيودور	(٦٥)
١٢٠	زخارف طيور ونباتات ، تفصيلية من فسيفساء قبة ضريح القديسة كونستانزا	(٦٦)
١٢٠	صناعة النيد ، تفصيلية من فسيفساء قبة ضريح القديسة كونستانزا	(٦٧)
١٢١	وجه قسطنطينا ، تفصيلية من فسيفساء قبة ضريح القديسة كونستانزا	(٦٧ ب)
١٢١	السيد المسيح يتوسط القديس ، بطرس ، والقديس بولس ، فسيفساء ضريح القديسة كونستانزا	(٦٨)
١٢٢	السيد المسيح على العرش وسط الحوارين والإنجليين الأربعة ، فسيفساء كنيسة القديسة بودنزانا بروما	(٦٩)
١٢٣	تفصيلية من فسيفساء قبة كنيسة القديس جورج ، سالونيك	(٧٠)
١٢٣	النبي موسى يشير إلى البحر فينطلق ، فسيفساء كنيسة القديسة ماريا ماجورى	(٧١)
١٢٣	بنو إسرائيل يرمون النبي موسى بالحجارة ، فسيفساء كنيسة القديسة ماريا ماجورى	(٧٢)
١٢٤	النبي إبراهيم يقدم القرابين ، فسيفساء كنيسة القديسة ماريا ماجورى	(٧٣)
١٢٤	النبي إبراهيم يستقبل ثلاثة من الملائكة ، فسيفساء كنيسة القديسة ماريا ماجورى	(٧٤)
١٢٥	منظر داخلى ، فسيفساء ضريح جالا بلاسيديا	(٧٥)
١٢٦	فسيفساء قبة ضريح جالا بلاسيديا	(٧٦)
١٢٦	فسيفساء الراعى الصالح ، ضريح جالا بلاسيديا	(٧٧)
١٢٧	الراعى الصالح ، تفصيلية من فسيفساء الراعى الصالح ، ضريح جالا بلاسيديا	(٧٧)
١٢٧	القديس حنا يحمل التاج ، تفصيلية من فسيفساء قبة الممودية الأرثوذكسية	(٧٨)
١٢٧	الممودية الأرثوذكسية	

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
١٢٨	تعميد السيد المسيح ، فسيفساء ، قبة المعمودية الأريانية .....	(٧٩)
	القديس يوحنا يقوم بتعميد السيد المسيح ، تفصيلية من	( ١٧٩)
١٢٨	فسيفساء قبة المعمودية الأريانية .....	
	السيد المسيح وسط الحوارين (معجزة الخبز والأسماك)،	(١٨٠)
١٢٩	فسيفساء كنيسة القديس أبولينار الجديدة .....	
	السيد المسيح يفصل بين الأتنام والماعز ( يوم الحساب ) ،	(٨٠ ب)
١٢٩	فسيفساء كنيسة القديس ابو لينار الجديدة .....	
	قبلة يهوذا للسيد المسيح ، فسيفساء كنيسة القديس أبولينار	(٨٠ ج)
	الجديدة .....	
١٣٠	العشاء الأخير ، فسيفساء كنيسة القديس أبولينار الجديدة ...	( ٨٠ د)
١٣٠	فسيفساء الخريطة - ارضية كنيسة مار جرجس بمدينة	(٨١)
٢٠٣	مادبا .....	
٢٠٣	مدينة القدس ، تفصيلية من فسيفساء الخريطة .....	(١٨١)
٢٠٤	رسم تخطيطي للبازيليك المسيحية القديمة .....	(٨٢)
٢٠٤	مسقط أفقى لكنيسة القديس أبولينار الجديدة براقينا .....	(٨٣)
٢٠٥	منظر داخلى لصحن كنيسة القديس أبولينار الجديدة .. ..	(٨٤)
	مسقط أفقى لكنيسة القديسين سرجيوس وياكوس	(٨٥)
٢٠٥	بالقسطنطينية .....	
٢٠٦	منظر خارجى لكنيسة القديس فيتال براقينا .....	(٨٦)
٢٠٦	مسقط أفقى لكنيسة القديس فيتال براقينا .....	(١٨٧)
٢٠٧	قطاع طولى لكنيسة القديس فيتال براقينا .....	(٨٧ ب)
٢٠٧	مسقط أفقى لكنيسة هوزيوس لوكاس .....	(٨٨)
٢٠٨	مسقط أفقى لضريح چالابلاسيديابراقينا .....	(١٨٩)
٢٠٨	منظر خارجى لضريح چالابلاسيديا .....	(٨٩ ب)
٢٠٩	مسقط أفقى لكنيسة القديس يوحنا .....	(٩٠)
٢٠٩	مسقط أفقى لكنيسة الرسل المقدسين بالقسطنطينية .....	(٩١)
٢١٠	مسقط أفقى لكنيسة القديس مرقص بثينيسيا .....	(٩٣)
٢١١	ا - مسقط أفقى لكنيسة اياصوفيا بالقسطنطينية .....	(٩٣)
٢١١	ب - قطاع عرضى لكنيسة اياصوفيا بالقسطنطينية .....	
٢١٢	ج - منظر خارجى لكنيسة اياصوفيا بالقسطنطينية .....	

كـ

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
٢١٢	زخارف القسيفساء بالمعمودية الأرثوذكسية براقينا .....	(٩٤)
٢١٣	فسيفساء الجدار الشمالي بكنيسة القديس أبولينار الجديدة	(٩٥)
٢١٣	فسيفساء الحنية وقوس النصر بكنيسة القديس أبولينار في كلاسى .....	(٩٦)
٢١٤	فسيفساء القبة والدلايات بكنيسة المخلص ، القسطنطينية	(٩٧)
٢١٤	فسيفساء القبة والجانب الشرقي بكنيسة القديس فيتال	(٩٨)
٢١٥	فسيفساء العذراء وملاك البشارة ، دير دافنى .....	(٩٩)
٢١٥	زخارف هندسية ونباتية بكنيسة القديس فيتال براقينا	(١٠٠)
	زخارف لوحات هندسية وطيور بكنيسة القديس فيتال براقينا .....	(١٠٠ ب)
٢١٥	فسيفساء السيد المسيح ، الكنيسة الأسقفية براهينا	(١٠١)
٢١٦	زخارف طيور ونباتات ، الكنيسة الأسقفية براهينا .....	(١٠١ ب)
	فسيفساء موكب القديسات والقديسين بكنيسة القديس أبولينار الجديدة براقينا .....	(١٠٢)
٢١٧	القديس ديمتريوس مع طفلين ، كنيسة القديس ديمتريوس بسالونيك .....	(١٠٣)
٢١٧	القديس ديمتريوس والأسقف يوحنا ، كنيسة القديس ديمتريوس بسالونيك .....	(١٠٤)
٢١٨	صورة الصليب في حنية كنيسة القديسة إيرين بسالونيك	(١٠٥)
٢١٨	تفصيلية من فسيفساء أرضية فيلا بالقرب من قناطر فالانس بالقسطنطينية .....	(١٠٦)
٢١٨	فسيفساء أرضية القصر المقدس بالقسطنطينية .....	(١٠٧)
٢١٩	فسيفساء أرضية فيلا الإمبراطور الروماني - بيزا أرمرينا	(١٠٨)
٢١٩	بروما .....	(١٠٩)
	عملية حلب الشاة ، تفصيلية من فسيفساء القصر المقدس بالقسطنطينية .....	(١١٠)
٢٢٠	فتاة تحمل قدراً ، تفصيلية من فسيفساء القصر المقدس بالقسطنطينية .....	(١١١)
٢٢٠	صبي يطعم حماماً ، تفصيلية من فسيفساء القصر المقدس بالقسطنطينية .....	(١١١)
٢٢١	بالقسطنطينية .....	



-ل-

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
٢٢١	فسيفساء الإمبراطورة تيودورا بكنيسة القديس فيتال، رافينا	(١١٢)
	سيدات من حاشية البلاط الملكي، تفصيلية، من فسيفساء	(١١٢)
٢٢٢	الإمبراطورة تيودورا.....	
	رجال الحرس الإمبراطوري، تفصيلية من فسيفساء	(١١٣)
٢٢٢	الإمبراطور جستنيان بكنيسة القديس فيتال، رافينا	
	القص الكسيوس، تفصيلية من فسيفساء الحنية الرئيسية	(١١٤)
٢٢٣	بكنيسة القديس فيتال، رافينا	
	فسيفساء الإمبراطور ليو السادس راعياً أمام السيد المسيح	(١١٥)
٢٢٣	بكنيسة آياصوفيا بالقسطنطينية	
	فسيفساء الإمبراطور الإسكندر بكنيسة آياصوفيا	(١١٦)
٢٢٤	بالقسطنطينية	
	فسيفساء العذراء وهي تتوسط الإمبراطور قسطنطين	(١١٧)
٢٢٤	والإمبراطور جستنيان بكنيسة آياصوفيا، القسطنطينية	
	فسيفساء السيد المسيح بين الإمبراطورة زويه وزوجها، كنيسة	(١١٨)
٢٢٤	آياصوفيا بالقسطنطينية	
	فسيفساء العذراء بين الإمبراطورة إيرين وزوجها الإمبراطور	(١١٩)
٢٢٥	يوحنا الثاني كومنينوس، كنيسة آياصوفيا بالقسطنطينية	
	فسيفساء تيودور ميتوشيتس يقدم نموذج الكنيسة للسيد	(١٢٠)
٢٢٥	المسيح، كنيسة المخلص بالقسطنطينية	
	مدينة الناصرة، تفصيلية من فسيفساء كنيسة المخلص	(١٢١)
٢٢٦	بالقسطنطينية	
	طاووس، تفصيلية من فسيفساء كنيسة المخلص	(١٢٢)
٢٢٦	بالقسطنطينية	
	فسيفساء العذراء تحمل المسيح طفلاً في محراب كنيسة	(١٢٣)
٢٢٧	آياصوفيا بالقسطنطينية	
٢٢٨	فسيفساء ميلاد المسيح بكنيسة هوزيوس لوكاس، أثينا	(١٢٤)
٢٢٨	فسيفساء صلب السيد المسيح بكنيسة هوزيوس لوكاس، أثينا	(١٢٥)
٢٢٩	فسيفساء التجلي، دير دافني أتيكا	(١٢٦)
٢٢٩	فسيفساء الحاكم الأعظم، دير دافني، أتيكا	(١٢٧)
	فسيفساء العذراء والمسيح، قبة كنيسة المخلص	(١٢٨)
٢٣٠	بالقسطنطينية	

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
٢٣٠	فسيفساء مشاهد من حياة العنزاء ، كنيسة المخلص بالقسطنطينية	(١٢٩)
٢٣١	فسيفساء صور من حياة السيد المسيح ، كنيسة المخلص بالقسطنطينية	(١٣٠)
٢٣١	قبة كنيسة ( فيتى كامى ) بالقسطنطينية	(١٣١)
٢٣٢	السيد المسيح ، تفصيلية من فسيفساء قبة كنيسة ( فيتى كامى ) بالقسطنطينية	(١٣١)
٢٣٢	فسيفساء لوحة النزول من على الصليب ، الكاتدرائية الرومانية بالقسطنطينية	(١٣٢)
٢٣٣	فسيفساء لوحة البشارة ، متحف فيكتوريا والبرت	(١٣٣)
٢٣٣	فسيفساء الجانب الأيسر من لوحة الكتابة ، متحف اويراديل ، كاتدرائية فلورنسا	(١٣٤)
٢٣٣	القديس بطرس ، تفصيلية من فسيفساء قبة العمودية الأريانية براهينا	(١٣٥)
٢٣٤	يد السيدة جواتينا ، تفصيلية من فسيفساء الإمبراطورة تيودورا بكنيسة القديس فيتال براهينا	(١٣٦)
٢٣٥	رأس احد الملائكة ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة القديس ابوليتار الجديدة براهينا	(١٣٧)
٢٣٥	وجه احد القديسين ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة القديس جورج بسالونيك	(١٣٨)
٢٣٥	السيد المسيح الحاكم الأعظم ، تفصيلية من فسيفساء قبة كنيسة المخلص بالقسطنطينية	(١٣٩)
٢٣٦	فسيفساء لوحة السيد المسيح ، متحف برلين	(١٤٠)
٢٣٦	رجل وجمل يحمل طفلين ، تفصيلية من فسيفساء القصر المقدس بالقسطنطينية	(١٤١)
٢٣٧	صور القديسين ، فسيفساء كنيسة القديس ابوليتار الجديدة براهينا	(١٤٢)
٢٣٧	تجسيد العظيم ذو الجلاله ، فسيفساء كنيسة القديس فيتال براهينا	(١٤٣)
٢٣٨	النبي إبراهيم وزوجته سارة ، فسيفساء كنيسة القديس فيتال براهينا	(١٤٤)
٢٣٨	براهينا	

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
	السيد المسيح ، فسيفساء شرقية كنيسة القديس فيتال	(١٤٥)
٣٥٩	برافينا	
	إثنان من الأنهار الجدولة ، تفصيلية من فسيفساء شرقية	(١٤٦)
٣٥٩	كنيسة القديس فيتال برافينا	
	العذراء تحمل المسيح طفلاً ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة	(١٤٧)
٣٦٠	العذراء بنيقيه	
	العذراء تحمل المسيح طفلاً ، تفصيلية من فسيفساء شرقية	(١٤٨)
٣٦٠	كنيسة تورشيللو	
	الملائكة المجنحون ، تفصيلية من فسيفساء قبة الكنيسة	(١٤٩)
٣٦١	الأسقفية برافينا	
	العذراء تحمل المسيح طفلاً ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة	(١٥٠)
٣٦١	القديس أبو لئثار الجديدة برافينا	
	كبير الملائكة ، جبريل ، ، تفصيلية من فسيفساء آياصوفيا	(١٥١)
٣٦٢	بالقسطنطينية	
	الملاك ، رافائيل ، يحمل صولجاناً ، تفصيلية من فسيفساء	(١٥٢)
٣٦٣	كنيسة (فيتى كامى) القسطنطينية	
	النبى موسى يتسلم الوصايا العشر ، تفصيلية من فسيفساء	(١٥٣)
٣٦٣	دير القديسة (كاترين) بسينا	
	القديس فيتال ، تفصيلية من فسيفساء شرقية كنيسة	(١٥٤)
٣٦٤	القديس فيتال برافينا	
	القديس جورج ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة المخلص	(١٥٥)
٣٦٤	بالقسطنطينية	
	السيد المسيح يتوسط القديس يوحنا والعذراء فى لوحة	(١٥٦)
٣٦٥	الضراعة ، فسيفساء كنيسة آياصوفيا بالقسطنطينية	
٣٦٥	جندى رومانى ، فسيفساء كنيسة نيامون بخيوس	(١٥٧)
	تجسيد نهر الأردن ، تفصيلية من فسيفساء قبة العمودية	(١٥٨)
٣٦٦	الأريانيه برافينا	
٣٦٦	وفاة العذراء ، فسيفساء كنيسة مارتوراننا بباليرمو	(١٥٩)
	السيد المسيح يحطم أبواب الجحيم ، فسيفساء دير دافنى ،	(١٦٠)
٣٦٧	أتيكا	
٣٦٧	عبادة المجوس ، فسيفساء دير دافنى ، أتيكا	(١٦١)

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
٣٦٨	الإغواء والطرود ، فسيفساء كنيسة بلاتينا بباليرمو .....	(١٦٢)
	موضوعات الخلق ، فسيفساء قبة كنيسة القديس مرقس	(١٦٣)
٣٦٨	بثيسيا .....	
	مشهد من حياة السيد المسيح ، فسيفساء كنيسة المخلص	(١٦٤)
٣٦٩	بالقسطنطينية .....	
	وجه احد القادة القوطيين ، تفصيلية من فسيفساء القصر العظيم	(١٦٥)
٣٦٩	القدس بالقسطنطينية .....	
	وجه السيدة جوانينا ، تفصيلية من فسيفساء الإمبراطورة	(١٦٦)
٣٧٠	تيودورا .....	
	صورة شخصية للإمبراطور إلكسيوس ، فسيفساء كنيسة آيا	(١٦٧)
٣٧٠	صوفيا بالقسطنطينية .....	
	صورة نصفية للسيد المسيح شاباً ، فسيفساء الكنيسة	(١٦٨)
٣٧١	الأسقفية براهينا .....	
	السيد المسيح ملتجئاً ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة	(١٦٩)
٣٧١	القديس أبولينار الجديد براهينا .....	
	النبي صمويل ، فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة	(١٧٠)
٣٧٢	صورة نصفية للعنقاء والطفل ، فسيفساء اللوحات الصغيرة	(١٧١)
٣٧٢	المحمولة ، اليونان .....	
	صورة نصفية للقديس نيكولاس ، فسيفساء اللوحات	(١٧٢)
٣٧٢	الصغيرة المحمولة .....	
	صورة نصفية للقديس جون كريستوم ، فسيفساء اللوحات	(١٧٣)
٣٧٢	الصغيرة المحمولة .....	
	الدخول إلى القدس ، فسيفساء دير دافنى ، أتيكا .....	(١٧٤)
٣٧٤	القديس آرون والقديس ستيفن ، فسيفساء دير دافنى أتيكا	(١٧٥)
٣٧٤	صور نصفية داخل الميداليات ، فسيفساء قبة كنيسة هوزيوس	(١٧٦)
٣٧٥	لوكاس ، أثينا .....	
	السيد المسيح داخل ميدالية دائرية ، فسيفساء قبة كنيسة	(١٧٧)
٣٧٥	هوزيوس لوكاس ، أثينا .....	
٣٧٦	السيد المسيح والعنقاء والأمير إسحق ، فسيفساء كنيسة	(١٧٨)
	المخلص .....	
٣٧٦	الشهداء الأربعون ، فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة	(١٧٩)

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
٣٧٧	غسيل الأقدام ، فسيفساء كنيسة هوزيوس لوكاس .....	(١٨٠)
٣٧٧	مشاهد من حياة السيد المسيح ، فسيفساء كنيسة المخلص	(١٨١)
٣٧٨	العذراء والطفل ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة آياصوفيا	(١٨٢)
٣٧٨	العذراء والطفل ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة المخلص	(١٨٣)
٣٧٩	ميلاد السيد المسيح ، فسيفساء دير داقتى .....	(١٨٤)
٣٧٩	تفصيلية من فسيفساء إسحق ، كنيسة مونريال .....	(١٨٥)
	رقصة سالومي ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة القديس	(١٨٦)
٣٨٠	مرقص .....	
٣٨٠	السيد المسيح يشفى المرضى ، فسيفساء كنيسة المخلص .....	(١٨٧)
	وجه آدمى ، تفصيلية من فسيفساء القصر المقدس	(١٨٨)
٣٨١	بالقسطنطينية .....	
	وجه الحوارى اندرو ، تفصيلية من فسيفساء الكنيسة	(١٨٩)
٣٨١	الأسقفية .....	
	وجه أحد القديسين ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة القديس	(١٩٠)
٣٨٢	جورج .....	
٣٨٢	صورة تصفية للحوارى بولس ، فسيفساء الكنيسة الأسقفية ..	(١٩١)
	تفصيلية من فسيفساء السيد المسيح والإنجيليين الأربعة ،	(١٩٢)
٣٨٣	كنيسة القديس ديقيد .....	
	طيور وزخارف هندسية ، تفصيلية من فسيفساء كنيسة	(١٩٣)
٣٨٣	القديس جورج .....	
٣٨٤	موضوع التجلى ، فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة .....	(١٩٤)
٣٨٤	موضوع الصلب ، فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة .....	(١٩٥)
٣٨٥	فسيفساء صحن كنيسة القديس مرقص بـثينيسيا .....	(١٩٦)
٣٨٥	فسيفساء قوس النصر ، كنيسة جروتا فيراتا بروما ، فسيفساء	(١٩٧)
٣٨٦	الدخول إلى القدس ، كنيسة القديس مرقص .....	(١٩٨)
٣٨٦	فسيفساء العشاء الأخير بكنيسة القديس مرقص .....	(١٩٩)
٣٨٧	فسيفساء الحساب الأخير بكاتدرائية تورشيللو .....	(٢٠٠)
	الحجيم ، تفصيلية من فسيفساء الحساب الأخير بكاتدرائية	(٢٠٠)
٣٨٧	تورشيللو .....	
٣٨٨	العذراء تحمل المسيح طفلاً ، فسيفساء كاتدرائية تورشيللو .....	(٢٠١)
٣٨٨	السيد المسيح ، فسيفساء كنيسة سيفالو .....	(٢٠٢)

فـ

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
٣٨٩	فسيفساء كاتدرائية مونريال بصقلية .....	( ٢٠٣ )
	السيح المسيح ، تفصيلية ، من فسيفساء كاتدرائية	(٢٠٣-١)
٣٨٩	..... مونريال	
٣٩٠	وجوه القديسين ، تفصيلية من فسيفساء كاتدرائية مونريال	(٢٠٤)
٣٩٠	فسيفساء قبة كنيسة مارتورانا بصقلية .....	(٢٠٥)
٣٩١	السيد المسيح ، تفصيلية من فسيفساء قبة كنيسة بلاطينا	(٢٠٦)
٣٩١	تتويج الملك روجر الثاني ، فسيفساء كنيسة مارتورانا .....	(٢٠٧)
	موضوعات الإحتفالات الدينية ، فسيفساء كنيسة بلاطينا ،	(٢٠٨)
٣٩٢	..... صقلية	
٣٩٢	زخارف نباتية وحيوانية ، فسيفساء حجرة القصر الملكي	(٢٠٩)
٣٩٣	زخارف هندسية ونباتية ، فسيفساء قبة الصخرة	(٢١٠)
٣٩٣	..... زخارف كتابية ، فسيفساء قبة الصخرة .....	(٢١١)
٣٩٤	..... زخارف نباتية ، فسيفساء قبة الصخرة .....	(٢١٢)
٣٩٤	اشكال العمائر والأشجار ، فسيفساء صحن الجامع الأموى	(٢١٣)
٣٩٥	منظر طبيعي ، تفصيلية من فسيفساء الجامع الأموى	(٢١٤)
	شجرة مثمرة على أرضية ذهبية ، فسيفساء كوشة أحد	(٢١٥)
٣٩٥	..... الأعمدة بالجامع الأموى .....	
٣٩٦	..... فسيفساء جسم الخزانة بصحن الجامع الأموى .....	(٢١٦)
	شجرة تتوسط الحيوانات ، أرضية فسيفساء وقصر هشام	(٢١٧)
٣٩٦	..... بخربة المفجر .....	
٣٩٧	..... موضوع التجلى ، فسيفساء دير القديسة كاترين بسينا	(٢١٨)
٣٩٧	..... موضوع الميلاد ، تصوير جدارى بكاتدرائية فرس .....	(٢١٩)
٣٩٨	..... رسوم قبة مقبرة السلام بمنطقة البجوات .....	(٢٢٠)
٣٩٨	..... السيد المسيح والعنزة ، تصوير جدارى بكنيسة باويط	(٢٢١)
٣٩٩	..... مجموعة من القديسين ، تصوير جدارى بدير القديس أرميا	(٢٢٢)
٤٠٠	..... تصميم لوحة عباد الشمس (٢٢٣-ب) تنفيذ لوردة عباد الشمس .....	(٢٢٣)
٤٠١	..... تصميم لوحة أوراق الشجر ، ألوان الباستيل الشمعية .....	(٢٢٤)
٤٠١	..... تنفيذ لوحة أوراق الشجر ، فسيفساء .....	(٢٢٤ب)
٤٠٢	..... تصميم لوحة « قيود ، ألوان الباستيل ( الطباشيرية )	(٢٢٥)
٤٠٢	..... تنفيذ لوحة « قيود ، ، فسيفساء .....	(٢٢٥ب)

-ص-

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الشكل
٤٠٢	تصميم لوحة « الربيع والخريف ، ألوان الباستيل (الشمعية) »	(١٢٢٦)
٤٠٣	تنفيذ لوحة « الربيع والخريف ، فسيفساء .....	(٢٢٦ ب)
٤٠٤	تصميم لوحة « غروب ، ألوان الباستيل الشمعية .....	(١٢٢٧)
٤٠٤	تنفيذ لوحة « غروب ، فسيفساء .....	(٢٢٧ ب)
٤٠٥	لوحة « وجه من مصر » - (٤٨ - ب) تنفيذ لوردة ريم من مصر « فسيفساء .....	(٢٢٨ ب)
٤٠٦	تصميم لوحة « فتاة وزهور ، ألوان الباستيل الشمعية .....	(١٢٢٩)
٤٠٦	تنفيذ لوحة « فتاة وزهور ، فسيفساء .....	(٢٢٩ ب)
	صورة شخصية للباحثة ، ألوان الباستيل الشمعية والألوان	(١٢٣٠)
٤٠٧	الأكريلية .....	
٤٠٧	تنفيذ الصورة الشخصية ، فسيفساء .....	(٢٣٠ ب)







# مقدمة البحث



## ● مقدمة :

ترجع أهمية الفن البيزنطي الذي ظهر في بداية القرن الرابع الميلادي واستمر قرونًا طويلة حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي إلى تطور وازدهار فن الفسيفساء الذي أصبح من السمات المميزة للفن البيزنطي مما جعله يحتل هذه المكانة الرفيعة بين الفنون المختلفة منذ العصور القديمة وحتى عصرنا الحديث .

وقد نسب الفن البيزنطي إلى الإسم الأصلي لعاصمة الإمبراطورية البيزنطية (بيزنطة) وليس القسطنطينية التي أصبحت بعد ذلك الإسم المتداول بدلاً من بيزنطة التي تعتبر المركز الرئيسي ونقطة إنطلاق هذا الفن ، وكان من الطبيعي أن تكون هناك بعض المدن التي احتوت هذا الفن وأصبحت مركزاً هاماً له بجانب بيزنطة (القسطنطينية) وذلك نتيجة لإتساع رقعة املاك الإمبراطورية البيزنطية المنتشرة شرقاً وغرباً في العالم الآسيوي والعالم الأوروبي ، وأهم هذه المدن مدينتي سالونيك ورايينا التي أصبح لكل منهما شأنًا خاصاً حيث ضمت العديد من الآثار الفنية ذات الطابع البيزنطي .

وقد نشأ الفن البيزنطي مرتبطاً بالديانة المسيحية الجديدة التي أصبحت في القرن الرابع الميلادي الديانة الرسمية للإمبراطورية ، وذلك بعد إنتقام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين ، قسم شرقي وآخر غربي ، وأصبحت العاصمة الشرقية هي بيزنطة ، والغربية هي رايينا بدلاً من روما .

ويرجع ارتباط هذا الفن بالديانة المسيحية إلى سيطرة هذه العقيدة الجديدة بشكل ملحوظ وذلك بعد إعتناق الإمبراطور قسطنطين لها ، ومن ثم أصبح لرجال الدين والبطاركة السيطرة الكاملة على الأعمال الفنية التي إتسمت بالطابع الديني القوي ، وبذلك تعتبر المسيحية أحد العوامل الهامة والأساسية التي أدت إلى خلق الفن البيزنطي بشكل عام ، والفسيفساء البيزنطية بشكل خاص ، حيث أنها قد شكلت وأثرت في تكوين هذه الفسيفساء ووضعت لها حدوداً معينة لا يمكن تجاوزها ، والتي كان لها دوراً كبيراً في التحكم في تطورها ، لذا فقد اعتمد شكل الفن على طبيعة العقيدة التي يخدمها ، واقتصر تصوير اللوحات الفنية على الموضوعات الدينية التي كانت لها السيادة في أعمال الفسيفساء البيزنطية ، هذا إلى جانب نوع آخر من الموضوعات ألا وهو الموضوعات الدنيوية ، والتي كانت تتغذى عادة في أرضيات القصور واشتملت على صور لمواقف الحياة اليومية ومشاهد الصيد بما تضمنتها من طيور وحيوانات ، والتي إستمدت أصولها من بعض موضوعات الفسيفساء الرومانية القديمة .

(\*) مدينة إيطالية تقع على الساحل الشرقي لإيطاليا، أصبحت العاصمة الغربية للإمبراطورية البيزنطية بدلاً من

وقد كان هناك بعض الفنون التي سبقت ظهور الفن البيزنطى مثل الفن الساسانى والفن الهيلينىستى والفن المسيحى المبكر ، وكان لكل فن من هذه الفنون على حده دور كبير فى تكوين الملامح المميزة للفن البيزنطى الجديد ، حيث ترك الفن الساسانى أثراً واضحاً أضفت على الفن البيزنطى بعض العناصر الزخرفية مثل الرؤوس الأدمية وصور الحيوانات المتقابلة والمتدايرة .

أما الفن الهيلينىستى فقد كان له دوراً كبيراً فى إدخال الواقعية فى أعمال الفسيفساء البيزنطية، وإضفاء الحيوية على هذه الأعمال التى إتصفّت بالجمود والجفاف.

وقد تجلت هذه الواقعية فى إهتمام الفنانين البيزنطيين بتسجيل الملامح الطبيعية لصور الشخصية والمبالغة فى رسم ثنايا الملابس ذات النقوش والتفاصيل الدقيقة ، وبالرغم من إبتعاد هؤلاء الفنانين عن التجسيد الطبيعى لصور الأشخاص والحيوانات ، وغلبة التسطيح على أعمال الفسيفساء ، إلا أن تأثيرات الفن الهيلينىستى برزت بوضوح فى مراعاة الفنانين إستخدام الضوء والظل ودرجات الفاتح والقاتم .

كما أخذ فن الفسيفساء البيزنطى عن كل من الفنانين الساسانى والهيلينىستى أسلوب تجميل الأرضيات الذى إنتشر بشكل واضح فى بعض القصور والمنازل . وقد إنتقل هذا الأسلوب إلى كنائس العصر البيزنطى ، وكانت تصميمات الأرضيات تحتوى فى البداية على صور للحيوانات والكائنات البحرية كما فى كاتدرائية إكلييا ، ويمرور الوقت إختفت صور الكائنات الحية وحلت محلها الأشكال الهندسية المجردة فى أرضيات الكنائس البيزنطية ، وذلك يرجع أيضاً إلى تأثير الديانة المسيحية ، التى تشدد معتنقيها ومؤيديها فى عدم تصوير هذه الكائنات مما دعى الرهبان والقساوسة إلى تحريم تصويرها فى الأرضيات .

وأخر الفنون التى أثمرت فى فن الفسيفساء البيزنطية ، هى الفنون المسيحية المبكرة ، وهى الفنون السابقة له مباشرة والممهدة له ، حيث يصعب تحديد الفترة الزمنية الفاصلة بين نهاية الفن المسيحى المبكر وبداية الفن البيزنطى ، ولقد أجمعت المراجع التاريخية على أن القرن الثالث الميلادى هو بداية هذه الحقبة الفنية التى إستمرت حتى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، وأهم السمات التى تميزت بها هذه الفنون المسيحية والتى يمكن الإشارة إليها هى صفة الرمزية التى سادت أعمال الفسيفساء فى تلك الفترة والتى تلازمت تلازماً واضحاً مع سمو العقيدة وروحانيتها ، فنجد أن الفنانين قد إعتدوا عليها فى تصوير موضوعات الكتاب المقدس والقصص التى تهوّن حياة السيد المسيح والنعناء ، لذلك نلاحظ إبتعاد الفنانين فى ذلك الوقت عن تجسيد الطبيعة وتسجيل

تفاصيلها الدقيقة ، وينحصر تأثير الفنون المسيحية في الفسيفساء البيزنطية في ظهور هذه الموضوعات الرمزية داخل الكنائس وتصوير السيد المسيح في شكل مهيب يقرب على ملامحه السمو والعظمة ، كما إنتشر تصوير الشخصيات الدينية المختلفة وذلك من خلال موضوعات السرد القصصى لحياة القديسين والشهداء ، وأوضح الأمثلة التي تؤكد إنتقال هذه التأثيرات المسيحية في الفسيفساء البيزنطية وخاصة في مراحلها الأولى ، الفسيفساء المنفذة داخل كنيسة القديسة ماريا ماجورى بروما .

ويمكن إعتبار القرن السادس الميلادى هو بداية فن الفسيفساء البيزنطى ، وهذه الفترة عاصرت بناء الكنائس الجديدة التى أمر الإمبراطور جستنيان ، بتشيدها بأجود الخامات ، وتزيينها بأروع لوحات الفسيفساء والتي تتناسب مع قدسية العقيدة ومكانتها .

وقد إنتشر بناء هذه الكنائس الفاخرة في جميع أنحاء الإمبراطورية البيزنطية ويجب الإشارة إلى أن هذه العمائر الدينية تعد ثلثى العوامل الأساسية . التى تلت الديانة المسيحية - التى شاركت بدور فعال في إثراء هذه الفسيفساء وتطورها ، حيث وفرت هذه العمائر الدينية مساحات هائلة من الجدران الداخلية في الكنائس فضلاً عن القباب والقبوات الداخلية ، والتي إختلفت أعدادها وإرتفاعاتها من كنيسة إلى أخرى حسب الطراز المعماري المنفذة تبعاً له . فقد ظهرت في ذلك أربع طرز معمارية يختلف كل منها عن الآخر في التصميم والبناء الداخلى والخارجى أيضاً ، حيث يوجد أولاً الطراز البازيليكى الذى إستمد أصوله من العمارة الرومانية القديمة المخصصة للمحاكم والأبنية العامة ، وقد قام المهندسون ( خلال العهد البيزنطى ) بإضفاء بعض التعديلات التى تتناسب مع طقوس العقيدة المسيحية الجديدة فى ذلك الوقت ، ومثال ذلك كنيسة القديس أبولينار الجديدة برافينا .

وثانياً : الطراز المركزى المقيب وهذا النوع مخصص لأداء الطقوس الدينية وخاصة طقوس التعميد ، وهو يعتمد فى بنائه على التخطيط الدائرى أو المثلث أو المربع والمعطى فى كل الحالات بقبة تعلو المركز مباشرة ، وأوضح الأمثلة على ذلك كنيسة القديس سرجيوس وياكوس بالقسطنطينية .

وهناك أيضاً الكنيسة ذات العقد المتقاطع أو المتصالب ، وهى تتبع النوع الثالث من التخطيطات المعمارية ، وهو التخطيط الصليبي الذى يعتمد على شكل الصليب الإغريقى المتساوى الأضلاع ، ومغطى بقبة أعلى نقطة تقاطع الأضلاع الأربعة للصليب ، مثل كنيسة الرسل المقدسين بالقسطنطينية .

والتخطيط الرابع والأخير ، هو الطراز المتعدد القباب وهو يجمع بين الطراز (البازيليكى ) الكاتدرائى والطراز الصليبي والذي يغطيه خمسة قباب علوية أكبرها القبة المركزية ( التى تغطى نقطة تقاطع الأضلاع الأربعة ) ، ونموذجه فى العمارة البيزنطية كنيسة القديس يوحنا المعمدان ذات التخطيط البازيليكى المغطى بست قباب متجاورة ، وكنيسة القديس مرقص بقينسيا التى تغطيها خمسة قباب .

ومن خلال الدراسة التالية سوف نلاحظ أن أعمال الفسيفساء قد إنقسمت إلى شقين ، وذلك حسب نوعية الموضوعات المنفذة ، سواء كان داخل هذه الكنائس السابقة أو داخل القصور والمباني الفاخرة . فقد ظهرت الموضوعات الدنيوية فى الأبنية والقصور الفخمة التى شيدها الأباطرة لأنفسهم ، وأشهر هذه القصور وأروعها ، والتى لايزال بعض آثارها موجودة حتى الآن ، وهو القصر العظيم المقدس بالقسطنطينية الذى تضمن العديد من مشاهد الحياة اليومية ، وما احتوت عليه من أشكال الكائنات الحية ، بالإضافة إلى النباتات الصغيرة والأشجار المتعددة الأشكال والأحجام ، ويرجع تاريخ هذه الأعمال إلى ما بين القرنين السادس والسابع الميلاديين .

أما الكنائس فقد إمتلأت بالموضوعات الدينية التى غطت أغلب الجدران الراسية والقباب الصغيرة والكبيرة ، واختلفت أيضاً صور هذه الموضوعات ( الإحتفالات الدينية ) حسب المساحات الداخلية للكنائس .

وكان من الطبيعى أن تتبع خامة الفسيفساء نفسها وأسلوب تنفيذها هذا التنوع فى الموضوعات السابقة .

فعلى سبيل المثال فقد إستخدمت فى فسيفساء القصر المقدس القطع الحجرية والأحجار الطبيعية الصلبة كالرخام فى فسيفساء الأرضيات ، أما فى الكنائس فكان يستعان بالزلف الملون بالإضافة إلى الواح الرخام الصلبة ، أما على الجدران فقد إستخدمت قطع الزجاج الصغيرة الملونة والتى لا يمكن إستخدامها فى الأرضيات لسهولة تفتيتها بجانب بعض الأحجار الكريمة كاللؤلؤ والياقوت الذى نفذت به الجواهر والحلى الخاصة بالأباطرة وزوجاتهم .

وقد تميزت فسيفساء الموضوعات الدنيوية بالواقعية فبعدت عن الجمود والصرامة التى إتسمت به الموضوعات الدينية ، ولكن معظم هذه الأعمال لم يعد لها اثر الآن نتيجة لما تعرضت له هذه القصور من التهدم والحرائق ، ولكن مع بداية القرن الثانى عشر الميلادى ظهرت ثمة موضوعات دنيوية فى بعض الكنائس البيزنطية عرفت بموضوعات

التصوير الإمبراطورية ، وهى التى كانت تجمع بين السيد المسيح أو العذراء وبين أحد الأباطرة أو الحكام البيزنطيين وإستمرت حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى .

وينبغى أن يتم الإشارة فى هذه الدراسة إلى حركة محطى الصور فى القرن الثامن الميلادى التى يرجع إليها أكبر الأثر فى تكوين أسلوب الفن البيزنطى وبلورته ، فقد كانت هذه الحركة سبباً فى تغير الإتجاهات الفنية الجديدة التى ظهرت فى فن التصوير البيزنطى حيث رفضت تصوير الكائنات الحية وصور القديسين بشكل عام ، وقد كان هناك الإتجاه الكلاسيكى الذى إتجه نحو الفنون القديمة وإستلهم منها أفكاره ، والذى تجلت معالمه فى الفسيفساء البيزنطية فى تصوير المناظر الطبيعية والعمائر وإستخدام الظلال والتدرج اللونى ، فضلاً عن تصوير العنصر الأدمى الذى أصبحت له المكانة الأولى فى الفسيفساء الدينية والدنيوية . كما أصبح الوسيلة الوحيدة لديهم فى التعبير عن السمو الروحانى . ثم بدأت العناصر الكلاسيكية فى الإضمحلال شيئاً فشيئاً وحلت محلها الزخارف المجردة التى تميزت بها الفسيفساء البيزنطية وذلك فى القرن الحادى عشر الميلادى .

وقد إختلف تأثير حركة محطى الصور وظهور هذه الإتجاهات الفنية بإختلاف المكان أيضاً ، فكانت ذات تأثير أقوى فى الأقاليم الشرقية ( القسطنطينية على سبيل المثال ) ، حيث المفهوم الدينى وتكر العقيدة للجسد والحواس وغلبة الرمزية على الأعمال الدينية ، أما فى الغرب فقد سيطرت الكلاسيكية بشكل أوضح وخاصة فى العاصمة الغربية رافينا .

وتعتبر الفترة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلادى هى الفترة التى إزدهر فيها فن الفسيفساء البيزنطى وتعرف بالعصر الذهبى الثانى للفسيفساء البيزنطية ، حيث إنفردت فيها بشخصية واضحة ميزتها عن غيرها من الفنون الأخرى فقد إكتسب فن الفسيفساء فى تلك الفترة سمات متميزة أهمها الجمود والصلابة التى غلبت على تصوير الشكل الأدمى .

وساعدت طبيعة خامة الفسيفساء نفسها على تحقيق هذه الصفات لما تتمتع به من أشكال هندسية صغيرة مكعبة الشكل ، مما جعل هذه العناصر المنفذة تتخذ أشكالاً محورة ومجردة ، وبالإضافة إلى ذلك فقد إسمت الفسيفساء البيزنطية بعدم الإهتمام بتسجيل البعد الثالث والبعد عن نجسيم العناصر وعدم مراعاة النسب التشريحية ، وخلق الوجوه المصورة من التعبيرات وسيطرة الطابع التجريدى الزخرفى .

وأهم ما يميز الفسيفساء البيزنطية هي صفة الثراء اللوني ، حيث اعتمد الفنانون على إستخدام العديد من الدرجات اللونية الساخنة والباردة ، وظهرت براعتهم الفائقة في كيفية الدمج بين هذه الدرجات المتباينة ، فضلاً عن الدور الذي قام به اللون الذهبي في زيادة إثراء هذه اللوحات ، فقد أضفى عليها بريقاً ولعناً مميّزاً ، مما جعل الفسيفساء البيزنطية تحتل مكانة خاصة بين غيرها من الفنون .

ولقد استلزم تنفيذ لوحات الفسيفساء داخل الكنائس أو اللوحات المحمولة إتباع أسلوب معين في ترصيص مكعباتها ، حيث إتخذت هذه المكعبات أحجاماً متناسبه ، وضعت بجوار بعضها البعض موازية للخطوط الداخلية للعنصر الواحد ، أما في الخلفية فكانت توضع موازية للعنصر المرسوم من الخارج ، ثم توضع إما في خطوط رأسية أو أفقية .

وكان نتيجة لإزدهار الفسيفساء البيزنطية بهذه الصورة أن إنتقلت أساليب وموضوعات هذه الفسيفساء وطرق تنفيذها ومعالجتها إلى العديد من الأقاليم الشرقية والغربية خارج الإمبراطورية البيزنطية ، وتباينت هذه التأثيرات حسب قرب الأقاليم أو بعدها عن الإمبراطورية . وبدأ إنتشار هذه التأثيرات منذ القرون الأولى في العصر البيزنطي في الدول العربية مثل ، مصر وفلسطين ، خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين ، حيث وجدت عمائر كنسية منفذة وفقاً للطرز البيزنطية المختلفة ، واحتوت بداخلها على العديد من لوحات الفسيفساء والتي تحمل موضوعات تشبه إلى حد كبير لوحات الكنائس البيزنطية.

أما التأثيرات الغربية فتظهر في روسيا وصقلية وبنيسيا في أواخر العصر البيزنطي ، وذلك كان نتيجة لجلب المهندسين والفنانين من القسطنطينية ، وظهرت بوضوح في كنائس كل من كييف بروسيا ، ومارتورا نا ومونريال وكنيسة بلاتينا وسيفالو بصقلية ، وأخيراً كنيسة القديس مرقس ببنيسيا ، وجميع هذه الكنائس تحمل نفس موضوعات الإحتفالات الدينية التي ظهرت في كنائس القسطنطينية ، وحملت في داخلها نفس الأساليب الفنية المتبعة في المعالجات التشكيلية والتقنية .

وسيتناول البحث دراسة تأثير الأسلوب الفني الذي إتبع في الفسيفساء البيزنطية في كل من الفن القبطي والإسلامي ، حيث ظهرت الموضوعات الدينية وأسلوب تنفيذها في الفن القبطي ، وإن اختلفت الخامات التصويرية التنفيذية ، وإقتباس بعض العناصر الطبيعية والحيوانية المحورة وإستخدام أهم ما يميز الفسيفساء البيزنطية وهو اللون الذهبي في الفن الإسلامي ، الذي إشتراك مع الفن البيزنطي في طابعه الزخرفي



المجرد . ومثال هذه الفسيفساء الإسلامية توجد في مبنى قبة الصخرة والمسجد الأموي بدمشق .

تتلخص أهمية موضوع هذه الدراسة في إلقاء الضوء على نوع من التصوير الجداري وهو التصوير بالفسيفساء والذي ينتمي إلى فترة زمنية معينة ، وهي فترة الفن البيزنطي . كما يتعرض البحث لدراسة أسباب ازدهار هذا الفن وتطوره في الفترة التي تنحصر بين القرنين الرابع الميلادي وحتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، والتعرف على علاقته بالفنون الأخرى من حيث تأثيره بها وتأثيره فيها .

كما ترجع أهميته أيضاً إلى تناول أسلوب المعالجات الفنية لخامة الفسيفساء وتتبعها منذ البداية ، وحتى عصر ازدهارها المعروف في تاريخ الفن البيزنطي ، والتركيز على بعض العناصر التشكيلية والتقنيات الجمالية الهامة التي ساهمت بدور كبير في تمييز هذا الفن . وتفرد ، وأهم هذه العناصر التي تم الإشارة إليها في هذا البحث عنصرى الحركة واللون .

وبالرغم من بلوغ فن الفسيفساء البيزنطي هذه المكانة الرفيعة بين الفنون المختلفة إلا أنه لم يحظ بالدراسة الكافية أو التعرف على قيمه التشكيلية أو تقنياته الجمالية المتعددة ، وذلك خلاصة للمراجع العربية بالدرجة الكافية التي تتلاءم مع شراء هذا الفن وقوته ، واقتصرت إلى حد كبير على سرد الأحداث التفصيلية للتاريخ البيزنطي فقط ، والتي تتعرض له منذ بداية تكوين الإمبراطورية وحتى سقوطها .

كما لم تتعرض له الدراسات والرسائل العلمية سواء الخاصة بالماجستير أو الدكتوراه ، وبذلك لم تتوفر المادة العلمية الكافية التي تختص بدراسة النواحي الفنية والتقنية الخاصة بموضوع البحث ، وهو ما سيتم تناوله وعرضه بالتفصيل في هذه الرسالة .

وفي نهاية هذه الدراسة ستقوم الباحثة باستخلاص بعض القيم الجمالية للفسيفساء البيزنطية والإستعانة بالأسلوب التنفيذي التقني في إجراء بعض التجارب الفنية ، والتي تحاول من خلالها الوصول إلى قيم تشكيلية معاصرة عن طريق الدمج بين هذه الأساليب التقنية القديمة ، وبين ما هو متبع الآن من قيم تشكيلية مميزة مع مراعاة تحقيق التنوع في خامات الفسيفساء وأحجامها المختلفة .





## الباب الأول

### الفنون المؤثرة فى نشأة التصوير البيزنطى

- الفصل الأول : الفن الساسانى وعناصره الزخرفية .
- الفصل الثانى : العصر الهيلينستى ومحاكاة الطبيعة .
- الفصل الثالث : الفنون المسيحية المبكرة والموضوعات الدينية الرمزية .



## الفصل الأول

### الفن الساساني وعناصره الزخرفية

- الدولة الساسانية، (نبذة تاريخية).
- الفن الساساني.
- تأثير الفن الساساني وتأثيره في الفنون الأخرى.
- موضوعات الفن الساساني.
- الفسيفساء في الفن الساساني.
- التأثيرات الساسانية في الفسيفساء البيزنطية.



## الفصل الأول

### الفن الساساني وعناصره الزخرفية

#### ● الدولة الساسانية: (نبذة تاريخية)

تأسست الدولة الساسانية في إيران على يد « أردشير الساساني » ، نسبة إلى الجد الأكبر « ساسان » ( ٢٢٦ م - ٢٤١ م ) في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي ، وقد أصبحت مدينة طيسفون عاصمة الدولة الساسانية . وكانت العاصمة السابقة في الدولة الفرثية تعرف بالمدائن ، وقد شجع الملك « أردشير » ، على إقامة هذه الدولة كثرة الحروب والمناوشات بين الإمبراطورية الرومانية والدولة الفرثية التي حكمت إيران قبل الدولة الساسانية ، حيث كانت تطمح الإمبراطورية الرومانية في توسيع رقعتها بضم العراق وإيران تحت سيطرتها ، بالإضافة إلى ضعف الولاة وكثرة الفتن الداخلية والتفكك الذي أصاب الدولة الفرثية نتيجة تنازع الأمراء الإقطاعيين وتمردهم ، وكانوا وقتذاك مسيحيين على الجيوش في الدولة ؛ مما أدى إلى ضعف الجيوش وسوء التنظيم في صفوفها ، حتى أنها أصبحت غير مؤهلة للدخول في المعارك الحربية ، فأصبح السبيل بذلك مهبطاً أمام الملك للثورة على « أرتبان الخامس » ، آخر الملوك الفرثيين والقضاء عليه عام ٢٢٦ م .

وكانت هذه بدايات تأسيس الدولة الساسانية التي استمرت في حكم إيران حوالي أربعة قرون ، تولى في نهايتها حكام ضعاف تسببوا في اضطراب الأحوال السياسية وشيوع الفتن والحروب الداخلية، إلى جانب الأزمات المالية .

ولقد تخللت فترة الحكم الساساني منازعات كثيرة حارب خلالها الساسانيون الرومان وانتصروا عليهم في الشام عام ٢٦٠ م في عهد « أردشير » ، واستمرت في عهد ابنه « شابور الأول » ، الذي استطاع في فترة حكمه للساسانيين أن يصل بالفن الإيراني إلى أوج عظيمته وازدهاره ، حيث أن " تأثير حكمه الطويل ( ٢٤١ - ٢٧٢ م ) على الفن الساساني كان عميقاً ودالماً ، كما أن الفنون التشكيلية قد شهدت العديد من التطورات منذ عهد « أردشير الأول » ، وأصبحت أكثر تهديباً وإتقاناً " (١).

ولقد عاصرت الدولة الساسانية بداية ظهور المسيحية وتكوين الامبراطورية البيزنطية وقامت بين الدولتين حروب استمرت عدة سنوات ، مثل ما دار من حروب بين الملك « شا بيور الثاني » ، والإمبراطور « قسطنطين » ، في وقت إعلان المسيحية ديناً رسمياً للدولة البيزنطية .

(1) René Hugghe, (General Editor) Art and Mankind Larousse Encyclopedia of Byzantine and Medieval Art Prometheus Press, New York, 1963 P.57

وقد تجددت تلك الحروب مرة أخرى في عهد الملك الساساني « كسرى الأول » ،  
 ( ٥٣١ - ٥٧٩ م ) الذي فتح أنطاكية وجددت في عهده مدينة « طيسفون » العاصمة ، وفي  
 عهد « كسرى الثاني » ( ٥٩٠ - ٦٢٨ م ) تم محاصرة القسطنطينية مركز الإمبراطورية  
 البيزنطية وعاصمتها الشرقية بعدما فتح مصر واستولى على جزء من آسيا الصغرى ، ولم  
 يصمد هذا الملك طويلاً أمام حروب بيزنطة له ، حيث قتل على يد الملك البيزنطي « هرقل » ،  
 وتم بذلك طرد الجيش الساساني من ممتلكاته في مصر وآسيا الصغرى ومحاصرة  
 العاصمة الساسانية « طيسفون » .

أما آخر الملوك الساسانيين وهو الملك « يزيدجر » ( ٦٣٢ - ٦٥١ م ) فإنه لم يستطع  
 صد هجمات الجيوش العربية التي استولت على العاصمة طيسفون وسوريا والعراق ،  
 وبذلك تمكنت هذه الجيوش من هزيمة الساسانيين في موقعة نهاوند عام ٦٥١ م - التي قتل  
 فيها الملك « يزيدجر » - . وبعدها خضعت إيران للحكم الإسلامي .

## ● الفن الساساني :

الفن الساساني هو الفن الذي ظهر في إيران وارتبط بظروف الدولة الساسانية  
 الاجتماعية والسياسية ، وتأثر بأحوالها الاقتصادية ، حيث أن مظاهر الثراء والرفاهية في  
 الحياة العامة للبلاد قد انتقلت أيضاً إلى الفنون التي ظهرت في تلك الفترة من حيث  
 الموضوعات أو إلتقاء الخامات المللثة للتنفيذ .

وقد كان الشعب الساساني محباً للفنون ومتذوقاً لها ويميل بطبعه إلى الزخرفة  
 وإنتاج العديد من التحف الفنية الدقيقة ، وقد امتدت هذه الفنون الزخرفية إلى كل ما  
 يستخدمه الإيراني في حياته العامة ، مثل : الأواني والأباريق والأطباق المعدنية  
 والزجاجية ، بالإضافة إلى الأقمشة الحريرية والسجاجيد الإيرانية .

وقد أصبحت إيران من خلال الفن الساساني مركزاً لإشعاع " الفنون القديمة  
 وملتقاها في الشرق الأدنى " (١) . ويرجع ذلك إلى : أولاً ، موقعها الجغرافي الفريد  
 الذي جعلها حلقة إتصال بين دول الشرق والغرب بالإضافة إلى بيئتها المحلية وطبيعة  
 مناخها المعتدل ، الذي وفر لفنانها بيئة فنية مناسبة ساعدتهم على تنفيذ وإخراج  
 العديد من الأعمال الفنية ، ثانياً : إهتمام الملوك والحكام الساسانيين بالفنون والفنانين  
 اللذين أصبح لهم مكانة متميزة بين فئات المجتمع .

(١) زكي محمد حسن ، الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ، ( مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩١٠ ) ،



ولقد حظى هذا الفن بمكانة خاصة جعلته أكثر تأثيراً في غيره من الفنون المختلفة التي اكتسبها طابعه المميز ، يؤكد ذلك الدكتور « زكى محمد حسن ، بقوله " إذا إستثنينا الفن الإغريقي القديم لا نكاد نعرف أى فن آخر قدر له أن يمتد إمتداد الفن الإيراني بل إننا نستطيع أن نقول في ثقة وإطمئنان أنه ليس هناك فن عظيم لم يأخذ عن الفن الإيراني شيئاً من زخارفه أو أساليبه ، فإن الفن المصري القديم والفنون الإغريقية والرومانية والبيزنطية والصينية ، والهندية ، كلها مدينة للفن الإيراني ببعض أشكال التحف أو أساليب العمارة والزخرفة أو أسرار الصناعات الفنية الدقيقة " (١) .

### ● تأثير الفن الساساني وتأثيره في الفنون الأخرى ؛

ولقد إختلط الفن الساساني بالفن الإغريقي نتيجة التبادل الثقافي الذي تم بين الإيرانيين والإغريق بسبب كثرة الحروب التي حدثت في العصر الساساني ، فتجد في الفن الساساني بعض تأثيرات هيلينية ، ويرجع ذلك أيضاً إلى إستقدام الحكام الساسانيين للعمال الإغريق لتنفيذ بعض الأعمال في إيران ، فانتقلت بواسطتهم الأساليب الإغريقية إلى الفن الساساني ، والتأثيرات الساسانية إلى الفن الإغريقي ، وبالرغم من إنتشار الفن الإغريقي وبعض عناصره في الفنون الساسانية إلا أنها ظلت محتفظة بأصولها الإيرانية وتقاليدها الفنية .

ونتيجة للإحتكاكات السياسية بين الساسانيين والإمبراطورية البيزنطية تسربت بعض هذه الفنون الساسانية إلى فنون بيزنطة وتأثرت بها فظهرت الزخارف الساسانية بكثرة في الفنون البيزنطية ، واندمجت بها حتى أنها أصبحت سمة من سمات الفن البيزنطي وتبدو واضحة في الفسيفساء البيزنطية .

وترجع أهمية الفن الساساني إلى أنه يمثل أعظم مراحل الفن الإيراني وأكثرها إزدهاراً " وتطراً إلى فاعلية وثراء وتنوع الحضارة الساسانية فإنها أثبتت وجودها في العالم واتخذت إيران دور الدولة الناشرة للفن والدين " (٢) . وظهرت آثارها في كثير من الفنون القديمة أهمها الفن البيزنطي والفن الإسلامي وأضفت العديد من الوحدات الزخرفية والعناصر الأدمية والحيوانية عليهما ، كما إنتقلت أيضاً طرق تناول الموضوعات والتكوينات في كل منهما .

(١) المرجع السابق . نفس المكان .

(1) René Hugghe, (General Editor) Art and Mankind Larousse Encyclopedia of Byzantine and Medieval Art Promenthus Press, New York, 1963, P.62

## ● موضوعات الفن الساساني :

لم ترتبط الفنون الساسانية بالعقيدة الدينية كغيرها من الفنون الأخرى إرتباطاً وثيقاً - كالفنون البيزنطية على سبيل المثال - على الرغم من إعتناق بلاد الفرس العقيدة الزرادشتية\* .

وقد سبقتها الديانة « المزديية » نسبة للإله « اهور مزدا » ، وكان الفكر السائد لدى معتنقيها هي حتمية نهاية الصراع الدائم بين آلهة الخير والشر لصالح آلهة الخير -

وبعد العقيدة الزرادشتية ظهر مذهب جديد يدعى « المانوية » ، نسبة إلى مانى ، ومانى يجمع بين الثنوية المزديية والتقاليد المسيحية لمنطقة الفرات السفلى واليهودية والبوذية ، وكان مصوراً موهوباً يقال إن رسومه الدينية الرائعة ساعدت على نشر المذهب الذى كان يدعو له " (١) . وسرعان ما قتل على يد أحد أتباع كهنة زردشت ، ولم تظهر الموضوعات الدينية إلا فى عدد قليل من الأعمال الفنية الساسانية ، وكانت معظم هذه الأعمال عبارة عن نقوش جصية ، وقل استخدام التصوير الجدارى ، مثل : مجموعة من النقوش الجصية منقذة على تابوت صورت على جوانبه الآلهة الأربعة - التى يعتقد أنها تنبئ من الإله اهورمزدا - وهم الإله « ميترا » ، مانح الخلود للموتى أثناء البيعت ، والإله « زروال » ، إله الزمان الأبدى ، وإله « النار » ، إبن « اهورمزدا » ، وأخيراً الإله « اناهيتا » ، ويرجع هذا التابوت إلى فترة حكم الملك « شابور الأول » ، التى تعد فترة إحياء للفنون الساسانية وتألقها .

أما الموضوعات التى إرتبطت بتسجيل إنتصارات الملوك وتمجيدهم والتى تحكى أيضاً مشاهد الصيد ومطاردة الحيوانات وما يصاحبها من موسيقيين وعازفات وراقصات ، فقد كان لها السيادة فى الفن الساسانى وذلك رغبة من الملوك فى تخليد أمجادهم ، وللتعبير عن حياة الترف والبذخ التى كان يعيشها الساسانيون ، وهذا يفسر إهتمامهم بتشبيد القصور الملكية الفخمة ومباعتهم فى زخرفتها وتزيينها ، مثل قصر الملك أردشير ، وقصر ولده « شابور الأول » .

(\*) نسبة إلى زرادشت فى القرن السابع ق . م . الداهى إلى نشر تعاليم الدين الذى يرى أن الآلهة جميعاً تنبئ من الإله ( اهورمزدا ) كبير آلهة الدين الفارسي القديم ، وكانت سياسة هذا الدين تقوم على التسامح بين البشر والتسامح بالسلوك والتوايا الطيبة التى سوف يتأبون عليها بدخولهم الجنة .

(١) ثروت عكاشة ، تاريخ الفن - الفن الفارسي القديم ، الجزء الثامن ، ( دار المستقبل العربى ، القاهرة ، ١٩٨٩ ) ،

ولقد وجدت نقوش كثيرة ترجع إلى عهد « اردشير » تصور المعارك التي خاضها من أجل إعتلائه عرش إيران ، وقد سجلت هذه النقوش على « الصخرة المشرفة على المعمر الضيق المفضى إلى مدينة « فيروز آباد » التي أسسها الملك « اردشير الأول » - والتي تعد من أقدم النقوش الصخرية الساسانية وأروعها <sup>(١)</sup> . ومشاهد تنصيبه على العرش في مدينة « نكش رستم » المجاورة لأصطخر مسقط رأس الساسانيين ، وأيضاً نقوش « لابن اردشير » وهو يصيب وزير الملك الفرثي برمحه ويسقطه عن جواده <sup>(٢)</sup> . كذلك القصر الذي شيده الملك « شابور الأول » ، في العاصمة طيسفون ، وقد زين هذا القصر بقوالب من الجص قوامها نقوش وزخارف بارزة ، وقصره العظيم الذي شيده في مدينة « بيشابور » - وهي مدينة ثانياً أقامها « شابور » ، وأطلق عليها هذا الاسم ، وهو يعنى شابور الجميلة - والذي يتميز بجماله وروعة زخارفه الجصية التي غلبت عليها الزخارف النباتية متمثلة في أوراق الأكانثوس ( التي تكسو سطح القيوات ) ، بالإضافة إلى زخارف الأرضيات التي تم تنفيذها بالقسيضام .

وكعادة الملوك الساسانيين إتجه « شابور » إلى تسجيل إنتصاراته على الرومان في خمسة نقوش متفرقة ، يعرض كل نقش منها موضوعاً يختلف عن الآخر ، وكلها كانت خاصة بتسجيل الإنتصارات والموضوعات الحربية والسياسية ، أما موضوعات الصيد ومشاهد الطرب والموسيقين والإحتفالات العامة ، فقد وجد بعض منها في « طلاق بستان » حيث يظهر الملك وهو يصيد الخنازير البرية تحيط به العازقات في قارب على سطح بحيرة ، ويرجع هذا العمل الفني إلى عهد الملك « شابور الثاني » .

كما كثر تصوير هذه الموضوعات فوق الأواني والأباريق والأطباق المعدنية ، وقد شوهدت هذه الموضوعات بقلة في الرسوم الجدارية التي قل الإعتماد عليها في زخرفة مبانيهم - مثلما كان الحال عند الفرثيين - حيث لم يهتم الساسانيون بإسلوب زخرفة الجدران بالتصاوير الجدارية ، وقد عثر في مدينة سوسا على لوحة جدارية تصور فارسين ظهرا بحجم كبير يطاردان قلميماً من الغزلان ، ويرجع تاريخ هذه اللوحة إلى فترة حكم « شابور الثاني » ، في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي ، ومع بداية القرن الخامس إتجه الساسانيون مرة أخرى إلى العودة إلى التصاوير الجدارية في زخرفة جدران قصورهم .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

(٢) المرجع السابق ، نفس المكان .

## ● الفسيفساء في الفن الساساني :

انتشر أسلوب زخرفة الأرضيات في إيران خلال العصر الساساني واستخدمت الفسيفساء في ذلك الغرض ، وكانت هذه الفسيفساء حينذاك عبارة عن قطع صغيرة من الأحجار الملونة أو الزلم الملون\* ، ولم يكن هذا الأسلوب في الزخرفة معروفاً لدى الساسانيين في إيران ، أي أنه " ليس فارس الأصل ولكنه ابتكار من العالم الغربي ، حيث كان منتشراً في ذلك الوقت بشكل واسع في الإمبراطورية الرومانية ... وخير مثال على ذلك الفسيفساء التي اشتهرت بها أنطاكية وأفريقيا الشمالية والتي قدمت العديد من الموضوعات من « بيشابور ، والشخصيات البارزة فيها ، كما أن هذه الموضوعات والشخصيات ظهرت أيضاً في قصر « شابور ، مع مراعاة الإحتفاظ بالملامح الإيرانية " (١) .

ويمكن القول بأنه تم استخدام صانعي الفسيفساء من هذه البلاد - التابعة للإمبراطورية الرومانية - حيث قاموا بتنفيذ هذه اللوحات في أرضيات القصور بامر « شابور الأول ، بمعونة الفنانين المحليين الذين أضفوا عليها من سمات الفن الساساني والتقاليد الإيرانية المتعارف عليها .

وأغلب هذه اللوحات أو زخارف الفسيفساء كانت تغطي أرضيات القاعات في قصر « بيشابور ، الذي بنى في عهد « شابور الأول ، ، ولم يتم العثور على زخارف من الفسيفساء في أي قصر آخر بخلاف هذا القصر السابق خلال العصر الساساني ، ترجع هذه اللوحات إلى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي ، وكانت تظهر في محاكاة للسجاد الساساني حيث كانت تحدد بإطار خارجي توجد به زخارف لوحات هندسية أو نباتية متكررة والحيوانات المجنحة المتقابلة والمتدايرة والرؤوس الأدمية لنساء ورجال ، مثل : مجموعة الرؤوس الأدمية التي تصور رجالاً ونساء من حاشية البلاط الملكي . شكل (١) .

أما إطار الزخارف الهندسية فيظهر محيطاً باللوحه شكل (٢) وهي عبارة عن مجموعة من المكعبات المترابطة واستخدمت في ذلك الأحجار السوداء اللامعة مع الأحجار البيضاء وهي تظهر في يسار اللوحه ، أما الجهة اليمنى فنجد فيها مجموعة من الضفائر المجنولة .

(\*) الفسيفساء الخزفية فقد تم إنتاجها في عهد السلاجقة وبلغت أقصى مراحل التطور الفني في القرن الرابع عشر الميلادي .

(1) André Malraux , Georges Salles , Parthes et Sassanides , Librairie Gallimard , France .  
1962 , P. 140 .

وفى وسط هذه الأطر الخارجية يتم تنفيذ الموضوع المراد تصويره ، فقد إمتلات هذه الأرضيات بموضوعات إتصلت إتصالاً مباشراً بالحياة الإجتماعية الساسانية ، فبعضها يصور راقصات وموسيقيات ، ويبدو ذلك فى لوحة شكل ( ٢ - ١ ) التى تظهر بها سيدة جالسة وهى تعزف بالقيثارة\* ، وتنقل لنا هذه اللوحة جانباً من الحياة فى الدولة الساسانية عندما إحتل العازفون والموسيقيون مكانة رفيعة بين طبقات المجتمع ، كما تدلنا على رفاهية المجتمع الساسانى حيث كانت تقام الولائم الفخمة وما يصاحبها من حفلات موسيقية .

كما وجدت لوحات اخرى تصور سيدات القصور الملكية ونموذجها لوحة شكل (٣) التى تصور سيدة يبدو عليها انها من الأسرة الحاكمة ، ويتضح ذلك فى طريقة تصفيف الشعر والقرط الذى تتحلى به فى اذنيها ، وهى تتكى على وسادة بنية اسطوانية الشكل . وترتدى رداء يغطى جسدها بأكمله إلا منطقة الأكتاف والذراعين مما يميزها عن الراقصات والموسيقيات ، كما ترى فى اللوحة السابقة شكل ( ٢ - ١ ) التى تكتفى فيها السيدة بوضع وشاح على الكتف الأيسر ويغطى قدميها ، فى حين يظهر معظم الجسد عارياً ، وتظهر سيدات أخريات تحملن بالقات وأكاليل من الزهور يشاركن فى هذه الإحتفالات والمآدب الملكية ، يوضح ذلك لوحة شكل (٤) حيث تقف السيدة فى منتصف اللوحة ، مرتدية ثوباً لونه احمر طوبى يعلوه وشاح لونه أزرق فاتح ، ويحيط بهذه اللوحة إطار خارجى تظهر فيه زخارف عبارة عن رؤوس آدمية نساء ورجال من حاشية البلاط كما أترى فى شكل (١) ، وقد رعى فى هذه الزخارف أن تظهر الرؤوس بدون اعناق ، وهذا أسلوب إيرانى يرجع أصله إلى الفن الفرثى وانتقل إلى الفن الساسانى وهو بعيد كل البعد عن أية تأثيرات أتت من الغرب سواء فى الفنون الإغريقية او الرومانية .

كما صورت فئات اخرى من عامة الشعب - لا تنتمى إلى الطبقات الحاكمة أو فئة الموسيقيين - يؤكد ذلك أيضاً طريقة تصفيف الشعر التى تختلف عن مثيلتها فى اللوحة شكل (٣) ، فتظهر فتاة تجلس أمام جذع شجرة تمسك بإحدى زهراتها فى شكل (٥) ، وترتدى هذه الفتاة وشاحاً يغطى الظهر والساق اليسرى .

وإذا نظرنا للناحية التشكيلية للوحات الفسيفساء السابقة ، نجد أنها تبتعد عن التقاليد الإيرانية أو الملامح المميزة للفن الساسانى الذى يتسم بالطابع الزخرفى - (إلا فى الإطار الخارجى المحدد لها - وقد غلبت التأثيرات الرومانية فى أسلوب تنفيذ هذه

(\*) هى إحدى الآلات التى كان يتم العزف بها فى حجرات الملوك والأمراء .

الفسيفساء - حيث أن هذا الأسلوب لم يكن فارسى الأصل كما سبق القول - نرى ذلك فى التركيز على رسم العنصر الأساسى فى اللوحة مع بعض العناصر المبسطة فى الخلفية مع مراعاة الحرص على إبقاء الخلفية خالية إلى حد ما من أية أشكال أخرى ، وهذا لا يتفق وطبيعة الإيرانيين ورغبتهم فى ملئ المساحات وشغل الفراغ ، وانتشر استخدام اللون الأبيض فى مكعبات الفسيفساء والتي استخدمت فى خلفيات هذه اللوحات ، وكان يتم ترصيصها فى خطوط أفقية ورأسية وتوضع بجوار بعضها البعض موازية للخطوط الخارجية المحددة للعنصر المرسوم ، وهو أسلوب متبع فى الفسيفساء الرومانية، يؤكد ذلك لوحة شكل (٦) ، وتظهر فيها صورة لفتاة، وهى عبارة عن تفصيلية من أرضية فسيفساء عثر عليها فى قصر بيزا ارميرنا ، وهذه الأرضية تحتوى على عشر فتيات رياضيات، خمسة فى المستوى الأول ، وخمسة فى المستوى الثانى ، وصور الفتيات هذه نفذت على أرضية بيضاء من مكعبات الفسيفساء ، وتظهر الخلفية خالية تماماً من أية عناصر .

كما أن توزيع الكتلة والفراغ فى اللوحات السابقة كان موفقاً إلى حد ما حيث تعادلت المساحة التى شغلت أجساد السيدات مع مساحة الفراغ التى تم ملؤها ببعض العناصر البسيطة مثل القيثارة وأوتارها فى شكل (٢ - ١) ، والجزء الظاهر من الستائر التى تتدلى من أعلى اللوحة فى شكل (٣) ، وجزء من الجدار وبالقاعة الورد فى يد السيدة التى تقف فى لوحة شكل (٤) ، وجذع الشجرة وما يتدلى منها من أوراق فى شكل (٥) ، والمشاهد لهذه الأعمال يجسد مجموعة من التكوينات المتوازنة إلى حد كبير .

ولم يهتم المصورون الساسانيون بدراسة تشريح الجسم الإنسانى مثلما كان الإهتمام فى " الفنون الإغريقية الكلاسيكية التى إتخذت جسم الإنسان نموذجاً لذاته ، فنقلته كما هو واحترمت قوانين الرسم فى تصويره " (١) . ويرجع ذلك إلى أن ظروف البيئة الطبيعية لم توفر الوسائل التى تتيح للفنان الإيرانى دراسة الجسم البشرى ، وكانت تنظر له بصورة مجردة ترمز إلى الملوك والألوهة ، وبالرغم من أن إيران كانت من الدول التى إنتشر فيها الإسلام وإنتشر معه تحريم الرسوم الأدمية وكراهيتها ، إلا أنه لم يكتثر بهذه التعاليم فكان هناك إهتمام بالرسوم الأدمية بقصد التوضيح والتخيط بأسلوب مبسط إستخدم فى الكتب وعلى التحف المعدنية والزجاجية كالأطباق والأواني ، وإنحصر تصوير الجسم الإنسانى فى الفن الساسانى فى الموضوعات السابق ذكرها - سواء فى

(١) (كى محمد حسن ، الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ، ( مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٠ )

النقوش الصخرية أو الرسوم الجدارية وزخارف الفسيفساء - لذلك نرى في لوحات الفسيفساء السابقة عدم مراعاة النسب الطبيعية لأجساد السيدات والفتيات ، فنلاحظ عدم تناسق شكل الجسم ، ويتضح ذلك في حجم العنق ورسم الكتف مع الذراع ، وسماك العضد بالنسبة للساعد بالإضافة إلى شكل الكف والأصابع بالرغم من حرص الفنان المنفذ على رسمها بخطوط دقيقة ، ويظهر ذلك في كل من اللوحتين شكلي (٢-٢) (٥) التي لم يوفق فيها الفنان في رسم الثدي ومنطقة الجذع ، وهي تتضح أيضاً في اللوحة السابقة شكل (١-٢) في حين تساقطت أجزاء الفسيفساء في اللوحة شكل (٥) في نفس منطقة الجذع .

وقد قلت الألوان المستخدمة في هذه الفسيفساء وتوعدت بين درجات ألوان الأحجار الطبيعية ، واستخدمت الأحجار السوداء اللامعة مع اللون الأبيض ، وبالرغم من قلتها إلا أنها تتسم بانسجام وتوافق متناغمين تدل على حساسية الفنان الساساني في اختيار الألوان ومزجها معاً للوصول بها إلى أجمل صورها ، كما برع الفنان في اختيار لون البشرة الذي نعتت به وجوه وأجساد السيدات المرسومات في زخارف الفسيفساء ، كما أنه فرق بينه وبين درجة اللون المنفذ به جذع الشجرة في اللوحة شكل (٥) ، ويتضح اهتمام الفنان الساساني فيها بالتفاصيل وحرصه على نقل الطبيعة في إظهار البقعة ذات اللون الداكن الموجودة في أسفل جذع الشجرة الناتجة عن كسر أو حفر غالر فيها ، ومحافظة على قواعد الضوء والظل يتجلى ذلك في وجه السيدة وجسدها ودرجات الفاتح والقاتم في فروع الشجرة من أعلى ، والكتلة التي تمثل أوراق الشجرة وتظهر فيها مساحة وضعت فيها درجات مكعبات الفسيفساء ذات اللون الفاتح، أما المنطقة السفلى منها فوضعت مكعبات الفسيفساء ذات الدرجات الداكنة ، كذلك الحال في بقعة الورود وفروعها التي تظهر في شكل (٤) ، التي ظهرت بها درجتين من اللون الأخضر ودرجتين من اللون الأحمر يمثلان الضوء والظل ، ولكن لم يولد الضوء والظل دورهما في تجسيم هذه الأشكال .

وبالرغم من عدم اهتمام الفنان بتشريح الجسم إلا أنه إهتم بإظهار تفاصيل الملابس التي ترتديها السيدات ، فظهرت ثانياً الألمشة مجسمة من خلال درجات الفاتح والقاتم ، ولكن لم ترسم هذه التفاصيل بدقة كما ينبغي .

أما الطابع الإيراني فيظهر في الزخارف السابقة في أوضاع الجلوس وطرق تصفيف شعر السيدات بالإضافة إلى المسحة الإيرانية على ملامح الوجوه ذات العيون والحواجب البنسية والشعر البني المائل إلى الدرجات اللونية السوداء وهي صفات سائدة في

شموب البيئات العربية ، يتجلى ذلك فى بعض زخارف الفسيفساء والتي تقع ضمن الإطار الزخرفى المحيط بإحدى اللوحات السابقة التى يظهر بها الرؤوس الأدمية .  
شكل (١) .

وتظهر إحدى هذه الرؤوس فى شكل (٧) وهى تمثل وجه سيدة من الممكن أن تكون إحدى سيدات البلاط حيث نلاحظ إهتمام الفنان بطريقة تصفيف الشعر وتزيينه ببعض الورود ، ويبدو الشعر فى خطوط وتموجات رقيقة يحددها الفنان بلون أسود أو بنى فاتم من مكعبات الفسيفساء المتناسبة الحجم ، وتظهر هذه التحديدات الخطية أيضاً فوق جفنى العين وبين الشفتين ، ونلاحظ أن الفنان لم يوفق فى رسم ملامح الوجه بدقة ، ويؤكد ذلك رسم فتحتى الأنف وعدم تناسبه فى الحجم مع الأذن ، هذا إلى جانب إثنين من الرؤوس الأولى تخص أحد الجنود الإيرانيين ، والثانية لرجل متقدم فى العمر .

وهذه الرؤوس جميعاً تشترك فى أنها منقذة على خلفية من مكعبات الفسيفساء ذات اللون الأبيض وتتمركز بين خطين من أعلى ومن أسفل - خطى الإطار الزخرفى . كما حرص الفنان فى تنفيذه لهذه الرؤوس بشكل عام على إتصالها ببعضها ويبدو ذلك فى الخط الذى يشبه العصا والذى يمتد أسفل رأس السيدة التى تظهر على يمين الزخارف ، شكل (١) ، وحتى أسفل رأس السيدة التى تليها - تمسها عند الذقن - هذا من الناحية اليمنى لرأس السيدة ، أما من الناحية اليسرى فهى تتصل برأس الجندى ، حيث يتصل أحد القرنين المتصلين بقطاع الرأس بإحدى الورود التى تزين بها السيدة شعرها .

ولم تحظ الفسيفساء الساسانية بنقص الثراء والتنوع الذى كان من نصيب الأعمال الفنية الأخرى التى ظهرت خلال العصر الساسانى ، ولم يكن لها الإنتشار الواسع كبقية هذه الأعمال التى اثرت فى فنون البلاد المجاورة والفنون اللاحقة، على سبيل المثال أو بالأخص الفسيفساء البيزنطية - موضع الدراسة - حيث أن هذه الفسيفساء البيزنطية كان قوامها الزخارف الساسانية باختلاف وتعدد عناصرها الزخرفية ، الحيوانية والنباتية ، والأشكال الأدمية والهندسية ، وقد تغلفت هذه العناصر الزخرفية فيها بشكل واضح حتى أنها أصبحت سمة أساسية من سماتها .



## ● التأثيرات الساسانية في الفسيفساء البيزنطية :

كان الفن الساساني أحد المصادر الرئيسية في تكوين الفسيفساء البيزنطية ، حيث تخللتها كثير من الفنون الساسانية التي إشمطت على العديد من العناصر الزخرفية ، وذلك نتيجة الإتصال الثقافي بين إيران وبيزنطة الذي كان سبباً في إنتقال هذه الفنون .

وكما سبق الإشارة إلى أن تأثير الفسيفساء الساسانية على الفسيفساء البيزنطية قد إنحصر في إطار ضيق ومحدود ، تمثل في ظهور نوعين من العناصر الهندسية ، والرؤوس الأدمية والتي ظهرت من قبل في أعمال الفسيفساء الساسانية وانتقلت إلى فسيفساء بيزنطة.

وقد إنتشرت الزخارف الهندسية في كثير من الكنائس البيزنطية في الأطر المحددة لمعظم لوحات الفسيفساء بها ، أما العنصر الساساني الآخر الذي ظهر في زخارف الفسيفساء البيزنطية ، فهو الرؤوس الأدمية والتي كانت تمثل رؤوساً لرجال ونساء من حاشية البلاط الملكي في العصر الساساني ، وقد أصبحت في الفن البيزنطي تمثل رؤوساً للقديسين والحواريين ووضعت داخل جوارب مستديرة وتظهر بدون أعناق أيضاً - مما يؤكد نسبتها للفن الساساني - تبدو أيضاً في الأطر الخارجية المحددة لمساحات الفسيفساء التي تغطي جدران الكنائس إلى جانب العناصر الهندسية الزخرفية ، وأوضح مثال لذلك شكل (٨) ، الذي تظهر فيه هذه الرؤوس مصورة داخل الجوامع المستديرة موضوعة فوق بعضها البعض ، وتغطي المساحة السفلى المحددة للقوس المنحني في كنيسة القديس فيتال براهينا .

أما بالنسبة لبقية العناصر الزخرفية الساسانية التي أشرت في الفسيفساء البيزنطية فهي تتجلى في الأعمال الفنية الأخرى - غير الفسيفساء - ، وقد إعتد الفنانون على نقل وإقتباس الموضوعات والوحدات الساسانية منها ، بغض النظر عن نوعية العمل الفني أو الخامات المستخدمة سواء كانت ( الزجاج - الخشب - النسيج - المعدن ) ، فعلى سبيل المثال كان للمنسوجات الساسانية التأثير المباشر في جذب إنتباه العديد من فناني الفسيفساء في سوريا وأنطاكية وفلسطين وبالأخص في بيزنطة ، حيث يحتوى تصميم هذه المنسوجات على الشخصيات الحية أو مجموعات الورد في الوسط ويحيط بها من الحواف مجموعة من العناصر

الحيوانية" (١) . وقد ظهر هذا التأثير في أعمال فسيفساء إكتشفت في انطاكية ، مثال ذلك جزئية من أرضية تعود إلى القرن الخامس الميلادي ، يصور فيها الأسد في منتصف اللوحة الذي يحيط به شريط زخرفي سمكه رفيع بالنسبة لسمك الإطار الزخرفي الخارجى المحيط بالشريط السابق ، رسمت به زخارف نباتية مجردة كثيرة وتم وضعها في خطوط أفقية ، ويبدو لنا ذلك في شكل (٩) . ويقول في ذلك الدكتور ثروت عكاشة ، " وقد كان للأسد معنأ رمزياً عند الساسانيين ، فهو يمثل عندهم شيطان الموت المتكئ على الرمح ، وثمة بعض الشراح يعتقدون أن الأسد هو العنصر الخير الذي يمثل «هورمزدا» ، بينما الثور هو العنصر الشرير الذي يمثل «أهريم» ، وهناك من يعتقد العكس فالأسد شرير مفترس بينما الثور يخدم الإنسان ، ودليلهم على ذلك مشهد قتل البطل الملكى للأسد" (٢) . ويضيف أيضاً أنه " يبدو أن موضوع الأسد المنقض أو الجائل بين الوهاد والرعى ذو أصول فارسية ، ولا يدفع هذا ظهور شريط حول عنقه تتطاير أطرافه ، فقد تكون هذه نزوة من الفنان الساسانى ، ولقد كان الأسد هو الموضوع المفضل في حركات التبادل الفنى الكبرى التى وقعت في ذلك العهد ، إذ نجد هذا الموضوع مسجلاً فوق لوحات الفسيفساء وعلى الأقمشة والأباريق" (٣) .

أما الجزئية الأخرى فتصور مجموعة من الجديان المجنحة متقابلين ومتدابرين في الإطار الخارجى - بأسلوب إيرانى سبق الحديث عنه - ولم يحدد تاريخ ثابت تنسب إليه هذه الجزئية من الفسيفساء ، ويرجع أنها تنتمى للفترة ما بين القرنين الثالث والسادس الميلادى ، نشاهدتها في شكل (١٠) . وكما إنتقلت هذه اللوحات والتأثيرات الساسانية إلى فسيفساء انطاكية وسوريا وفلسطين تراها في الفسيفساء البيزنطية .

ومن العناصر الزخرفية الأخرى التى إنتشرت بشكل واسع في الفسيفساء البيزنطية هي العناصر النباتية التى ميزت الفن الساسانى عن غيره من الفنون ، حيث كان الشعب الإيرانى يهوى الحدائق ، والأزهار ولقد نقلها من الطبيعة في أعماله الفنية متجهاً في ذلك إلى أسلوب التحوير والتبسيط ولكنها في النهاية كانت أقرب إلى الطبيعة عنها في دول الشرق الأوسط ، التى دخلها الإسلام فيما بعد .

(1) André Malraux Georges Salles Parthes et Sassanides Librairie Gallimard , France , 1962 , P.306 .

(٢) تاريخ الفن الفارسى القديم ، الجزء الثامن ، ( دار المستقبل العربى ، القاهرة ، ١٩٨٩ ) ، ص ٣٧٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

ولقد اتقن الفنانون الساسانيون الرسوم النباتية ووفقوا في الجمع بينها وبين سائر العناصر الزخرفية المتنوعة ، وقد استخدموها في أغلب الأحيان ، كما يذكر الدكتور «زكى محمد حسن ، » كإرضية تقوم عليها عناصر أخرى كالأدمية والحيوانية « (١) .

وكانت أشهر الرسوم النباتية التي صرف بها الساسانيون المروج النخيلية والوريدات واللوتس والشجيرات والرمان وأوراق الأكانثوس ( شوكة اليهود ) التي تظهر في لوحة شكل (١١) وتبدو فيها توريقات الأكانثوس التي زينت بها أقواس القبوة - تنوعت ألوانها بين الأحمر والأصفر والأبيض - في قصر بيشابور ، وانتقلت هذه الرسوم النباتية بوضوح في زخارف الفسيفساء في الكنائس البيزنطية وبالأخص توريقات الأكانثوس التي تظهر في زخارف تغطي الجدران أسفل القبة في كنيسة القديس فيتال براهينا والتي تم تنفيذها بلون ذهبي على أرضية أرجوانية اللون في الركن العلوي يمين اللوحة ، وعلى اليسار نفذت نفس هذه الوحدات النباتية بلون أزرق وأخضر على أرضية ذهبية ، فضلاً عن توريقات وتفرعات نباتية أخرى تخرج من آنية زهور وتتجه في خطوط دائرية توحى بالإستمرارية والإنتشار ، نجدها في شكل (١٢) ، ويجدر بنا الإشارة إلى الزخارف الحيوانية التي تعد عنصراً أساسياً إنتقل إلى رسوم الفسيفساء البيزنطية ، ولقد تميزت هذه الزخارف بالثراء والتنوع فكانت تظهر بصور وأوضاع مختلفة ، إما حيوانات طبيعية أو حيوانات خرافية مجنحة أو حيوانات براس واحدة ، وظهرت هذه الحيوانات إما منفردة أو ثنائية متقابلة وتفصل بينها شجرة الحياة - تقليد فارسي - أو متدابرة ، وتميزت رسوم الحيوانات في الأعمال الساسانية بالجفاف والقوة وخاصة في رسم المفصل .

وفي مواضع أخرى تظهر رسوم الحيوانات بصورة متكررة ومتتابعة في شريط من الزخرفة واحدة تلو الأخرى أو داخل أطر دائرية زخرفية تحيط بها ، أو في داخل الموضوعات التي تصور فيها مناظر الصيد ، حيث تظهر الحيوانات وهي تهاجم بعضها البعض ، أو ينتقض أحدهما على الآخر .

وقد إعتد الإيرانيون بشكل عام في زخارفهم على تصوير الحيوانات والطيور الآتية ، الأسد والفهد والغزال والأرنب والطاووس والبطل والخيل والباز والطنائر الذي يتدلى من منقاره فرع نباتي وهو شائع التصوير في الفن الساساني ، ثم الجمل والفيل فضلاً عن الحيوانات الخرافية والمركبة ، التي وصلت إيران مع غيرها من الأساليب الفنية الصينية ، كظهور عنصر التنين في بعض الأعمال على سبيل المثال .

(١) الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ، ( مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٠ ) ، ص ٢٧٤ .

واللوحة شكل (١٣) تؤكد لنا تأثير هذه الزخارف على الفسيفساء البيزنطية فهي تغطي جدران حجرة الملك ، روجر ، في القصر الملكي بباليرمو القرن الثاني عشر الميلادي ، ويظهر في الجزء السفلي من الناحية اليسرى الحيوانات والطيور المتقابلة والمتدايرة يفصل بينها النخيل والأشجار التي رسمت بطريقة مجردة ، كما نجد طاووسين يشريان من إناء واحد ، وقد سبق أن تكرر شكل الطاووس في اللوحة شكل (١٢) وهو يقف بالمواجهة في منتصف اللوحة ، وقد ظهر بكثرة في الفسيفساء البيزنطية ، وهو مستوحى من رسوم المنسوجات الساسانية ، فقد تم وضعه داخل إطار أو شريط زخرفي يتدلى من منقاره ورقة صغيرة أو فرع نباتي ، وهذا الطاووس له دلالات وإيحاءات معينة لدى الساسانيين والرومان . يقول في ذلك الدكتور ، ثروت عكاشة ، " فيما بين القرنين التاسع والحادي عشر الميلاديين حيث كان التجار المسلمون يحملون إلى أوروبا فيما يحملونه من النسيج القارسي وعليه رسوم الطاووس منشور الذيل أو مطوقاً رقبتيه بعقد وحمل بمنقاره غصناً ، رأينا هذه الرسوم تشيع في أوروبا ، ورأينا الفن البيزنطي نقشاً ونحتاً يتأثر به ، وإذا الرومان يجعلون الطاووس رمزاً للخلود كما جعله المسيحيون رمزاً لبعث المسيح" (١) .

أما باقي أجزاء اللوحة شكل (١٣) فيظهر فيها التأثير الساساني في طريقة رسم مساحة الجدران والأسقف وتقسيمها إلى مساحات تمتلئ بالتفريمات الهندسية إلى جانب الحيوانات المجنحة والأسود داخل الأطر الدائرية والبيضاوية . ويؤكد ذلك الدكتور ، زكي محمد حسن ، بقوله : " فقد كان الإيرانيون كسائر الشعوب الإسلامية ، يكرهون الفراغ في زخارفهم ويميلون إلى تغطية كل المساحات المراد تزيينها ، فلا يتركون من سطحها شيئاً بدون زخارف ، ولكنهم لم يبالغوا في ذلك كل المبالغة ، بل لقد أدرکوا أحياناً - ولاسيما في زخرفة الخزف - ما يمكن أن يفيدوه من ترك بعض الفراغ بين العناصر الزخرفية المختلفة" (٢) .

وينبغي الإشارة إلى أن الطريقة التي رسم بها الأسد في اللوحة السابقة ، حيث يظهر بقدمه المرفوعة والجسم يبدو في وضع جانبي والراس تأخذ وضع المواجهة ، لم تنتقل فقط للفسيفساء البيزنطية ، بل ظهرت أيضاً في الفنون السابقة حيث كان شكل الأسد كما يقول الدكتور ، ثروت عكاشة ، " رمزاً تقليدياً في الفن الإغريقي" (٣) . على سبيل المثال .

(١) تاريخ الفن - الفن الفارسي القديم ، الجزء الثامن ( دار المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٩٨٩ ) ، ص ٢٥٧ .

(٢) الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي ، ( مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٠ ) ، ص ٣٠٣ .

(٣) تاريخ الفن - الفن الفارسي - الجزء الثامن ، ( دار المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٩٨٩ ) ، ص ٢٧٤ .

وهناك بعض الأعمال الفنية الساسانية التي أشرت في فسيقساء بيزنطة سواء في الأشكال أو الموضوعات أو التكوينات . مثل مجموعة النقوش الصخرية التي ظهرت بها تجمعات من اشخاص عدة ويقف الملك بينهم في المنتصف والتي إنتقلت إلى الفنون المسيحية والبيزنطية في تصوير الأباطرة وزوجاتهم وفي مشاهد أخرى من الفسيقساء يظهر السيد المسيح يلتف من حوله الحواريون .

وفي رسم جدارى مصور على حائط كنيسة « دورا » يظهر فيه نفس الأسلوب الذي إنتشر في الفسيقساء البيزنطية نرى ذلك في لوحة شكل (١٤) ، وهي تذكرنا بلوحة الإمبراطور « قسطنطين » ، التي تغطي جزءاً من أحد جدران كنيسة القديس « فيتال » ، براهينا ، ويقف فيها الإمبراطور في منتصف اللوحة ويلاحظ أنه قريب الشبه لنفس وضع « دا ، وده » في الرسم الجدارى حيث يظهر واقفاً في منتصف اللوحة ويقف من ورائه مجموعة من الأشخاص المشتركين جميعاً في خط واحد وتظهر أقدامهم في وضعة جانبية ، كما يتساووا أيضاً في ارتفاع الرؤوس ، بالإضافة إلى طريقة رسم الملابس ومعالجتها والإطار الزخرفى الذى يحيط باللوحة . هذه الملامح التشكيلية السابقة تظهر جميعها في لوحة الفسيقساء الخاصة بالإمبراطور « قسطنطين » ، شكل (١٥) .

وإذا أمعنا النظر في صورة الملاك المجنح شكل (١٦) ، وهو عبارة عن نقش حجرى يعلو مدخل كهف في مدينة « تاح بوسطن » ، ويقابله ملاك آخر مجنح في الجهة المقابلة والإثنان يحملان تيجان النصر ، نجده قد إنتقل بصورة واضحة إلى الفسيقساء التي غطت الجدران في التصف السفلى من اللوحة شكل (١٧) . ولكنهما في هذه الحالة يسكان معاً إطاراً دائرياً رسم بداخله الصليب .

وقد ظهرت في بعض أعمال الزجاج المعشق الساسانية صورة لإصبع السبابة مرفوعة ، وهي كما يقول الدكتور « ثروت عكاشة » - أنها إشارة تعبر عن الإحترام والخضوع في النقوش الإيرانية .. كما أن حركة الإصبع السبابة المرفوعة إلى الأمام التي يؤديها « أردشير الأول » ، أمام « أهورمزدا » ، في نقش رستم ما هي إلا الحركة التي كان يؤديها أشراف الساسانيين في حضرة « شابور الأول » ، في نقوش « بيشابور » ، وهي الحركة التي أداها ملوك المجوس بعد ذلك وهم يتجهون إلى بيت لحم في نقوش كنيسة هيك<sup>(١)</sup> . وهي تذكرنا بنفس شكل يد السيد المسيح المرسومة في معظم فسيقساء الكنائس في العصر البيزنطى .





## الفصل الثامن

### الفن الهيلينستي ومحاكاة الطبيعة

- العصر الهيلينستي (٣٣٠-١٠٠ ق.م) نبذة تاريخية.
- العصر الهيلينستي إبان الحكم الروماني .
- الفن الهيلينستي ومدى إنتشاره .
- العوامل التي أثرت في تكوين الفن الهيلينستي :
  - ١- السعى إلى الثراء .
  - ٢- العقلية المسرحية .
  - ٣- العقلية الدراسية .
  - ٤- الفردية .
  - ٥- النظرة العامة الخالية من التعصب القومي .
- الفسيفساء الهيلينستية في كل من الأسكندرية وأنطاكية :
  - فسيفساء الأسكندرية .
  - فسيفساء أنطاكية .
- التأثيرات الهيلينستية في الفسيفساء البيزنطية .





## الفصل الثاني الفن الهيلينستي ومحاكاة الطبيعة

### ● العصر الهيلينستي (٣٣٠-١٠٠ ق.م) نبذة تاريخية :

إتجه الإسكندر في فتوحاته إلى بلاد الشرق ، رغبة منه في إزدياد رقعة الإمبراطورية الإغريقية بعد إسترداد ممتلكاتها في آسيا الصغرى ، التي استولت عليها الإمبراطورية الفارسية ، ولقد إستطاع أن يستولى على مصر والشام وبلاد النهرين وإيران التابعة للحكم الفارسي وقتذاك بعد إنتصاره على ملك الفرس ، دارا الثالث ، في معركة إسوس ٣٣٣ ق .م . ، وإمتدت فتوحاته حتى بلاد الهند واتخذ بابل عاصمة لمملكته الجديدة .

وتعتبر هذه بداية الحقبة الهيلينستية التي بدأت في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وإمتدت تحت الحكم الروماني إلى أن سقطت الإمبراطورية الرومانية في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي ( بداية حكم قسطنطين) وترجع أصل هذه التسمية ( الهيلينستية ) إلى إمتزاج التقاليد الإغريقية (الهيلينية) بالروح الشرقية ، حيث حرص الإسكندر ، وخلفاؤه على نشر الحضارة الهيلينية في الممتلكات الشرقية التي تم الإستيلاء عليها .

وبعدما تسنى للإسكندر ، السيطرة على دول الشرق، بدأ في توطيد دعائمها وإرساء قواعد الحكم فيها ، وتم ذلك كما ذكرت الكاتبة جيجي بوليت (J. J. Pollett) "عن طريق تأسيس الممالك اليونانية مما أدى إلى سلسلة من الهجرات والسياسات التي فتحت حدود العالم الجديد ، لذلك رحل الآلاف من اليونانيين إلى المدن الصغيرة والكبيرة من العالم الشرقي الهيلينستي للبحث عن الثروة الجديدة ، وفي ظل المجتمعات الجديدة كان هناك شعوراً عاماً بالإحساس بالغربة وعدم الإلتزام"<sup>(١)</sup> . وبما أن الأفراد يمثلون مهاجرين من مدن غربية وثقافتهم اجنبية ومختلفة ، فقد شجع الإسكندر قواده على القدوم والعمل في هذه البلاد الشرقية مما يساعده على نشر ثقافة بلاده الإغريقية ، بالإضافة إلى حرصه على حسن معاملة اهالي الشعوب المغلوبة والواقعة تحت سيطرته أو التي إستسلمت له بإرادتها - فمصر على سبيل المثال رحبت بقدوم الإسكندر ، وحكمه الجديد حيث أنها كانت تعاني من اضطهاد الفرس لها .

(1) Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, New York, 1986, P.1.

وبعد مرور عشر سنوات على هذه الفتوحات في البلاد الشرقية توفى الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م. وبذلك تفرقت ممتلكاته في الإمبراطورية الهيلينية الشرقية بين قواده ، وبعد نزاع إستمر بضع سنوات إنتهى الأمر إلى تقسيم هذه الممتلكات إلى ثلاثة أقسام بعد إستبعاد « مقدونيا ، التي ظلت تحت حكم « أنتيجوس » ، فمصر كانت من نصيب القائد «ببليموس» ، وظلت تحت الحكم البطلمي حتى عام ٣٠ ق. م . وسيطر القائد « سلوقس » على كل من سوريا وآسيا الصغرى وبلاد النهرين وإيران مكوناً الدولة السلوقية عام ٣١٢ ق.م. وإستمرت حتى عام ٦٤ ق.م . أما القائد «أنتالوس» فقد إستولى على « فرغا موس»<sup>(١)</sup> ويقول في ذلك الدكتور « هنرى رياض » أن هذه الممالك الثلاث شهدت تطور الحضارة الهيلينية الجديدة التي جمعت بين حضارتين مختلفتين تمام الإختلاف ، فالأولى شرقية في جميع مظاهرها من حيث الدين والمعتقدات ونظام الحكم ومركزها المناطق الآسيوية والأفريقية المتاخمة لحوض البحر الأبيض المتوسط ، والثانية يونانية ومركزها بلاد اليونان والجزر والمدن اليونانية الواقعة على سواحل آسيا الصغرى<sup>(٢)</sup> . حيث حاول هؤلاء القادة المحافظة على السياسة التي إتبعها الإسكندر من قبل في نشر الحضارة الهيلينية ، كما أنهم أقاموا مدناً جديدة كمراكز لهذه الثقافة إشتهر منها «سلوقية» على نهر دجلة ، و «أنطاكية» على نهر العاص كما ظهرت مدينة « فرغا موس» التي أصبحت في شهرتها كواحدة من عواصم العالم الهيلينى . ولا يقوتنا في ذلك مدينة الأسكندرية التي بناها الإسكندر عام ٣٣١ ق م والتي كانت من « أهم المراكز التي تبلورت فيها الحضارة الهيلينية الجديدة »<sup>(٣)</sup> .

## ● العصر الهيلينى إبان الحكم الرومانى :

تعرض العصر الهيلينى كغيره من العصور التاريخية إلى تنازع الأسرات الحاكمة فيما بينها ، ففي تلك الفترة إتجهت روما إلى الشرق كقوة عظمى تتحكم في سياسته ، وبالفعل تمت لها السيطرة على معظم هذه الدول الشرقية والتي تقع في الجزء الغربى من بلاد الشرق الأوسط في نهاية القرن الأول ق م .<sup>\*\*</sup> بما فيها مصر بعد ضعف حكامها وإستسلامهم للرومان عام ١٦٨ ق.م. وقد أصبحت مصر ولاية رومانية

(١) الفن اليونانى حتى الحر العصر الهيلينى ، محيط الفنون ، الفنون التشكيلية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ٦٧ .

(٢) إحدى مدن آسيا الصغرى .

(٣) المرجع السابق ، نفس المكان .

(٤) الجزء الشرقى ( إيران وبلاد النهرين ) ظل خاضعاً لحكم الأسرة الفرثية .

بعد معركة اكتيوم البحرية ٣٠ ق.م. التي إنتصر فيها القائد أكتافيوس . كما تمكنت روما من السيطرة على سوريا في عام ٦٥ ق.م ، وقد إستمرت " الحروب الرومانية ضد ميتريدات ( آخر البطالمة ) ملك سيرين ، الذي منح مملكته للرومان ، وهذه المنطقة قد شهدت من قبل المجد الفن العظيم ، وهي المنطقة الإنتقالية بين مصر البطلمية وقرطاج " (١) . وقد تم ذلك في عام ٩٦ ق . م . كما ضمت أيضاً الإمبراطورية الرومانية التي تأسست عام ٣٠ ق.م. بعض المدن الأخرى مثل : برجام وجنوب شبه الجزيرة العربية ، وكانت روما تعتبر صراعها مع قرطاج - التي كانت تحكم شمال أفريقيا - من المحن العظيمة التي تعرضت لها هذه الإمبراطورية ثم سرعان ما قضت عليها ، وأصبحت بذلك " دول شمال أفريقيا ولايات رومانية عرفت بإسم أفريقيا الجديدة " . (٢)

وإستمر إنتشار الثقافة الإغريقية خلال العصر الهيلينستي في الدول الواقعة تحت حكم الرومان ، وعرفت هذه الفترة بالعصر الإغريقي الروماني ، وهي تعتبر امتداداً للعصر الهيلينستي الذي ظهر في بلاد الشرق ، ويعد ما يقرب من قرنين من الزمان، ظهرت الديانة المسيحية وبدأت الإمبراطورية الرومانية تفقد ممتلكاتها شيئاً فشيئاً نتيجة كثرة الحروب التي أضعفتها ضعفاً شديداً ، وكان آخر ملوك الأباطرة الرومان وهو « دقلديانوس » ، قد حاول إصلاح ما فسد منها ، معتمداً في ذلك على تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين : يقع أحدهما تحت سيطرته وهذا الجزء كان « روما » ، أما القسم الثاني فهو « ميلانو » ، ويقع تحت قيادة حاكم آخر .

ويعد وفاة « دقلديانوس » سقطت الإمبراطورية الرومانية ، ويظهر الإمبراطور « قسطنطين » ( ٣١٣ - ٣٣٧ م ) بدأ عهد جديد وحدث فيه ممتلكات الإمبراطورية ، ولكن تحت لواء الإمبراطورية البيزنطية ، وكانت بيزنطة عاصمتها الشرقية ، وأصبحت روما العاصمة الغربية لهذه الإمبراطورية الجديدة .

## ● الفن الهيلينستي ومدى إنتشاره :

تعتبر الفترة التي ظهر فيها الفن الهيلينستي هي " الأكثر إنفتاحاً في التاريخ القديم لمنطقة الشرق الأوسط ، ومن الشرق إلى الغرب بدأت في الظهور حضارة جديدة

(1) René Huyghe : L'Art Et L'homme I, Librairie Larousse, Paris, 1957, P. 331.

(٢) نعمت إسماعيل علام : فنون الشرق الأوسط في الفترات ( الهيلينستية المسيحية - الساسانية ) ، الطبعة

الثانية المعدلة ، ( دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ) ، من ٦٢ .

اعتمدت على الدين والشعر والعلوم<sup>(١)</sup>. فقد إنتشر هذا الفن في مدن كثيرة ، إتخذ فيها طابعاً وأسلوباً معيناً بما يتفق وطبيعة البلاد التي نشأ بها ، فعلى سبيل المثال عندما ظهر هذا الفن في مصر\* فإن أسلوبه قد إختلط بأسلوب الفن الفرعوني المصري ، وظل جنوب مصر محتفظاً بأساليبه المصرية القديمة ، أما الجزء الشمالي فيظهر فيه التأثير الهيلينستي بوضوح وخاصة في الأسكندرية التي أصبح لها شأناً عظيماً في عهد البطالمة، ولكنه بدأ يقل تدريجياً في ظل الحكم الروماني .

كما ظهر الأسلوب الهيلينستي بوضوح في سوريا والمدن المجاورة لها في العمارة والنحت والتصوير ، وإتخذ فيها هذا الفن إتجاهاً نحو الأسلوب الواقعي سواء في تنفيذ الأعمال أو إختيار الموضوعات المستمدة من الأحداث اليومية أو تصوير الشخصيات الواقعية كما هي في الطبيعة .

ويجدر الإشارة هنا إلى أن أكثر الآثار الهيلينستية الشرقية لم يعثر عليها في سوريا ويؤكد ذلك الدكتور ، عفيف اليهنسي ، بقوله : " ويبدو أن الأحداث التاريخية والحروب المستمرة أتت على هذه الآثار فلم تترك في مجال التصوير أثراً يذكر ذلك أن الصور الجدارية ( الفريسك ) والفسيفساء السورية إنما يرجع أكثرها للعهد الروماني "<sup>(٢)</sup>. أما المدن التي ظهرت فيها هذه الأساليب الهيلينستية والتي تقع على الحدود السورية ، هي مدينة ، تدمر ، ومدينة ، البتراء ، ، ومدينة ، دورا أوروبوس ،\* ، وقد كان لكل منها له دوراً كبيراً في التجارة القديمة في عهد السلوقيين وكانت القوافل التجارية تسلك طرقاً عديدة كانت سبباً في ربطها بجميع مدن الشرق الأوسط ، كما كانت هذه المدن واقعة تحت الحكم الروماني ، وبالرغم من ظهور التأثير الروماني بهذه المدن السابقة ، إلا أن التأثير الهيلينستي الشرقي قد تغلب عليه ، وظهر ذلك في معبد بمدينة بعلبك بسوريا الذي إصطبغ بطابع شرقي يميزه عن أي مبنى روماني مع أن المهندسين المنضدين له كانوا من الرومان .

---

(1) René Huyghe : L'Art Et L'homme I, Librairie Larousse, Paris, 1957, P. 331.

(\*) كانت مصر أولى الدول التي إنتشر فيها الفن الهيلينستي ..

(٢) موسوعة تاريخ الفن والعمارة - الفنون القديمة، ( دار الرائد اللبناني ، الحازمية ، لبنان ، ١٩٨٢ ) ص ٢٢٠ .

(\*) ■ تدمر ، نشأت في الصحراء السورية في عهد الفرثيين وكان يطلق عليها أيام الإغريق اسم « بالميرا ، وتعني مدينة النخيل .

■ البتراء ، تقع هذه المدينة بالقرب من العقبة في الصحراء السورية التي تقع في شرق الأردن وخضعت للحكم الروماني في بداية القرن الثاني الميلادي .

■ دورا أوروبوس ، إحدى المستعمرات الهيلينستية التي أنشأها أحد قواد الإسكندر في الصحراء السورية عند منتصف نهر الفرات في القرن الرابع قبل الميلاد . وترجع شهرتها إلى مجموعة اللوحات الجدارية ذات الطابع الهيلينستي الشرقي .

وتأتى مدينة أنطاكية فى المرتبة الثانية فى الأهمية بعد مدينة الأسكندرية ، وهى مدينة سورية شيدها الملك د سلوقس ، قائد المنطقة الشرقية فى عهد الإسكندر ، ومؤسس الأسرة السلوقية وقد كان تصميمه لمدينة أنطاكية على غرار تصميم المدن الإغريقية السابقة ، وكانت من أشهر المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الهيلينستية أيضاً ، ويرجع ذلك إلى تصوق السلوقيين عن غيرهم من الحكام والملوك الإغريق فى نشر الحضارة الهيلينية ، فضلاً عن حماسهم فى نقل مظاهر الحضارة فى هذه الأقطار ، بالإضافة إلى أن الحكام السوريين أنفسهم كانوا أكثر ميلاً وحباً لهذه الفنون الإغريقية .

وإستمر هذا الفن ممتداً حتى بعد تأسيس الإمبراطورية الرومانية ولم يكن للرومان تأثيراً واضحاً على الحضارة والفنون فى الممتلكات الشرقية - التى كانت تابعة لحكم الإسكندر وخلفاؤه - بل حافظت على هته الأساليب الهيلينستية فيها ، كما شجعت الفنانين الإغريق على إخراج العديد من الأعمال الفنية ذات الطابع الهيلينى ، واكتفت روما بسلطتها القيادية فى إدارة هذه البلاد حيث أن الرومان قد احبوا الفنون الإغريقية ولم يكن فى استطاعتهم تنفيذ مثل هذه الأعمال الفنية . والراى السائد يضع روما فى المقام الثانى بعد اليونان ، مع أن اليونان وروما قد إنتفع كل منهما بالآخر ، ولكن روما إكتفت بهذه المكانة السياسية وحرصت على الإستفادة من الدروس اليونانية فى سبيل تشكيل ثقافتها ونفها .

وقد صاحب ظهور هذه الولايات الجديدة التابعة للحكم الرومانى إنتشار الفن الهيلينستى فيها مثل « جنوب الجزيرة العربية ، وشمال أفريقيا ، وفى جنوب الجزيرة العربية ( اليمن حالياً ) إنتقل هذا الفن عن طريق الإتصال التجارى بينها وبين الأسواق فى الشمال فى كل من مصر وسوريا » وتدل الحفريات التى أجريت فى المدن اليمنية على أن أهم حقبة حضارية لقبائل سبأ تقع فى الفترة ما بين عام ٣٥٠ إلى عام ٥٠ ق . م . وهى الفترة التى تلت غزو الإسكندر المقدونى لبلاد الشرق الأوسط وانتشرت الهيلينية فيها ، وكانت السفن المصرية البطلمية ترابط فى البحر الأحمر فوصلت الهيلينستية إلى اليمن عن طريق الأسكندرية <sup>(١)</sup> . كما أن اليمن قد تأثرت كثيراً بالأسلوب الرومانى الذى وصل إليها بواسطة سوريا ، كما أن التأثير الهيلينستى إنتشر بصورة أوضح فى العصر الرومانى وذلك لأن الرومان تغفلوا فى قلب الجزيرة العربية أكثر من الإغريق <sup>(٢)</sup> .

(١) نعمت إسماعيل علام ، فنون الشرق الأوسط فى الفترات ( الهيلينستية - المسيحية - الساسانية ) ، الطبعة الثانية . ( دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ) ص ٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

أما منطقة شمال أفريقيا فقد كانت تضم ثلاث مدن هي ليبيا وتونس والجزائر وكانت لبدة الكبرى وصبراته أهم المراكز الفنية في ليبيا، حيث عثر فيها على كثير من الآثار مثل بازيليكاً لبدة ، كما عثر على بازيليكاً ومسرح في صبراته يغلب على تصميمهما التأثير الروما إغريقي .

ونتيجة لتسرب هذه الأساليب الرومانية الجديدة شيئاً فشيئاً إلى الفنون الهيلينستية وتغلّبها عليها أن بدأ هذا الطابع الهيلينستى الشرقى فى الإختفاء تدريجياً وحل محله الطابع الرومانى الذى أصبح له السيادة فى الأعمال الفنية فيما بعد .

### ● العوامل التى أثرت فى تكوين الفن الهيلينستى :

هناك بعض العوامل التى ظهرت فى المجتمع الهيلينستى نتيجة لإتصال اليونانيين بالمجتمعات الشرقية الجديدة واختلاطهم بهذه الشعوب المتعددة الأجناس ، وكان ذلك سبباً فى خلق عالم خاص يجمع بين هذه المجتمعات الغربية ، ويفرض عليها التعامل مع تلك الظروف الجديدة التى اعتمدت على تألف الفنون والحضارات القديمة الهيلينستية والشرقية ، وقد اختلفت هذه المجتمعات فى ثقافتها عن الثقافة اليونانية ، التى كانت مركزاً لإشعاع هذه الحضارة الجديدة فى المدن الشرقية ، وبالرغم من ذلك لم يكن تأثير هذه الثقافة اليونانية له الغالبية المطلقة ، وإنما ظهر فيها التأثير الشرقى أيضاً ، وكانت هذه إحدى العوامل التى أثرت فى تكوين طابع الفن الهيلينستى ، ويؤكد ذلك «د. عفيف البهنسى ، بقوله : " لم يكن التيار الشرقى منحسراً أيام الإغريق فنحن نذكر التأثيرات الواضحة على الطرز المعمارية وخاصة الطراز الكورنثى الذى حمل رموز الرشاقة والإنبثاق والترف والخيال . ولكن وقد استقر الطابع الإغريقي على الأرض العربية ، وفى مصر بكل قواه ، كان لابد أن نشهد صراعاً بين أصول الفن العريق الروحى وبين أصول الفن الإغريقى المادية " (١). ويضيف قائلاً : " صحيح أن النحت الهيلينستى كان أكثر واقعية من النحت الإغريقى ، ولكن ما قدمه الشرق من أسرار النفس فى تعابير الوجوه كان يرفع هذه الواقعية إلى المستويات الروحية التى تهز المشاعر وتثير العواطف الدافئة ، أما ملامح الغضب والألم واللوعة وتعابير الحب العذرى أو الشهوانى التى بدت على وجوه التماثيل الهيلينستية ، فكانت من مظاهر الرومانسية الحاملة التى إصطبغ

(١) موسوعة تاريخ الفن والعمارة - الفنون القديمة ، (دارالرائد اللبنانى ، الحازمية ، لبنان ، ١٩٨٢) ، ص ٢١٨ .

بها الشرق في جميع العصور" (١) . وبالإضافة إلى هذا العامل الروحي كانت هناك بعض "الإتجاهات الجديدة التي شكلت الأدب والفلسفة اليونانية بطرق عديدة نتيجة لتغير الأوضاع السياسية والتغيرات الإجتماعية التي أجبرت اللذين عاشوا فيها وعاصروها على تبني مواقف مختلفة نحو الحياة ، كما كان لها تأثيراً على فنونها ، وبذلك تكون هناك خمسة إتجاهات مميزة للعصر الهيلينستي هي : السعى إلى الثراء ، العقلية المسرحية ، العقلية الدراسية ، القرنية ، النظرة العامة الخالية من التعصب القومي " (٢) . وقد شكل كل إتجاه من هذه الإتجاهات تأثيراً خاصاً على الفنون التشكيلية في العصر الهيلينستي في جميع فروعها وتخصصاتها ، يمكن ذكرها على النحو التالي :

### ١ - السعى إلى الثراء :

يتمثل السعى إلى الثراء في إعتقاد اليونانيين بأن حياة الترف والرفاهية هي التي شكلت دولة قوية ذات سيطرة ونفوذ ، ومن ثم تحافظ على كيانها بين الدول ، كما تسنى للمقدونيين من قبل المعتقدين في ذلك الثراء الذي يتحقق من خلال الحظ أو الشهرة ، كما أوضحت الكاتبة "جيجي بوليت" (J. Pollett) أن بعض "الرجال يفكرون في كيفية التحكم في الظروف أو التكيف معها ، وأن الفلاسفة اليونانيين يرون أنه من الممكن الوصول إلى الكمال من خلال الإستقلال ، واتباع الأديان اليونانية يلجأون إلى الآلهة القادرين على إخراجهم وراء حدود القدر ، وغيرهم يرون أن السحر والصور قادرة على حمايتهم وجلب الحظ السعيد إليهم " (٣) .

أما النموذج الذي يعبر عن الحظ والثروة هو صور الإسكندر ، وهي كانت دائماً إما عبارة عن منحوتات أو نماذج منقوشة على العملات المعدنية ، وكان الإسكندر يعتبر عندهم حليفاً للحظ ومصدراً له كما كانت له القدرة على إبعاد سوء الحظ عنه ، وأوضح مثال لذلك هو لوحة الفسيفساء التي تصور الإسكندر وقد حالفه الحظ وانتصر على ملك الفرس ، لوحة شكل (١٨) .

### ٢ - العقلية المسرحية :

أما بالنسبة للعقلية المسرحية وهي ثاني العوامل التي أثرت في الفنون الهيلينستية ، فهي تمثل نوعاً خاصاً من الحياة التي ظهرت في اليونان القديمة وميزتها

(١) المرجع السابق ، نفس المكان .

(٢) J.J. Pollett, Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, New York, 1986, P.1.

(٣) Ibid., P. 2.

عن الدول الأخرى ، حيث كان المسرح يقوم فيها بدور أساسى فى حياة الشعب بأسره ، فقد كان الأفراد فى العصر اليونانى يرون أن حياتهم تمثل دوراً فى مسألة الحظ ، ويرون انفسهم تارة يلعبون دوراً وتارة أخرى يرون أنهم مشاهدين لا بد ان يروا أحداثاً جديدة ومدهشة . وقد ذكرت \* جيچى بوليت (J. J. Pollett) (1) رأى احد المورخين مثل : بايون<sup>(Bion)</sup> الذى أشار إلى الحظ قائلاً : " إن الحظ مثل المسرحية التى تنقسم إلى عدد من الأجزاء والأدوار ( كالمقبطان والفقير والمنفى والملك والمتسول ) وان كلاً منهم عليه ان يلعب دوره ببراعة " (1) . وخلاصة القول ان المسرح قد توغل فى حياتهم واندمج بها إندماجاً شديداً ، مما أدى إلى عدم انفصال أحدهما عن الآخر .

وقد ظهر ذلك فى العديد من الأعمال النحتية والتصويرية خاصة موضوعات الزخرفة العامة والموضوعات المسرحية التى سيطرت على الفسيفساء الهيلينستية ، مثل اللوحات التى تصور الأفعنة المسرحية المختلفة ، كما يظهر فى لوحة شكل رقم (١٩) وهى عبارة عن مساحة مستطيلة من الفسيفساء - تزين دار (Faun)\* فى مدينة بومبي - صورت عليها الأفعنة المسرحية وسط مجموعة من الفواكه والثمار والأزهار ، ويبدو هذا التكوين مزدحماً ومتداخلاً بحيث تمتلئ مساحة اللوحة بالأشكال التى لا تعطى مجالاً لظهور الخلفية إلا فى أماكن قليلة تخللت هذه العناصر المرسومة .

### ٣- العقلية الدراسية :

بالإضافة إلى إعتقاد اليونانيين فى أهمية الثراء ودوره فى الحفاظ على كيان المجتمع الهيلينستى ، فقد كانت هناك أفكاراً سائدة تؤمن بأهمية العقلية الدراسية التى تمثل طبقة المثقفين والفلاسفة ، وكانت قيمة الفرد لديهم تتحدد بمدى إتساع ثقافته وإدراكه لما يحيط به ، وقد توافرت هذه العقلية الدراسية فى مكتبة ومتحف الأسكندرية ومكتبة برجامون \*\* التى إشتلعت على العديد من الثقافات والدراسات المتخصصة فى كافة المجالات .

(1) Op. Cit, P.6.

(\*) تبنى إله الغابات والحدائق والحقول فى روما القديمة ( له قرون الماعز وأرجلها ) .

(\*\*) إحدى مدن العالم الهيلينستى القريبة ، وتقع فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، وقد إشتهرت فى مدينة الأسكندرية بصناعة المعادن فى ذلك العصر .



وكثير من الأعمال الفنية إرتبطت بهذا الإتجاه وذلك عن طريق إنتاج مجموعة من الأعمال كان الغرض منها الحفاظ على الأدب القديم للأجيال السابقة أو تصوير الموضوعات الأسطورية أو الخرافية ، والتي ظهرت من قبل في أعمال بعض الكتاب أو الشعراء ، وكان هدفها تعليمياً أيضاً يتلخص في شرح أسباب الطقوس العديدة ، والتعريف بالأحداث التاريخية والسياسية وأسماء الأماكن بالإضافة إلى الرغبة في تنمية الإحساس والوعي الفني لدى الأفراد وذلك عن طريق كيفية تذوقها وتلقيهم لهذه الأعمال الفنية ، فكانت هذه الأعمال تتمتع بالمهارة الفنية وتحمل في داخلها الجودة العلمية التي يقتصر فهمها على مجموعة قليلة من الأفراد .

وإن إيجابية العمل الفني وسلبيته تتوقف على درجة المعرفة الثقافية وإدراك الفرد نفسه لجميع المعايير الأدبية والفنية لهذا العمل والتي من خلالها يستطيع هذا العمل أن يقوم بدور ثقافي من نوع آخر مماثل في أهميته الثقافة المكتسبة من الكتابات والأعمال الأدبية .

#### ٤. الفردية :

تمثلت الفردية في المجتمع الهيلينستي في أهمية الفرد التي تهدف إلى تحقيق الإكتفاء الذاتي لنفسه مستبعداً الإعتماد على المجتمع في تحقيق رغباته والوصول لأهدافه ، وعلى سبيل المثال تعتبر الجنود المرتزقة نموذجاً للتعبير عن الفردية في المجتمع الهيلينستي حيث كانوا يتنقلون عبر المدن المختلفة والمقاطعات الهيلينستية سعياً وراء تحقيق الثروة والمكاسب المادية التي تكفل لهم العيش في ظروف اقتصادية مستقلة ، وقد شبهوا بالفلاسفة القادرين على تحقيق الإكتفاء الذاتي لأنفسهم من خلال نشر بعض الأفكار الفلسفية التي تتعلق بالكون وكيفية إدارته ، وقد ظهر مذهبان مختلفان في ذلك الرأي أحدهما المذهب الأبيقوري\* ، الذي يشير أتباعه إلى عشوائية الطبيعة ، في حين أن الرواقيين\*\* يؤمنون في حتمية القدر ، وبالتالي إنتقلت هذه الأفكار وتخلقت في أذهان الكثير من أبناء المجتمع ونشأ عنها حدوث اضطرابات داخلية لدى كل فرد في هذا المجتمع ، وقد لجأ الفلاسفة والأدباء والشعراء إلى التعبير عن هذه الحالات الفردية الناتجة عن اضطراب الأذهان والإنفعالات الداخلية الخاصة بكل فرد في صورة كتابات أدبية تعبر أو تحكي عن السير الذاتية للشخصيات التاريخية أو السياسية البارزة .

(\*) نسبة إلى أبيقور أحد الفلاسفة اليونان الغمامي ويتلخص منعبه في أن الكون يمثل تجمع عشوائي للذات وأنه

لا يوجد إله كوني أو حياة بعد الموت .

(\*\*) أتباع المذهب الرواقي (المذهب الثالث) وهو أحد المذاهب الفلسفية اليونانية الممارضة للمذهب الأبيقوري .

ثم إنتقلت منهم إلى الفنانين اللذين إنبهروا بالأفعال والتعبيرات الملزمة للحالات النفسية المتقلبة للأفراد والشعوب التي تأثرت بذلك الحافظ القوى ، وهذه المساعي نحو تقدير الجوانب الداخلية للنفس تعكس الشعور القوى بالعالم الهيلينستي ، وإن ما يشهده الفرد أهم مما يشهده المجتمع من تجارب ، وبذلك ظهرت مجموعة من الأعمال الفنية التي تعبر عن هذه الفردية التي سادت في العصر الهيلينستي وأصبح الطابع المميز لهذا الفن يعتمد على إهتمام النحاتين والرسامين والمعماريين في الكشف عن التجربة والطبيعة الداخلية للفرد ، يؤكد ذلك مجموعة التماثيل التي تصور الوجوه بتعابيرها المختلفة والتي بلغت مكانة فنية خاصة في ذلك الوقت .

## ٥. النظرة العامة الخالية من التعصب القومي ؛

يتلخص هذا الإتجاه في نظرة اليونانيين الموضوعية لسكان الشعوب الجديدة والتي خضعت لسيطرة الإسكندر وأصبحت من ضمن العالم الهيلينستي ، وأصبح كل مواطن في هذا العالم يشعر بالإنتماء لعالمه الجديد ، بالرغم من نسبته إلى مجتمع وولد آخر .

" والإسكندر الأكبر هو أكثر من تمسك بهذه الرؤية التي ترى ان جميع الأمم والأجناس في العالم تمثل مجتمعاً واحداً حيث ان كل فرد فيه يحتل مكانة معينة ، ونتيجة لذلك أصبح المجتمع الهيلينستي يتمتع بالقوة ويسعى إلى تحقيق الوحدة الطبيعية بين شعوبه المختلفة وأدرك اليونانيون أهمية الثقافات الجديدة التي تتحلى بها المجتمعات الأخرى وأخذوا يقتبسون منها ما يناسبهم مما كانت تتمتع به هذه المجتمعات من مزايا فنية خاصة ، وأن ثقافتهم لا تتفوق في جميع الجوانب ، وقدم الرومان إلى العالم الهيلينستي أدى إلى إبراز هذا الإتجاه لأن الرومان كان لهم تقليد ثقافي يفخرون به وقدرتهم على التنظيم السياسي والعسكري أفضل من قدرة اليونانيين وكانوا قادرين أيضاً - وقت الحاجة - على إستيعاب التراث الثقافي والفكر الفني للثقافة الهيلينستية .

ونتيجة لهذه الإختلافات الثقافية في العالم الهيلينستي والإيمان بهذه النظرة الكونية العامة، أن إصطبغ الفن في هذا العالم بطابع جديد أعم وأشمل ، إختلف عن الأساليب السابقة حيث إهتم الفنان من خلاله بخلق صوراً عديدة من الأنماط الإنسانية الخاصة بالمجتمعات التي تصور فئات متوسطة من المجتمع على خلاف ما يتعلق بالفردية التي إهتمت بتصوير الشخصيات البارزة ، ولكن هذا الطابع كان له إتجاه سلبي ،

حيث سيطرت صور الغرياء والعاجزين والمستنين والأطفال والشواذ على الموضوعات التصويرية والنحتية . وتصوير هذه الفئات أدى إلى التقليل من شأن المثالية والرقى التي إتسمت به هذه الأعمال الفنية الهيلينستية واتجهت بها إلى الأسلوب الواقعي الذي يصور الحياة الإجتماعية .

وأوضح مثال على ذلك تصوير فئة الأقرام التي اشتهر بها فن التصوير في مدينة الإسكندرية ، ثم إنتقل بعد ذلك إلى مدينة يومبي وظهرت تلك الفئات في لوحات تصويرية عديدة .

### ● الفسيفساء الهيلينستية وأهم موضوعاتها :

عرفت الفسيفساء في العصر الهيلينستي وإستخدمها الفنانون بكثرة في تزيين جدران وأرضيات الحمامات والقاعات معتمدين في ذلك على أنواع مختلفة من هذه الفسيفساء التي تنوعت بين الحصى الصغيرة ، والمكعبات الحجرية ، أو قطع الزجاج الصغيرة ، أو الرخام أو مزيج من الحصى ولقطع الرخام .

وقد تردد البعض في نسبة هذه الفسيفساء ونشأتها إلى بلاد اليونان فقد

إكتشفت نماذج قديمة منها في مدينة « جورديون » ، والتي تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد ويرى بعض الدارسين أنها تعود إلى آسيا الصغرى والشرق الأقصى ، وبالرغم من ذلك هناك أدلة على أن هذا الفن نشأ في اليونان ويؤكد ذلك " إكتشاف مجموعة من أعمال الفسيفساء في مدينة أولينتوس\* . تنتمي إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وهذا الإكتشاف يملا فجوة هامة في تاريخ هذا الفن ويشير إلى مدى التأثير المباشر لأعمال الفسيفساء على الزخرفة الهيلينستية " (١) .

ومن أقدم الخامات التي إستخدمت في تنفيذ هذه الفسيفساء اليونانية هي الحصى المستديرة التي كثر إستخدامها في الأرضيات ، وقد " إقتصرت إستخدام الألوان فيها على اللون الأبيض في الأشكال والنماذج ، واللون الأسود في الخلفية ثم إستخدم بمد ذلك اللون الأحمر الداكن والأخضر الرمادي والقرمزي " (٢) . وقد إتخذت هذه الأرضيات اشكالا هندسية أو قسمت إلى مساحات تشكيلية لا تحتوى على أية تصميمات فنية معينة.

(\*) أولينتوس الإسم القديم لمدونيا .

(1) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacker Art Books, New York, 1935, P.47.

(2) P.B. Hetherington , Masaics, Paul Hamlyn , London, 1967, P. 8.

ولكن مع التطور الشكلي أو التصويري للفسيفساء في اليونان الذي بدأ في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ، وشاع في القرن الرابع قبل الميلاد الذي يعود إلى ازدهار التقليد المحلي القديم ، بدأت محاولات الفنانين في الوصول بهذه الفسيفساء لأرقى صورها ولم يتم تنفيذها عشوائياً ولكنها كانت تتم تبعاً لتصميمات أو رسومات أولية ، وظهرت هذه الطريقة بوضوح في فسيفساء مدينة « بيلا » ( العاصمة المقدونية ) حيث تزخرف هذه الفسيفساء إثنين من المباني التي يرجح أن تكون من القصور أو المقابر الملكية أو منازل لبعض النبلاء المقدونيين ، وربما يكونا جزءاً من قصره كاسندر ، ( ٣١٦ - ٢٩٧ ق. م . ، اود انتيجونوس جوناتاس ، ( ٢٧٢ - ٢٣٩ ق. م ) والفسيفساء الأولى تظهر في شكل ( ٢٠ ) والتي تزخرف المبنى الأول - تنتمي لموضوعات التصوير الملكي - تصور موضوع صيد الأسد الذي ينتصف اللوحة ويقف بين رامي الرمح من جهة والسياف من جهة أخرى ، ونلاحظ ظهور هذه الأشكال الثلاثة على خط أفقي واحد تقريباً ، ونلاحظ التعبير عن قوة الحركة في وضع السياف الذي يرفع يده ليهوى بها على الأسد وقد حاول الفنان إظهار تشريح العضلات في جسده إلى حد ما ، كما يبدو ذلك في حركة الرجل الآخر .

وأسلوب وضع الصيادين في اللوحة " يعتمد على التصميم الوتري الذي أصبح الأسلوب الشائع للتصوير اليوناني منذ النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد " (١) ثم إنتقل إلى بعض زخارف الفسيفساء بعد ذلك ، ويقلب على اللوحة الطابع الكلاسيكي الذي يبدو في محاولة الفنان نقل ملامح الوجوه ، ولكنه إبتعد عن تجسيمها وسبب ذلك يعود إلى نسرة الدرجات اللونية في فسيفساء الحصى ، وترجع دقة الملامح فيها للطبقات اللاصقة التي تتخلل الحصى . كما إهتم الفنان بدراسة الشكل الطبيعي لجسم الأسد مع مراعاة البنية في رسم قدميه ومخالبه .

وتبدو الواقعية أيضاً في تسجيل ثنايا الرداء أو العباءة التي يضعها كل من الصيادين على جسديهما بالإضافة إلى رغبة الفنان في التعبير عن قوة حركة أحد الصيادين ، ويؤكد ذلك مبالغته في رسم رداء السياف المتطاير في يمين اللوحة .. واستخدمت الألوان بقلّة في هذه الفسيفساء فقد ظهرت الأجسام بلون فاتح تصاحبها درجة لونية متقاربة تتضح في جسد الأسد والأرعية ، أما اللون الأحمر فقد إستعمل بكثرة في شعر الأسد ويتكرر ظهوره في أدوات الصيد وأطراف الأردية في حين إنتشر إستخدام

(1) J.J. Pollett, Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, New York, 1986, P. 40.

اللون الأسود في الخلفية التي لم تظهر بها أية أشكال أخرى مما يبرز جمال العناصر الأساسية في اللوحة بالإضافة إلى التضاد اللوني الذي تحقق بين هذه العناصر والخلفية القاتمة ، كما يتبغى الإشارة إلى عدم إهتمام فناني الفسيفساء بوضع الحصى بطريقة معينة حيث إتخذت إتجاهات عشوائية خاصة في جسد الصيادين الخلفية ، وقد إستخدمت في هذه اللوحة خيوط الرصاص المصبوبة التي كانت تحدد الخطوط الخارجية للأشكال . ويرجع إليها الفضل في إظهار ملامح الوجوه بدقة - كما يبدو في عين الأسد - وكانت توضع أيضاً في الأطر الخارجية المحددة للوحة بشكل عام ، وقد إستمر استخدام هذه الطريقة في أعمال كثيرة من الفسيفساء .

وقد وجدت أعمال فسيفساء أخرى موجودة في المبنى الثاني المدينة « بيللا » منها لوحة الفسيفساء التي تصور موضوع صيد الغزال يبدو ذلك في شكل (٢١) ، وتظهر فيها محاولة الفنان في خلق إحساس بالعمق من خلال الضوء والظل ، والإعتماد على التدرج اللوني مما أدى إلى إستخدامه حصاً أكثر دقة ، " ويبدو أن فنان الفسيفساء كان يسعى إلى إنتاج نفس الأثر الذي تحدثه لوحة الفريسك وليس الأثر الناتج من الرسم على الزهريات " (١) . كما حدث في فسيفساء المبنى الأول فهذا العمل يمثل مرحلة متقدمة من فسيفساء الحصى ، كما إختفت خيوط الرصاص التي كانت قد ظهرت من قبل في اللوحة السابقة ، شكل (٢٠) ، وحلت محلها خطوط رقيقة من الحصى الأسود مما يقود الفنان إلى نفس النتيجة المرجوة من استخدام الخيوط المحددة للعناصر لإبرازها ، ومما يميز هذا العمل من الناحية الفنية عن غيره من الأعمال السابقة توافر بعض التقنيات الجمالية مثل محاولة الفنان في خلق العمق - كما سبق الإشارة - ورغبة الفنان في إظهار الإنسجام اللوني بين عناصر اللوحة والإطار الخارجى الذي يظهر به تفريمات وأشكال نباتية ، كما أن التدرج اللوني ظهر بوضوح في جسد الغزال ، والذي نراه بوضوح في شكل (٢١- أ) .

وإعتمد التصميم في هذه اللوحة على الشكل الهرمى الأكثر إتزاناً ونباتاً ، ويبدو ذلك في إتجاه الغزال المتعارض مع إتجاه الكلب الصغير وكليهما محصورين بين الرجلين الواقفين على جانبي اللوحة ويميل كل منهما إلى الداخل ، مما نتج عنه تكوين ذلك الشكل الهرمى ، كما نلاحظ في هذه اللوحة أن حركة الصياد المرسوم في يمين اللوحة تشبه إلى حد كبير حركة الصياد المرسوم في اللوحة السابقة شكل (٢٠) ، والتي يظهر

فيها الصياد على يمين اللوحة يسار الأسد ، وهذه اللوحة تشهد تطوراً ملحوظاً في التعبير عن قوة الحركة بالنسبة للصيادين المتمثلة في تطاير قبعة أحدهما والأردية ، كما أن رسم الذرايع مرفوعين بقوة نتج عنه ظهور عضلات كل منهما ، وذلك يؤكد لنا ظهور الأساليب الفنية الإغريقية في محاولة رسم الجسد البشري بدقة ، ودراسة التشريح الطبيعي للحيوانات ، ويبدو ذلك في تغيير شكل الجسم نتيجة الحركة المنيفة الناتجة عن مقاومته للصيادين بدقة رسم المفاصل ورفقتها ، كما تتجلى الواقعية في الدماء التي تسيل من جسد الغزال ولسانه المتدلى من فمه ، بالإضافة إلى التعبيرات المنعكسة على وجوه الصيادين التي يبدو عليها الفزع والتعب من مهاجمة هذا الحيوان .

ولا يفوتنا في هذه اللوحة ملاحظة أقدام الصيادين التي تتعارض أوضاعها مع اجسام الحيوانات المرسومين وتتداخل مع الخطوط التي تمثل الأرضية وكان الفنان قد حرص فيها على الإيحاء بالجو الطبيعي المحيط بمشهد الصيد ، وهذا المشهد تم تنفيذه على خلفية سوداء اللون كما تبين في اللوحتين السابقتين .

كما ينبغي الإشارة إلى أن هذه اللوحة من " تنفيذ الفنان « جنوسيس » الذي يعد محترفاً في المهارات التصويرية والذي يناهس في ذلك الرسامين المعاصرين ، وهو أحد مؤسسي الروح المثيرة للعواطف التي سادت الفن الهيلينستي " (١) .

وهناك لوحة أخرى من فسيفساء هذا المبنى الثاني تعبر عن المهارات الفنية التي تشير إلى نضوج فن الفسيفساء بالحصى ، وهي تصور مشهد إختطاف تيزيه \* هيلين\*<sup>٢</sup> تظهر في شكل (٢٢) ، تشغل هذه اللوحة مساحة كبيرة ، " وتعتمد في تصميمها على " التكوين الشريطي " (٣) . الذي يحيط به إطار زخرفي من الخارج والذي يظهر بعض أجزاءه في الجزء العلوي من اللوحة حيث تساقطت أجزاء كثيرة منها . ويحتوى التكوين على قائد عربي ، تيزيه ، التي تجرها أربعة خيول ، في حين يظهر تيزيه ، محاولاً خلف « هيلين » ومشاعر الخوف والهلع تبدو واضحة على وجهها ، وذلك في محاولة من الفنان للوصول بهذا العمل إلى قمة التعبير الفني المصاحب لمشهد الإختطاف وتتجلى الواقعية . بالإضافة إلى واقعية الموضوع . في رسم التشريح الطبيعي للخيول وحركتها المنيفة

(1) Op. Cit. P.41.

(٢) تيزيه ، ملك أسطوري لأثينا في الأساطير الأهرقية القديمة

(٣) هيلين ، ابنة " لينا " وزوجها " ميتاليس " وكان إختطافها سبباً لإندلاع حرب طرواده .

(2) Jean Charbonneau , Roland Martine , François Villard , Grèce Hellenistique 330 - 50 Av .  
J . c . , Gallimard , 1970 , P.103 .

الناجمة عن مفاجأة الموقف وقسوته ، فضلاً عن ثوب « هيلين » المتطاير والذي بالغ الفنان في رسم ثنياه ، وبالرغم من ان الخيول الأربعة تتجه إلى يسار اللوحة مما يأخذ عين المشاهد بعيداً عن الموقف الدرامي إلا أن الفنان قد نجح في ربط نصفي اللوحة من خلال تغيير اتجاه رأس قائد العربية الذي يقودنا إلى الموقف ذاته .

وارتفاع الأشخاص في اللوحة يقترب من الحجم الطبيعي وربما يزيد عنه مما يعطيها مزيداً من القوة والأهمية وهم يقفون جميعاً ( الأشخاص والخيول ) على خط واحد تقريباً فيما عدا « هيلين » ، التي خصها الفنان بارتفاع بسيط وكأنه يريد أن يخبرنا بأنها العنصر الأساسي في اللوحة .

وبالرغم من وصول فسيفساء الحصى لأقصى درجات جمالياته الفنية ، إلا أنه كان هناك دائماً محاولات عديدة من الفنانين للوصول بلوحة الفسيفساء إلى حد بعيد من الدقائق التصويرية ، وذلك لن يتحقق إلا بالتخلي عن استخدام الحصى في هذه الفسيفساء وإدخال أنواع جديدة من " المكعبات الحجرية الصغيرة الملونة التي عرفت بإسم (Tessellated) وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية (Tessella) وتعني المكعب الصغير " (١). وفي أحيان أخرى كانت تضاف إليها قطع الزجاج الصغيرة الملونة .

وقد تنوعت الموضوعات التي احتوت عليها فسيفساء الحجر والزجاج وصنفتها

بميجين بوليت في كتابها الفن في العصر الهيلينستي إلى " خمس فئات أساسية هي :

- ١ - المشاهد الأسطورية ، وهي تمثل أفضل الأعمال الفنية ولكنها نادرة .
- ٢ - الموضوعات المسرحية مثل المشاهد من المسرحيات المختلفة والممثلين والأقنعة المسرحية وذلك شائع جداً وهي لا تعكس فقط الشعبية العامة للمسرح الذي يمثل وسيلة من وسائل الترفيه في العالم اليوناني ، ولكنها تعكس أيضاً العقلية المسرحية في هذا العصر .
- ٣ - الزخرفة العامة التي تعتمد على الحيوانات والمخلوقات الغريبة مثل القنطور وايروتس\* المجنح .
- ٤ - التصوير الملكي والسياسي مثل فسيفساء الإسكندر وهذه الموضوعات نادرة جداً .

(1) J.J. Pollett, Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, New York, 1986, P.

(\*) أحد آلهة الحب الصغار أبناء « المرويت » ، في العصور اليونانية وهي « فيتيوس » ، في العصور الرومانية .

## ٥ - المشاهد الطبيعية مثل فسيفساء مشاهد من بريست<sup>(١)</sup> .

وقد ظهرت هذه الموضوعات المتنوعة في فسيفساء مدن كثيرة لم تقتصر على « بيللا ، العاصمة المقدونية ، بل وجدت أيضاً في كل من ديلوس ، برجامون ، الأسكندرية ، انطاكية ، بومبي\* ، بالإضافة إلى مدن شمال أفريقيا التي أصبحت مستعمرات رومانية ، وقد استمرت الأساليب الهيلينستية بها فظهرت هذه الموضوعات أيضاً في كل من تونس والجزائر .

وبالنسبة للموضوعات ذات المشاهد الأسطورية فهي تظهر في قليل من الأعمال المنقذة بالفسيفساء ، فقد عثر في بومبي على عدد قليل منها ، ويرجع ذلك إلى أن اللوحات الجدارية المنقذة بالقرسيك كانت تلامس هذه الموضوعات والشخصيات الأسطورية<sup>(٢)</sup> . واللوحة شكل (٢٣) تصور مشهد تصارع « ثيزون ، مع « مينيتور ، وهي تعتبر أقل جودة من الناحية الفنية إذا ما قورنت بأعمال الفسيفساء الأخرى ، ويتضح ذلك في عدم تناسق النسب التشريحية لجسد « ثيزون ، الذي يصارع « مينيتور ، كما أن الفنان لم يتحرر الدقة في رسم ملامح وجوه السيدات اللاتي تقفن في الخلفية ، ويتابعن هذا الموقف ، بالإضافة إلى سناجة الشكل المعماري المرسوم في الخلفية والذي يلي جسد « ثيزون ، مباشرة مما زاد من ثقل اللوحة في هذه الناحية فأدى إلى فقد عنصر الإتزان فيها .

وتتجلى الموضوعات المسرحية بوضوح في معظم أعمال الفسيفساء في مدينتي « ديلوس ، و « بومبي ، على سبيل المثال حيث عثر على مجموعة من الصور المليئة بالموضوعات المسرحية والشخصيات المقنعة في دار مشهورة بمدينة « ديلوس ، تعرف بدار الأقنعة يمكن نسبتها إلى أسرة من الممثلين وهي ذات مساحة كبيرة بها أصمدة كثيرة وممرات تؤدي في النهاية إلى أربع حجرات أساسية ، توجد الفسيفساء في إحدى غرف الطعام الأساسية بها ، ويظهر بها خمس أقنعة كوميدية ، وهذه الرؤوس تبعد عن بعضها البعض وتظهر بدون رقاب ، وتتصل فيما بينها ببعض الخطوط المنحنية التي تشكل فروع تخرج منها أوراق نباتية .

(1) Ibid. P. 213.

(2) Op. Cit. P.228.

(\*) بومبي ، بالرغم من أنها مدينة رومانية ، إلا أنه لا بد أن نتذكر أنه حتى إقامة المستعمرة الرومانية فيما بعد عام ٨٠ ق.م. فإنه من الأنسب أن نسميها بأنها إيطالية يونانية ، وعثر فيها على أعمال تشهد جودة وتنوع الفسيفساء اليونانية .



وفيما يبدو أن هذه المساحة من الفسيفساء لا تحتوى على أية عناصر أخرى سوى الأقمعة ، حيث أنها انحصرت بين خطين من أعلى ومن أسفل ، وارتفاع الرؤوس فيها يتراوح ما بين ٣٠ : ٤٥ سم .

وفي الجانب الشمالى من هذه الدار توجد مجموعة من أعمال الفسيفساء "مثل تلك الأرضية التى تصور ديونيسيوس " \* يمتطى الفهد ويمسك فى إحدى يديه دف صغير ، واليد الأخرى بها عصاً رفيقة ، يظهر ذلك فى لوحة شكل (٢٤) .

ويتضح فيها الأسلوب الجديد ذو المكعبات الصغيرة الملونة ، حيث تتمتع هذه الفسيفساء بالحس اللونى الذى يميزها عن فسيفساء الحصى السابقة ، وقد نجح الفنان فى إظهار الإضاءة على وجهى كل من « ديونيسيوس » والفهد ، والإهتمام بالتدرج اللونى فى ثيابا الملابس التى يرتديها « ديونيسيوس » ، والقى تشبه كثيراً الملابس المسرحية للممثل التراجيدى ، وكذا الإهتمام بإبراز مناطق الظل والنور فى جسد الفهد ، بالإضافة إلى الحرص على رسم الملامح والتفاصيل فى الوجوه ، وتسجيل الطبيعة فى دقة رسم مخالبا الفهد . وإبتعد الفنان عن استخدام اللون الأسود فى الخلفية فتظهر هنا ملونتها للون الأخضر الأرجوانى ، وتظهر فيه مكعبات صغيرة ذات لون فاتح متناثرة فى وسط الخلفية التى ظلت خالية تماماً .

أما فى فيلا « سيسيرون » فنجد لوحتين تعبيران عن المشاهد المسرحية (يرجع تاريخهما إلى القرن الثانى قبل الميلاد ) وكل منهما تمثل تقليداً لعملين أصليين ، (يرجع تاريخهما إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ) ، قام بتنفيذهما الفنان الناسخ « ديوسكوريدوس » ( Dioscourides ) من ثميس ( Thmuis )

اللوحة الأولى تظهر فى شكل (٢٥) ، وهى تصور مجموعة من الموسيقيين الجائلين فى أحد الشوارع العامة لمدينة بومبي ، ويتكون المشهد من رجلين يرتديان ملابس ثقيلة ويضع كل منهما قناعاً على وجهه ، وأحدهما يمسك دفاً فى يده ، ويؤدى حركات راقصة مع الرجل الآخر ، وهنا يظهر بوضوح الميل إلى التعبير عن الحركة التى تميز بها فن التصوير الهيلينستى ، كما تقف سيدة تعزف الغلوت مرتدية قناعاً على وجهها أيضاً ، ويؤكد واقعية الموقف الطفل الصغير الذى يقف بجوار السيدة .

(\*) ديونيسيوس ، إله الخمر عند الإغريق وهو ابن « زيوس » ويعرف بالإله « باكوس » عند الرومان .

وتتميز هذه اللوحة بجمال الألوان وهندستها حيث تفوق الفنان في اختيار هذه الدرجات اللونية لمكعبات الفسيفساء والتي تنوعت ألوانها بين الدرجات الوردية والزرقاء ، والصفراء المنهية في الملابس وفي خصلات شعر السيدة في أماكن سقوط الضوء ، والدرجات البنية اللون التي استخدمت في الظلال .

كما نجح الفنان أيضاً في نقل الإحساس بالضوء الطبيعي الذي أضفى على المشهد عنصر الحيوية وتسبب في تكوين ظلال الأشخاص التي ظهرت على الحائط والأرضية .

أما اللوحة الثانية فهي تصور مشهداً كوميدياً ( زيارة إلى الساحرة ) شكل (٢٦) ، وتبدو فيها ثلاث سيدات تغطى وجوهن الأقنعة ، وهن جالسات على الأرائك - تجلس الساحرة على يمين اللوحة - يتخفن في ذلك الوضع شكلاً نصف دائري وتتوسطهن متضدة مستديرة ، وقد إهتم الفنان بدراسة ثانياً ملابس السيدات الثلاثة ، كما تظهر الواقعية في أجسامهن البدنية ، كما إهتم بدراسة تفاصيل قطعة النسيج المبسوطة فوق الأريكة التي تعلوها وتجلس عليها السيدة في يسار اللوحة ، وقد حرص فيها الفنان على إظهار أماكن الضوء والظل ، وتميزت بالألوان الزاهية .

وتختلف الإضاءة في هذه اللوحة عن إضاءة اللوحة السابقة ، فهي تعتمد هنا على الإضاءة المباشرة التي تعطي إنعكاساً مباشراً على الأشكال وتظهر الظلال الحادة بها ، تبدو واضحة في إحدى اقدام المنضدة وكتف السيدة المرسومة في يسار اللوحة ووجهها ، كما تظهر أيضاً على وجه السيدة المجاورة لها .

وتظهر خطوط سوداء من مكعبات الفسيفساء في كتفي كل من السيدتين الجالستين على اليسار وفي أماكن الظلال الفاصلة بين الأشكال ، كما يتضح في قطعة النسيج والوسادة .

في هذه اللوحة نرى محاولة جديدة لشغل مساحة الفراغ في الخلفية ، فرسمت بعض المساحات المستطيلة أفقية ورأسية تقابلت في أعلى يسار اللوحة ، وتميزت بالألوان البسيطة الهادئة ، وفي قاعدة اللوحة يتكرر ظهور هذه المساحات المستطيلة التي زينت ببعض الزخارف التي اختلفت فيها كل واحدة عن الأخرى .

والى جانب الموضوعات المسرحية ظهرت موضوعات الزخرفة العامة في كل من مدينة «بيلا» و«بومبي» . ففي مدينة «بيلا» توجد نماذج تؤكد وجود هذه

الموضوعات التي تعتبر إحياء للموضوعات الزخرفية التي ظهرت في العصر اليوناني القديم ؛ مثل الفسيفساء التي احتوت على أشكال الحيوانات ومخلوقات خيالية مثل صور صيد الأسود وفسيفساء « ديونيسيوس » التي يظهر فيه التنين يصارع الإبل ، كما كانت هناك أشكالاً للقناطير\* التي شاع ظهورها في الفن الهيلينستي .

كما وجدت لوحات فسيفساء في « ديلوس » في دار الأقتعة تحمل نفس الموضوعات ومنها لوحة شكل (٢٤) ، التي سبق الحديث عنها وتم تصنيفها ضمن الموضوعات المسرحية ، وقد اختلف البعض في نسبتها أيضاً لموضوعات الزخرفة العامة حيث تتوسط هذه اللوحة لوحتين أخريتين ، تظهر في إحدهما صورة قنطور يمسك كأس نبيذ طويل الشكل والأخرى يظهر فيها قنطور يمسك شمعداناً .

واللوحة شكل (٢٧) تعرض تفصيلية من لوحة الفسيفساء التي تصور « إيروس » ( إله الجنس ) وتظهر بدار أولياء العهد في مدينة « ديلوس » ، ويظهر في ركنها العلوي إيروس يقود سمكتين كبيرتين يمتطى واحدة منهما ، وتحتوي على مجموعة من الزخارف الهندسية والمنحنية التي تميزت بترواء الألوان وزهالها ، وهي تتخذ أشكالاً دائرية تحيط بمركز اللوحة ، كما تحدد اللوحة من الخارج بإطار زخرفي أسود اللون وتظهر به وحدات زخرفية متكررة نفذت بالمكعبات البرتقالية اللون ويتداخل جسدي السمكتين وتتقاطعان معاً مما نتج عنه فروع بسيط تتبين منه مقدرة فنان الفسيفساء الذي أحسن اختيار أماكن مكعبات الفسيفساء واتجاهاتها التي أكدت جمال وبساطة العناصر المرسومة .

كما فرق الفنان بين لون جسم السمكة الأولى التي تميزت بالألوان الزاهية من الأخضر والأزرق والبرتقالي ، والتي لا تظهر في السمكة الثانية حيث سيطرت عليها درجات الأخضر القاتم ، كما نلاحظ دقة الخطوط وورقتها التي ظهرت فوق السمكتين ، ويمسك بإطرافها « إيروس » ، بالإضافة إلى اهتمام الفنان بتسجيل أدق التفاصيل ، ويبدو ذلك في تنفيذ جسم « إيروس » ، الصقير الحجم وعيني السمكتين وأسنانها .

وظهرت مكعبات الفسيفساء ذات الدرجات الفاتحة المتباينة في خلفية الأشكال مما يبرز جمالها ، وقد تم ترديدها في زخارف الأطر الداخلية مما يحقق التوافق والإتزان اللوني في اللوحة .

(\*) القناطير جمع كلمة قنطور ، وهو الحيوان الخرافي الذي يتصل فيه جسد الإنسان بجسد الحصان حيث حل فيه النصف العلوي لجسم الإنسان محل رأس الحصان وربته .

ويتمثل أسلوب الزخرفة العامة في برجامون في عمل فني عبارة عن مجموعة من الحمام يقف على حافة إناء للشرب وصور الحمام هذه - من تصميم «سوسوس» أشهر فناني فسيفساء الأرضيات - وقد أصبحت من التماذج الشعبية في الفسيفساء القديمة ، وهناك مثالا لها في ديولوس وعديد من الأمثلة منها في مدينة بومبي وأخرى في إيطاليا ، وأفضل هذه الأعمال موجودة في فيلا « هادريان » في مدينة تيفولي . تظهر في اللوحة شكل (٢٨) وهي تعتبر نموذجاً لتكوينات الطبيعة الصامتة ، وقد نوع الفنان في رسمه لأوضاع الحمام وحركاته المختلفة ، كما أنه راعى الدقة في نقل الشكل الطبيعي وإظهار الإتجاهات الطبيعية في الأجنحة ، وتوضح براعة الفنان في تنفيذ عناصر لوحته والتفريق بين خاماتها المختلفة التي تنوعت بين الإناء والماء بداخله ، والقاعدة الرخامية وأجسام الحمام .

وقد نفذت هذه اللوحة على أرضية زرقاء اللون واتخذت درجات قاتمة في أجزاء ودرجات زاهية في أجزاء أخرى ، كما إهتم الفنان بتجسيم الإناء الذي ظهر بصورة تبدو حقيقية من خلال استخدام الضوء والظل الذي يتضح أيضاً في قاعدة اللوحة ، ويحيط باللوحة إطار زخرفي ذو أشكال مبسطة .

وتجلى هذه الزخرفة العامة بوضوح في مدينة بومبي في العديد من أعمال الفسيفساء ، يوجد بعضها في دار إله الغابات (Faun) في الغرف الخاصة بالطعام ، حيث توجد مجموعة من لوحات الفسيفساء والتي تصور مجموعة من الأسماك والكائنات البحرية نشاهد إحداها في لوحة شكل رقم (٢٩) ، وشكل (٣٠) ، وهي لوحة أخرى تحمل نفس الموضوع وتشبه الأولى كثيراً ، ولكنها لا تنتمي لتلك الدار ، وكلتاهما يظهر فيها مجموعة من الأسماك التي يتوسطها الأخطبوط - في منتصف اللوحة .

نرى في اللوحة الأولى مجموعة من الألوان المتعددة التي تناسب الموضوع الزخرفي بالإضافة إلى أنها كانت توضع في غرف الطعام فتضفي على المكان نوعاً من الجمال والبهجة ، ولكن هذه اللوحة تتميز بتصميم غريب إلى حد ما ، حيث أنها تصور منظراً فوق سطح الماء ، ولكن الأسماك تنتشر في اللوحة وتمتد إلى السماء ، كما نرى فيها أسلوباً جديداً في معالجة الخلفية التي قسمها الفنان إلى قسمين ، البحر من أسفل الذي توجد به مجموعة من الصخور على جانبيه بالإضافة إلى مساحة السماء العليا التي تظهر بها الأسماك ، كما نرى فيها الدرجات اللونية القاتمة التأثير من أسفل وتنتج إلى أعلى في درجات أقل عمامة حتى تصل إلى الدرجات الزرقاء الفاتحة اللون في منتصف اللوحة ، مما يوحي بالبعد ويعطي إحساساً بأن هناك اشكالا قريبة وأخرى

بعيدة ، ويحدد هذه اللوحة من الخارج إطار زخرفى به أشكال زهور مجردة ترتبط مع بعضها بواسطة فروع نباتية تشبه إلى حد كبير الأعشاب والنباتات المائية التي تميزت بالألوان الزاهية على الأرضية السوداء .

أما اللوحة الثانية يبدو أن الفنان قد صور فيها قاع البحر حيث ظهرت بعض الصخور في مقدمة اللوحة ووسطها - كما في اللوحة السابقة - بالإضافة إلى عتامة لون الخلفية التي لا تتخللها أية إضاءة - ولم يظهر إطار زخرفى يحيط باللوحة من الخارج بالرغم من تميز الفسيفساء الهيلينستية بوجود هذا الشريط الزخرفى في كافة اللوحات والأرضيات مهما اختلفت وتباينت المساحات الكلية لها .

وكل من اللوحتين السابقتين يظهر عليهما الطابع الحركى الذى يأخذ العين في جميع أنحاءهما ، وذلك تحقق من خلال إهتمام الفنان المصمم برسم الأسماك في حركات ملتوية وإتجاهات مختلفة ، أكثرها وضوحاً يبدو في اطراف الأخطبوط الذى يتوسط كل منها .

وفي نفس الدار السابقة عثر على لوحات فسيفساء تصور مجموعة من الحيوانات الأليفة والمتوحشة ومجموعة من الطيور والزواحف التى تسبح في الماء تظهر في لوحة شكل (٣١) - جزئية من اللوحة الأساسية، وقد حاول الفنان الإهتمام بهذا العمل من الناحية التشكيلية رغم بساطة فكرته وذلك عن طريق الحرص على إظهار إنعكاس صور هذه الحيوانات والطيور في الماء وتسجيل الأمواج البسيطة الناتجة عن حركتها ، وقد تخللت هذه المياه مجموعة من الحشائش والنباتات الصغيرة - إنتقلت هذه النوعية من الموضوعات من فسيفساء الأسكندرية وموضوعاتها النيلية - والألوان برغم تنوعها إلا أنها محدودة حيث تتقارب ألوان الطيور والزواحف معاً ، كما أن الفنان لم يوفق في إختيار لون المياه ، بالإضافة إلى عدم تنفيذها كما ينبغى فتبدو وكأنها أرض سستوية نراها عند النظر بدقة في الأماكن التي لا تظهر فيها إنعكاسات الأشكال في المياه ، وقد كانت إتجاهات مكعبات الفسيفساء في الأشكال ناجحة إلى حد ما ، كما أن الفنان قد نجح في إستخدام بعض الدرجات اللونية التي توحى بالظل والنور فظهرت الطيور بشكل مجسم مقبول ، ولكن إتجاهات المكعبات في الخلفية نفذت في خطوط أفقية موازية لبعضها البعض ، وذلك بعد تحديد العناصر المرسومة بمكعبات الفسيفساء التي توازى الخطوط الخارجية لها .

أما موضوعات التصوير الملكي والسياسي فهي التي تصور المعارك الحربية والأحداث السياسية، وهي نادرة جداً، وأشهر لوحات الفسيفساء في هذا المجال لوحة الإسكندر الأكبر، التي تسجل إنتصاره على ملك الفرس « دارا ». وقد سبق الإشارة إليها في شكل (١٨)، وقد عثر عليها في يومى في دار إله الغابات تزين إحدى الجدران. وهي مستسخة عن أصل يوناني قديم إلا أنه بوسعنا أن نستشف كيف تفجرت مشاعر الفنان اليوناني الذي أبدع الأصل ليكشف عن المغزى الدرامي في اللقاء بين العالم اليوناني والعالم الشرقي<sup>(١)</sup>.

وتتميز هذه اللوحة بكثرة شخصوها التي تتلاحم معاً في معركة عنيفة إنعكست آثارها على وجوههم، وخاصة وجهى كل من « الإسكندر، المنتصر على « دارا، المهزوم الذي خيم الوجود على وجهه، وتبدو الواقعية في حركات أقدام الخيول المضطربة من هول المعركة، يظهر بعضها يحاول الهروب والبعض الآخر يسقط تحت أقدام الخيول الأخرى، وشكل (١-٣٢) يوضح ذلك وهو يعرض جزئية من هذا المشهد المتلاحم الذي يظهر من خلاله الحركات العنيفة للأشخاص والخيول، ويبدو ذلك أيضاً في تطاير خصلات ذلي الحصانين، كما ترى فيها وجه الإسكندر وما يحمله من تعبير يوحي بالشجاعة والإقدام.

تميزت هذه اللوحة بالثراء اللوني الذي تحقق من خلال استخدام الكميات الصغيرة الحجرية المتعددة الألوان مع الزجاج - وهذا الأسلوب يعرف باسم (Opus Vermiculatum) وهذه الفسيفساء تتكون من مليون قطعة حيث يوجد حوالي ثلاثين قطعة (مكعب) في السنتيمتر المربع الواحد<sup>(٢)</sup>. حيث أن كل لون احتوى على عدد كبير من الدرجات اللونية التي تتيح للفنان الوصول إلى أقصى درجة من الواقعية في تصوير الأشكال بحيث تبدو وكأنها لوحة فريسك، يظهر ذلك بوضوح في شكل (٣٢-ب) - تمثل جزئية أخرى من نفس اللوحة الأساسية - التي ترى فيها رأس الحصان بحركة ملتوية وقد نفذت كل منهما بكل دقة، بالإضافة إلى الإحساس بالقوة والحيوية التي تبدو في نظرة الحصان.

(١) ثروت مكاشة، تاريخ الفن الروماني (المجلد الثاني - التصوير)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

١٩٩٣، ص ١٧٦.

(2) J. J. Pollett, Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, New York, 1986, P.212

أما المشاهد الطبيعية فتظهر في فسيفساء تغطي الأرضية المجاورة لمعبد هورتونا بريمنجينا (Fortuna Primigenia) في مدينة بالسترينا (Palestrina) بريست (Preneste) سابقاً ، وقد تساقطت أجزاء كثيرة من هذه الفسيفساء نتيجة لتعرضها للنقل أكثر من مرة ، فقد تم نقلها إلى روما عام ١٦٢٦م ثم إعادة مرة أخرى إلى بالسترينا عام ١٦٤٠م ، وتم ترميم هذه الأجزاء حسب التصميم الأصلي ولكن مع التخلي عن بعض التفاصيل الأصلية التي لم تؤثر على الشكل العام للوحة ، ويظهر ذلك في لوحة شكل (٣٣) ، ونلاحظ فيها الخروج عن الشكل التقليدي للوحات في ذلك الوقت التي كانت تتخذ اشكالاً مستطيلة او مربعة .

ويمكن نسبة هذا العمل إلى أحد الفنانين اليونانيين وهو من اصل مصرى ، كما يتميز الموضوع نفسه بالروح المصرية وهو مقتبس من الموضوعات المصرية النيلية التي تصور النخيل والقوارب التي تسبح في النيل مع وجود الحيوانات الأليفة والمتوحشة ، كما تظهر مجموعة من المباني المصرية المنتشرة على ضفاف النيل مع المعابد المصرية اليونانية ، يتضح ذلك في لوحة شكل (٣٣- ١) التي تمثل جزئية من اللوحة السابقة ، ويظهر في جزئها الأول مجموعة من الأشخاص يرتدون ملابس الجتود ويتناولون الطعام امام المعبد الذي يتقدم للوحة ، وقد تحقق في هذا الجزء التدرج اللوني الذي إهتم الفنان فيه بإظهار جماليات العلاقات اللوتية من خلال إنتقاء الدرجات المناسبة التي استخدمها في تجسيم الشكل المعماري وأجسام الشخصوس المرسومة ، كما حرص على إظهار مناطق ظلال الأشجار الساقطة على المنازل وظلال الأشخاص على الأرضية .

وفي خلفية المشهد تظهر مجموعة من الأشجار والنخيل والقوارب والمباني التي تعبر عن البيئة المصرية حيث كانت تتجمع هذه البيوت حول وادي النيل التي تظهر في صورة مبالغ من الفنان الذي وضعها وسط مياه النيل .

ونلاحظ حرص الفنان المنفذ لهذه الفسيفساء على إظهار انعكاس الأشكال المرسومة في مياه النيل ، ويبدو ذلك في أماكن محددة وقد تفوق فيها عن فنان الفسيفساء المنفذ للوحة بومبي شكل (٣١) ، الذي عمل على إظهار أمواج خفيفة نوعاً في مياه النيل نتيجة لحركة الحيوانات والقوارب التي تكسب الممثل الفني شيئاً من الواقعية المقبولة بدلاً من الجمود الذي سيطر على شكل المياه في فسيفساء بومبي .

كما وجدت بعض هذه الموضوعات السابقة في أعمال الفسيفساء التي عثر عليها في شمال افريقيا بالأخص في تونس والجزائر ، فقد إكتشفت في كل منهما لوحات

فسيفساء إشتملت على مناظر نيلية مقتبسة من فسيفساء الأسكندرية وموضوعات أخرى اسطورية ، وموضوعات للزخرفة العامة التي ظهرت في تكوينات الطبيعة الصامتة وموضوعات صيد الأسماك والحيوانات ، وكانت هذه اللوحات تزين جدران وأرضيات المنازل والمباني الضخمة .

وبالرغم من العثور على مجموعات كثيرة من فسيفساء الأرضيات واللوحات التي إحتوت على موضوعات متنوعة إلا أن فسيفساء شمال أفريقيا بالمقارنة بالفسيفساء الهيلينستية السابقة تعتبر أقل جودة من الناحية الفنية . كما يجدر الإشارة إلى إلقاء الضوء على الفسيفساء التي ظهرت في كل من الأسكندرية وأنطاكية وموضوعاتها بصفة خاصة وذلك بما إحتلته هاتين المدينتين من مكانة مرموقة بين مدن العالم الهيلينستى .

### ● الفسيفساء الهيلينستية في كل من الأسكندرية وأنطاكية ،

تعتبر كل من مدينتى الأسكندرية وأنطاكية من أهم المدن التي تميزت بوجود الفن الهيلينستى بها ، وأصبحت كلتاهما من أهم مراكز إشعاع هذا الفن ، وقد سبقت الأسكندرية مدينة أنطاكية في هذا الشأن ، وذلك لأنها قد أسست من قبل في عهد الإسكندر المقدونى ، - كما سبق الإشارة إليها - بالإضافة إلى أنها " كانت أكثر من غيرها تقبلاً للحضارة اليونانية التي لم تكن جديدة على مصر ، فإن الإتصال بين الحضارة المصرية والحضارة اليونانية بدأ قبل تأسيس الأسكندرية بزمن بعيد " (١) . كما كان للأسكندرية أهمية خاصة ترجع إلى موقعها الإستراتيجى الذى جعلها ملتقى لكثير من الأجناس المختلفة ، فضلاً عن مكانتها الثقافية التي إكتسبتها نتيجة لوجود المتحف والمكتبة التي وصل عدد محتوياتها إلى سبعمئة ألف كتاب ، مما كان دافعاً قوياً لإستلهم الفنانين العديد من الأفكار التي ساعدت على إنتاج الأعمال الفنية المختلفة ذات الطابع الخاص الذي تميز بالواقعية في تصوير مواقف الحياة اليومية وقد وصف الدكتور هنرى رياض ، هذا الفن ، " بقوة التعبير التي بدت على الوجوه ، كما لم تخل الموضوعات السكندرية من روح الفكاهة التي ظهرت في الأعمال التصويرية التي ظهرت بها مجموعة من الأقزام كما كانت النساء الديدنات موضوعاً مرتاداً في التصوير السكندرى " (٢) .

(١) هنرى رياض - الفن اليونانى حتى أحر المصمر الهيلينستى ، محيط الفنون ، الفنون التشكيلية ، ( دار

المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ) ، ص ٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٩ .



## فسيفساء الأسكندرية ،

ويرجع ظهور فن الفسيفساء فى الأسكندرية كما يذكر الكاتب داسزوسكى (Daszewski) " إلى اليونانيين اللذين قد جلبوا بعض هذه الأعمال المنفذة بالفسيفساء إلى مصر خلال القرن الرابع قبل الميلاد وأرتبط وجوده بالمستوطنين اليونان والمقدونيين والمصريين " (١) ، وكانت بعض هذه الأعمال ذات جودة عالية .

وقد وجدت مجموعة كبيرة من أعمال الفسيفساء فى الأسكندرية إلا أنه كان هناك إفتقاراً فى نوعية الفسيفساء التى تزخرف الأرضيات وسبب ذلك أنه إقتصرت إستخدامها على طبقات خاصة فيها حيث كانت تزين أرضيات القصور الملكية ، مثل مجموعة أعمال الفسيفساء التى عثر عليها فى بعض المنازل الفاخرة والتى تغطى الأرضيات " وأكبر عدد من هذه الفسيفساء ( حوالى سبعة وستون عملاً متكاملًا وثلاث وستون عملاً غير متكامل ) ترجع إلى الأسكندرية والمناطق المجاورة لها مثل أبو قير والمعصرة وجزء من منطقة ماريوت (Marcoitis) القريبة من العاصمة والتى إعتمدت فى تنفيذها على تصميم الدائرة داخل المربع وهو من الملامح المميزة للعديد من أرضيات مباني وقصور الأسكندرية منذ العصور الرومانية " (٢) .

وأوضح الأمثلة على ذلك لوحة شكل (٣١) ، ولوحة شكل (٣٥) فالأولى تزخرف منزلاً فى المعصرة ، والثانية عثر عليها فى منطقة الشاطبى وهما عبارة عن مساحات زخرفية محددة بأطر خارجية كمادة الفسيفساء الهيلينستية وفى أحيان أخرى تظهر الأرضية مقسمة إلى مثلثات أو مربعات كما يبدو فى لوحة شكل (٣٦) ، وتظهر فيها أرضية بمنزل بمنطقة كوم الدكة ، وتصور مجموعة من الطيور التى رسمت داخل المربعات التى تتصل ببعضها ويفصل بينها أطر خارجية تشبه الأطر التى تحدد لوحات الفسيفساء المستقلة .

ومعظم هذه الأعمال السابقة إستخدم فيها اللونين الأبيض والأسود ، كما ظهر إستعمال الألوان فى بعض الأعمال الأخرى . " وفى الغالب أن تقليد إستخدام الفسيفساء الزجاجية قد نشأ فى مصر اليونانية حيث أن المصريين كانوا مولعين بالزخرفة الملونة " (٣) ومنها إنتقل إلى العديد من مدن العالم الهيلينستى .

(1) Alexandria and Alexandrianism , The J . Paul Getty Museum Malibu , California , 1996 .

P. 145 .

(2) Ibid , P.145, 146 .

(3) Edgar Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacher Art Books, New York,1935,P.50.

وقد تميزت الأعمال المكتشفة في كوم الدكة باختلافها عن الأعمال الأخرى في أسلوب تنفيذها حيث أن عيون الطيور في اللوحة السابقة شكل رقم (٣٦) " لم تتكون من قطع الفسيفساء ، وإنما تكونت من حلقات زجاجية تحاكي ترتيب المناطق اللونية للعين " (١). وذلك يذكركنا بأسلوب المصريين القدماء في استخدام العيون الزجاجية في تماثيل مصر الفرعونية .

وبالإضافة إلى هذه الموضوعات السابقة ، ظهرت أعمال فسيفساء تصور وجوهاً آدمية، وهناك مثالين لهذه النوعية من الأعمال كليهما من مدينة ثميوس ( في الإسكندرية ) أحدهما يمثل الأصل والآخر عبارة عن نسخة مكررة منه .

ويظهر في الأول لوحة شكل (٣٧) صورة ، وجه امرأة تحمل صاري السفينة على رأسها واتخذت طريقة تصفيف الشعر هيئة مقدمة السفينة ومن المحتمل أنها تكون تعبيراً عن مدينة الإسكندرية، ويعد هذا العمل من الأمثلة النادرة لموضوعات التصوير السياسي المنقذة بالفسيفساء .

وتتميز ملامح وجه السيدة بالقوة والجمود وذلك يرجع إلى استخدام الخيوط الرصاصية في تحديدها ، وتظهر هذه الرأس داخل مجموعة من الأطر الخارجية ، أوضحها الإطار الأوسط الأكثر سمكاً والذي تظهر به مجموعة من الخطوط المتداخلة ، أما النموذج الآخر فنراه في لوحة شكل (٣٨) ، وهي تعتبر نسخة من الأصل السابق وتتمتع بنفس الخصائص السابقة ، في وضع السيدة المرسومة ونظرتها الجامدة وملامحها الحادة ولكنها تختلف عن الأخرى في الإطار الخارجي الذي يتخذ شكل الدائرة ويمتلئ بزخارف لوحات هندسية مجردة ، بالإضافة إلى أن خلفية اللوحة السابقة لم تظهر بها إلا بعض الخطوط البسيطة التي يصعب تحديدها بسبب تعرض بعض أجزائها ( أجزاء اللوحة ) للسقوط ، أما اللوحة التي نحن بصدد الحديث عنها فيظهر الجزء المتبقى من الخلفية وقد امتلأ تماماً ، كما نلاحظ سقوط الفسيفساء في الناحية اليمنى لوجه السيدة .

وترجع أهمية فسيفساء الإسكندرية إلى انتقال أشكال ورسوم الحيوانات المختلفة والمناظر النيلية التي ظهرت في أعمال الفسيفساء إلى كثير من مدن العالم الهيلينستي ، حيث ظهرت بوضوح في بومبي ، حيث عثر على بعض اللوحات التي تحتوي على مناظر نيلية من بينها آلهة الحب الصفار وسط الحيوانات الضخمة .

(1) W. A. Daszewski , Alexandria and Alexandrianism , The J . Paul Getty Museum Malibu , California , 1996 . P. 150 .

كما إنتقلت هذه الموضوعات إلى مدن شمال افريقيا فى ليبيا وتونس والجزائر تزخرف ارضيات القصور والمباني بالإضافة إلى ما وجد بمتاحف هذه المدن من أعمال تحتوى على رسوم الطيور والأسماك البحرية .

## فسيفساء أنطاكية :

ترجع معظم أعمال الفسيفساء فى أنطاكية إلى ما بين القرنين الثامن والثالث الميلاديين ، وهى تنتمى للفترة الرومانية ، وذلك لأن معظم أعمال التصوير الجدارى والفسيفساء فيها قد إختفت إثر الحروب والأحداث المدمرة التى قضت على كثير من هذه الأعمال الفنية .

والغالبية العظمى لموضوعات الفسيفساء فى أنطاكية عبارة عن نماذج مصغرة من الإلياذة أو تسجيل ومعالجة لبعض القصص المسرحية والقصائد الشعرية ، التى سبق وأن ظهرت على العديد من الأباريق والزهريات مصورة لحظات درامية معنية نقلت كما هى إلى موضوعات الفسيفساء .

وقد نسبت هذه الكتابات الأدبية إلى إثنين من الشعراء هما " د هومير ، واوريبديس ، اللذين قد ألهما خيال الفنانين المعنين بالتعبير التصويرى عن الموضوعات خلال العصور الهيلينستية والرومانية " (١) . فقد كانا مصدراً لجميع الموضوعات التى تم تنفيذها بالفسيفساء وكان الفنانون فى تنفيذهم لهذه الموضوعات يعتمدون على تسجيل المشاهد الروائية من خلال تصوير مشهد يلى الآخر ، وذلك عن طريق تكرار ظهور نفس الممثلين الأساسيين بنفس الملابس والخلفيات المرسومة إذ لم يستدع إختلاف الحدث تغيير خلفية الصورة .

وأوضح الأمثلة التى تصور هذه الموضوعات هى خمس لوحات فسيفساء تغطى ارضية ( هيللا فى مدينة دافنى ) نختص بالذكر منها أربعة لوحات فقط موضوعة على هيئة صليب بحيث توجد اللوحة المركزية فى المنتصف، ويذكر الكاتب كورت ويتزمان (Kurt Weitzmann) أنها تعتبر أشهر وأفضل الأعمال الدرامية المعروفة للمشاهد فى العصور القديمة ، التى تمثل مفتاح المشاهد الأخرى المصورة حول المركز ، وذلك لأنها تمثل احسن الأعمال الدرامية لأوريبديس " (٢) . وتتفق هذه اللوحات فى موضوعها الذى يعبر عن الحب المتبادل بين ابطال المسرحيات او الشخصيات الأسطورية.

(1) Kurt Weitzmann, Classical Heritage in Byzantine Near Eastern Art , Various Reprints , London , 1981 , P. 233 .

(2) Ibid, P. 239 .

أولاً فى اللوحة المركزية والتي نراها شكل (٣٩) يظهر فيها - بالرغم من اختفاء جزئها الأيمن - اربعة اشخاص من بينهم طفل صغير فى يسار اللوحة ومن بقايا الفسيفساء يتضح ان الأجسام المرسومة لسيدتين حيث تبدو أجزاء من شعر كل منهما ، وإحدهما تغطى شعرها بوشاح ، ويتوسطهما رجلاً يرتدى ملابس فاخرة ، فى حين ان الرداء الذى ترتديه السيدة على يمين اللوحة ، والوشاح الذى تضعه على رأسها يختلف عن الزى اليونانية المعتادة ، وكان مقصد الفنان من ذلك ان يظهرها كسيدة اجنبية .

وهذه اللوحة تصور الحوار القائم بين « ميديا ، و « جيسون ، \* كما انها تكشف عن الحب المكبوت بينهما ، يبدو ذلك فى حركة جسم السيدة وتردها وإحجامها وهى متجه ناحية ( ناحية جيسون ) ، ولولا تعرض هذه الفسيفساء لهذا التلف البالغ لتمكنا من رؤية جميع التفاصيل فى اللوحة سواء فى حركات الأيدي أو تعبيرات الوجوه أو الثياب المرتدية .

وتتميز هذه اللوحة عن اللوحات الأخرى المحيطة بها ، بأنها ذات مساحة مربعة وتحيط بها ثلاثة اطر خارجية ، لوحظ فيها إهتمام الفنان بها عن الأطر المرسومة فى اللوحات الأخرى التى تحتوى على إطارين فقط ، وتشارك جميعها فى شكل الإطار الخارجى الذى يشبه الأمواج المجردة والمتتابعة ، توحى بالحركة والإستمرارية فى اتجاهاتها ، وقد إنتقل هذا الشكل فى الإطار الزخرفى إلى أعمال الفن البيزنطى ، ونجده محيطاً بكثير من لوحات الفسيفساء التى تزخر بها الكنائس البيزنطية .

وظهرت الشخصيات فى عمق اللوحة ، كما رسمت الظلال تحت اقدامهم فى الأرضية فى حين تبدو الخلفية خالية من أية اشكال .

وتتجلى الواقعية فى صورة الطفل الصغير المرسوم على اليسار وهو ممسكاً بالمصا فى يمينه ، واليد الأخرى يمسك بها يد « جيسون ، وهو متجهاً بنظره إليه ، كما ظهرت الثياب مرسومة بتفاصيلها الطبيعية ولكن دون مبالغة .

واللوحة الثانية تظهر فى شكل (٤٠) وهى إحدى اللوحات الأربعة التى تحيط باللوحة السابقة - هذه اللوحات تتخذ اشكالاً مستطيلة تتقارب فى مساحاتها الكلية - وهى تقع على اليمين من اللوحة المركزية وقد تعرضت لتساقط بعض أجزاء

(\*) إحدى شخصيات أوريبسيس المسرحية .

القسيفساء منها ويظهر فيها شخصيتين أساسيتين ، أحدهما لشاب يظهر عار ويضع معطفاً على كتفه الأيسر ويتكئ على غصن شجرة رسمت في خلفية اللوحة ، والشخصية الثانية هي امرأة تحاول الإقتراب من هذا الشاب ، يظهر ذلك في مد زراعها اليمنى ، مرتدية عباءة وتحمل درعاً ورمحاً على ظهرها ويبدو من ملابسها أنها ملكة ، ويقف بينهما « إيروتس » صغير مجنح ممسكاً بعباءة الملكة بقوة وينظر إلى الشاب في حزن ، وهي صورة تجسد لنا حب الملكة لهذا الشاب بالرغم من إعراضه عنها ، يؤكد ذلك التعبير المنعكس على وجه كل منهما .

وهذا المشهد يبدو ان أحداثه قد دارت في قصر الملك « بروتواس » وهذا ما يشير إليه المبنى المرسوم في لوحة القسيفساء ، وترتبط هذه اللوحة باللوحة المقابلة لها شكل (٤١) - والتي تقع على يسار اللوحة المركزية من حيث الموضوع الذي تظهر فيه شخصية السيدة تدعى « فيدرا » التي تكشف عن حبيها بواسطة خادمتها أو وصيفتها ، بدلاً من إيروتس الصغير في اللوحة السابقة ، لرجل يدعى « هيبوليتوس » الذي نلاحظ من خلال نظرة عينيه مدى الكراهية التي يكنها لها .

وتعتبر هذه اللوحة أفضل اللوحات وأوضحها حيث لم تتساقط فيها إلا أجزاء بسيطة على جانب الإطار الخارجى ، فظهرت اللوحة بتفاصيلها كاملة ويبدو في اللوحة « هيبوليتوس » في صورة شاباً على اليمين ويرتدى ملابس الصيد (العباءة - الرمح - الحذاء ) وهو يخاطب المرأة التي تقف في المنتصف - خادمة « فيدرا » - أما « فيدرا » فتظهر على يسار اللوحة كاشفة عن ذراعها وتلفتت إلى الشاب ، وقد نجح الفنان في رسم ملامح وجه « فيدرا » ورسم ذراعها في خطوط رفيقة كما استخدم الخطوط الهندسية إلى حد ما في رسم ثنانيا الملابس ، وتظهر هنا محاولة الفنان في إظهار البعد ورسم المنظور الذي يتمثل في عدم وضع الأشخاص والنصب المرسوم في الخلفية على خط واحد ، كما تظهر محاولات تسجيل المنظور في الشكل المعماري ( النصب ) الذي يشبه شكل نصف العمود ، وقد تمثلت أيضاً في خلى العمود المائلين إلى الداخل مع إعطاء هذا الجانب درجة لونية تعبر عن منطقة الظل فيه ، وفيما عدا ذلك تظهر مساحة الخلفية خالية وقد نفذت بلون داكن من مكعبات القسيفساء .

أما اللوحة الرابعة والتي تقع أعلى اللوحة المركزية شكل (٤٢) فتظهر بها ثلاث شخصيات لرجل وإمرأتين ترتدى كل واحدة منهما الملابس اليونانية التي إهتم الفنان فيها بإظهار الثنايات من خلال التأكيد على مناطق الظل والنور ، وتظهر « أفروديت »

فى يمين اللوحة وهى تعبر عن علاقة الحب القائمة بين الشاب «باريس» و«هيلين»، ويظهر الشاب فى ملابس اثيقة يبدو ذلك فى العيابة التى زخرفت اطرافها، وقد عبر الفنان عن تردد هيلين فى حبها لباريس عن طريق حركة يدها المرفوعة بالإضافة إلى نظراتها للشاب المائل أمامها، ويظهر فى الخلفية نصيبين على الجانبين يتكئ عليهما كل من «أفروديت»، فى اليمين، فى حين يضع الشاب ذراعه فوق النصب الآخر ويقف بجوار شجرة ذات أفرع بسيطة تحمل أوراقاً صغيرة.

وتقف الشخصيات الثلاث على خط واحد تقريباً كما ان النصيبين يقعان معاً على خط واحد خلف الأشخاص المرسومة.

وبالإضافة إلى نوعية اللوحات السابقة التى كانت تسجل احداثاً درامية أو قصصاً مسرحية، ظهرت بعض الموضوعات الأخرى التى ترتبط بالموضوعات المسرحية والزخرفية معاً ونرى ذلك فى : اللوحة التى عثر عليها فى منزل فى أنطاكية، شكل رقم (٤٣) وهى تصور مشهداً يظهر فيه ثلاثة أشخاص تتوسطهم سيدة ترتدى الملابس اليونانية ويبين الوشاح الذى تضعه على رأسها مكانتها الملكية وتمسك فى اليد اليسرى مروحة تشبه القلب أو ورقة الشجر وهى منفذة بفرجتين من اللون الأحمر من مكعبات الفسيفساء، راعى فيها الفنان مناطق الظل والنور، اما يدها اليمنى فتضعها على كتف الفتاة التى تقف بجوارها، يرجح أن تكون إبنتها ويدل على ذلك ملابسها وغطاء الرأس ولون الشعر.

وتنظر هذه الفتاة إلى الرجل الذى يقف فى يمين اللوحة ويبدو انه ملك أيضاً، وتبين ذلك من ملابسه والمعطف الذى يرتديه فوق كتفه، بالإضافة إلى الصولجان المسك به فى يده اليسرى.

وهذه اللوحة تصور مشهداً تراجيدياً يتضح ذلك من خلفية اللوحة التى يظهر فيها العناصر المعمارية والأعمدة التى تظهر فى المسرح الرومانى، ويقف الأشخاص الثلاثة على خط نصف دائرى، وقد اهتم الفنان بدراسة ثنايا الملابس التى يرتديها كل منهم بالرغم من كثافتها حتى أنها إقتريت فى أشكالها من الطبيعة، ويبدو ذلك فى الجزء السفلى من ملابس الرجل، كما اهتم أيضاً بتحديد أشكاله وثنايا الملابس بخطوط سوداء من مكعبات الفسيفساء.

وتتميز اللوحة بأكملها بالتوافق والإنسجام اللوني فيما بينها والحرص على إظهار العمق فى اللوحة من خلال إعطاء مساحات الظل فى الجزء العمارى درجات قاتمة ، فى حين إستخدمت الدرجات الفاتحة فى الأجزاء التى يسقط عليها الضوء ، ونلاحظ التدريجات اللونية فى الأرضية التى يقف عليها الأشخاص ، وقد قسمها فنان الفسيفساء إلى مساحات تحتوى كل منها على درجات معينة من مكعبات الفسيفساء تعبر عن مساحات الضوء والظل .

كما يجدر الإشارة إلى جمال التعبير البادى على وجوه شخصيات اللوحة ، بالإضافة إلى التجسيم الذى حققه الفنان من خلال إستخدام درجات لونية فى أماكنها المناسبة .

### ● التأثيرات الهيلينستية فى الفسيفساء البيزنطية :

إعتمد الفن الهيلينستى على الأسلوب الواقعى ذا الطابع الحسى الإنفعالى ، كما تبين لنا من الأمثلة السابقة ، فهذا الفن كما يذكر الكاتب ستيفن رنسيمان (Steven Ranciman) " ذا نزعة طبيعية تتسم بالجمال " (١) . وقد إهتم فنان العصر الهيلينستى بدراسة الطبيعة وتصوير كل ما فيها من الإنسان والحيوان والطيور والنبات بصورها الطبيعية وتميزت بالدقة فى نقل الملامح ومراعاة النسب الحقيقية .

ولقد أدى الفن الهيلينستى دوراً كبيراً فى تكوين الفن البيزنطى ، كما إستطاع الحفاظ على إستمرارية طابعه المميز ، وذلك بالرغم من الجفاف والجمود السائدين فى أشكال وأوضاع الشخوص البيزنطية ، حيث أن الفن الهيلينستى أضفى عليه بعض من سماته الحسية والروحية التى برزت فى محاولة الفنانين لإظهار الطابع الحركى بعض الشئ على هذه الرسوم سواء فى الأعمال التصويرية كالمخطوطات أو اللوحات الجدارية والفسيفساء ، أو فى أعمال النحت وفنون النسيج والمعادن والخزف .

وظهرت التأثيرات الهيلينستية فى الفسيفساء البيزنطية واستمرت فترات طويلة عاصرت فيها ظهور الفن البيزنطى ومراحل تطوره ، وسارت معه جنباً إلى جنب حيث تخلل ذلك فترات زمنية تنبذت خلالها علاقة الفن الهيلينستى بالبيزنطى ، وانحسرت فى سنين معينة أولها كانت فى بداية الفن البيزنطى - مراحل الأولى فى فترة

---

(١) الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

الفن المسيحي المبكر - التي اتسمت بالرمزية والبعد عن الواقع ، وهنا قد يعترض الفنانين الهيلينستيين بعض المشاكل تمثلت في " مواجهة الأساليب الفنية الجديدة ومواءمتها بأصولهم الفنية ، ولعلمهم عمدوا إلى النزول عن طيب خاطر عن طريقة رسمهم القديمة المحكمة المشابهة للحياة بكل ما فيها من أضرب التراكيب التشرحية الدقيقة والمبالغ فيها في الحين نفسه ، فضلاً عن تخليهم عن ثروتهم الكاملة من التفاصيل" (١). وهذا لا يعنى تخلى الفن الهيلينستى عن أصوله أو تراجعته عن الظهور في الأعمال الفنية البيزنطية ، ولكن وإن لم يظهر بوضوح في لوحات الفسيفساء فقد ظهر في المخطوطات البيزنطية التي أصبحت بعد ذلك تصميماتاً أصلية أو مصدر الإلهام للوحات الجدارية وأعمال الفسيفساء . ولأن خامة الفسيفساء صلبة تعطى خطوطاً جافة وقوية - فلم يستطع الفنانون من خلالها الوصول بالتعبيرات أو بالإنفعالات المختلفة على الوجوه لصورها الطبيعية التي تظهر لنا في اللوحات الجدارية الأخرى .

وبالرغم من ذلك فقد استطاع الفنان تطويع خامة الفسيفساء في تنفيذ العناصر ومحاولة تقريب حركتها من الشكل الطبيعي ، فتبين ذلك في اللوحة شكل (٤٤) ، وهي تنتمي للفترات الأولى من الفن البيزنطى ( المسيحية المبكرة) ، ونرى فيها القديس الرومانى « لورانس » ، وهو يسرع الخطى متجهاً إلى موقع إستشهاده . ويحمل الصليب في يده اليمنى والكتاب المقدس في يده اليسرى وتتطاير اطراف رداءه وعباءته يميناً ويساراً ، وكان الفنان اراد بذلك أن يعبر عن حركة القديس نفسه فضلاً عن الإهتمام بدراسة التفاصيل فيها .

ولكن مع مجئ القرن الثامن الميلادى وما ارتبط به من أحداث تحطيم الصور التي منعت تصوير الأشخاص والكائنات الحية واختفت تماماً من الأعمال الفنية ، إلا ان سيطرة الطابع الهيلينستى ظهرت في عدم تخليه عن حبه للطبيعة وتقليدها ، فعادت مرة أخرى صور الأشخاص ويذكر في ذلك الكاتب « ستيفن رسيمان » أن هذه الصور لم تعد " تصور بعد ذلك وهي واقفة تلك الوقفة الجامدة التامة المواجهة ، بل أخذت تنثنى في اوضاع رشيقة وعاد فن المنظور إلى الصورة مرة أخرى ، ولكن تلك الروح الهيلينستية الحديثة إزدادت ثراء بما اضيف إليها من نماذج الشرق من الطواويس إلى أوراق الشجر المجذولة" (٢). يؤكد ذلك مجموعة لوحات الفسيفساء في كنيسة كارى كامى (Kariye Camii) بإستانبول نعرض منها لوحتين الأولى في شكل (٤٥) ، وهذه اللوحة

(١) المرجع السابق ، ص ٣١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣١ .



تظهر فيها سيدتين في وضع متحرك حيث تميل كل منهما بتصفها العلوي مع تحريك الأيدي والأذرع وكأنهما في حوار مشترك مع العذراء الصغيرة . حيث تعرض هذه اللوحة مشهداً من حياة العذراء وهي طفلة حين كلفت أمها تعلمها الوقوف والسير وتتجلى الحركة أيضاً في رسم العباءة المتطايرة من على كتف السيدة التي تقع على يسار اللوحة وهي تشبه في تطايرها وقوة حركتها رداء الصيادين في فسيفساء الحمص، لوحة شكل (٢٠) ، (٢١) .

كما تظهر محاولات مبدئية في الرسم بالمنظور ، وذلك يظهر في خطوط الأريكة التي تجلس عليها والدة العذراء في يمين اللوحة - نلاحظ الهالة المقدسة خلف رأس كل من العذراء وأماها - كما تظهر أيضاً في الخطوط المحددة للمبنى المعماري في الخلفية ، فضلاً عن المساحة التي تأخذ لوناً داكناً ، تختلف عن لون المبنى بما يوحي بجزء الجدار الأمامي والجانب الذي يقع خلف العذراء الصغيرة ، ويبدو ذلك واضحاً في اللوحة الثانية ونراها في شكل (٤٦) ، وتظهر بها مجموعة من الأشخاص في حركات مختلفة تتوسطهم العذراء ، وقد رسمت أحجام الأشخاص الأمامية أكبر من أحجام مجموعة الأشخاص الذين يقفون في الخلفية ويظهرون بحجم أصغر مع إختفاء بعض التفاصيل من ملامح وجوههم .

ونرى الأسلوب الهيلينستي في الإهتمام برسم طيات الملابس واستخدام الضوء والظل الذي يبدو في ألوان مكعبات الفسيفساء المختلفة ذات التدرجات اللونية ، ويظهر في خلفية اللوحة شكل معماري\* مبسط ، وقد رسم على خط أفقي واحد خلف الأشخاص المرسومة ، وفي الخلف نرى فرع شجرة تظهر فيه مجموعة من الأوراق ، وهذا يؤكد حرص الفنان على إظهار الأبعاد المختلفة في اللوحة .

وهناك بعض الأعمال التي تعكس التأثيرات الهيلينستية المتمثلة في رسم مجموعة من الأشخاص برؤوسهم العارية والإهتمام برسم خصلات الشعر المتطايرة ، وأوضح مثال على ذلك لوحة شكل (٤٧) والتي تزخرف أحد جدران الكنيسة الرهبانية في دافني ( أتيكا ) وهي تسمى « قبلة يهوذا » وتصور مجموعة من الأشخاص إلى جانب السيد المسيح و« يهوذا » ، وقد رسمت خصلات شعرهم بإهتمام ملحوظ وقد ظهر بألوانه المختلفة التي تنوعت بين الأبيض والأسود والبني والأصفر، ويرجع ذلك إلى رغبة الفنان في تحقيق الواقعية حيث تفاوتت الأعمار بين الأشخاص المرسومين والتي تنوعت حركاتهم

(\*) ينسب ظهور المنصر المعماري في خلفية الأعمال التصويرية إلى العصر الهيلينستي حيث استخدم في البداية في لوحات الفريسك في بومبي .

واتجاهات رؤوسهم ، فضلاً عن الإهتمام بتفاصيل الملابس خاصة ملابس « السيد المسيح » ، كما بالغ الفنان في دراسة ثانياً ثوب « يهوذا » وحركته . كما نلاحظ ان الأشخاص لا يقفون جميعاً على خط واحد فتتداخل اقدامهم معاً فنرى من بينها ما هو امامى وما هو خلفى ، فضلاً عن حركات اوضاع الرؤوس التى تؤكد ذلك .

ومن ضمن الموضوعات الهيلينستية التى ظهرت في الفسيفساء ، تصوير الموضوعات الريفية او الرعوية التى تصف الحياة الطبيعية الريفية والتى تظهر بها الحيوانات الخاصة بالمراعى مثل الأبقار والخراف والماعز ، يظهر ذلك في لوحة شكل (٤٨) ، وهى جزء من ارضية فسيفساء تزخرف قبيلة « هادريان » ، وتلاحظ فيها الهدوء ومدى الدقة التى راعاها الفنان للوصول برسوم الحيوانات لصورها الحقيقية ، وقد إنتقلت هذه الموضوعات إلى الفسيفساء البيزنطية ويتضح ذلك في احد الأمثلة من كنيسة القديس فيتال - رافينا ، شكل (٤٩) ، الذى يصور احد القديسين يجلس في مقدمة اللوحة . وخلقيتها عبارة عن مساحة عشوائية توحى بالسهول والتلال الطبيعية التى تتخللها الأشجار الصغيرة والحشائش ، وتتميز هذه الفسيفساء بالتوافق والتناغم اللونى بالرغم من قلة الألوان التى إنحصرت في إطار معين من الدرجات اللونية ، كما وفق الفنان في تسجيل الدراسة التشريحية لجسد البقرة .

وإذا أمعنا النظر في طريقة تنفيذ الفسيفساء في هذه اللوحة نرى ان الفنان قد أحاط كل من جسدى القديس والبقرة بخط أسود من مكعبات الفسيفساء ، نجده يزيد في الجهة اليسرى منها وذلك يذكرنا بأسلوب الخطوط المحددة التى ظهرت في النحت البارز الهيلينستى .

وفي عمل آخر يغطى أرضية الصالة العرضية لكنيسة القديس مرقس بشينسيا ، لوحة شكل (٥٠) ، نلاحظ من خلاله مدى إستمرارية تأثير الفن الهيلينستى في الإهتمام بدراسة اجسام الحيوانات والطيور حيث تميز عن غيره من الفنون بدراسة الأشكال الطبيعية للحيوانات المختلفة ، وهذه اللوحة تصور ديكين يحملان ثعلباً متديلاً من عصا ويتبين لنا فيها الدقة التى رسم بها الفنان رأس الديك وبراعته في تنفيذ اتجاهات الريش ودقة ملاحظته في رسم ذيل الثعلب المتدلى لأسفل في خصلات لينة ، ونفذت هذه العناصر على أرضية بيضاء من مكعبات الفسيفساء في الجزء الأعلى ، ويظهر شريط مستطيل رمادى اللون أسفل اللوحة إتخذت فيه اتجاهات الفسيفساء خطوطاً أفقية ، كما حدد الفنان اشكاله بخطوط سوداء من مكعبات الفسيفساء ، وتخللت هذه الخطوط السوداء الأجسام المرسومة محددة لخصلات الذيل والريش .

وقد وجدت المعالجات الهيلينستية للأعمال الفنية التي تتمثل في التكوينات العامة للوحات أو في أشكال الأطر الخارجية المختلفة المحددة لها ، التي تميزت بها الفسيفساء الهيلينستية من قبل وانتقلت إلى الفسيفساء البيزنطية كما هي ، أو مضافة إليها بعض التغييرات ، نذكر منها بعض الأمثلة أولاً ، طريقة رسم الوجه الإنساني داخل إطار دائري به زخارف مختلفة الأشكال داخل لوحة الفسيفساء ، وقد سبق أن رأينا ذلك في فسيفساء الأسكندرية حيث تختلف عن زخارف الرؤوس الأدمية الساسانية - وقد ظهرت من قبل في بومبي ولكنها كانت تحدد بإطار مربع أو مستطيل ، وفي كثير من الفسيفساء الهيلينستية نرى هذا الأسلوب في اللوحة شكل (٥١) وهي تنتمي لفسيفساء شمال أفريقيا وهي تزخرف أرضية أحد المباني هناك ، وقد قسمت إلى مساحات دائرية تفصل بينها خطوط مستقيمة وأشكال هندسية كالمثلثات والمربعات ، وهي تصور موضوع الفصول الأربعة ، ونرى في شكل (٥١ - أ) ، وهي تفصيلية من اللوحة السابقة ، تعرض وجهاً إنسانياً يعبر عن الخريف وهو مرسوم بكل دقة ويحيط به الإطار الدائري .

وقد إنتقل هذا الشكل إلى الفسيفساء البيزنطية ويؤكد ذلك كثير من الصور الأدمية التي وضعت داخل أطر دائرية تشير إلى أهمية الشخصية المرسومة وكانت في أغلب الأحوال تحتوي على صورة السيد المسيح وحده أو العذراء وحدها أو الإثنين معاً أو صوراً لبعض القديسين ، يتضح ذلك في لوحة شكل (٨) .

ثانياً ، الوحدات ذات الأشكال المروحية ( أو الصدفية ) والتي ظهرت في هيللا من العصر الهيلينستى تزخرف أحد جدرانها ، وفي شكل (٥٢) يظهر على اليمين ذلك الشكل المروحي المقسم إلى عدة مساحات لونية وضعت في رقعة وتناسق راعي فيها الفنان مساحات الضوء والظل التي جعلتها تقترب من الشكل الطبيعي ، وقد إنتقل ذلك العنصر إلى الفسيفساء البيزنطية ويظهر بكل وضوح في إثنين من الكنائس ، اللوحة الأولى توجد في كنيسة القديس كليمانت تظهر في شكل (٥٣) ، واللوحة الثانية في كنيسة القديسة ماريما ماجوري شكل (٥٤) ، وكلتاهما في روما ، وتشغلان المساحة الرئيسية في الكنيسة ، ويظهر في كليهما الشكل المروحي بوضع معكوس ، أي قاعدته لأعلى موازية لأحرف الأطر الخارجية للمساحة المقطاة ، وتميزت كل منهما بمجموعة من الألوان التي ظهرت في الأولى متضمنة درجات اللون الأزرق التي تظهر بوضوح في منطقة الصليب الذي يتوسط المساحة الرئيسية ، ويظهر بداخله السيد المسيح وعلى جانبيه العذراء وأحد القديسين وبعض صور الحمام

الأبيض اللون ، كما ترى إحدى درجات اللون الأزرق والتي تختلف عن الدرجة السابقة في الصليب في مساحة مستطيلة أسفل هذه المساحة العليا والتي يظهر بها مجموعة من الخراف ذات اللون الأبيض ، أما اللوحة الأخرى فيقلب عليها درجات اللون الأخضر ويتوسطها دائرة خضراء داكنة اللون ، ويجلس في وسطها السيد المسيح والعذراء في وضع مهيب .

وبالإضافة للشكل المروحي المقتبس من الفسيفساء الهيلينستية توجد بعض عناصر نباتية هيلينستية مثل : أوراق الأكانثوس والنخيل والكروم ونبات الفار واللباب وذلك لا يعنى أن الفن الهيلينستى فناً زخرفياً ، وذلك لأن هذه الوحدات النباتية كانت تصور بأشكالها الطبيعية الواقعية ولكن إتخاذها اشكالاً زخرفية ، يرجع إلى تأثير الفن الساساني الذي حاول تحريف هذه العناصر وإبعادها عن أصولها الطبيعية حتى تناسب طابعه الزخرفي ، وقد إنتشر استخدام هذه الوحدات النباتية في كثير من أعمال الفسيفساء في الكنائس البيزنطية أشهرها وأكثرها ظهوراً كانت أوراق الأكانثوس التي تراها بوضوح في خلفية اللوحتين السابقتين ، تسير في خطوط دائرية تكررت فوق الأرضية المنهبة ولكنها في اللوحة الأولى كان مركزها أسفل الصليب ، وتخرج من مجموعة أوراق مجتمعة ، وتنتشر يميناً ويساراً في اتجاهات دائرية متصلة فيما بينها، وفي اللوحة الأخرى تظهر هذه الأوراق وهي تخرج من جانبي اللوحة في اتجاهات مستقيمة ثم تتخذ اشكالاً دائرية تتخللها في اللوحتين مجموعة من الأشخاص والطواويس والطيور والغزلان ذات الألوان البديعة.والجدير بالذكر أن هذه الطريقة في تناول أوراق الأكانثوس وما يصاحبها من رسوم للكائنات الحية قد ظهرت من قبل في فسيفساء تونس والتي تنتمي لفترة الحكم الروماني . مثال ذلك يظهر في لوحة شكل رقم (٥٥) . والتي ترى من بينها رسوم الطواويس وطالراً آخر إتخذ في تنفيذهما اللون الأخضر الذي يقترب في درجته من لون أوراق الأكانثوس . كما تظهر أوراق الكروم وعناقيد العنب في مساحة من الفسيفساء ، شكل (٥٦) ، وهي تغطي جدران قبة ضريح جالا بلاسيديا (Galla Placidia) براهينا ، بالإضافة إلى رسوم أوراق اللبلاب المتصلة بالفروع التي تأخذ اتجاهات دائرية فوق المساحة المزرقاء من مكعبات الفسيفساء والتي تخرج من مجموعة أوراق متجمعة كبيرة الحجم ، وقد سبق أن استخدمت هذه النوعية من الزخارف في فسيفساء تونس ، وأوضح مثال على ذلك لوحة شكل (٥٧) ، التي تصور أرضية تنتشر عليها فروع نباتية من أوراق الكروم تخرج من أربعة اولى في كل ركن من أركان اللوحة وتتخللها أيضاً رسوم بعض الحيوانات الأليفة والمتوحشة ومجموعة من الصور التي تمثل آلهة الحب الصفار التي تحاول التقاط عنقيد

العنب ، ويحيط باللوحه من الخارج إطار زخرفى إمتلأ بأوراق نبات الأكانثوس التى إتخذت أشكالاً دائرية .

وقد تشابهت اشكال التكوينات فى كل من الفسيفساء الهيلينستية والبيزنطية ، وعلى سبيل المثال فى مساحة الفسيفساء التى تغطى قبة العمودية الأرثوذكسية فى رافينا والتى تظهر فيها لوحه تعميد السيد المسيح وقد إعتمدت على التصميم الدائرى المكون من ثلاث مستويات حيث أحاطه بالسيد المسيح ويوحنا المعمدان إطار دائرى تحيط به من الخارج مساحة دائرية أخرى رسمت بها بعض الشخصيات التى تصور القديسين فى المستوى الثانى ، يتضح ذلك فى لوحه شكل (٥٨) ، وقد سبق أن ظهر ذلك الشكل من التصميمات ، فى إحدى لوحات الفريسك التى تزين القبة الجنائزية فى مدينة « كازانلاك » ، والتى تتكون من مستويين يفصل بينهما الأطر الزخرفية المبسطة .

كما يوجد فيها أسلوباً آخر يعتمد على التقسيمات المعمارية والأعمدة التى تقسم المستوى الثالث فى لوحه الفسيفساء السابقة ، حيث تبدو هذه الفتحات وكأنها نوافذ حقيقية ، وهذا الأسلوب قد إتبع من قبل فى مقابر مدينة البتراء حيث يظهر بالواجهة نحت بارز به أعمدة وفتحات تبدو كأنها طبيعية .

ولايقتونا الإشارة إلى رسم الستائر التى تصل بين الأعمدة وبعضها وقد إهتم الفنان فيها بتسجيل تفاصيلها ، وما إحتوت عليه من اشكال زخرفية ، وهذه الطريقة فى رسم الستائر تنتمى للتأثيرات الهيلينستية ، وقد ظهرت هذه الستائر أيضاً ولكن بشكل مختلف فى اللوحه السابقة شكل (٥٨) فى المستوى الثانى الذى يقف فيه القديسون .

وأخر هذه الملامح التشكيلية تظهر فى الأطر الزخرفية التى تحدد لوحات الفسيفساء البيزنطية وقد إستمدت أشكالها من اشكال الأطر المختلفة والتى ظهرت فى الفسيفساء الهيلينستية سواء محددة لها أو مرسومة بداخلها ، وقد إحتوت على اشكال هندسية أو خطوط منحنية أو زخارف نباتية إشتملت على أوراق العنب أو اللبلاب ، وفيما يلى بعض الأمثلة للأطر الزخرفية الهيلينستية.

النوع الأول نراه فى شكل (٥٩) وهو يحدد الإطار الخارجى لإحدى لوحات الفسيفساء فى تونس . ولرى فى شكل (٦٠) نوع آخر من هذه الأطر وهو يحتوى

على مجموعة من الأوراق تتوسطها الفواكه والأشرطة الذهبية ، وكلاهما إنتقل بصورة واضحة إلى الفسيفساء البيزنطية فى ضريح چالابلاسيديا ، كما تتبين فى شكل (٦١) ، حيث يحدد الإطار الداخلى للقوس المنحنى أسفل قبة الضريح ، وفى نفس الضريح على القوس المقابل ، نرى النوع الثانى من هذه الأطر . بالإضافة إلى العديد من اشكال الأطر المختلفة والتي ظهرت أيضاً فى الفسيفساء البيزنطية داخل الكنائس فيما بعد .



## الفصل الثالث

### الفنون المسيحية المبكرة والموضوعات الدينية الرمزية

- مقدمة تاريخية .
- الديانة المسيحية .
- الفن المسيحي المبكر.
- رمزية الفن المسيحي.
- التصوير المسيحي وأهم موضوعاته.
- سمات الفسيفساء المسيحية .





## الفصل الثالث

### الفنون المسيحية المبكرة والموضوعات الدينية الرمزية

#### ● مقدمة تاريخية :

ظهرت الديانة المسيحية اول ما ظهرت في فلسطين\* في النصف الأول من القرن الأول الميلادي ، عام (٢٧- ٤١م) في عهد الإمبراطور كاليجولا ، ، وكانت واقعة وقتها تحت الحكم الروماني ، وقد كانت الديانة اليهودية السابقة للمسيحية قد تعرضت من قبل للإضطهاد الروماني ، وبالرغم من ذلك وبالإضافة إلى التوقع السائد لدى اليهود بقدم السيد المسيح ، إلا أنها نظرت لهذه الديانة الجديدة ؛ وكأنها نوع من الهرطقة \*\* .

وفي عام ٦٦ بعد الميلاد حدث ما يعرف " بالتمرد المسيحي " الذي استمر حتى عام ٧٠ ميلادية ، وكان له عواقب وخيمة على كل من المسيحية واليهودية . منها محاولة إحياء الدولة اليهودية والانتماء لها من جديد في عهد الإمبراطور هادريان ، ، كما أدى إلى إختفاء وزوال طوائف يهودية عديدة ، وبالتالي تسبب هذا التمرد في تخفيض حجم مجتمع المسيحيين واليهود في فلسطين وأصبح النشاط المسيحي وهذا الصراع الديني في موقع آخر وهو ، روما ، عاصمة الإمبراطورية الرومانية " (١) .

وفي خلال الخمسة قرون الأولى يعا يزداد عدد المسيحيين ، مما أدى إلى حدوث صراعات وإضطهادات من جانب الحكومة الرومانية ضد المسيحيين والديانة المسيحية ، حالت دون إنتشارها وتقليل عدد المعتنقين لها ، بدأت هذه الإضطهادات في عهد الإمبراطور نيرون ، وإستمرت إبان حكم الآباطرة ، ديسيوس ، (٢٤٩ - ٢٥١ م ) و فاليريان ، (٢٥٧ - ٢٥٨م) و ديوكليتيان ، (٣٠٥ - ٣١١م) ، واشتدت في عهد الإمبراطور دقلديانوس ، حيث كانت عقوبة المسيحي وقتذاك هي الموت ، فضلاً عما يلقونه من السوان التعذيب المختلفة ، وكانت الديانة المسيحية في ذلك الوقت كما يذكر الدكتور ، عفيف البهنس ، " قد إنتشرت في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وفي جزء من بلات السلست في إيقوسيا وأيرلندا وفي بلاد الجرمن ، كما كانت قد إنتشرت في جزء من الأرض العربية

(1) Edword Luice, Art and Civilization, Loureace King, London, 1992, P.86.

(\*) ظهرت المسيحية في إقليم جواديا في فلسطين حيث ولد السيد المسيح ونفذ رسالته السماوية .

(\*\*) هو لفظ أطلقه الباباوات على كل من يخرج عن تعاليم الكنيسة .

وفى الثيوبيا " (١). بالإضافة إلى البقاع المجاورة من آسيا الصغرى واليونان .

وساعد على ذلك أن قلت هذه الإضطهادات تدريجياً سواء فى الشرق أو الغرب فى أوائل القرن الرابع الميلادى مع قدوم الإمبراطور قسطنطين ، ( ٣١٣ - ٣٣٧ م ) ، الذى نقل مقر العاصمة من روما إلى بيزنطة ، وقد تقرب لهذه الشعوب المغلوبة بإعترافه بالمسيحية فى مرسوم ميلانو عام ٣١٣ م ، وترك لها الحرية لممارسة الأديان المختلفة ، ويمرور الوقت إعتنق الإمبراطور قسطنطين ، الديانة المسيحية واتخذها الديانة الرسمية للإمبراطورية الجديدة فى عام ٣٢٥ م ، وبذلك تحولت الإمبراطورية الرومانية الوثنية إلى إمبراطورية بيزنطية مسيحية " التى خصها الإمبراطور قسطنطين ، يوم ١١ مايو ٣٣٠ ميلادية بمدينة بيزنطة لتكون عاصمة الإمبراطورية ، ويقول الدكتور ثروت عكاشة ، أنه بالرغم من أنه أسماها " روما الجديدة " ، إلا أن المواطنين اصبروا على تسميتها بالقسطنطينية تخليداً للذكرى مؤسسها " (٢) .

وقد إكتسبت المسيحية خلال هذا القرن مكانة كبيرة ، وظهرت طائفة من رجال الدين والأساقفة خاضعين إلى رئاسة البطاركة فى روما وفى المدن الشرقية فى كل من الأسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية ، وبعد إنقضاء فترة حكم قسطنطين وأسرته تولى الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم ، الذى حكم فى أواخر القرن الرابع ( ٣٧٩ - ٣٩٥ م ) ، وقد إستطاع أن يحكم إمبراطورية كبيرة مترامية الأطراف شملت أغلب المدن التى تقع بين بغداد فى الشرق وحتى فرنسا فى الغرب ، وبعد وفاته إنتقلت الخلافة إلى إبنه الإثنى عشرى ، حيث وزعت الإمبراطورية إلى قسمين : قسم شرقى عاصمته القسطنطينية ، وآخر غربى عاصمته روما ، وقد تعرض هذين القسمين إلى الحروب المستمرة التى إستطاعت خلالها الإمبراطورية الشرقية التغلب على أعدائها من الفرس ، أما القسم الغربى فقد تعرض لحروب كثيرة من جهات مختلفة ، لم يتسن بسببها الإحتفاظ بكيان الإمبراطورية الغربية ، مما أدى إلى إنهيارها سريعاً بعد فترة محدودة من الزمان تقدر بحوالى قرن ونصف .

أما الإمبراطورية الشرقية فظلت محتفظة بمكانتها السياسية ، التى تأكدت بقدوم الإمبراطور " جستنيان " فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى

(١) موسوعة تاريخ الفن والعمارة - الفنون القديمة ، دارالرواد اللبنانى ، الحازمية ، لبنان ، ١٩٨٢ ، ص ٢٨١ .

(٢) تاريخ الفن - الفن البيزنطى - الجزء الحادى عشر ، فارسداد الصباح ، القاهرة ، ص ٥٥ .

( ٥٢٧ - ٥٦٥م) والذي حكم من خلالها شبه جزيرة البلقان في أوروبا وسوريا وبلاد الأناضول في آسيا ومصر في أفريقيا . وهذه المدن السابقة تنتمي للعالم البيزنطي الجديد .

وكانت القرون السابقة خاصة بالفترة المسيحية التي ظهرت بها فنون جديدة ارتبطت أولاً بالديانة المسيحية والأحداث السياسية والتاريخية التي تمت في تلك الفترة حتى مهدت للحضارة والفنون البيزنطية ، وساهمت بقدر كبير في تكوينها .

### ● الديانة المسيحية :

صاحب ظهور المسيحية نظام إداري جديد ساد المجتمعات المسيحية التي خصصت لحكم طوائف رجال الدين والقساوسة في كافة أنحاء الإمبراطورية وكان لكل فئة من هذه الفئات أفكاراً ومعتقدات خاصة بالسيد المسيح والديانة المسيحية ، أدت إلى ظهور العديد من الأحزاب التي تسبب بعضها في إستياء الكنيسة ، فأقيمت مجموعة من المجالس الكنسية المسكونية التي وقفت على تفسير هذه العقائد الأرثوذكسية ، " وكانت هذه المجالس التي تجمع الكنائس المتجانسة التي يربط بينها وحدة ووافق يرأسها الإمبراطور ، وكان العالم المسيحي يلتزم بما يصدر عنها من قرارات كانت بالإضافة إلى الكتاب المقدس هي أساس العقيدة الأرثوذكسية " (١). وكانت أولى هذه المجالس ، ما عقد في نيقوسيا ( نيقية ) برئاسة الإمبراطور قسطنطين ، عام ٣٢٥م - وكان الهدف منها سياسياً أيضاً . وكان هذا الاجتماع بمثابة رداً على آراء الإتجاه الخاص بالقديس « أريوس » وأتباعه الذي ادعى فيه «أريوس» الكاهن السكندري بأن الرب والإبن والسيد المسيح ليسوا من طبيعة واحدة ، وطبقاً لمفهوم الإعتقاد في الله الواحد والإيمان به ، فإن السيد المسيح لا يمكن أن يكون إله ، وبذلك يرى أن الرب والمسيح - حيث أن السيد المسيح له طبيعة مزدوجة - كلاهما إنساني وإلهي معاً .

وكانت الطبقة العليا في القسطنطينية تدين بهذه الآراء طوال القرن الرابع ، إلا أنه قضى على هذا المذهب نهائياً بعد عقد المجمع المسكوني عام ٣٨١م في القسطنطينية الذي أعاد صياغة هذا المفهوم من خلال إقتراح مبدأ الثالوث المقدس ( الأب والإبن والروح القدس ) وهم جوانب ثلاثة لإله واحد .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

بالإضافة لهذه الآراء السابقة ظهرت النسطورية\* في القرن الخامس التي عارضت أيضاً مبدأ الطبيعة المزدوجة للسيد المسيح وذلك لأنه في الأصل ولد إنساناً ، وأصبحت له طبيعة إلهية في الكبر وادى ذلك إلى وجوب تفسير طبيعة « مريم العذراء » التي أصبحت في نظرهم والدة السيد المسيح وليست والدة الرب ، وإنحازت انطاكية لهذه الآراء النسطورية ، وقد عارضت الكنيسة في الأسكندرية هذه الإتجاهات من خلال المذهب الميتوفيزي\*\* الذي أعلن من خلاله جميع البطاركة الطبيعة الواحدة للمسيح الذي تجمع بين الخصائص الناستورية والخصائص الإلهية .

كل هذه الآراء المختلفة كما يضيف الدكتور « ثروت عكاشة » أنها « كانت لفظية لا جوهرية فليست في واقع الأمر غير نزاع حول الفرق بين طبيعة واحدة من جهة وبين طبيعتين من العسير الفصل بينهما من جهة أخرى »<sup>(١)</sup> . وقد اثرت هذه الآراء المتعددة على طريقة التفكير التي سادت في المجتمع المسيحي ، ومنها انعكست على الحياة الفنية التي برزت في مجالات مختلفة من الفنون المسيحية التي نشأت مصاحبة لهذه العقيدة .

## ● الفن المسيحي المبكر :

كان نتيجة الإنتشار الواسع الذي تحقق للديانة المسيحية في جميع اركان الإمبراطورية البيزنطية ، أن ظهر فن جديد من نوع خاص ارتبطت سماته بأفكار وتعاليم الدين المسيحي الجديد التي تقوم على إحياء القيم الروحانية ، والتي من خلالها اكتسب الفن المسيحي المبكر صفته الرمزية .

وفي العصور الأولى من المسيحية لم تلق هذه الديانة إهتماماً من اشرىاء المجتمع الروماني ، وبالتالي إتجهت نحو أذواق الطبقات الدنيا ، وبالرغم من ذلك فإن « الفن المسيحي يدين بالفضل إلى الدولة الرومانية والأباطرة الرومان اللذين اتاحوا لهذا الفن الإنتشار الواسع ، ولكن في الأيام الأولى فإن هذا الفن إتبع التقليد الوثني الذي كان له تأثيراً بالغاً على أسلوب وموضوعات التصوير المسيحي »<sup>(١)</sup> . ونتيجة لسيطرة

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(2) Charles Wintnick, The Human Figure in Art from Prehistoric Times to the Present Day, Smeets Publisher, Amsterdam, 1977 , P. 79 .

(٣) نسبة إلى نسطوريوس بطريرك القسطنطينية .

(\*\*) هو المنصب الكاثوليكي الذي يؤيد الطبيعة اللاهوتية والأخرى الناستورية للسيد المسيح .

روما الإستعمارية فكان من الطبيعي أن تستمر هذه التقاليد والتأثيرات الوثنية بدلاً من أن تحمها الفنون المسيحية ، فإنها إتخذت رموزاً وأشكالاً روحانية واقتبست من موضوعاتها الوثنية .

كما تأثر هذا الفن بالفنون الشرقية التي ترجع إلى عهود قديمة ، ووجدت به تأثيرات من الفن الهيلينستي ذا الطابع الروماني في كثير من الأعمال التصويرية أو التحتية ، بالإضافة إلى تصميمات المباني المعمارية والفنون الصغيرة ، يؤكد ذلك الدكتور « عفيف البيهسي ، بقوله : " أن الفن المسيحي في الغرب كان يستمد نسغه الأساسي من الفن الروماني ، أما في الشرق فكان هذا الفن يصدر عن روح عربية " (١) .

وقد إنتشر هذا الفن في دول كثيرة من الشرق والغرب واتخذ طابعاً خاصاً في كل دولة من هذه الدول المختلفة ، وذلك تبعاً " لقومية أهل كل بلد وإختلاف مواد البناء المحلية والموقع الجغرافي للبلد والحالة السياسية والاجتماعية والعلمية في البلاد المختلفة " (٢) . فعلى سبيل المثال عندما ظهر الفن المسيحي بمصر إحتلت بأساليب الفن الفرعوني ، واقتبس تصميم الكنائس المسيحية الأولى من شكل المعبد المصري القديم ، كما عرف الفن المسيحي في مصر بإسم الفن القبطي نتيجة إختلاطه بأساليب وطبيعة الشعوب المصرية .

أما في سوريا وفلسطين فظهر هذا الفن في العمارة والتصوير الجداري والمخطوطات والفنون الصغيرة التي تشمل اشغال المعادن والعاج والمنسوجات ، كما ينبغي الإشارة إلى مدينة مادبا الأردنية التي وجدت بها مجموعة كبيرة من لوحات الفسيفساء التي تنتمي للفترة المسيحية المبكرة والبيزنطية أيضاً ، بالإضافة إلى فسيفساء شمال افريقيا التي يظهر بها بوضوح الأسلوب المسيحي القديم . فنرى في شكل (٦٢) صورة لسيدة تمسك بصولجان ، وهي مرسومة في وضع أمامي على خلفية بيضاء من مكعبات الفسيفساء وتتجلى الأساليب المسيحية في رسم الهالة المقدسة خلف رأسها وحركة الأصابع في اليد اليمنى والتي تشبه كثيراً حركة يد السيد المسيح في الفسيفساء المسيحية - والبيزنطية بعد ذلك - كما أن الإطار الخارجي ذو الأشكال الهندسية المتجاورة والمحدد لهذه اللوحة نراه يظهر بوضوح في الفسيفساء البيزنطية فيما بعد .

(١) موسوعة تاريخ الفن والعمارة الفنون القديمة ، دار التراث اللبناني ، الحازمية ، لبنان ، ١٩٨٢ ، ص ٢٨٣ .

(٢) بامور لبيب ، المعمور المسيحية الأولى - محيط القنون - الفنون التشكيلية ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ ،

واستمر وجود هذا الفن فيما يقرب من قرنين من الزمان هما القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، وذلك لأنه مع بداية القرن السادس تبدأ المرحلة الفعلية للفنون البيزنطية ، كما ترجع أهميته إلى أنه الأساس في تكوين الفن البيزنطى ومدخلاً له ، حيث ظهرت مجالات الفنون المتعددة مثل: العمارة والنحت والتصوير والفسيفساء ، وكانت هذه الفنون المختلفة يتم إخراجها في صورة مبسطة ومتأثرة بالأساليب الرومانية السابقة لها ، إلى أن تم تضوؤها وبلوغها أقصى درجات الكمال الفنى في العصر البيزنطى .

### ● رمزية الفن المسيحي :

لم يعد للأصول الإغريقية القديمة أهمية في وجود العالم المسيحي الجديد الذى يهتم بالأصول الروحية التى كانت تنظر للإنسان على أنه مكون من روح وجسد ، وأن الروح هي الأساس والهدف المراد التعبير عنه ، وأن الجسم ليس إلا غطاء لها يختلف من شخص إلى آخر ، ولذلك لم يهتم هذا الفن بإظهار الشكل الخارجى أو الواقعى ، واعتنى بالتعبير عن المعنى الجوهرى الأبعد في أعماله الفنية وبالأخص التصويرية ، واستبعدت المثالية والتقاليد الكلاسيكية القديمة التى حافظت على طبيعة الشكل الإنسانى ودراسة التفاصيل الصغيرة ، وبدأ الإتجاه تدريجياً نحو التجريد الذى سيطر على رسوم الأشكال التى أصبحت عبارة عن خطوط ذات بعدين أفقى ورأسى وابتعدت عن التجسيم تماماً .

ويشير الدكتور ثروت عكاشة ، في كتابه " الفن البيزنطى " إلى بعض آراء المؤرخين في ذلك حيث " يقول المؤرخ إميل برييه (Emile Bréhier) لقد خلق مع الفن المسيحي عالماً معنوياً بينه وبين العالم الحسى صراعاً أشبه ما يكون بذلك الصراع بين الروح والجسد " فلقد عاش الفن المسيحي المبكر على مواءمة مع العالم الخارجى ، متأنفاً مع العالم الروحاني ، فإذا هو يستخدم رموزاً لما هو حسى " (١) .

ونتيجة لإتباع التعاليم اليهودية التى كانت تحرم رسوم الكائنات الحية أو صور الأشخاص ، إبتعد الفنانون المسيحيون الأوائل عن هذه التصاوير ولجأوا إلى إستخدام بعض الرموز والإشارات الخاصة التى يستطيعون من خلالها التعبير عما يدور بداخلهم دون أن تكون هناك أية صوراً وآراء مباشرة وواضحة ، حيث أن هذه الرموز كانت - بالأخص في مرحلة الدعوة السرية - " تخفى المعنى المسيحي للتصوير على السلطة الرومانية " (٢).

(١) تاريخ الفن - الجزء الحادى عشر - دارسماد الصباح ، القاهرة ، ص ٤٨ .

(٢) هليف البهتسى ، موسوعة تاريخ الفن والعمارة ، الفنون القديمة ، دارالرائد اللبنانى ، الحازمية ، لبنان ،

ويعمر الوقت أصبحت هذه الرمزية جزءاً لا يتجزأ في الفن المسيحي حيث كانت من أهم سماته ، فكان الفنان المسيحي يميل إلى تلك الرموز والإيماءات التي لا يتعرف عليها أو يفهمها إلا من كانت له صلة بهذه الموضوعات أو على دراية واسعة بها ، وقد ظهرت بعض الرموز ذات الملامح الشرقية للفن المسيحي ، وصلت إليه عن طريق كل من الأسكندرية وأنطاكية ، واشتهر بها الفن المسيحي ومنها إنتقل إلى الفنون البيزنطية وخاصة فن الفسيفساء ، وهي المرساة والسمة والحمامة . وكانت المرساة ( الهلب ) رمزاً للخلاص ، و " السمكة " لأن حروف الكلمة اليونانية التي تتألف منها كلمة « سمك » ترمز لعيش السيد المسيح ابن الإله والمخلص ، أما صور الحمام والطاويس\* والفرلان فهي تمثل الرغبة في تطهير مياه التعميد أو المعمودية ، فضلاً عن سعف التخيل وهو رمز الشهادة ، وصورة الصليب الذي يرمز لتضحية السيد المسيح .

كما كان هناك بعض الموضوعات الوثنية الرمزية التي إنتقلت إلى الفن المسيحي ، وأوضح مثال على ذلك تمثال الفتى الصغير الذي يرتدى ملابس العادية ويحمل خروفاً فوق كتفه ، وهذا النموذج أصبح في العهد المسيحي يمثل صورة السيد المسيح الراعى (الراعى الصالح ) والتي ظهرت في أحد السراييب الخاصة بدفن الموتى وهي جبانة كاليستوس بروما . كما ينبغى الإشارة إلى أنه كان هناك بعض " الفنانين اللذين كانوا يزيتون المعابد الوثنية ، هم أنفسهم اللذين تولوا تنفيذ هذه الأعمال التصويرية في المقابر المسيحية " (١) . كما إستمر ظهور السيد المسيح الراعى بهذه الطريقة حتى أواخر القرن الخامس الميلادي ، ويؤكد ذلك أرضية الفسيفساء التي يقف فيها السيد المسيح وعلى كتفه الحمل وخلفه حمل آخر ، نرى فيها عدم مراعاة بعض القيم الجمالية في دراسة النسب الطبيعية للأجسام ، وتعارض جسم الحمل الآخر مع قدمى السيد المسيح ، وهذا نتيجته في لوحة شكل (٦٣) .

كما وجدت بعض الصور التي لها دلالات رمزية بالإضافة إلى صور الراعى الصالح مثل تصوير بعض العابدين ، وكانت هذه الصور ترمز لبعض الشخصيات الدينية التي ظهرت مع العقيدة المسيحية الجديدة .

ولقد إمتدت هذه الرمزية إلى الطرز المعمارية المختلفة ، ووجد فيها الفنانون المسيحيون بعض الإيحاءات التي تساعدهم في تأكيد هذا المذهب الروحي ، فعلى سبيل

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

(\*) صور الحمام ترمز للروح القدس ، وصور الطاووس ترمز إلى الجنة في الفنون المسيحية .

المثال ، القبة - فى الكنائس المسيحية - ترمز فى إنحنائها وارتفاعها إلى السماء ،  
ويضيف الدكتور ، ثروت عكاشة ، قائلاً : " وكانت الكنيسة نفسها فى الفكر المسيحى  
تشخيص رمزى ، لضريح القيامة ، الذى يعيد إلى الأذهان ذكرى بعث المسيح " (١) .

### ● التصوير المسيحى وأهم موضوعاته :

كان التصوير المسيحى فى العهد المبكر يعتمد فى إخراجهِ للأعمال الفنية على  
أنواع وخامات تصويرية مختلفة ، كما كانت السيطرة للموضوعات الدينية ، بجانب بعض  
الموضوعات الدنيوية القليلة .

فقد إعتد فنانون التصوير الجدارى على خاصة الفريسك فى تزيين جدران  
القصور والمنازل ، ثم بعد ذلك إستبدلت هذه الخامات بالفسيفساء ، التى أصبحت  
تستخدم فى ذلك الغرض بالإضافة إلى زخرفة الأرضيات .

وقد عرف هذا النوع من التصوير الجدارى وانتشر بصورة واضحة على جدران  
المقابر المسيحية القديمة المخصصة لدفن الموتى ، وكانت تصور فوق جدرانها موضوعات  
تصور حياة السيد المسيح ومعجزاته ، وبعض لوحات للعدراء والطفل " أشهرها ما عثر  
عليه فى مقبرة برسيللا (Percilla) والتى تمثل أقدام تعبير عن العدراء وابنها " (٢) . وبعض  
المشاهد التى تحكى وتعبّر عن اضطهاد المسيحيين فى الفترة السابقة لإعلان المسيحية ،  
ومعظم هذه اللوحات المكتشفة توجد فى روما وتعود إلى القرن الثالث الميلادى ، والجدير  
بالذكر أنه " يرجع إلى الشرق الأسيقية فى ظهور هذه الموضوعات عن الغرب ، فى دورا  
أوريوس ، فى سوريا عثر على مجموعة تصاوير جدارية فى منزل الجالية المسيحية تحتوى  
على موضوعات من العهد القديم والإنجيل ، كما ترجع أهميتها بالنسبة للفن المسيحى  
إلى أن ألوانها وتصميماتها تأثر بها الفن البيزنطى " (٣) .

وبالإضافة لهذه الموضوعات الدينية السابقة ظهرت بعض الموضوعات الدنيوية  
التى إشملت على موضوعات تزيينية تصور موضوعات الحب والنصر والموضوعات  
الأسطورية .

(١) تاريخ الفن ، الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، دلو سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ١٣٢ .

(2) Edward Luce, Art and Civilization, Lawrence King, London, 1992, P.90.

(٣) لعنت اسماعيل علام ، فنون الشرق الأوسط فى الفترات (الهيلينستية - المسيحية - الساسانية) ، الطبعة

الثانية المعدلة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٣٣ .



ومع سيادة العقيدة المسيحية وتبلورها في الإمبراطورية الجديدة ، اتخذت الموضوعات التصويرية طابعاً تعليمياً جديداً ، فمع إنتشار بناء الكنائس الجديدة أصبح من الضروري علي كل فرد مسيحي في أى جانب من الإمبراطورية أن يكون على علم ودراية بتعاليم الكتاب المقدس ، وقصص الإنجيل ومعجزات الرسل والقديسين ، يقول في ذلك الدكتور ، ثروت عكاشة ، : " في نهاية القرن الرابع جد حول هذه الأفكار الجديدة أسلوب متطور ، فلم يعد بعض رجال الكنيسة يرون التصوير فناً باطلاً لا طائل تحته بل عدوه وسيلة للإسهام في تعليم المؤمنين وتنشئتهم ، فما تفعله الكلمة المسموعة في الأذن تفعله الصورة الصامتة في العين ، كما أن الفنان المصور يستخدم الألوان كتاباً ناطقاً ، كذلك كان التصوير الصامت ينطق فوق الجدران ولم يقصد بهذا اللون من التصوير الكلاسيكي المثير للإعجاب والراوى للمغامرات ، ولكنه كان زخرفة ذات طابع تاريخي يملئ النصح والهداية ، ظهرت اول ما ظهرت في البازيليكات منذ بداية القرن الخامس على انها تتمة للموضوعات المروية في الكتاب المقدس وفق ترتيبها الزمني أو لتسجيل حياة الشهداء وما تعرضوا له " (١) . مثال ذلك لوحات كنيسة القديسة ماريا ماجورى المنقذة بالفسيفساء .

كما يوجد نوعان آخران من التصوير وهما المخطوطات والأيقونات ، فكانت الأولى عبارة عن صور لرسوم تحضيرية في الكتب الدينية ترافق الموضوعات والقصص المكتوبة ، "ومن المرجح أن هذه الموضوعات المصورة في المخطوطات كانت من أهم مصادر الموضوعات الدينية المنقذة بالفسيفساء في كنائس العصر البيزنطي ، كما ترجع لها الأهمية الكبرى في دراسة تطوير فن التصوير في ذلك الوقت " (٢) .

اما الأيقونات فهي عبارة عن صور لشخصيات مقدسة تنفذ بالتمبرا فوق القماش المثبت على لوحة خشبية وكانت توضع في الكنائس لأغراض دينية معينة ، " وأكبر مجموعة من هذه الأيقونات عثر عليها في دير القديسة كاترين في مصر ، وكانت فكرتها مستمدة من لوحات وجوه الفيوم " (٣) . وكانت تحتوى على صور للمسيح وحده والمندراء والطفل معاً ، بالإضافة إلى بعض صور القديسين والحواريين .

(١) تاريخ الفن ، الفن البيزنطي ، الجزء الحادى عشر ، دارسعاد الصباح ، القاهرة ، ص ٦١ .

(٢) تمت اسماعيل علام ، فنون الشرق الأوسط في العترة ( الهيلينستية - المسيحية - الساسانية ) ، الطبعة

الثانية المعدلة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٩١ .

(٣) المرجع السابق ، نفس المكان .

## ● سمات الفسيفساء المسيحية :

كانت الفسيفساء كعنصر تجميلي - تستخدم في التزيين والتصوير على الجدران معروفة من قبل في العصر الهيلينستي والروماني ، وقد إنتقلت إلى الفن المسيحي المبكر ، ولكن في البداية كان إستخدامها نادراً ، وذلك يرجع إلى سببين :

- أولهما : إرتباطها بالوثنية التي كانت الديانة المسيحية حريصة على الإبتعاد عن كل ما يتعلق بها ، بالرغم من تأثرها ببعض الأساليب والموضوعات الدينية المقتبسة منها بما يتوافق مع تعاليم المسيحية الجديدة .
- وثانيهما : إرتفاع أسعارها ، ونلاحظ زوال هذه العقبة بمجرد إعتبار الديانة المسيحية ديانة رسمية ، وحرص الحكومة على بناء الكنائس وتزيينها بأفخم الخامات ذات الجودة العالية ، مهما كانت تكاليفها بما يتلائم وكيان وهيبة السيد المسيح فضلاً عن مكانة رجال الدين والبطاركة .

وقد حلت الفسيفساء محل خامة الفريسك التي كان يتم بها تنفيذ التصاوير الجدارية في المباني والقصور وسراديب الموتى ، وقد ظهرت في إحدى هذه السراديب زخارف الفسيفساء ، وأوضح مثال لذلك ما عثر عليه في سرداب في « بيكروبوليس ، الموجود أسفل كنيسة القديس « بطرس ، في القاتيكان ، لوحة شكل (٦٤) ، - " وصور الفسيفساء من أيوب والحوت والراعي الصالح تزخرف الجدران - ، وتبدو القبة الصغيرة فيها تجسيد للسيد المسيح يقود مركبة يجرها حصانان ، وهذا النموذج يعتمد على التصوير الوثني « لهيلوس ، إله الشمس . حيث تنبعث مجموعة من الأشعة التي مركزها الهالة المحيطة برأس السيد المسيح ، كما تنتشر أوراق الكروم وتحيط به من كل ناحية وقد سقطت أجزاء من هذه اللوحة ثم رمت كما يظهر في ساق الحصان المختفية التي يبدو أن الفنان الذي قام بعملية الترميم قد نسيها .

ويعد ما تم الإستغناء عن طريقة التصوير بالفريسك ، إتجه الفنانون المسيحيون لزخرفة كنائسهم بهذه الفسيفساء التي كانت الأقرب لديهم للتعبير عن الرمزية ونقل المعاني الروحية التي كانت من سمات هذا الفن ، كما أن هذه الفسيفساء كانت تستخدم لتنفيذ أشكالاً مختلفة بالإضافة إلى أشكال الشخصوس والوجوه والحيوانات ، فترى الزخارف الهندسية والحلقات والميداليات المستديرة أو البيضاوية الشكل ذات الأطر الخارجية .

كما كان الفنانون المنفذون لهذه الأعمال يستطيعون تحقيق الأسلوب التجريدى  
النزعة من خلال هذه الخامات الصلبة التى يصعب عن طريقها الوصول بالعناصر إلى  
أشكالها الواقعية .

ولم توضع زخرفة الجدران بالفسيفساء فى الإعتبار عندما بدأ المهندسون فى  
بناء الكنائس الأولى فى الإمبراطورية ودليلنا على ذلك حينما " بعث قسطنطين إلى  
رئيس الأساقفة بالقدس فيما يخص بناء كنيسة القبر المقدس قائلاً : " اود أن اعرف رأيك  
بخصوص ما إذا يمكن تزيين التتوء الدالرى الخارج من الكنيسة وهو القبة أو تزيينه  
بطريقة أخرى ، ويقصد بذلك التخيير بين تزيينه بزخرفة فخائرة فى السقف أو  
بطريقة أخرى وهى الفسيفساء " (١) . وقد وقع الإختيار فى النهاية على خامات الفسيفساء  
التى كانت أكثر ثباتاً وقوة ولمعاناً فهى من الناحية التقنية لا تتلف ولا تتغير  
الوانها أو تفقد زهائها ويريقها كما أنها تقاوم الرطوبة ، هذا بالإضافة إلى صفاتها  
التشكيلية السابقة .

وبالرغم من تسرب التأثيرات الهيلينستية والرومانية لفن الفسيفساء المسيحى،  
إلا أنه قد قل إستخدام الفسيفساء فى الأرضيات على خلاف ما كان يحدث فى العصر  
الرومانى السابق له - وقد كانت سمة من سماته - وترجع ندرة إستخدام الفسيفساء فى  
زخرفة الأرضيات إلى أنها تحمل موضوعات دينية وشخصيات مصورة وطيوراً وحيوانات ،  
بالإضافة إلى الزخارف الزهرية والتفريعات النباتية ، وبما أن الإتجاه المسيحى يكره  
تصوير الكائنات الحية ، فإنه أيضاً رفض السير فوقها بالأقدام والذى لا يتفق وقداسة هذه  
الموضوعات والشخصيات ، لذلك فلقد لاقى مقاومة عنيفة من جميع رجال الدين - مما  
دعى الإمبراطور ثيودوزيوس الثانى ، عام ٤٢٧ م نتيجة لهذه الرؤية إلى إصدار إعلان  
يحظر فيه تصوير الصليب على الأرضيات ، ولذلك فإن القيود المفروضة على فسيفساء  
الأرضيات التى كانت تمثل وسطاً للخيال المسيحى أدت إلى التخلى عنها وإستبدالها بالواح  
صغيرة من الرخام أو الأحجار الطبيعية الأخرى واتخذت الواناً وأشكالاً متمدة تمثل  
نماذج هندسية - كثر ظهورها فى العصر البيزنطى - . وفى شكل (٦٥) نجد نموذجاً  
لإستخدام الأرضية التى تزخرف كاتدرائية أكيليا \* ، التى تعتبر نموذجاً فريداً ونادراً فى  
ذلك الوقت حيث تصور هذه الفسيفساء قصة « النبى نوح » ، ونلاحظ فيها ظهور الأشكال  
الآدمية والأسماك والحيوانات البحرية .

(1) P. B. Hetherington, Mosaics, Paul Hamlyn, London, 1967, P. 14.

(\*) تقع أكيليا فى شمال إيطاليا والكاتدرائية الموجودة بها تحمل إسم ثيودوزيوس ومولس أكيليا .

أما القطع الزجاجية فكان يفضل إستخدامها في الفسيفساء التي تزخرف الجدران والقباب والعقود في الكنائس المسيحية ، ومن هذه الزخارف نذكر ثلاث مساحات أولها التي تغطي جدران القبة في كنيسة القديسة كوستانزا بروما ، والتي تحتوى على رسوم الطيور كالحمام والطاووس وأشكال مختلفة للنباتات موزعة في القبة بطريقة أقرب إلى العشوائية كما نراها شكل (٦٦) ، وقد تنوعت ألوان هذه العناصر المرسومة على أرضية بيضاء ونفذت في اتجاهات أفقية ورأسية من مكعبات الفسيفساء ، ويحدد هذه المساحة من الخارج إطار زخرفي يحتوى على مجموعة من الدوائر المتشابهة .

وفي لوحة أخرى في نفس الكنيسة ترى مجموعة منتشرة من تفرعات الأكانثس وأوراق الكروم التي تسير في معظم إتجاهات اللوحة وعناقيد العنب ، وجميعها منقذة على مساحة بيضاء من مكعبات الفسيفساء ، ونرى ذلك في لوحة شكل (٦٧-أ) ، وهذه النوعية من الزخارف تؤكد ظهور التأثيرات الهيلينستية الرومانية ، والتي قد ظهرت من قبل في فسيفساء تونس، لوحة شكل (٥٧) ، يؤكد ذلك الكاتب هيثيرنجتون (Hetherington) بقوله " ان الإلهام الأساسى للموضوع في هذه الفسيفساء يعتمد على الإله بأكوس" المستخدم في تحقيق وظيفة هذا المكان" (١) . الذى رسمت فيه أجسام صانعى الخمر وهم آلهة الحب الصفار دون مراعاة للنسب الحقيقية لها ، ونشاهد في لوحة شكل (٦٧-ب) - وهى جزئية ثانية من اللوحة السابقة - وجهاً مرسوماً في الوسط ومن المرجح ان يكون لابنة قسطنطين وهى قسطنطينيا صاحبة هذا الضريح ، والذي أصبح كنيسة بعد ذلك ، وقد وضعت داخل خط دائرى مبسط تكون من خلال تفرعات أوراق الكروم المحيطة بها ، كما تخلل هذه التفرعات الطيور المختلفة الألوان والأشكال ، كما نلاحظ الإطار المكون من الدوائر المتشابهة والذي يحيط بهذه المساحة - سبق وأن ظهر في اللوحة السابقة - .

وقد يرجع البعض "وثنية هذا الموضوع إلى وثنية الزوج الثانى لقسطنطينيا ، ولكن رسوم الطاووس والحمام في اللوحة الأولى بالإضافة إلى فروع نبات الكروم لها دلالات مسيحية ، وذلك لأنها ترمز في المسيحية إلى الحياة الأبدية الخالدة" (٢) . وقد ارتبط تصوير نبات الكروم بصور السيد المسيح في كثير من الأعمال التصويرية .

(1) Mosaics, Paul Hamlyn, London, 1967, P.33.

(2) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 37.

وبالإضافة إلى الأشكال والموضوعات الزخرفية السابقة ، ظهرت الموضوعات الدينية التي تضم شخصيات مقدسة نراها في اللوحة الثالثة في هذه الكنيسة التي يصور فيها السيد المسيح يتوسط القديس « بطرس » والقديس « بولس » ، في حين تظهر أربعة خراف في أرضية اللوحة - هذا الشكل مرتبط بالإله الراعى - يظهر ذلك في لوحة شكل (٦٨) ، وفيها نرى السيد المسيح وقد رسم بطريقة بدائية ساذجة إذا ما قورن باللوحات الأخرى التي يظهر فيها متريماً على العرش الإمبراطوري أو في السماء مرتفعاً إلى مصاف الآلهة .

ورسوم الإطار الخارجى التي تحتوى على أوراق النبات وعناقيد العنب والفاكهة يتضح فيها مدى إستمرارية التأثيرات الهيلينستية الرومانية السابقة للفن المسيحى والتي تظل موجودة أيضاً فى الفسيفساء البيزنطية .

ويشير إدوارد لويس (Edward Luice) إلى أن فسيفساء القديسة كوستانزا تمثل المرحلة الإنتقالية من الفن الديوى إلى الفن المقدس " (١) . حيث ظهرت بعد ذلك الموضوعات الدينية بصفة سائدة فى الكنائس المسيحية والبيزنطية فيما بعد ، ومن هذه الكنائس المسيحية كنيسة « القديسة يودنزاياتا » بروما التي تغطى الفسيفساء فيها الجزء الرئيسى ، ونراها فى لوحة شكل (٦٩) التي يظهر فيها السيد المسيح معتلياً العرش وعلى جانبيه يقف مجموعة من الحواريين اللذين يقفون فى مستوى أدنى من مستوى السيد المسيح وتظهر مجموعة من النساء اللاتي ترتفع إثنان منهما وتمسكان بأكاليل الزهور ، واحدة فوق رأس القديس « بطرس » ، والثانية فوق رأس القديس « بولس » . وتجمع هذه اللوحة بين الأساليب الفنية المختلفة فضلاً عن الموضوع المسيحى، حيث نرى الأساليب الشرقية تتضح فى الشكل المعمارى المرسوم فى الخلفية بالإضافة إلى الفتحات المعمارية التي تظهر خلف الأشخاص مباشرة وتبدو وكأنها حقيقية والثراء اللونى الذى طغى على معظم أجزاء اللوحة يتجلى بصفة خاصة فى ملابس الأشخاص، والتوازن الذى تحقق بين الألوان الساخنة والباردة وحسن إختيار أماكن اللون الأحمر وتوزيعه .

كما أن الإهتمام برسم النسب الحقيقية لأجسام الشخصيات المصورة والدقة التي راعاها الفنان فى تسجيل ملامح الأشخاص ودراسة ثنانيا الملابس ترجع جميعها للتأثيرات الكلاسيكية القديمة .

(1) Art and Civilization, Laurence King, London, 1992, P. 92.

كما نجح الفنانون في الربط بين واقعية الموضوع ورمزيته ، نرى ذلك في الوضع الذي إتخذته السيد المسيح على العرش يشبه فيه وضع الإمبراطور أو الحاكم وذلك نتيجة لإرتباط العقيدة الدينية بالسلطة الحاكمة، ولولا الهالة المرسومة خلف رأس السيد المسيح في هذه اللوحة والإنجيل المسك به في يده اليسرى ، لاعتقد انه شخصية عادية تنتمي للطبقة الحاكمة وليس السيد المسيح الإله . أما الرمزية فتظهر في النصف العلوى للوحة التي رسمت فيه أربعة أشكال رمزية في السماء التي ظهرت بها مجموعة من السحب الكثيفة، ويتوسط الصليب المنفذ باللون الذهبى وبعض اللائح هذه الشخصيات الرمزية ، وهى عبارة عن مخلوقات مجنحة ، فالرجل يرمز إلى « متى » ، والأسد يرمز إلى « مرقس » ، والثور يرمز إلى « لوقا » ، والنسر يرمز إلى « يوحنا » ، وجميع الرموز السابقة تعبر عن قدوم الإنجيليين الأربعة ، والتي تكرر ظهورها في فسيفساء الكنائس البيزنطية اللاحقة .

وهناك مثلاً آخر في كنيسة القديس " جورج بسالونيك " يؤكد ظهور التأثيرات الشرقية والأساليب الكلاسيكية وخاصة في القبة التي تتمتع بزخارف الفسيفساء المتنوعة المنفذة على أرضية ذهبية وخاصة في جزئها السفلى ، حيث تعرض الجزء العلوى منها للتلطف البالى وتم تغطية الأجزاء المتبقية بطبقة من الجبس ، وتحتوى هذه القبة على اشكال معمارية معالجة بأسلوب زخرفى ويغلب عليها كما يقول دالتون (Dalton) " الطابع الكلاسيكى فهى تشبه في بنائها الداخلى الكنائس والكاتاربات الرومانية " (١) .

وتتخلل هذه الأجزاء المعمارية اطر زخرفية تحتوى على اشكال للتطوير امثال الطواويس والبط ، بالإضافة إلى بعض الفروع النباتية ورسوم الفاكهة التي تملأ الإطار الخارجى - ذو الشكل الدائرى - والذي يحدد هذه القبة بأكملها ، حيث ان هذه القبة مقسمة إلى ثمانية اجزاء متجاورة ويقصل بينها زخارف طولية ، واللوحة شكل (٧٠) تعرض جزئية منها ، ونرى فيها الشكل المعمارى الكلاسيكى يتقدمه إثنان من الحواريين أو القديسين ، كما نتبين مدى التلف الذى لحق بها وخاصة في الجزء الأوسط ، والركن الأيمن أسفل اللوحة .

ومع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادى نلاحظ زيادة الزخارف الكنسية وتنوع مشاهد الموضوعات الدينية التى ساد فيها الأسلوب القصصى الروالى بالإضافة إلى رمزية الفن المسيحى وموضوع الشخصية الواحدة ، وأوضح النماذج التى يمكن وصفها والحديث عنها في هذا المجال لوحات الفسيفساء التى تغطى المجرى

(1) Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press , Oxford , 1911, P. 374 .

العريض فى كنيسة القديسة ماريا جيورى فى روما ، وقد ذكر هيرينجتون (Hetherington) انها تحتوى على " سبعة وعشرون لوحة متبقية من اثنتى واربعين لوحة " (١) . منها اثنتى عشر لوحة تزين الجدار الأيسر وخمسة عشر لوحة يزدان بها الجدار الأيمن ، وتمثل هذه اللوحات موضوعات الكتاب المقدس خلال العهد القديم ، وتصوير الأنبياء فى تلك الفترة وهم : إبراهيم ، موسى ، ويعقوب ويوشع .

اما المشاهد التى تصف العهد الجديد فنراها على جدار قوس النصر المقام امام المذبح ويحتوى على مجموعة من الموضوعات منها موضوع البشارة ، الظهور فى العيد ، الهروب إلى مصر ، وعبادة المجوس ، واستقبال الملك أفروديزيوس للسيد المسيح فى مصر ، ومدبحة الأبرياء ، وفوق القوس يوجد صورة للمرش وعليه صليب وتاج محلى بالجواهر ، وعلى الجانبين صور للقديس بطرس والقديس بولس واربعه من الحيوانات الخرافية .

ومن المشاهد التى تعبر عن العهد القديم نرى لوحة شكل (٧١) التى تعبر عن اللحظة التى اشار فيها موسى إلى البحر ، بعصاه فينقلق ليفرق فرعون وقومه من المصريين كما يتضح فى المساحة الزرقاء اللون من مكعبات الفسيفساء التى نشاهد فيها بعض الأجسام والدروع الفارقة ، وعلى يمين اللوحة نرى بعض الخطوط التى توحى بالأشكال المعمارية المبسطة فى الخلف يندفع من بينها الجنود والفرسان بخيولهم فى حركات سريعة ، اما فى يسار اللوحة فيبدو لنا « النبى موسى ، يتقدم اتباعه من القديسين ويظهر برداء أبيض يشويه بعض الزرقة والمبابة التى تميل إلى الدرجات البنية الهادئة ، وقد إختص الفنانون جميع الأنبياء والقديسين بهذا الزى الأبيض بما يميزهم عن باقى الشخصيات الأخرى فى معظم لوحات الفسيفساء كما يلاحظ فى شكل (٧٢) الذى يظهر به لوحتين ، العليا تصور أطفال إسرائيليين فى طريقهم إلى القدس وهم يهددون « النبى موسى » - الذى يرتدى نفس الزى الأبيض - بالثورة ويبدو ذلك فى اللوحة لسفلى، ويبدو « موسى » ورفيقه وقد احاطت بهم سحابة بيضاوية مرسله من ربه لحمايته .

وكلتا اللوحتان السابقتان نلاحظ فيهما التكوين المزدحم الذى إمتلأ بمجموعات كثيرة من الأشخاص اللذين إختلفت حركاتهم بالإضافة إلى انهما تمكسان الشعور بسرعة الأداء الذى شمل رسم الصورة نفسها ، فهى أقرب فى تصويرها إلى الرسوم السريعة التحضيرية ( السابقة للوحة النهائية ) ، كما نلاحظ هذه السرعة أيضاً فى

(1) Masalcy, Paul Hamlyn, London, 1967, P.33.

طريقة تنفيذ مكعبات الفسيفساء وكبر حجمها مما أدى إلى ظهور الأشكال مهوشة وبعيدة عن الوضوح إلى حد ما ، كما يتضح لنا أيضاً عدم الإهتمام بنقل الملامح والإكتفاء بالتعبير عنها بخطوط مجردة . ويشير الكاتب إدوارد تويس إلى أسلوب هذه اللوحات بقوله " أن أسلوب هذه اللوحات يعتبر جسراً نحو أسلوب جديد يهدف إلى تخفيف هذه المثاليات الكلاسيكية القديمة بحيث تكاد تكون غير مرئية " (١). والذي يظهر في إهمال الأبعاد وعدم التركيز على التعبيرات والحركات الإنفعالية .

وفي بعض من هذه اللوحات يقل إزدحام التكوينات نوعاً ، ويبدو ذلك في كل من اللوحتين شكلى (٧٣ ، ٧٤) ويظهر في الأولى « النبي إبراهيم ، في يمين اللوحة يمتلئ فرسه ومن خلفه قواده اللذين يرتدون الخوذ وممسكين بالرمح ، يقابله في اليسار ملك (شاليم) يقدم له القرابين وهي عبارة عن سلة الخبز ووعاء الخمر - الموضوع في منتصف أرضية اللوحة - بعد إنتصاره على الأعداء اللذين أسروا أخاه لوط ، ، ويظهر السيد المسيح في سماء اللوحة يبارك هذا الموقف وقد تطاير رداؤه الأزرق وسط مجموعة من الألوان القوية الدافئة المحيطة به .

أما اللوحة الأخرى فهي تصور لحظة عبور الملائكة البحر الأحمر ويبدو النبي إبراهيم يتقدم نحو ثلاثة من الملائكة لإستقبالهم ، وجميع اللوحات السابقة تشترك في الخلفيات الخائبة أو ذات الأشكال المجردة سواء في العناصر المعمارية أو النباتات البسيطة ، كما تميزت هذه اللوحات بهدوء الألوان وتنوعها ، وهذا الثراء اللوني قد سيطر على أغلب اللوحات - فقد تباينت ألوانها بين درجات اللون الأبيض والأصفر القوي المائل للذهبي والأزرق والأخضر المائل إلى الإصفرار ، وكلها تتميز بالهدوء والرقّة وتتجلى فيها قدرة الفنان في تحقيق التوازن بين الدرجات الساخنة والباردة .

ويذكر الدكتور ثروت عكاشة ، وصف المؤرخ « جريجوروتوس » لهذه اللوحات بقوله أنها تتمم " ببساطة الأسلوب ووحدة الفكرة ، فهي تبرز سائر لوحات الفسيفساء الموجودة بروما وتعد أثراً جميلاً لومضة الإبداع الأخيرة للفن الروماني خلال القرن الخامس " (٢) . ويضيف مؤكداً بقوله ، " وهي في الحق أكثر الشواهد المبهرة للفن المسيحي برمته " (٣) .

(1) Art and Civilization, Laurence King, London, 1992, P.92 .

(٢) تاريخ الفن - الفن البيزنطي - الجزء الحادي عشر ، فرسعاد الصبيح ، القاهرة ، ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق . نفس المكان .



وهناك بعض امثلة للوحات الفسيفساء في مدينة « رافينا » التي تحتوى على العديد منها في مبانيها وكنائسها والتي ماتزال تزيناها حتى الآن ، وهذه الفسيفساء تعتبر حلقة الوصل بين الفن المسيحى المبكر والفن البيزنطى ، وأشهر هذه المباني وأكثرها احتواء على مساحات كبيرة من الفسيفساء هو مبنى صغير صليبي الشكل يعرف بضريح جالابلاسيديا \* ويغطى المنطقه السفلى من الجدران ألواح الرخام ، أما الفسيفساء فتغطى النصف العلوى والقبة ، كما يبدو في لوحة شكل (٧٥) ، ويغلب عليها الأشكال الهندسية والنباتية المجردة ، ويقل رسوم الأشخاص إلا في بعض الجدران التي تعلوها القبة والتي تظهر بها بعض الشخصيات الدينية المقدسة مثل صورة القديس لورانس - سبق الحديث عنها في شكل (٤٤) ، ويفصل كل مساحة فسيفساء عن الأخرى الأطر الزخرفية المختلفة الألوان والأشكال .

ويتكرر ظهور حاملى الأناجيل الأربعة - الذى سبق وإن ظهر في كنيسة القديسة يودنزايانا في روما شكل (٦٩) - في أركان قبة هذا الضريح ويذكر جيوسيب بوفيني (Giuseppe Bovini) قد « إنتشر فيها ما لا يقل عن خمسمائة وسبعون نجماً ثمانى الزوايا في دوائر متحدة المركز حول الصليب المقدس » (١). كما نرى في شكل (٧٦) ، وقد نفذت هذه النجوم والصليب باللون الذهبى على الخلفية الزرقاء . وهذا يعتبر لوناً جديداً من ألوان التعبير عن الرمزية المسيحية التي إعتبرت اللون الأزرق لوناً روحانياً يوحي بالسماء التي يتوسطها الصليب ، كما نلاحظ هذين اللونين أيضاً في لوحة شكل (٧٧) التي تصور السيد المسيح الراعى ، فنرى اللون الأزرق ينتشر فوق جدران القبة المنحنى تتخلله الوحدات الهندسية المتكررة ، كما نشاهده أيضاً في ملابس السيد المسيح ومستخدماً في ظلال الصخور التي تتقدم للوحة ، ويظهر هذا اللون الأزرق بالتبادل مع اللون الذهبى في الإطار النصف الدائرى الذى يحيط باللوحة من الخارج ، وشكل (٧٧-١) تفصيلية من اللوحة السابقة - نلاحظ فيه غلبة التقاليد الكلاسيكية التي تجلت في دقة رسم ملامح السيد المسيح ودراسة طيات ملابسه ورقة خطوط العبادة المنسدلة من على كتفه وتندلى فوق فخذه ، ويتجه بيده اليمنى إلى أحد الخراف ويمسك في يده اليسرى بصليب طويل جداً كما لو كان ذلك إحياء بربط السماء بالأرض ، وهذا المنظر الذى يضم الراعى مقتبس من صور أورفيوس \*\* وهو يعزف الموسيقى ليدخل السرور على قلوب قاطعه .

(1) Ravenna, Harry N. Abrams, Inc, Publishers, New York, P.30

(\*) نفذ هذا الضريح من أجل إبنة ثيردوسيزوس الأول وهي جالابلاسيديا، التي توفيت عام ٤٥٠ م .

(\*\*) إله الموسيقى عند الرومان

وقد إستخدمت الخطوط البنية الداكنة والسوداء فى تحديد الخطوط الخارجية فى بعض أجزاء من جسد السيد المسيح ورداله وأجساد الخراف وبعض الصخور . ويتضح لنا محاولة الفنان للوصول بالأخنام والخراف إلى شكلها الطبيعى .

وبالرغم من ظهور التقاليد الكلاسيكية بوضوح ، إلا أنها تختفى فى أسلوب تصوير النباتات التى إتخذت مساحات مجردة وإبتعد فيها الفنان عن نقل الشكل الطبيعى لأوراق النبات ، وتتميز هذه اللوحة برفقة الألوان وهدهدها ، كما أنها تفوق لوحات كنيسة القديسة ماريا ماجورى فى طريقة التنفيذ المتناولة للمكعبات الفسيفساء التى إختيرت بعناية ، كما صغر فيها حجم المكعب بعد أن إتخذ أحجاماً كبيرة نوعاً فى فسيفساء كنيسة القديسة ماريا ماجورى .

وهناك إثنين من المباني الدينية المخصصة للتعظيم فى راڤينا ، وهما العمودية الأرثوذكسية والمعمودية الأريانية\* ، وخراف الفسيفساء فى هذه المعموديات لا توجد إلا فى القبة التى تعلق المكان المخصص للتعظيم ، وعلى ذلك تظهر الجدران خالية من الرسوم بالمقارنة بخراف القبة أو تحتوى على نقوش تحتية بارزة .

وتحتوى زخارف العمودية الأرثوذكسية على ثلاث مستويات ، أولها المستوى الذى تتم فيه عملية التعظيم نفسها، والثانى يحتوى على رسوم الحواريين الإثنى عشر وهم مسكين بالتيجان متجهين بها صوب السيد المسيح ويوحنا المعمدان ، أما المستوى الثالث فيشتمل على رسوم لمساحات هندسية وأشكال معمارية وفتحات للنوافذ كما تبين فى لوحة شكل (٥٨) .

وشكل (٧٨) يعتبر تفصيلية من اللوحة السابقة ، ويظهر بها احد الحواريين ممسكاً التاج ومن خلفه تنسدل الستائر ، وقد نفذت بحرص وعناية بمكعبات الفسيفساء مع مراعاة التدرج اللونى - كما يبدو ذلك فى رداء القديس أيضاً - على خلفية زرقاء اللون تخللها بعض الكتابات المذهبة يرجح أن تكون أسماء القديسين انفسهم ، كما رسمت بعض الزخارف النباتية المحورة التى تخرج من مجموعة أوراق مجتمعة ، وتفصل بين كل حوارى والآخر واتخذت أيضاً اللون الذهبى .

(\*) بنيت بعد المعمودية الأرثوذكسية بحوالى قرن من الزمان .

أما المعمودية الأريانية فتتكون من مستويين ، كما نرى فى شكل (٧٩) أحدهما المستوى الخاص بعملية التعميد والآخر خاص بالحواريين وهم متجهين أيضاً إلى كرسى العرش الخاص بالسيد المسيح، يفصل بينهم فى هذه اللوحة كثير من جذوع النخيل ذات الشكل المجرد . وشكل (٧٩-١) يصور عملية التعميد فى المستوى الأول - تفصيلية من اللوحة السابقة - يتضح لنا فيها عدم إهتمام الفنان بدراسة التشريح الطبيعى لجسد السيد المسيح ، كما لم يراع النسب الطبيعية أيضاً فى جسد يوحنا المعمدان ، ولكنه بالرغم من ذلك قد نجح فى نقل الإحساس بشفافية مياه التعميد التى تغطى النصف السفلى من جسد السيد المسيح ويديه وتظهره فى نفس الوقت ، وذلك تحقق من خلال حسن إنتقائه الدرجات اللونية لمكعبات الفسيفساء .

وتزخر كنيسة القديس أبولينار الجديدة\* بمجموعة من لوحات الفسيفساء وهى تجمع أيضاً بين أسلوبى العصر المسيحى المبكر والبيزنطى ، وتتنوع الأساليب المسيحية المبكرة فى الجزء العلوى من جدران المجاز العريض والتى تعلق النوافذ وهى تحتوى على موضوعات دينية ورسوم تصف مواقف من حياة السيد المسيح ومعجزاته فى شفاء المرضى وإحياء الموتى .

وهذه اللوحات موضوعة وفق الترتيب الزمنى للأحداث القديمة الخاصة بالسيد المسيح ، وهى تنقسم إلى مرحلتين : يظهر فى المرحلة الأولى مصوراً فى هيئة شاب صغير غير ملتح ، كما يبدو فى ملامحه ، كما نرى فى لوحة شكل (٨٠-١) حيث نشاهد السيد المسيح يقف بين أربعة من الحواريين فى تصميم متماثل ومتوازن ، وهى تسجل إحدى معجزاته التى إتضحت فى تضاعف أعداد الخبز والأسماك بعد وضع يديه عليهما ، و لوحة شكل (٨٠-ب) التى تصور السيد المسيح يحاسب الخلق اللذين رمز إليهم بقطع الخراف فى هذه اللوحة وهو يفصل بينهم ويقف بجواره ملكان على اليمين واليسار يساعده فى إصدار الأحكام عليهم .

أما المرحلة الثانية فتشتمل على اللوحات التى تصور السيد المسيح أكبر سناً وملتحياً وهى تحكى مواقف من حياته فى فترات متقدمة ، واللوحة شكل (٨٠-ج) نشاهد فيها خيانة يهوذا للسيد المسيح ويقف من حوله الحواريين والجنود أصحاب

(\*) كانت تعرف باسم كنيسة القديس مارلين ثم تغير إسمها إلى هذا الإسم نسبة إلى القديس أبو لينار الذى نقلت رفاتة إليها وأضيف إليها لفظ " الجديدة " ، لتختلف من الكنيسة الأصغر والتى تحمل نفس الإسم .

الزى الملون على يمين السيد المسيح ، أما لوحة العشاء الأخير التي تراها في لوحة شكل ( ٨٠ - د ) يبدو فيها السيد المسيح ملتجياً أيضاً ويلتف فيها الحواريون حول المائدة النصف مستديرة . ويشير الدكتور ثروت عكاشة إلى شكل هذه المائدة بأنها "تشبه كثيراً الأسلوب المتبع في اللاتم الرومانية" (١) .



---

(١) تاريخ الفن - الفن البيزنطى - الجزء الحادى عشر ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ١٢٤ .



شكل رقم (١) إطار يحتوي على مجموعة من الرؤوس المتجاورة يحدد لوحة الفسيفساء في أرضية قصر بيشابور فسيفساء ساسانية إيران - النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي



شكل رقم (٢) عازفة القيثارة - فسيفساء ساسانية - أرضية قصر بيشابور إيران - النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي .





شكل رقم (٢-١) عازفة العيثارة-تفصيلية من اللوحة السابقة-فسيفساء ساسانية -أرضية قصر بيشابور - النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي .



شكل رقم (٣) إحدى سيدات البلاط الملكي-فسيفساء ساسانية - أرضية قصر بيشابور - إيران النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي .







شكل رقم (٤) سيده تمسك بباقة زهور - فسيفساء ساسانية - أرضية قصر بيشابور - إيران -  
النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي.



شكل رقم (٥) فتاة صغيرة تجلس أمام جذع شجرة - فسيفساء ساسانية - أرضية قصر بيشابور  
إيران - النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي.



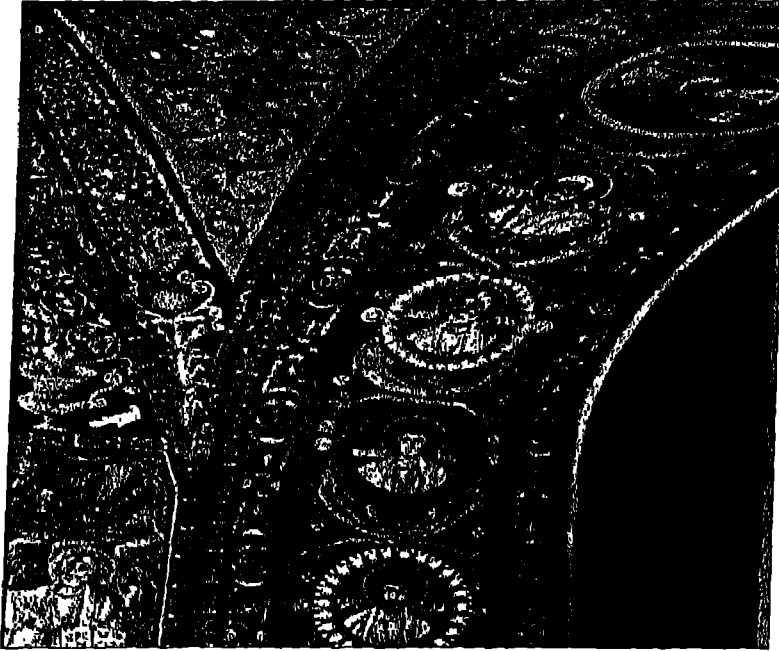


شكل رقم (٦) فتاة ترتدي ملابس البحر-تفصيلية من أرضية تضم عشر رقصات - فسيفساء رومانية - قصر بيزا أرمرينا - القرن الثالث الميلادي.

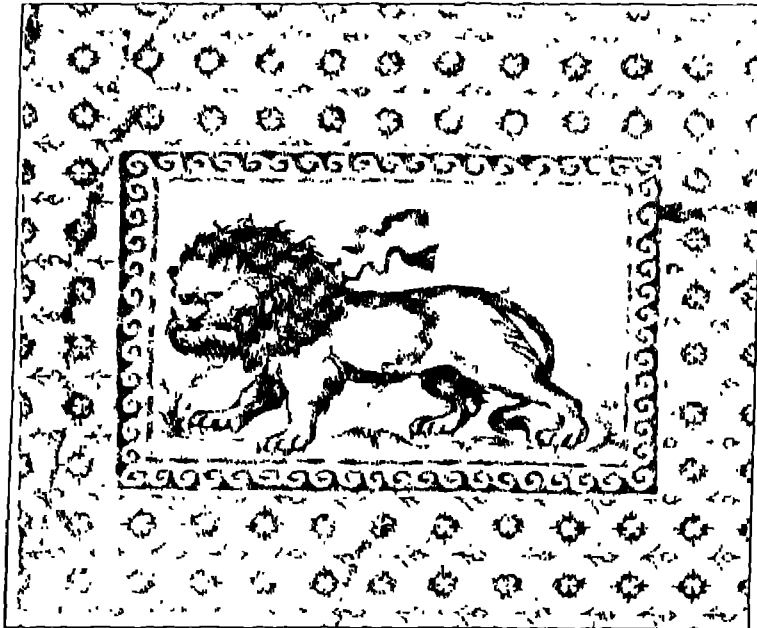


شكل رقم (٧) وجه فتاة صغيرة تفصيلية من الإطار الخارجي - فسيفساء ساسانية - أرضية قصر بيشابور - إيران - النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي.



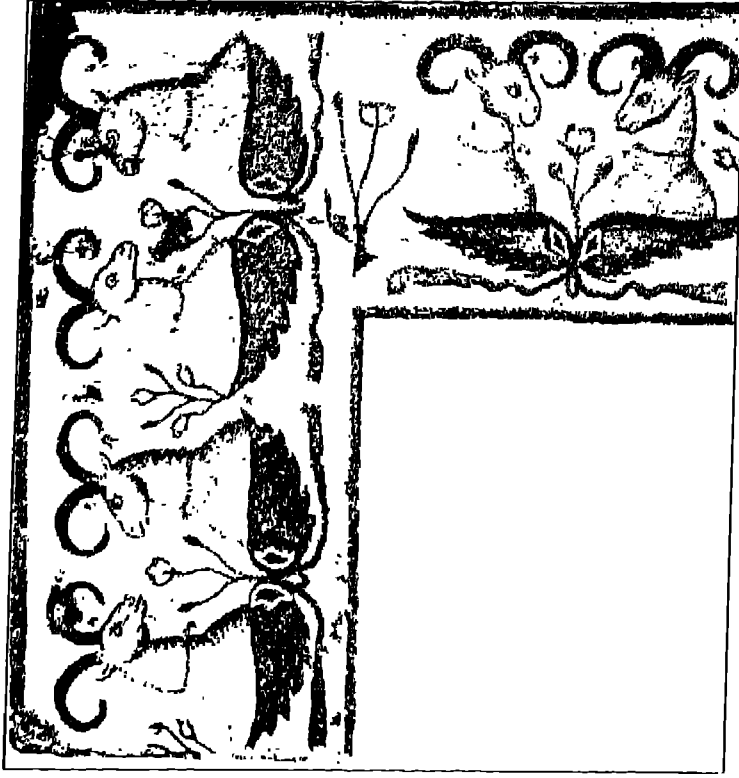


شكل رقم (٨) إطار زخرفي يتضمن الرؤوس الأدمية. تفصيلية من فسيفساء كنيسة القديس  
قيبال رافينا - فسيفساء بيزنطية - النصف الأول القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (٩) صورة أسد بوضع جانبي تفصيلية من فسيفساء أرضية - فسيفساء ساسانية -  
أنطاكية القرن الخامس الميلادي.





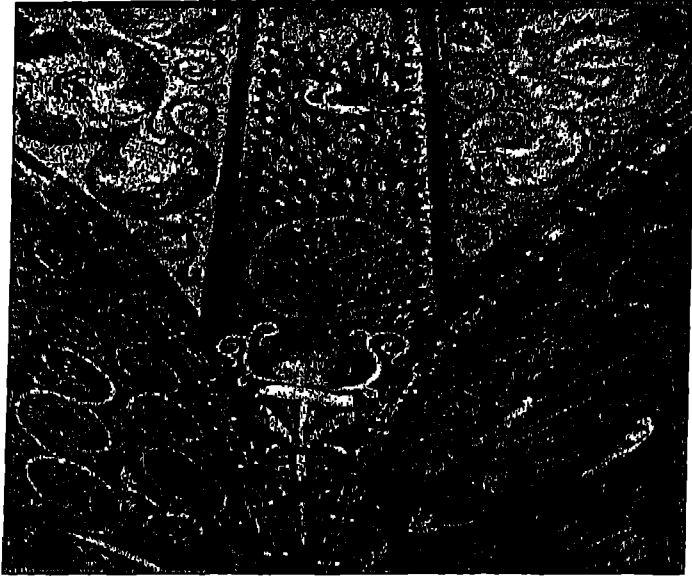
شكل رقم (١٠) الجديان المجنحة المتقابلة (تفصيلية من الإطار الخارجي) - فسيفساء ساسانية -  
أنطاكية - متحف اللوفر باريس - القرن الرابع الميلادي •



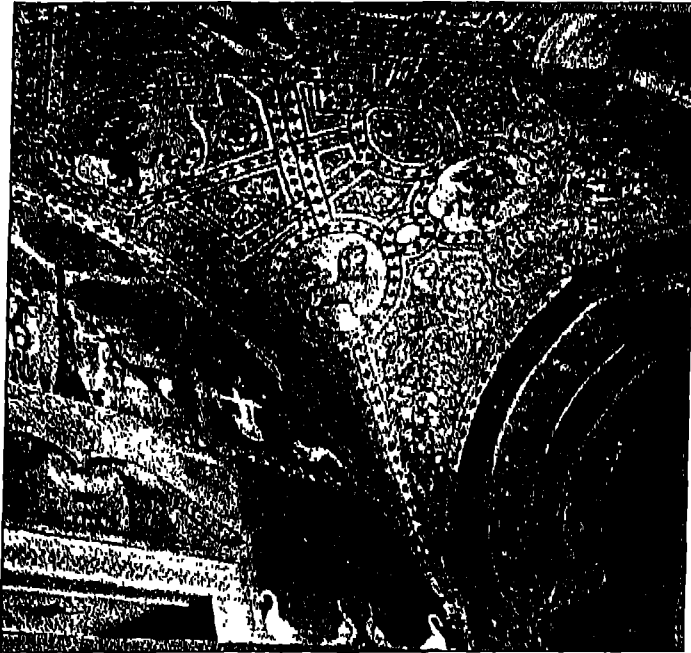
شكل رقم (١١) تقرينات أوراق الأكانثوس - نقوش حجرية - قصر بيشابور - النصف  
الثاني الميلادي (فن ساساني) •







شكل رقم (١٢) زخارف الطيور و أوراق الأكانثوس -تفصيلية من الفسيفساء أسفل قبة كنيسة القديس فينال-رافينا -فسيفساء بيزنطية -النصف الأول القرن السادس الميلادي .



شكل رقم (١٣) مشاهد الصيد و الحيوانات المتقابلة - حجرة الملك روجر الثاني- فسيفساء القصر الملكي- فسيفساء بيزنطية- باليرمو (صقلية) القرن الثاني عشر الميلادي -

١١٥٤:١١٦٦م .





شكل رقم (١٤) صموئيل يمسح رأس داود بالزيت - حائط كنيسة دورا أوروبوس - رسم جداري.

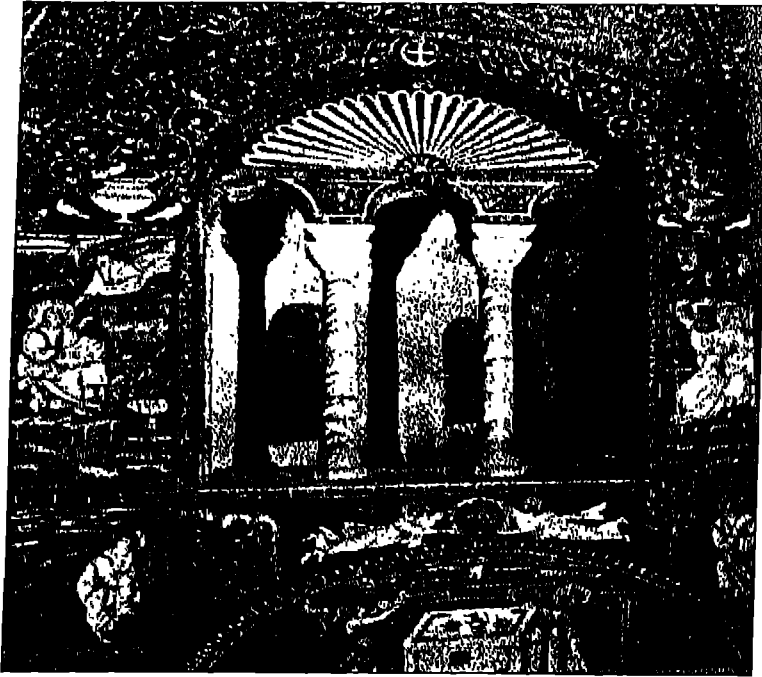


شكل رقم (١٥) الإمبراطور جستنيان و الأسقف مكسيميان - فسيفساء حنية الجدار الجنوبي كنيسة القديس فيتال - رافينا - فسيفساء بيزنطية - النصف الأول القرن السادس الميلادي.





شكل رقم (١٦) صورة الملاك المجنح - نقش حجري فوق مدخل كهف بمدينة تاج بوسطن - من القرن الخامس إلى السابع الميلادي (فن ساساني).



شكل رقم (١٧) زخارف نباتية و موضوعات من العهد القديم - فسيفساء الجانب الجنوبي كنيسة القديس فيتال - راثينا - فسيفساء بيزنطية - النصف الأول من القرن السادس الميلادي.





شكل رقم (١٨) فسيفساء الإسكندر - متحف الآثار - نابولي - القرن الثاني قبل الميلاد -  
الإرتفاع ٣,٤٢ متر - فسيفساء هيلينستية - تقليد لعمل أصلي يوناني - النسخة الأصلية عبارة  
عن أرضية ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع قبل الميلاد .



شكل رقم (١٩) قناع و فواكه - دار إله الغابات - بومبي - متحف الآثار - نابولي - فسيفساء  
هيلينستية - القرن الثاني قبل الميلاد .







شكل رقم (٢٠) فسيفساء صيد الأسد - متحف الآثار - مدينة بيلا - فسيفساء هيلينستية - نهاية القرن الرابع قبل الميلاد - الإرتفاع ١,٦٣٥ متر .



شكل (٢١) فسيفساء صيد الغزال - مدينة بيلا - فسيفساء هيلينستية - القرن الرابع قبل الميلاد - الإرتفاع ٣,١٠ متر .



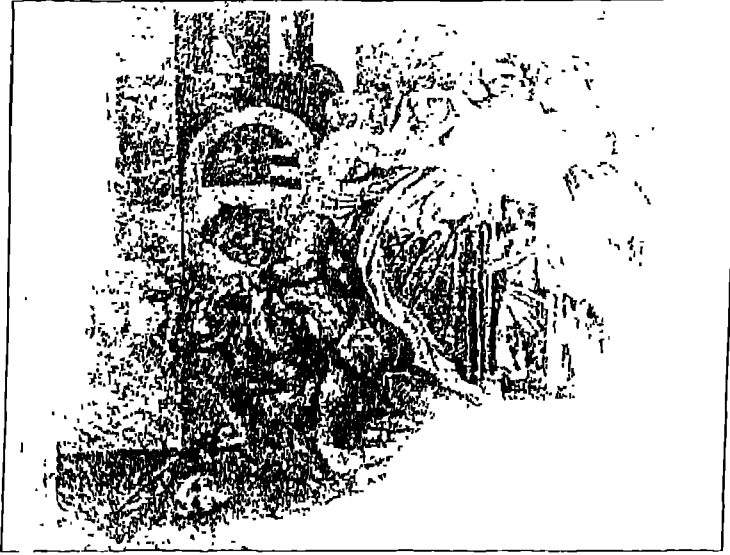


شكل رقم (٢١-أ) فسيفساء صيد الغزال - تفصيلية من اللوحة السابقة .



شكل (٢٢) فسيفساء إختطاف تيزيه لهلين - متحف الآثار - مدينة بيللا - فسيفساء هيلينستية -  
النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد - المساحة الكلية ٨,٤٠ x ٢,٨٠ متر .





شكل رقم (٢٣) فسيفساء ثيزون و المينيتور - بومبي متحف الاثار نابولي فسيفساء هيلينستية - القرن الثاني قبل الميلاد .



شكل رقم (٢٤) ديونيسيوس يمتطي الفهد - دار الأفتحة - ديلوس - فسيفساء هيلينستية - القرن الثاني قبل الميلاد - الإرتفاع ١,٠٠٨ متر .





شكل رقم (٢٥) فسيفساء الموسيقيين الجانلين - فيلا سيسيرون - بوميى - متحف الآثار - نابولي - فسيفساء هيلينستية - التصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد - نسخة من عمل أصلي يرجع إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد .



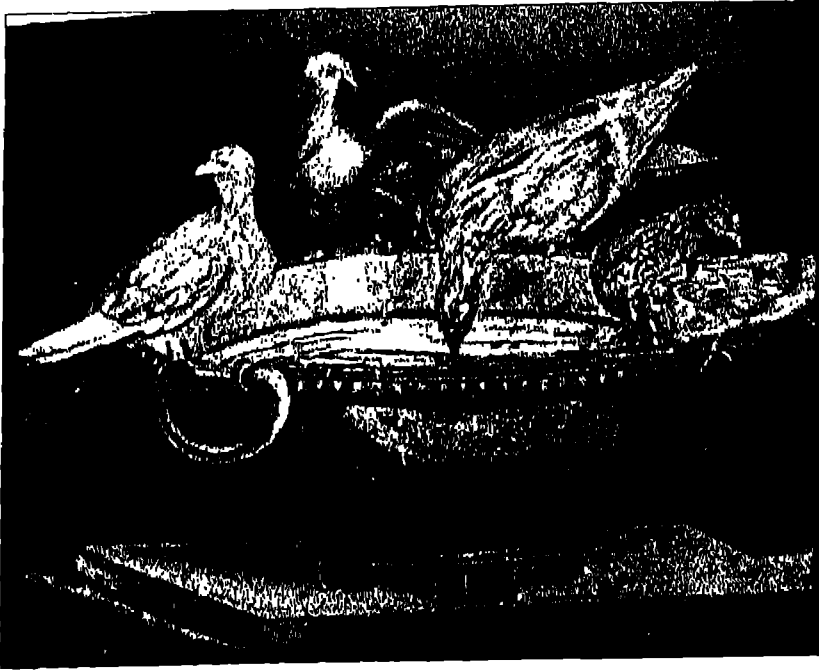
شكل رقم (٢٦) فسيفساء مشهد زيارة إلى الساحرة - فيلا سيسيرون - بوميى - متحف الآثار - نابولي - فسيفساء هيلينستية - القرن الثاني قبل الميلاد - نسخة من عمل أصلي يرجع إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد .







شكل رقم (٢٧) فسيفساء إيروس (إله الجنس) - تفصيلية دار أولياء العهد نيلوس - فسيفساء هيلينستية - النصف الثاني القرن الثاني الميلادي .



شكل رقم (٢٨) صور الحمام على الإناء - فيلا هادريان - تيفرولي - متحف كابيتولين - روما - فسيفساء هيلينستية - القرن الثاني الميلادي - نسخة من عمل أصلي يرجع إلى بداية القرن الثاني قبل الميلاد .





شكل رقم (٢٩) فسيفساء الكائنات البحرية - دار إله الغابات - بومبي - متحف الآثار - نابولي  
- فسيفساء هيلينستية - نهاية القرن الثاني قبل الميلاد إرتفاع ١٠١٧ م .



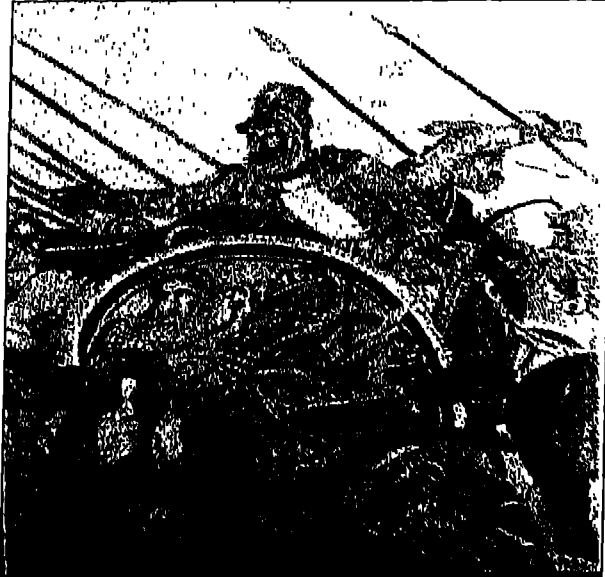
شكل رقم (٣٠) فسيفساء الكائنات البحرية في قاع البحر - دار إله الغابات - بومبي - متحف  
الآثار - نابولي - فسيفساء هيلينستية - نهاية القرن الثاني قبل الميلاد - إرتفاع ١٠٦٢ م .



-١٠٢-



شكل رقم (٣١) تفصيلية من فسيفساء المشاهد النيلية - دار إله الغابات - بومبي - متحف الآثار نابولي - فسيفساء هيلينستية - القرن الثاني قبل الميلاد - الإرتفاع ٠,٦٤ متر .



شكل رقم (١٣٢) الإسكندر الأكبر - تفصيلية من فسيفساء الإسكندر - متحف الآثار نابولي - فسيفساء هيلينستية - القرن الثاني قبل الميلاد .





شكل رقم (٣٢ - ب) الملك دارا (ملك الفرس) تفصيلية من فسيفساء الإسكندر - متحف الآثار - نابولي - فسيفساء هيلينستية - القرن الثاني قبل الميلاد .



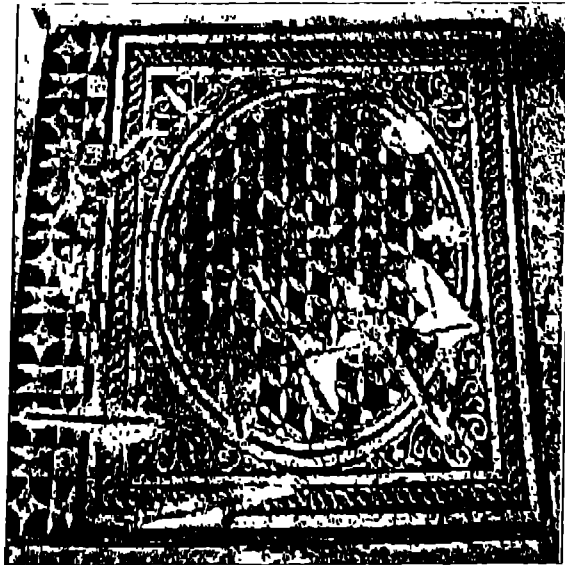
شكل رقم (٣٣) فسيفساء مشاهد نيلية (برينست) - متحف برنستينو باربريانو - بالسترينا - فسيفساء هيلينستية - القرن الأول قبل الميلاد - المساحة ٥,٢٥ \ ٦,٥٦ متر .





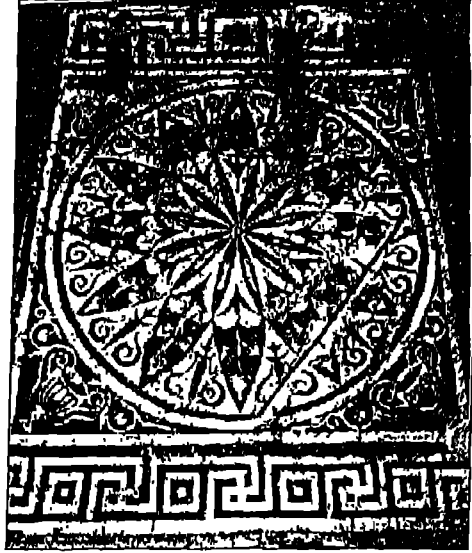


شكل رقم (٣٣-أ) معبد ديلا فورتونا - تفصيلية من اللوحة السابقة - متحف برنستينو باربريانو - بالسترينا - - فسيفساء هيلينستية - القرن الأول قبل الميلاد .



شكل رقم (٣٤) زخارف هندسية - فسيفساء أرضية منزل بالمعمورة - (فسيفساء هيلينستية) المتحف اليوناني الروماني - الإسكندرية .





شكل رقم (٣٥) زخارف هندسية - فسيفساء أرضية منزل بالشاطبي - (فسيفساء هيلينستية) المتحف اليوناني الروماني-الاسكندرية.



شكل رقم (٣٦) طيور و زخارف هندسية - فسيفساء أرضية منزل بكم الدكه - (فسيفساء هيلينستية) المتحف اليوناني الروماني الاسكندرية.



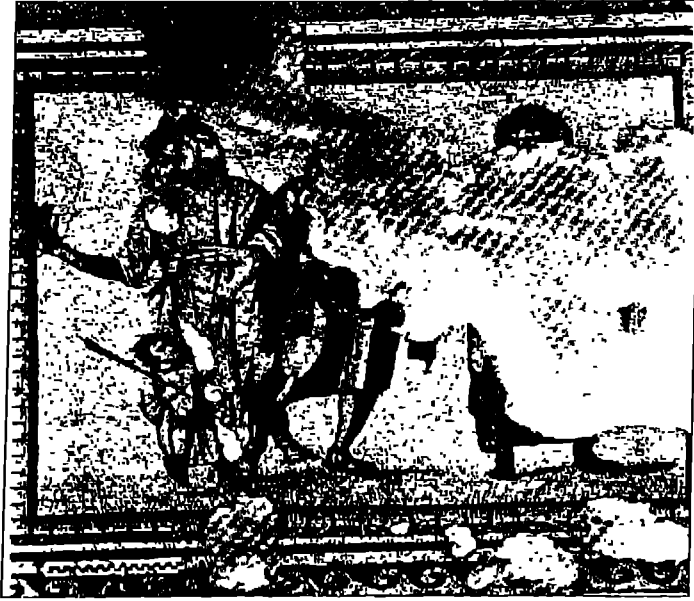


شكل رقم (٣٧) تجسيد مدينة الإسكندرية - ثيموس - فسيفساء هيلينستية - المتحف اليوناني الروماني - الإسكندرية - القرن الثاني قبل الميلاد .



شكل رقم (٣٨) تجسيد مدينة الإسكندرية - ثيموس - فسيفساء هيلينستية - المتحف اليوناني الروماني - الإسكندرية - النسخة الثانية .





شكل رقم (٣٩) ميديا و جيسون (مشهد مسرحي من أعمال أوربيدس المسرحية) - اللوحة المركزية - أرضية فيلا بمدينة دافني - فسيفساء هيلينستية - أنطاكية - أواخر القرن الثاني الميلادي.



شكل رقم (٤٠) مشهد مسرحي (من أعمال أوربيدس المسرحية) - اللوحة الثانية (يمين اللوحة المركزية) - أرضية فيلا بمدينة دافني - فسيفساء هيلينستية - أنطاكية - أواخر القرن الثاني الميلادي.







شكل رقم (٤١) فيدرا و هيبو ليتوس تتوسطهم الخادمة - مشهد مسرحي (من أعمال أوربيدس المسرحية). اللوحة الثالثة (يسار اللوحة المركزية) - أرضية فيلا بمدينة دافني - فسيفساء هيلينستية - أنطاكية - أواخر القرن الثاني الميلادي.



شكل رقم (٤٢) باريس و هيلين و أفروديت - مشهد مسرحي (من أعمال أوربيدس المسرحية) - اللوحة الرابعة (أعلى اللوحة المركزية) - أرضية فيلا بمدينة دافني - فسيفساء هيلينستية - أنطاكية - أواخر القرن الثاني الميلادي.





شكل رقم (٤٣) إيفجينيا (مشهد مسرحي) - فسيفساء منزل في أنطاكية - فسيفساء هيلينستية - القرن الثاني الميلادي .



شكل رقم (٤٤) القديس لورانس - فسيفساء الحائط الحلقي للضريح - ضريح چالا بلاسيديا - رافينا فسيفساء بيزنطية - القرن الخامس الميلادي .





شكل رقم (٤٥) العذراء تتعلم الوقوف و السبر - فسيفساء كنيسة المخلص - القسطنطينية -  
فسيفساء بيزنطية - النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (٤٦) مشهد من حياة العذراء - تفصيلية من فسيفساء الدهليز الداخلي - كنيسة  
المخلص - القسطنطينية - فسيفساء بيزنطية - القرن الرابع عشر الميلادي.





شكل رقم (٤٧) قبلة يهوذا - فسيفساء دير دافني - أتيكا فسيفساء بيزنطية - القرن الحادي عشر الميلادي .



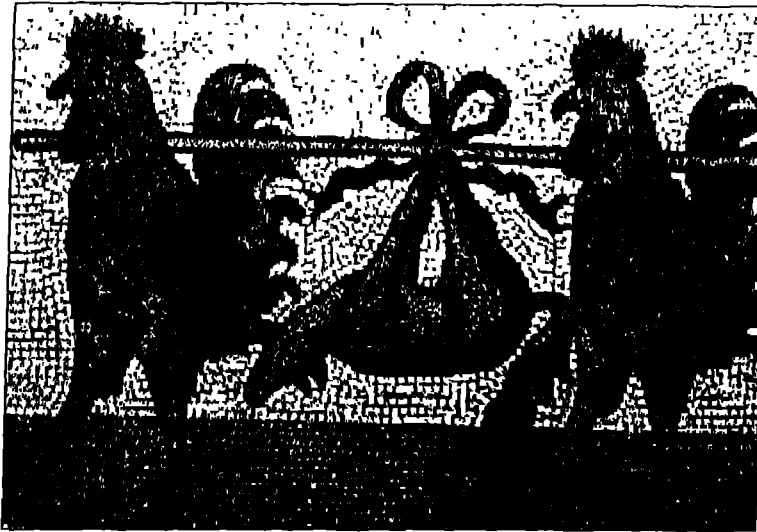
شكل رقم (٤٨) مشهد رعي - تفصيلية من فسيفساء أرضية قبلا هادريان - نيقولى - فسيفساء هيلينستية - القرن الثاني الميلادي .







شكل رقم (٤٩) القديس لوقا - فسيفساء كنيسة القديس فيتال - رافينا - فسيفساء بيزنطية القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (٥٠) ديكان يحملان ثعلبا متدليا من عصا - تفصيلية من فسيفساء أرضية الصالة العرضية - كنيسة القديس مرقس - فينيسيا - فسيفساء بيزنطية القرن الثاني عشر الميلادي.





شكل رقم (٥١) فصول السنة - فسيفساء أرضية - متحف كورينيوم - فسيفساء رومانية - القرن الثاني عشر الميلادي .



شكل رقم (٥١أ) الخريف - تفصيلية من فسيفساء الأرضية ( فصول السنة) .





شكل رقم (٥٢) فسيفساء الجدار الأيمن (يتضمن الشكل المروحي أعلى الجدار)  
صحن دار الغزال في هيراكليسوم - القرن الأول قبل الميلاد.



شكل رقم (٥٣) فسيفساء الحنية وقوس النصر - كنيسة القديس كليمانت -  
روما - بداية القرن الثاني عشر الميلادي.





شكل رقم (٥٤) تتويج العذراء - فسيفساء الحنية الرئيسية - من أعمال چاكوبو توريني  
كنيسة القديسة ماريا ماجوري - روما - أواخر القرن الثالث عشر - ١٢٩٥م.



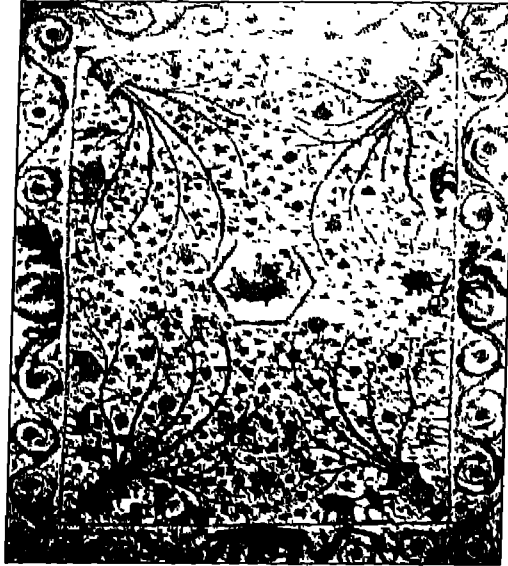
شكل رقم (٥٥) أوراق الأكانثوس تتخللها طيور - تفصيلية من أرضية فسيفساء  
فسيفساء تونسية) - متحف باردو.





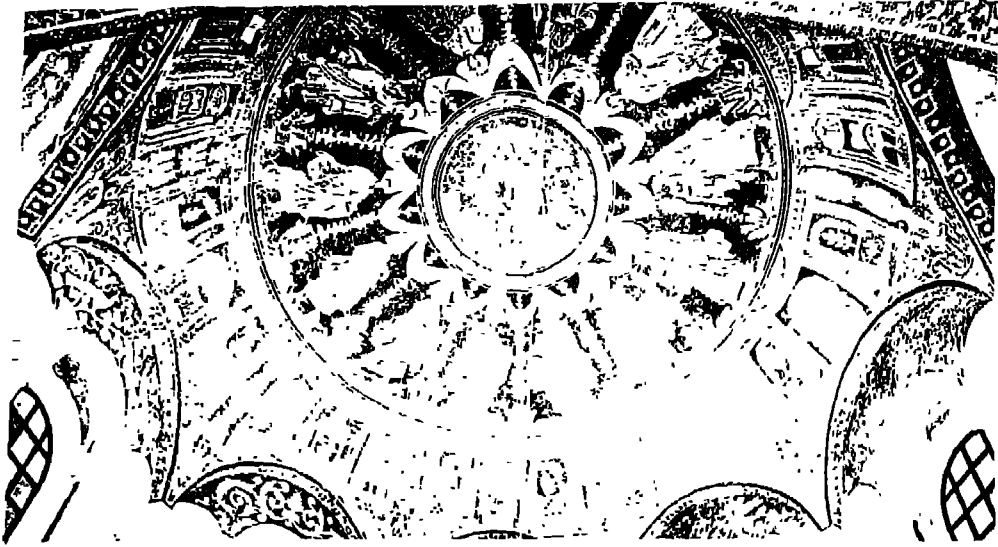


شكل رقم (٥٦) تفصيلية من أحد أركان الجدران العلوية - فسيفساء ضريح چالا بلاسيديا رافينا - القرن الخامس الميلادي .



شكل رقم (٥٧) تفريعات الأكانثوس وأوراق الكروم تتوسطها العناصر الأدمية والحيوانية - أرضية فسيفساء (فسيفساء تونسية) متحف الديجم (Eldjem) النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي .

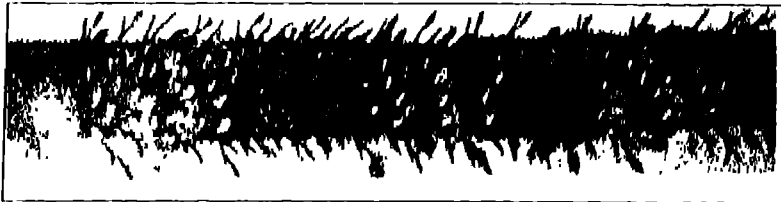




شكل رقم (٥٨) فسيفساء قبة المعمودية الأرثوذكسية - راقينا - القرن الخامس - ٤٤٩ : ٤٥٢ م

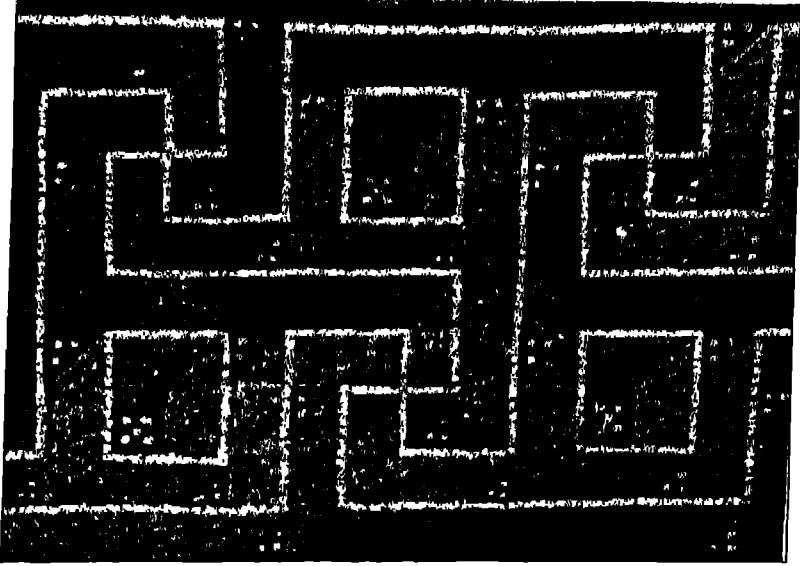


شكل رقم (٥٩) حاملى الأكواب - فسيفساء أرضية دار حاملى الأكواب - (فسيفساء تونسية) متحف باردو - نهاية القرن الثالث الميلادي .



شكل رقم (٦٠) إكليل الغار إلى جانب بعض الزهور والثمار - إطار زخرفى (فسيفساء تونسية) - متحف باردو .





شكل رقم (٦١) تفصيلية من فسيفساء الإطار الخارجي المحدد للقبو الداخلي  
ضريح چالابلاسيديا -- رافينا -- أوائل القرن الخامس الميلادي .



شكل رقم (٦٢) فسيفساء لسيدة تحمل صولجاناً -- قرطاج -- شمال إفريقيا  
أواخر القرن الرابع وبداية الخامس الميلادي .





شكل رقم (٦٣) السيد المسيح الراعي - (تفصيلية) فسيفساء أرضية - كاتدرائية أكيليا  
• أواخر القرن الخامس الميلادي.



شكل رقم (٦٤) السيد المسيح يبدو كالشمس - فسيفساء قبة الضريح - كنيسة القديس بطرس  
• روما - بداية القرن الرابع الميلادي.







شكل رقم (٦٥) أرضية فسيفساء تصور قصة نوح - بازيليك أكيلا  
حاليا كاتدرائية الأسقف نيودور - القرن الرابع الميلادي - ٣١٠م ٢٢٠٠م .



شكل رقم (٦٦) زخارف طيور ونباتات - (تفصيلية) من فسيفساء قبة الضريح الخاص بالقديسة  
كونستانزا - روما - القرن الرابع الميلادي .





شكل رقم (٦٧ أ) فسيفساء قبة ضريح القديسة كونستانزا - روما - القرن الرابع الميلادي.



شكل رقم (٦٧ ب) وجه لقسطنطينا - (تفصيلية) من فسيفساء قبة ضريح القديسة كونستانزا  
روما - القرن الرابع الميلادي.



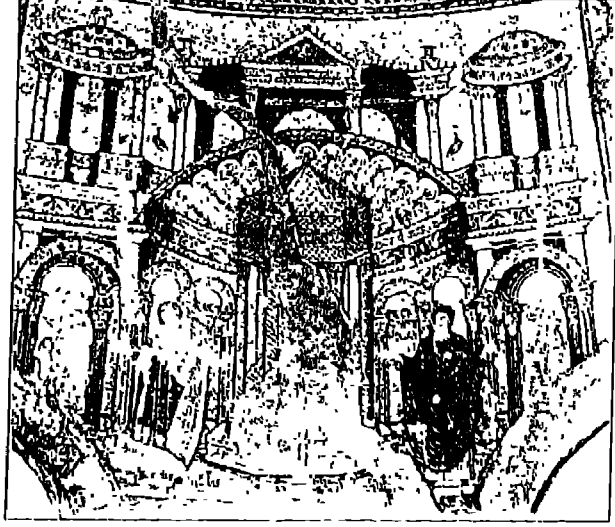


شكل رقم (٦٨) السيد المسيح يتوسط القديس بيتر والقديس بولس - فسيفساء إحدى الحنيات الجانبية - ضريح القديسة كونستانزا - روما - القرن الرابع الميلادي - ٣٢٠ م .



شكل رقم (٦٩) السيد المسيح جالسا على العرش وسط الحواريين والإنجيليين الأربعة فسيفساء حنية كنيسة القديسة بود نزايانا - روما - نهاية القرن الرابع الميلادي .





شكل رقم (٧٠) تفصيلية لفسيفساء القبة - كنيسة القديس جورج - سالونيك  
• أواخر القرن الرابع الميلادي .



شكل رقم (٧١) النبي موسى يشير إلى البحر فينطلق - فسيفساء كنيسة القديسة ماريا ماجوري  
• روما - القرن الخامس الميلادي .







شكل رقم (٧٢) بنو إسرائيل يرمون النبي موسى بالحجارة - فسيفساء كنيسة القديسة ماريما ماجوري - روما - القرن الخامس الميلادي .

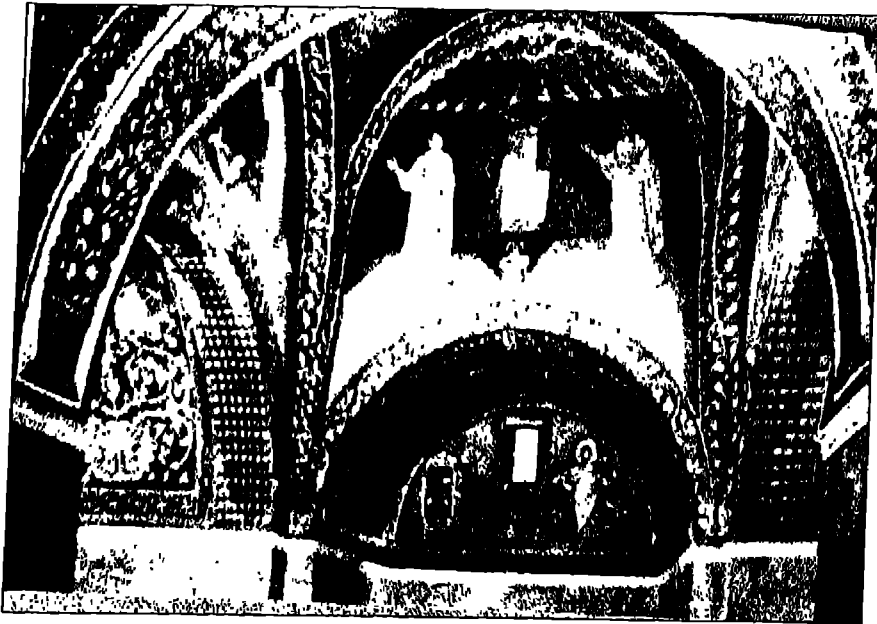


شكل رقم (٧٣) إبراهيم يقم الخبز (قربان) - فسيفساء كنيسة القديسة ماريما ماجوري - روما - القرن الخامس الميلادي .



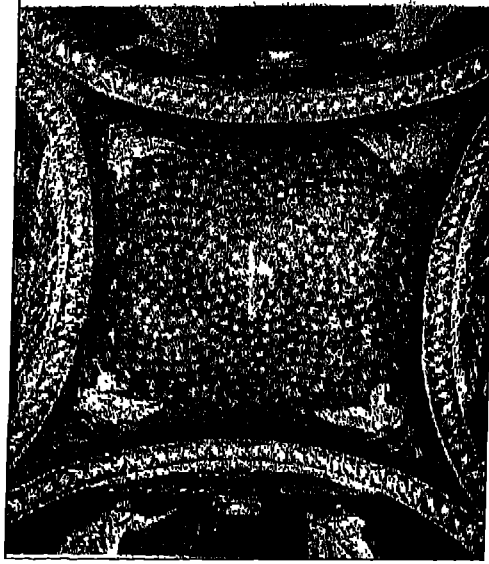


شكل رقم (٧٤) النبي إبراهيم يستقبل ثلاثة من الملائكة - فسيفساء كنيسة القديسة ماريماجوري - روما - القرن الخامس الميلادي - ٤٣٥-٤٤٠ م .

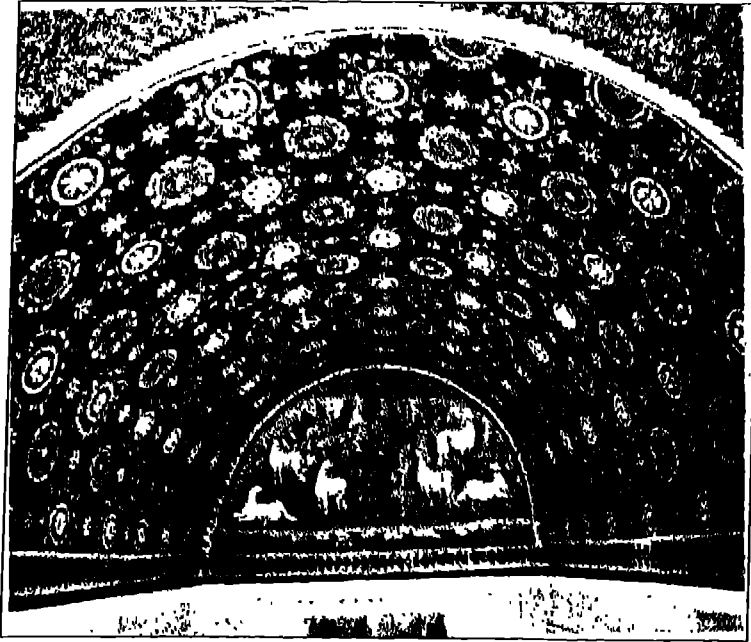


شكل رقم (٧٥) منظر داخلي - فسيفساء القديس لورانس - ضريح چالابلاسيديا - رافينا - أوائل القرن الخامس الميلادي .





شكل رقم (٧٦) فسيفساء قبة ضريح چالابلاسيديا - راقينا - القرن الخامس الميلادي .



شكل رقم (٧٧) فسيفساء الراعي الصالح - ضريح چالابلاسيديا - راقينا  
منتصف القرن الخامس الميلادي .





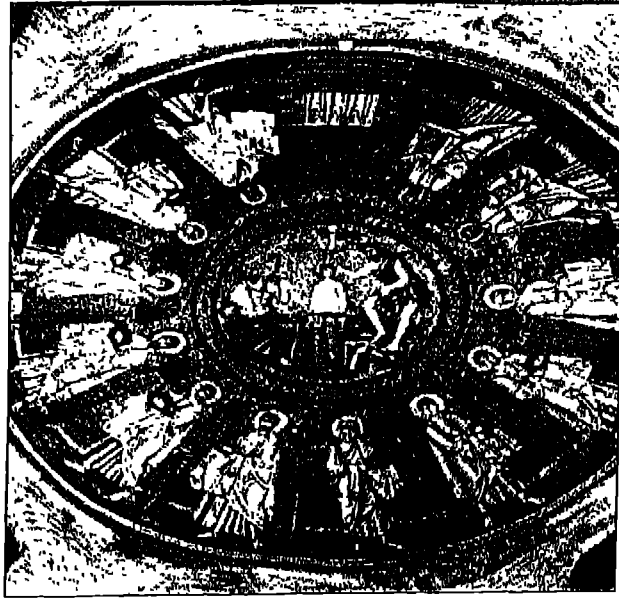
شكل رقم (٧٧-أ) الراعي الصالح - تفصيلية من اللوحة السابقة - فسيفساء ضريح چالابلاسيديا  
• رافينا - منتصف القرن الخامس الميلادي



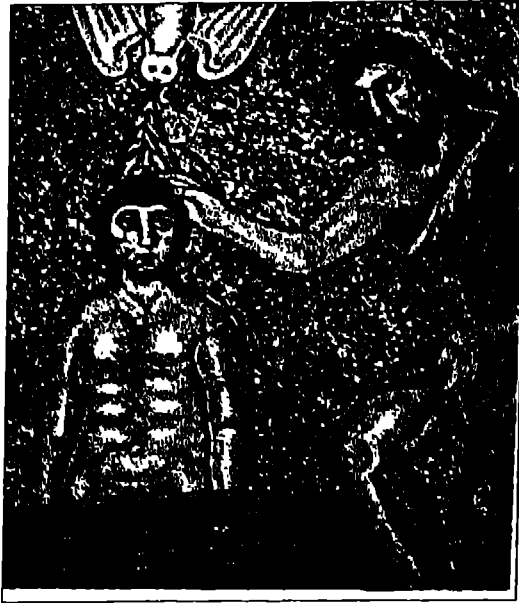
شكل رقم (٧٨) القديس حنا يحمل التاج - تفصيلية من فسيفساء قبة المعمودية الأرثوذكسية  
• رافينا - القرن الخامس الميلادي - ٤٤٩:٤٥٢ م







شكل رقم (٧٩) تعميد السيد المسيح - فسيفساء قبة المعمودية الأريانية - راقينا  
القرن الخامس الميلادي - ٩٣ م .



شكل رقم (٧٩-أ) القديس يوحنا يقوم بتعميد السيد المسيح - تفصيلية من اللوحة السابقة -  
فسيفساء قبة المعمودية الأريانية - راقينا - القرن الخامس الميلادي - ٩٣ م .





شكل رقم (٨٠-أ) السيد المسيح وسط الحواريين (معجزة الخبز والأسماك) - قسيفساء كنيسة  
التمرة أبولينار الجديدة - رافينا - بداية القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (٨٠-ب) السيد المسيح يفصل بين الأغنام والمعز (يوم الحساب) - قسيفساء كنيسة  
التمرة أبولينار الجديدة - رافينا - بداية القرن السادس الميلادي.



-١٣٠-



شكل رقم (٨٠ - ج) قبيلة يهوذا للسيد المسيح - فسيفساء كنيسة القديس أبولينار الجديدة  
راقينا - بداية القرن السادس الميلادي .



شكل رقم (٨٠ - د) العشاء الأخير - فسيفساء كنيسة القديس أبولينار الجديدة  
راقينا - بداية القرن السادس الميلادي .



## الباب الثالث

### فسيضاء العصر البيزنطى

- الفصل الأول : تأثيرات البيئة المحلية فى تكوين الأعمال الفنية .
- الفصل الثانى : العمارة الكنسية البيزنطية وعلاقتها بفن الفسيضاء .
- الفصل الثالث : الموضوعات التى تناولها فن الفسيضاء البيزنطى .





## الفصل الأول

### تأثيرات البيئة المحلية فى تكوين الأعمال الفنية

- لحة تاريخية .
- الموقع الجغرافى ومميزاته .
- العوامل السياسية .
- العوامل الاجتماعية .
- التأثيرات الدينية وحركة محطى الصور .



## الفصل الأول

### تأثيرات البيئة المحلية في تكوين الأعمال الفنية

#### ● إلمة تاريخية ،

يعتبر القرن الرابع الميلادي هو بداية التاريخ البيزنطي ، وتمهيداً للحضارة البيزنطية الجديدة التي كان مصدرها العاصمة بيزنطة \* ( القسطنطينية ) عندما اعلنت المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية في عهد الإمبراطور قسطنطين ، ، واستمر بقاء هذه الإمبراطورية ما يقرب من إحدى عشر قرناً . حتى سقطت على أيدي الأتراك العثمانيين في القرن الخامس عشر الميلادي ، وفي أثناء هذه الفترات الزمنية الطويلة تعرضت أجزاء وبلاد من الإمبراطورية للنهب والتخريب أو الإستيلاء عليها من قبل الأعداء ، وتغيرت ممتلكاتها من فترة إلى أخرى ، وتعرضت لفترات إنتعاش وإزدهار تارة وخمول وإضمحلل تارة أخرى .

وفي عهد « جستنيان » تم توسيع ممتلكات الإمبراطورية بضم شمال أفريقيا وجنوب اسبانيا وجزر البليار ، ولكن محاولاته باءت بالفشل عندما حاول ضم بلاد الفرس التي خاض حروباً كثيرة معها ، وانتهت بأن " يدفع « جستنيان » ضريبة قدرها إحدى عشر الف ليرة مقابل إعلان السلام بين الإمبراطورية البيزنطية والفرس " (١) .

وقد تلى حكم « جستنيان » حكم الإمبراطور « فوقاس » ( ٦٠٢ - ٦١٠م ) الذي عمت البلاد خلاله الفوضى والإضطرابات وكثرت الفتن الداخلية وغارات الأعداء ، إلى ان أتى « هرقل » وهو أشهر الحكام البيزنطيين اللذين حكموا الإمبراطورية وإمتدت فترة حكمه بين عامي ( ٦١٠ - ٦٤١م ) ، وقد نجح في السيطرة على أكبر أعداء الإمبراطورية في ذلك الوقت وهو الفرس ، وتمكن من طردهم عام ٦٢٢م ، ولكنه خسر بعض أجزاء من إمبراطوريته نتيجة الفتح الإسلامي الذي ضم مصر وسوريا وفلسطين ، حيث تعرضت فلسطين للغزو الإسلامي عام ٦٣٤م ، وتم الإستيلاء عليها تماماً وعلى سوريا في معركة اليرموك عام ٦٣٦ ميلادية ، اما مصر فقد سلمت لهذا الفتح الجديد عام ٦٤١م ، وقد ذكر ستيقن رنسيما (Steven Runciman) أن السنوات التي أعقب وفاة « هرقل » كانت أحلك أيام

(١) صيف البهنسي ، موسوعة تاريخ الفن والممارسة- الفنون القديمة ، ( الحازمية ، لبنان ، دار الرائد اللبناني ،

١٩٨٢ ) ، ص ٢٩٤ .

(٢) تأسست بيزنطة عام ٦٥٨ ق .م . على يد القائد بيزانس .

التاريخ البيزنطي، فإن تهديد العرب للدولة لم يقف عند حد، فقد شرعوا في الهجوم على ولاية أفريقية في عام ٦٧٠م، وظلوا يغيرون على القسطنطينية حتى عام ٦٧٧م، وسقطت قرطاجنة في أيديهم. في عام ٦٩٧م ثم إتجهوا نحو اسبانيا\* (١). ولكن خلفاء « هرقل، لم يستطيعوا مواجهة ما إعتراه من أزمات سياسية وحروب خارجية حتى جاء « ليو الثالث،\* (٧١٧ - ٧٤٠ م) الذي إستطاع حماية القسطنطينية وإبعادها عن أيدي العرب عام ٧١٧ م، كما أنه صاحب أول قرار خاص بمنع عبادة الصور، وتحطيم التماثيل الدينية، وعرفت هذه الفترة بحركة محطى الصور، أما ابنه قسطنطين فهو صاحب القرار الثاني في تأييد حركة التحطيم.

ثم أتت الإمبراطورة « إيريني، التي كانت واحدة من المعارضين لهذه القرارات، وكانت منحازة إلى جانب إستخدام الصور الدينية والتماثيل، وجاء من بعدها التأييد الأكبر من جانب الإمبراطورة « تيودورا، التي أعادت عبادة الصور عام ٨٤٣م. ومع بداية القرن التاسع وإعتلاء الأسرة المقدونية حكم الإمبراطورية الذي إستمر حوالي قرن ونصف من الزمان، عادت للإمبراطورية أمجادها ومكانتها السياسية والإجتماعية والإقتصادية والفنية أيضاً.

وقد أسست هذه الأسرة على يد « باسيليوس، الأول (٨٦٧ م - ٨٨٦ م) الذي هدأت نار الحروب في عهده وإستعيد جنوبي إيطاليا للإمبراطورية، أما في عهد «لاون السادس، ولده (٨٨٦ م - ٩١٢م) نهبت سالونيك - أعظم مدن الإمبراطورية وتأتى في المرتبة الثانية بعد القسطنطينية - فلم يكن هائداً حربياً بارعاً وملماً بشئون الحرب والقتال بالرغم من أنه كان ملقباً بالحكيم لما تمتع به من العلم والثقافة الواسعة.

ويقدم القرن العاشر تعرضت الإمبراطورية لغزو البلغار، ولم تستطع الإمبراطورة « زويه، (٩١٤ م - ٩١٩ م) إيقافهم حتى تولى الإمبراطور: رومانوس الأول، (٩١٩ م - ٩٤٤ م) الذي أبرم صلحاً بينه وبينهم، كما أن قائلده « يوحنا قراقوش، دفع الإمبراطورية في طريق جديد من الفتوحات الرائعة في الشرق، التي توصلت إبان مائة سنة، " وتوصلت الفتوحات الشرقية في عهد كل من الإمبراطور « قسطنطين السابع، (٩٥٤ م - ٩٥٩ م) وإبنه « رومانوس الثاني، (٩٥٩ م - ٩٦٣م)، وإستردت إقريطش وأخذت

(١) الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة

١٩٩٢، ٣٩٥، ١٠، بتصريف.

(٢) ينتمى الإمبراطور ليو الثالث للأسرة الأيزورية وهو من أعظم القادة في الإمبراطورية.

حلب من العرب على يد القائد « نيقيفوروس فوقاس »\* (٩٦٣ - ٩٦٩ م) الذي تم في عهده استرداد قليقية وقبرص ومدينة انطاكية العظيمة<sup>(١)</sup> .

ولقد انتهى « بازيل الثاني » (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) فترة طويلة من التهديد من ناحية الشمال عندما هزم البلغارين عام ١٠١٤م ، وكذلك ضم جزء من أرمينيا ونجح في تقوية الوجود البيزنطي في جنوب إيطاليا ، وعند وفاته عام ١٠٢٥م كانت حدود الإمبراطورية قد اتسعت من جديد . بإحتوائها الجزيرة العربية بأكملها من الدانوب شمالاً إلى أقصى الجنوب . كما زادت رقعة الإمبراطورية في عهد الإمبراطور « قسطنطين التاسع » (١٠٤٢ - ١٠٥٥ م) بضم أرمينيا كلها في الوقت الذي تعرضت فيه أجزاء من الإمبراطورية في إيطاليا وصقلية \*\* التي عجزت عن حمايتها والحفاظ عليهما حتى سقطتا في أيدي النورمانديين -

مرت البلاد من عام (١٠٥٦ - ١٠٨١ م) بفترة من التفكك والإنحلال بسبب إثارة الفتن والمنازعات بين السلطات الحاكمة وسلطة الكنيسة والفرق العسكرية من مالكي الأراضي الزراعية ، في الوقت نفسه كانت البلاد تتعرض لهجمات الأعداء من الشرق والغرب وتمكن خلالها النورمان من الإستيلاء على جنوب إيطاليا\*\*\* ، وإتجه الأتراك نحو الحدود الأرمينية في طريقهم لفتح آسيا الصغرى ، التي تم السيطرة عليها في عهد الإمبراطور « ميخائيل السابع » (١٠٧١ - ١٠٧٨ م) ، الذي حاول صد هجماتهم وباءت محاولاته بالفشل .

وإستطاع الإمبراطور « الكسيوس الأول » (١٠٨١ - ١١١٨ م) إنقاذ ممتلكات الإمبراطورية من أيدي النورمان والبرابرة والسلاجقة . ولكن الهجمات الصليبية كانت تفوق مقاومته ، خاصة وأن أهدافها كانت تتجه للسيطرة التامة على القسطنطينية خاصة . وقد إستطاع هذا الإمبراطور إستمالة الصليبيين لجانيه وإستخدامهم في حروبه ضد السلاجقة .

---

(١) ستيقن ريسمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة ، عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٤٧ ، ٤٨ بتصرف .

(\*) حفيد نيقيفوروس قائد باسيلئوس الأول ، وقد أصبح إمبراطوراً بعد زواجه من « ثيوفانو » الإمبراطورة . أرسله الإمبراطور ( رومانس الثاني ) .

(\*\*) كانت صقلية منذ القرن التاسع قد تعرضت لسطو العرب ولكن الإمبراطورية عادت أجزاء منها في بداية القرن الحادي عشر الميلادي .

(\*\*\*) وتم ذلك عام ١٠٧١ م الذي يعتبر حدث هام في التاريخ البيزنطي نتيجة استنوط مدينة بارى الإيطالية في أيدي النورمان وهزيمتهم في معركة أمام الأتراك .

وبعد سنين طويلة تعرضت البلاد مرة أخرى لحالة من الخراب والفضوى ، وخسرت الإمبراطورية كل من بلغاريا وقبرص ، كما تمكنت الحملات الصليبية من سطو القسطنطينية وثوراتها في عهد كل من الإمبراطور « إسحق الثاني » ( ١١٨٥ - ١١٩٥ م ) والإمبراطور « الكسيس الثالث » ( ١١٩٥ - ١٢٠٣ م ) ، ونتيجة لأحداث النهب التي تعرضت لها العاصمة البيزنطية ، ان ابتعدت عنها بعض الدول التي كانت تابعة لها خشية على انفسها .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي كثرت غارات المغول وغزواتهم على ممتلكات الإمبراطورية في آسيا الصغرى ، كما أصبحت البلغار والصرب في قبضة أيديهم ، وإمتد سلطانهم حتى الدانوب ، ولم يتبق امامهم سوى القسطنطينية التي حاصروها في عام ١٣٩٧م ، وفي الفترة التالية تولى الحكم في الإمبراطورية بعض الحكام الضعفاء اللذين اثاروا غيظ الأتراك وتسببوا في إغارتهم على القسطنطينية في عام ١٤٢٢م ، حتى إذا تولى آخر الأباطرة البيزنطيين وهو « قسطنطين » الحادى عشر ( ١٤٤٨ - ١٤٥٣ م ) الذى حوصرت في هذه العاصمة القسطنطينية بجيوش المسلمين بقيادة « محمد الفاتح » الذى سيطر عليها كلية عام ١٤٥٣ ، وكان ذلك بمثابة الضربة القاضية بالنسبة لها ، حيث انها لم تستطع القيام بعدها مرة أخرى ، ومع سقوط القسطنطينية سقطت الإمبراطورية البيزنطية وانتهى عهدها تماماً .

### ● الموقع الجغرافى ومميزاته :

هناك اسباب كثيرة قادت الأباطرة الرومان خلال اواخر القرن الثالث وبداية الرابع الميلادى إلى البحث عن موقع غير روما ليكون عاصمة لإمبراطوريتهم، وكانت افضل المناطق المرشحة لاختيار هذه العاصمة هي منطقة الشرق، نظراً لأهميتها العسكرية والإقتصادية ، " وقد رشحت في ذلك مدينتين الأولى « نيكوميديا » على الساحل الآسيوى من مرمرة ، والثانية « سالونيك » ، التى كان يفضلها الإمبراطور « جاليروس » ، وذلك يفسر إعتلاءها هذه المكانة الفتية الرفيعة واحتواءها على افضل الأثار فى عصره ، ولكن ليس بينهما ما تتمتع بنفس مزايا بيزنطة الطبيعية ، التى تتمتع أيضاً بالمركز المحورى للإدارة والتجارة " (١) . كما أنها كانت بعيدة كل البعد عن الصراعات التى كانت قائمة بين دول العالم الشرقى المسيحى .

(1) David Talbot Rice, ConstantInople ( Byzantium - Istanbul ) Paul Elek Productions Limited, London, 1965, P. 16.

وبالنسبة للموقع الجغرافى لبيزنطة - ( إستنبول \* حالياً ) - فهى تقع فى الطرف الشرقى لأوروبا ، وهى تربط بين قارتى آسيا وأوروبا ، ويفصل بين هاتين القارتين البحر الأسود وبحر إيجه وبينهما بحر مرمرة الذى يربط بينهما مضيق البسفور والدردنيل من الناحيتين ، ونتيجة لهذا الموقع الفريد إتجهت انظار الأباطرة إليها لتكون مركزاً للتجارة بين الشرق والغرب من قديم الزمن . وتعرضت بذلك لأطماع وغزوات الطغاة ، ولقد إنتبه الإمبراطور قسطنطين ، لأهمية موقعها وإمكانياتها الحربية والدفاعية " فهى تعتبر أفضل مدينة من الناحية التكنيكية العسكرية والتى تتخذ شكل مثلث والمياه على إثنين من اضلاعه بحيث لا يتبقى إلا ثلث المحيط الذى قد يحتاج إلى الدفاع ضد الغزو البرى " (١) . كما أن هذا الجزء من المحيط يصلح لمرسى السفن والملاحة . وبذلك أصدر قراراته الخاصة بإحضار المهندسين والمساحين لإنشاء هذه المدينة وتشبيدها من جديد .

ولكن بالرغم من تميز هذا الموقع إلا أنه ظهرت فيه بعض المساوئ التى تمثلت فى إحاطة المياه بهذه المنطقة من جميع الجهات التى كانت سبباً فى سوء الظروف المناخية التى سادتها حيث المناخ القارى ذو البرودة الشديدة طوال الشتاء والحرارة المرتفعة فى الصيف وينكر الكاتب "ستيفن رنسمان" ، أن " هذا المناخ القبيح هو الذى حال دون أن تصبح بيزنطة مدينة كبيرة تقارب الألف سنة " (٢) .

وكانت بيزنطة تبدو جزءاً من آسيا أكثر مما هى جزء من أوروبا فهى تتصل بالحدود الساحلية لآسيا الصغرى من الشرق فهى تتوسط دول الإمبراطورية البيزنطية التى شملت آسيا الصغرى واليونان وبوغسلافيا والبلقان وروسيا وإيطاليا ، ومصر وبلاد الشام فى القرون الأولى حتى انفصلت عنها فى القرن السابع نتيجة الفتح الإسلامى ، وكان إتصالها بهذه الدول عن طريق الإتصال البحرى أكثر من البرى ، وكانت صلاتها بالأقاليم الشرقية تتم عن طريق البحر الأسود ، أما الإتباد الفرية كإيطاليا واليونان كانت تصل إليها عن طريق بحر إيجه ، وهذه هى وسيلة الإتصال والتبادل التجارى التى كانت تتم بينها وبين الدول المجاورة ، وكانت أى تجارة

(1) Talbot Rice , Byzantine Art , Penguin Book Ltd , Harmondsworth Meddlesex , Great Britain , 1935 , P. 37 .

(٢) الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٤ .

(\*) هى كلمة مشتقة من أصل يونانى وتكون من مقطعين الأول "Élístén" بمعنى هلم الى ، والثانى " Polín " بمعنى المدينة فيكون المعنى هلم الى المدينة . . وينطق المؤرخون الأصل التركى لها .

تسير من الشرق إلى الغرب ينبغي أن تسرع على بيزنطة منذ العهود القديمة ، وخلال العصور البيزنطية ظهرت مجموعة من الموانئ التجارية الهامة مثل باري عاصمة إيطالية البيزنطية ، وأمالفى ، ونابلى ، وجالينا ، وهينيسيا التى كانت ميناء الغرب الرئيسية بالإضافة إلى القسطنطينية وطرابزون .

وقد كانت هذه الطرق التجارية هى نفسها التى سلكتها التأثيرات الفنية والثقافية من القسطنطينية إلى باقى المدن البيزنطية وموقع القسطنطينية كان سبباً فى إنتعاش الأنشطة السياحية التى تمثلت فى السفر المتبادل بينها وبين الأقاليم المجاورة سواء للحج أو زيارة الأماكن المقدسة .

وإلى هذا الموقع الجغرافى المميز يرجع الفضل فى إعتلاء القسطنطينية هذه المكانة العظيمة وكما يقول ( راييس) Rice ، " أنها تعد مركزاً للإمبراطورية التى تمتد أراضيها شرقاً وغرباً وتمثل الحصن المنيع لها حيث أنه لم يكن هناك أى مدينة أخرى تحتل هذا الموقع الإستراتيجى " (١) .

### ● العوامل السياسية :

تميز حكم الإمبراطورية بالحكم الأوتوقراطى الذى يتفرد فيه الإمبراطور بحكم الإمبراطورية ، وكان له معاونين من الوزراء وحاشية البلاط والخصيان ، وهو يستطيع تعيين جميع الوزراء وأعضاء مجلس الشيوخ وعزلهم بكامل إرادته ، وكانت بيده مقاليد التصرف فى الشؤون المالية ، والتشريع فى يده وحده ، وهو القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية ، وهو فوق ذلك رئيس الكنيسة والقسيس الأعلى للإمبراطورية حيث كان يتولى تعيين رجال الدين فى الكنيسة وخاصة الأرثوذكسيين - كان أكثر ميلاً إليهم - ويضطلع الفئات المهترقة فى محاولة لتحقيق الوحدة الدينية. وبالرغم من هذه السلطة المطلقة إلا أن الشعب كان له دوراً أساسياً فى حكم الإمبراطورية ، فإبازدته الحرة يستطيع إختيار من يحكمه أو يعزل من لا يروق له ، فقد كان الحاكم ينتخب من قبل سلطة شعب القسطنطينية والجيش والسناو\* طبقاً لقواعد القانون الرومانى ونساء

(1) Byzantine Art . Harmondsworth , Meddlesex Great Britain , 1935, P. 37.

(\*) يتكون من اصحاب الوظائف والمراكز المرموقة العاملين والسابقين ويتمتعون بالثراء والنفوذ ولهم حقوق ومزايا معينة ، ويعتبر السناو البيزنطى استمراراً للسناو الرومانى الذى إتبع نفس التعاليم والمحطورات مثل عدم الزواج من المماتل والفنانات إحتراماً لمراكزهم وحياتهم الإجتماعية .



على هذا الإنتخاب يعين الحاكم الذى يستمد سلطته من الشعب ، وتقام له مراسم التتويج بالكنيسة كإمبراطور جديد ، " وكان حفل التتويج هذا تعده الكنيسة حدثاً دينياً وسراً مسيحياً ، ولذا كان من ضمن القباب البازيليكوس ( الإمبراطور ) لقب مختار الثالث المقدس ، " (١) .

ومع بداية القرن الخامس الميلادى أصبح من العسير إنتخاب أو تتويج أى شخص لا يدين بالمسيحية ، وكان يلزم بأداء اليمين وقطع الوعود على نفسه والتي يجب الإلتزام بها .

وكان حكام الإمبراطورية يعتمدون فى إدارتها على القانون الرومانى الذى ظل سائداً بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الذى أصابه بعض التعديل بما يتوافق وطبيعة الإمبراطورية الجديدة ، والذى تم بعد فترة طويلة ، ويرجع ذلك إلى مدى إحترام البيزنطيين وتقديسهم لهذا القانون ، وكانت القرارات التى يصدرها الإمبراطور عبارة عن مجموعة من القوانين التى تجمع بين تعاليم الكتاب المقدس وقرارات المجامع المسكونية .

والى جانب سلطة القانون التى تفوق قوة الإمبراطور وتتحكم فيه ، وجدت قوى أخرى هى قوة الشعب القسطنطينى الذى إنقسم إلى فئات أو هيئات بلدية تعرف بالديومات وعددها أربعة وهم الزرق والخضر والبيض والحممر ، وقد كانت تحمل فى داخلها معان رمزية تعبر عن الطبيعة المكونة من أربعة عناصر ، فالزرق يرمزون إلى الماء ، والخضر يرمزون إلى الأرض ، والبيض يرمزون إلى الهواء أما الحممر فيرمزون إلى النار . وذلك حسب التقسيم القديم لأنه قبل عهد الإمبراطور جستنيان ، قد إنخفض عدد هذه الأحزاب إلى إثنين فقط ، فإنضم الحزب الأحمر إلى الأزرق ، وإنضم الحزب الأبيض إلى الأخضر ، وبذلك أصبح هناك فريقين يضمران المداء لبعضهما البعض وخاصة فى الشؤون السياسية ، حيث كان يضم الحزب الأزرق الأراستقراطيين وأصحاب النظرة التحفظية ، بينما الحزب الأخضر يضم الديمقراطيين التحرريين . كما كانوا مقسمين إلى هيئات مدنية وعسكرية ، وقد أدوا دوراً هاماً فى الحياة السياسية للإمبراطورية ، فكانت لهم الغلبة وذوى التأثير على الإمبراطور نفسه فى إتخاذ القرارات الخاصة بهم ، مثال ذلك تخفيض الضرائب أو زيادة الأجور .

(١) ثروت مكاشة ، تاريخ الفن - الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ١٥ .

ويشير الكاتب «ستيثن رنسمان» إلى أنه "ياضمحلال هذه الطوائف في القرن السابع الميلادي فقد أهل القسطنطينية وسيلتهم الوحيدة للتعبير عن انفسهم ولم يعد لهم منذ ذلك الحين من طريق للإعراب عن رغباتهم ، إلا الفتن القلائل " (١) .

ولم تكن الشئون العسكرية والحربية تلق إهتماماً من الأباطرة البيزنطيين ، ولكن رغبة منهم في الحفاظ على إمبراطورية كبيرة محمية من جميع الجهات ، حرصوا على توفير الحماية لها عن طريق تدعيم الخطوط الدفاعية البرية والبحرية ، فكوّنت الجيش الذي احتوى على مجموعة من الضباط والجنود والفرسان اللذين إعتدوا عليهم في تحقيق الأمن الداخلي ، ولم يكن للإمبراطورية جيشاً من ابنائها ، وذلك لإحتوائها على اجناس مختلفة من الشرق والقرب والشمال والجنوب ، لذلك فهي إعتمدت على الجنود المرتزقة ، وبعض من أبناء الولايات التابعة لها سواء كانت إيطالية أو أرمينية أو عربية ، أما خارج البلاد فقد كان هناك ما يعرف " بنظام الوية الثغور " ، التي كانت بمثابة الدرع الواقى لمداخل الإمبراطورية ، أما قوات الدفاع البحري فتمثلت في الأسطول البحري الذي إنتشر وجوده على السواحل البيزنطية في البحر الأسود وبحر إيجة ، وهذا الأسطول كان أقل كفاءة من الجيش الذي لم يوفر الحماية الكافية ، ولم يكن على درجة من القوة بالمقارنة بجيوش الأمم الأخرى مثل جيش المسلمين الذي تحقق له النصر على الجيش البيزنطي ، الذي لم يكن يستخدم إلا في أوقات القتال فقط .

### ● العوامل الإجتماعية ،

لم تكن الإمبراطورية البيزنطية تعنى أو تضم شعباً واحداً مستقلاً بعينه بل كانت مجموعة من اجناس مختلفة يصل عددهم إلى عشرين جنسية يجمع بينهم خضوعهم لدين واحد وسيد واحد . كما أصبح الفرد البيزنطي مهما اختلفت جنسيته ينتمى إلى هذا المجتمع الجديد الذي توحدته العقيدة الدينية التي كانت من أهم العوامل التي ساعدت على إستمرار الإمبراطورية هذه القرون الطويلة إلى جانب سيادة اللغة اليونانية التي أصبحت اللغة الرسمية للإمبراطورية والكنيسة أيضاً بعدما كانت هذه الشعوب تتحدث باللاتينية تقارب أربعة قرون منذ تأسيس القسطنطينية ، وكان كل فرد يعتنق المسيحية ويتحدث باليونانية يقابل بكل ترحيب في المجتمع البيزنطي ويسمح له بالحصول على الجنسية كما يحق له الزواج من امرأة بيزنطية مهما كانت منزلتها .

(١) الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

وأصبحت العقيدة المسيحية هي الرابطة الوحيدة التي ارتبط بها أهل بيزنطة وأصبحت أساس الحياة والقانون والمصدر الذي تتبع منه الفنون المرئية والمسموعة ، ودليلنا على ذلك أن الشعوب والجنسيات المختلفة قد اندمجت داخل الإمبراطورية إلا عنصراً واحداً ، وهو اليهود اللذين بالرغم من قلة عددهم ونطقهم باليونانية إلا أنهم لم يستطيعوا أن يكونوا جزءاً من شعبها .

ولقد عرف المجتمع البيزنطي بأنه مجتمع يسعى وراء متعته وملذاته ولم يكن يشغل بال المواطن البيزنطي إلا أمور اللهو في السيرك وحلبة السباق التي حلت محل مسابقات المصارعة في القسطنطينية قديماً، ويبدو أن سباق الخيل وألعاب السيرك أصبحت شائعة جداً ، وكانت سمة مميزة للحياة في المدينة . بالإضافة إلى الإهتمام بمناقشة الآراء الدينية المتضاربة الخاصة بتفسير طبيعة السيد المسيح ، كما إتصف البيزنطيون بمجموعة من الصفات التي قلما نجدها في شعوب العالم الأخرى ، فبعضها كان نتيجة لإتصالها بحضارات الشعوب الأخرى ، فقد تأثرت كما يذكر الدكتور ثروت عكاشة ، " بعادات وتقاليد الشعوب الآسيوية المجاورة وأخذت عنها صفات الهيمنة والإستبداد " (١) . كما عرفوا بطبيعتهم المتعاطفة المتفطرسة التي برزت في بعض عادات غريبة تستدعي الدهشة ، كما وصفها الكاتب «ستيفن رنسمان ، حيث كانوا " يطلقون على الأطفال في أغلب الأحيان القاب أمهاتهم وليس آبائهم ، لذلك كان من الصعب تتبع أصول انساب العائلات الكبرى البيزنطية " (٢) .

كما تميز أيضاً المجتمع البيزنطي بقوة الروابط الأسرية حيث كانت العائلات الكبيرة وخاصة الأسرات الحاكمة تعيش معاً في قصر واحد تحت رعاية الإمبراطورة الأم ، ونظراً للشراء الفاحش وحياة الترف والبدخ التي عاشها البيزنطيون ، فقد كانت تقام حفلات وولائم ضخمة تعبر عن مظاهر العظمة والتفاخر وتبين كرم المجتمع البيزنطي وسخالة مما أدى في النهاية إلى تحمل الدولة نفقات مائية باهظة تسببت في الخسائر الفادحة ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن الفقراء كانوا يعيشون حياة بالسة ، وكانت الدور الخاصة بهم تستخدم لإستقبال الزوار والسفراء القادمين من خارج الإمبراطورية . لذلك حرص البيزنطيون على بناء العديد من الأديرة التي كانت تمثل جزءاً هاماً من النشاط الإجتماعي ، واتخذت هذه الأديرة العديد من أشكال المساعدات المادية والمعنوية لهؤلاء

(١) تاريخ الفن ، الفن البيزنطي ، الجزء الحادي عشر ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ١١ .

(٢) الحضارة البيزنطية ، ترجمة ، عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

الفقراء . فضلاً عن أنها كانت مخصصة لبعض الأغراض الإجتماعية التي تقدم وظائف وخدمات خيرية مثل رعاية المرضى والمسنين .

ولقد اشتهر البيزنطيون بالقسوة والتأمر ، وكان الطموح أكثر ما يميز الأفراد في هذا المجتمع ، فقد كانت صفة أساسية ولا بد أن تتوافر في كل من يرغب في إعتلاء عرش الإمبراطورية ، وكانت وسيلتهم الوحيدة في ذلك هي إستخدام الحيل المختلفة وتدبير المؤامرات التي تخلصهم من بعض الأباطرة ، لذلك لم تكن وفاة أكثر الأباطرة والحكام البيزنطيين وفاة طبيعية، فقد تعرضوا للحوادث البشعة سواء من أفراد البلاط أو الحاشية ، أو من زوجاتهم أنفسهم ، وقد كانت لهم طرقاً خاصة في معاقبة الخونة والعصاة فضلواها على عقوبة الإعدام مثل بتر أحد أعضاء الجسم أو سمل الأعين أو حرقهم أحياء ، وكانت بعض السلطات تخفف الحكم بإبعادهم في أحد الأديرة ، وكان السجن مكاناً مؤقتاً للمذنبين حتى يتسنى الحكم عليهم ، فضلاً عما يكبد الدولة من الأموال الطائلة .

وبالرغم من سلبيات هذا المجتمع والإنتقادات التي وجهت له ، إلا أنه أثبت تفوقه وتميزه عن غيره من المجتمعات وأنتج حضارة فريدة من أعظم الحضارات ، وأرقاها ، وقد تحقق ذلك من خلال بعض الصفات التي تميز بها كل فرد في هذا المجتمع ، بالإضافة إلى بعض الظروف البيئية المحيطة بهؤلاء الأفراد والتي كان لها تأثيراً كبيراً على نشأة وتطور هذا الفن .

فقد كان الشعب البيزنطي محباً للعلوم والتعلم " وكان الحصول على قسط موفور من التعليم المثل الأعلى لكل بيزنطي، وكان إعواز المرء في التدريب والتثقيف العقلي يعد تكيه ونقصاً " (١) .

وقد إنتشر بناء المباني التعليمية والمدارس و دور العلم التي يتم فيها تدريس المواد المختلفة الدينية أو الدنيوية " ومن أهم المواد التي كان يوصى بدراستها في أنحاء الإمبراطورية هي الأجروميه \* .. ثم يأتي بعدها علم البيان الذي يتضمن تعليم النطق الصحيح " (٢) . كما إهتموا بدراسة الفلسفة والحساب والهندسة والموسيقى والفلك

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(\*) أي طبع اللسان بالطابع الهيليني سواء بالقراءة أو الكتابة ومعربة قواعد النحو والصرف .

والقانون ، وكان تعليم المسيحية شيئاً أساسياً يماثل في أهميته تدريس العلوم الأخرى بل فاقت أهميتها في بعض الأحيان ، فقد كان على الصغار حفظ الكتاب المقدس حفظاً تاماً ، وكانت هذه المواد جميعها تدرس للبتين فقط ، في المدارس والجامعات ، أما الفتيات فكان لا يذهبن إلى المؤسسات التعليمية. ويتلقين تعليمهن في المنازل على أيدي معلمين خصوصيين . مع العلم بأن الفقراء ليس لهم الحق في طلب العلم ولم تتح لهم فرص التعليم والإطلاع وكذا لم توفر لهم المكتبات مثلما توافرت للطبقات الأرستقراطية .

وقد وجدت هذه المؤسسات التعليمية والمكتبات في القسطنطينية وخارجها في الأسكندرية وإيطاليا وبيروت وإثينا ، وكان هذا الإنتشار السريع مع التأثر بالعقيدة الدينية وتمسك الأباطرة بتعاليمها سبباً في دفع عدد منهم إلى إغلاق بعض المدارس ومصادرة الأموال المخصصة لها ، كما حرمت دراسة القانون في غير القسطنطينية ، كما اشترط أن يكون الأساتذة من المسيحيين فقط ، واستمرت هذه التعليمات والقرارات سائدة حتى تفشى الجهل وخيم على جميع أنحاء الإمبراطورية خلال القرن السابع ، وبذلك أصبح جميع الأبناء بنين وبنات يتلقون التعليم في المنازل ، وكان سبب ذلك أن الرهبان ورجال الدين كانوا ينظرون إلى التعليم الدنيوي وكأنه تعليم وثني يرقاب في صحته ، وزادت هذه الأفكار إبان فترة تحريم الصور في القرن الثامن ، حتى إذا حل القرن التاسع بدأ رجال الكنيسة يتسامحون قليلاً في هذه الآراء ويتنازلون عنها ، وبدأت عملية إنتعاش ثقافية وتعليمية ساهمت فيها علاقات الأباطرة مع الملوك العرب فأدخلت دراسات جديدة مثل علوم الإسلام ، كما شملت عملية الإحياء الثقافي إعادة تنظيم التعليم العالي والدراسة في العاصمة ودراسة مناهج الفنون الحرة ، وأوضح الأمثلة على هذه النهضة " مكتبة فوقيوس التي تضم ثلثمائة وثمانين كتاباً منها مائة واثنان وعشرون كتاباً يدور حول الموضوعات الدنيوية مثل التاريخ والطب والجغرافيا والفلسفة والرياضيات " (١) . وقد كانت هذه الحياة الفكرية تلقى تشجيعاً ودعماً من جانب الحكام والأباطرة المقدونيين - بخاصة - وكان من بين هؤلاء الأباطرة طلبية العلم والشعراء والخطباء ، وفي القرن العاشر وبعد وفاة الإمبراطور قسطنطين السابع ، (٩٥٩ م) إنتقل الحكم إلى مجموعة من الأباطرة والعسكريين اللذين أهملوا العملية التعليمية ، وأصبح ينظر إلى التعليم وكأنه لا يعود بشئ من النفع على الدولة ، فضلاً عن كونه إسرافاً كبيراً لنفقاتها ، ومنذ القرن الحادي عشر أصبح من يريد التعليم ، يعتمد على نفسه في ذلك . وبالرغم من أن عهد آل باليولوجوس خلال القرن الثالث عشر الميلادي ، يعتبر أكثر الفترات البيزنطية تدهوراً من الناحية السياسية إلا أنها كانت أشد عصور العلوم البيزنطية إزدهاراً .

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press , New York , 1994 , P. 134 .

وقد برز بعض العلماء والفنانيين والأدباء البيزنطيين والشعراء والموسيقيين اللذين أصبحوا اعلاماً للحركة الفكرية في العصر البيزنطي كما ينبغي الا يفوتنا " ذكر بعض النساء والعالمات في هذا المجتمع واللاتى درسن العلوم ونظمن الشعر والقين الخطب كما ظهرت بينهن الطبييات والمؤرخات امثال «اناكومينا» ،<sup>(١)</sup> .

هذه الحياة الفكرية المفعمة بالدراسات والعلوم المختلفة امتد تأثيرها إلى الفنون البيزنطية واستفيد منها في المجالات الفنية ، فكانت دراسات البيزنطيين للميكانيكا ونبوغهم فيها ، قد احرزت تقدماً بالغاً في بناء العمارة الكنسية البيزنطية ، وما تميزت به خاصة في بناء القباب العالية ، كما تدلنا لوحات الفسيفساء والتي كانت تمثل خرائطاً كبيرة لمناطق مختلفة من الإمبراطورية مدى إهتمامهم بدراسة الجغرافيا ، ولم يتبق من هذه الخرائط إلا خريطة واحدة منقذة في القرن السادس الميلادي بمادبا\* عشر عليها في ارضية داخل كنيسة تقع في شمال المدينة وهي تعد اهم اثر في مادبا واشهره<sup>(٢)</sup> . والتي تبدو في شكل (٨١) ، وتظهر تفصيلية من هذه الخريطة تصور مدينة القدس تتبين في شكل (١٠٨١) .

وكما لعبت الثقافة الفكرية دوراً أساسياً في تشكيل الحضارة والفنون البيزنطية في المجتمع البيزنطي ، يمكننا ان ندرك ما حققه الدعم المادي في الإنفاق على تنفيذ وإخراج هذه الفنون المختلفة فقد وصل الإنتماش الإقتصادي في بيزنطة لأقصى مراحلها ، الذي إنعكس بدوره على الأديرة والكنائس الضخمة والدور الأنيقة. واكتسى ابنائها بأفخر انواع الملابس وتحلت نساؤها بأبهى الحلى والمجوهرات واندرها ، وبالإضافة إلى حب البيزنطيين للطبيعة ، وما إحتوت عليه من جماليات سواء جمال الهيئة او الشكل الإنسانى او جمال المناظر الطبيعية وكل ما تقع عليه أعينهم من قصور ومنازل وحدائق عامة وخاصة كل ما تصنعه ايديهم من المنسوجات والأردية ، فهذا يفسر المكانة الفنية الرفيعة التى وصل إليها البيزنطيون إبان عصر الإمبراطورية البيزنطية، التي تجلت وبرزت في المباني العمارية وبالأخص الكنائس الضخمة سواء في تصميماتها الداخلية او الخارجية

(١) ستيفن ريسمان . الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز لوطيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٣٧٨ .

(٢) ميشيل بيشربلو ، مادبا كنائس وفسيفساء ، ترجمة ميشيل صباح وجورج سابا وأنطون عيسى ، مطبعة الأباء الفرنسيسكان ، القدس ، ١٩٩٣ ، ص ٧٦ .

(\*) كانت مادبا مركزاً هاماً لفن الفسيفساء في الأردن حيث إكتشف العديد من اعمال الفسيفساء في كنائسها وفي سائرها العامة والخاصة التي ترجع للعهد البيزنطي خلال القرون الأولى منه حتى القرن الثامن الميلادي .

ويؤكد ذلك الكاتب « ستيفن رنسيان ، بقوله ، " الواضح أن سعيهم وراء الجمال وتحقيقه كان مرتبطاً ارتباطاً عميقاً بمعتقداتهم الدينية التي كانوا يرون فيها أن هذا الجمال جزء من مجد الله عز وجل " (١) .

وقد امتدت هذه الرؤى الجمالية إلى تجميل القصور والكنائس وتزيينها بأروع ما قدمت أيدي الفنانين البيزنطيين من أعمال فنية سواء النحتية أو التصويرية وخاصة لوحات الفسيفساء العريضة ذات الجودة العالية ، والتي كانت تنقل إلينا صورة حية من ثراء المجتمع البيزنطي ، ويتجلى ذلك بشكل واضح في استخدام اللون الذهبي في مكعبات الفسيفساء التي كانت تغطي أغلب الخلفيات في هذه اللوحات بالأخص في الكنائس .

أما القصور فقد إحتوت بعضها على رخام يزين الأرضيات ، أما الفسيفساء والتصوير الجدارية فنقلت على الجدران مثل قصر « بلاخرناي » في القسطنطينية ، وقد ظهرت الفسيفساء تزين الأرضيات في القصر الكبير المقدس في القسطنطينية أيضاً ، علاوة على تماثيل الأباطرة والأعمدة التي كانت تملأ شوارع وميادين القسطنطينية .

### ● التأثيرات الدينية وحركة مجتمعي الصور ،

كان للديانة المسيحية تأثيراً قوياً وواضحاً على المجتمع البيزنطي ، وارتبطت بجميع نشاطات الأفراد في الحياة اليومية ، وارتبطت في أذهانهم بأفكار واعتقادات أقرب إلى الخرافة منها إلى الدين ، واعتمدوا على رجال الدين والقديسين في تحقيق أغراضهم ومتطلباتهم الحياتية ، وبذلك إنتشرت فكرة عبادة الصور الخشبية بما تحتوى عليه من لوحات خاصة بالقديسين أو الرهبان ، أملاً واعتقاداً منهم بأنها تصنع المعجزات. وأصبح من الطبيعي أن كل فرد في المجتمع يقتنى في بيته لوحة أو عدة لوحات (أيقونات) بعد ما كان وجودها مقتصراً على الكنائس والدور الخاصة ، وكان رأى رجال الكنيسة في ذلك أنه لا مانع من التبرك بأصحاب الصور لما يتمتمون به من مكانة مقدسة، ولكن الأمور فاقت هذا الحد وانتشرت الأيقونات في كل مكان يعيدها الناس ، فبدأت مناهضة رجال الكنيسة لها ، وانقسمت طبقات المجتمع بين مؤيدين ومعارضين فبالنسبة " للمؤيدين كانوا يرون أن الصور تساعد على العبادة ولكنها لا تمثل موضوع العبادة نفسه ،

(١) الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

أما المعارضين فقد رأوا أن استخدام الصور في العبادة يمثل عمل وثني غريب على التقليد المسيحي<sup>(١)</sup>. هذا رأى المعارضين بصفة عامة - أما "رجال الدين والفكر وخاصة في الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية والتي كانت تسودها موجة عنيفة مناهضة للصور، يعتقدون أن الإله وهو أسمى من أن يحتويه خيال لا يجوز أن يتناوله التعبير الفني"<sup>(٢)</sup>. كما يرى «ستيفن ريسمان» أنه ربما أتت هذه الآراء المعارضة نتيجة "لأثر الإسلام في بيزنطة"<sup>(٣)</sup>. الذي ظهر بصورة واضحة وانتشرت تعاليمه التي تحرم رسم الصور والأشخاص تماماً.

ولم تكن هذه الحركة المناهضة مقصدها الضن أو القضاء عليه ولكن هدفها كان الإبتعاد عن نوعية معينة من الموضوعات التصويرية الدينية، ودليلنا على ذلك أنها لم تؤثر على ظهور الموضوعات الدنيوية الأخرى التي إشتملت على رسوم للحيوانات والحليور، لذلك إتجه الفنانون لتصوير هذه الموضوعات بطريقة زخرفية.

وكان الهدف الأساسي منها سياسياً، حيث أن هذه العبادة تسببت في إنتشار الرهينة وإزدياد عدد الرهبان بشكل خطير، وقد كانت أملاك الكنيسة معفاة من الضرائب، وكانت دائماً تزداد أكثر وأكثر، وكان معنى ذلك التناقص المستمر في إيرادات الدولة، وكانت الأديرة تجتذب أعداداً متزايدة من الناس، وتنتج عن ذلك قلة عدد المجندين في الجيش ونقص الأيدي العاملة في المزارع، كما كانت أيضاً مركزاً للقلق والإضطرابات، وكانت تقفخربما لديها من أيقونات وصور تحميها من جميع الأخطار"<sup>(٤)</sup>.

مما دفع بعض الحكام والأباطرة إلى النظر بعين الإهتمام لهذه التغييرات الجذرية الواضحة في المجتمع البيزنطي والتي تهدد كيانه واستقراره السياسي، فضلاً على أنها تهددهم أنفسهم مما شجع الإمبراطور "ليو الثالث" في عام ٧٢٦م على إصدار قراراً بإزالة صورة السيد المسيح من بوابة القصر الإمبراطوري في القسطنطينية - وكان ذلك في بادئ الأمر - ثم بعد ذلك أصدر مرسوماً رسمياً يحظر فيه التصوير التعبيري الديني. وكان هذا أول قرار خاص بمنع عبادة الصور الذي صدر عام ٧٣٠م، أما ابنه قسطنطين الخامس، كان يدين استخدام التماثيل والصور الدينية ونهاضها مناهضة عنيفة.

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 116.

(2) كبريت عكاشة، تاريخ الفن، الفن البيزنطي، الجزء الحادي عشر، دار سعاد الصباح، القاهرة، ص ٢٠٤.

(3) الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣٥٨.

(4) داود ميهب داود، الفن البيزنطي، محيط الفنون، الفنون التشكيلية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠، ص ١٦٢.



واستمر الحال بهذه الصورة حتى إعتلاء الإمبراطورة « إيريني »\* العرش البيزنطى (٧٩٧ - ٨٠٢ م) ، وأعدت إقتناء الصور مرة أخرى .

وبعد مضى حوالى ربع قرن من إنعقاد المجمع المسكونى السابع فى عام ٧٨٧ م ، كان لايزال المناهضين لهذه الحركة متمسكين بأرائهم المعارضة ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، حيث جاءت من تؤيد الإمبراطورة « إيريني » ، وتدعم موقفها ، وهى الإمبراطورة « تيودورا » (٨٤٢ - ٨٥٦ م) \*\* التى أياحت عبادة الصور وإستخدامها ، وتم ذلك فى عام ٨٤٣م بعد إنعقاد المجمع المسكونى العالمى ، وهذا العام إحتفل فيه بعيد الفصح ، وهو الذى أعلن فيه العودة إلى الأرثوذكسية .

وتسببت هذه الحركة بصفة عامة فى قلة عدد الفنانين والأعمال الفنية وسادت فترة ركود فنى فى العالم البيزنطى فى ذلك الوقت، كما غلبت التحفظية على الأعمال القليلة التى تم تنفيذها بالفسيفساء ، وإستبعدت بعض الكنائس الصور الأثرية كما حدث فى " كنيسة آيا صوفيا التى لم يبدأ فى تزيينها بلوحات القسيفساء إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع فى عام (٨٦٧ م) " (١) . ولم تشمل هذه الحركة صور الأشخاص العاديين أو اللوحات والصور المعلقة فى بعض المباني والقصور، كما لم تظهر فى أرجاء الإمبراطورية وإقتصر وجودها على الأقاليم التى تبعد عن العاصمة ومراكز الإمبراطورية .



(١) ثروت مكاشة ، تاريخ الفن ، الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، دارسماد الصباح ، القاهرة ، ص ٢٠٧ .

(\*) عينت الإمبراطورة إيريني وصاية على العرش منذ عام ٧٨٠ - ٧٩٠ م ، ومن عام ٧٩٢ - ٧٩٧ م ثم تولت الحكم فى هذا العام الأخير .

(\*\*) فترة وصاية الإمبراطورة تيودورا على العرش فقط .



## الفصل الثاني

### العمارة الكنسية البيزنطية وعلاقتها بفن الفسيفساء

- العمارة البيزنطية والعوامل المؤثرة في نشأتها.
- الطرز المختلفة للكنائس البيزنطية.
- نهاية المعمار البيزنطي .
- العناصر المعمارية المختلفة وارتباطها فن الفسيفساء بها .



## الفصل الثاني

### العمارة الكنسية البيزنطية وعلاقتها بفن الفسيفساء

#### ● العمارة البيزنطية والعوامل المؤثرة في نشأتها ،

إن دراسة المعمار البيزنطى تعنى التعرف على الأساليب التخطيطية والإنشائية للمباني الدينية المتمثلة فى الأديرة والكنائس وغيرها من دور العبادة ، وذلك حيث كان للانتشار الواسع للدين الجديد دوراً هاماً فى التأثير على فن المعمار ، كما كان له التأثير على الفنون الأخرى . فالمعمار البيزنطى يتسم بالطابع الدينى ولذلك فإن أمثلة المعمار الدنيوى قليلة العدد وعديمة الدلالة مثل جدران القسطنطينية وقصر الأباطرة والخزانات الضخمة التى كانت تمد المدينة بالمياه ، كما أن معظمها إندثر ولم يتبق إلا الكنائس التى مازالت قائمة حتى الآن .

ومع بداية القرن الرابع الميلادى وما صاحبه من تأسيس القسطنطينية وسيادة العقيدة المسيحية ، بدأ الإهتمام بالعمارة شيئاً فشيئاً ، حيث كان هناك مبانٍ مخصصة للإجتماعات الدينية والصلاة والعبادة بالإضافة إلى دفن الموتى ، وهذه الأخيرة أطلق عليها الكاتاكومب \* أو الديماس وهى عبارة عن غرف تحت الأرض عرفت أيضاً بسراديب الموتى ، واتجهت أنظار الأباطرة إلى إعادة بناء المدينة وإصلاح الكنائس المتهدمة ، رغبة منهم فى إعطاء الشعوب المسيحية فرصاً للعبادة فى أماكن مخصصة لها ، بالإضافة إلى الدعم الإمبراطورى الذى شجع على بناء المزيد من هذه الكنائس الجديدة التى حرص المعمارىون فى بنائها على الوصول بها إلى أقصى درجات الكمال والإبداع الفنى التى ترقى إلى مكانة العقيدة لديهم .

ويقول الدكتور ثروت عكاشة ، بالرغم من أن " العمارة البيزنطية بدأت فى القرن الرابع الميلادى ، إلا أنها لم تتطور وتستكمل مراحل تطورها إلا فى القرن السادس الميلادى " (١) . وذلك لأن هذا القرن شهد بناء ظهور العديد من الكنائس الجديدة فى العاصمة وخارجها فى جميع أنحاء الإمبراطورية فشمّل الدول التى تقع فى الشرق مثل الأناضول وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر ، وكانت هذه الدول تقع تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية ، وتمتد من سوريا والأناضول إلى الأراضى الداخلية فى شرق إيران والعراق ، وهذا يشير إلى أن المعمار البيزنطى يمثل تطوراً للمعمار الرومانى القديم .

(١) تاريخ الفن - الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ١١٩ .

(٢) ترجع أصل هذه التسمية إلى نسبتها إلى أحد القديسين المدعو سبستيان ، والملقب بكاتاكومبوس .

وقد اختلفت طريقة بناء هذه الكنائس من حيث التصميمات الداخلية وأشكالها الخارجية حسب وظائفها والأغراض المخصصة لها كمواقع للتعديد أو اضرحة ، فقد كانت هذه الكنائس تؤدي وظائف متعددة فضلاً عن كونها مكاناً لتأدية الطقوس الدينية ، فقد احتوت أيضاً على مستشفيات خاصة لعلاج المرضى والمحتاجين ، لذلك لم تكن هذه الكنائس ذات طراز واحد تشترك فيه من الناحية المعمارية ، كما اختلفت باختلاف البلاد التي ظهرت فيها وخضعت تطوراتها إلى الظروف البيئية الخاصة بكل بلد ، فظهرت مجموعة من التخطيطات والتشكيلات المعمارية المختلفة التي تأثرت بمجموعة من العوامل الطبيعية والعوامل الحضارية .

وتتحصن العوامل الطبيعية في الظروف البيئية المحيطة بالإنسان ، والتي ليس له دخل في تكوينها أو نشأتها والتي حاول التكيف معها بقدر المستطاع ، وهي على سبيل المثال : العامل الجغرافي والمناخي ، والعامل الجيولوجي ومواد البناء .

أما العوامل الحضارية فهي تشمل على العامل الديني والعامل الاجتماعي ، والعامل السياسي ، والعامل الاقتصادي ، وأخيراً العامل التكنولوجي ، وهي جميعاً من صنع الإنسان ونتاج أفكاره ومعتقداته . وهذه العوامل السابقة - الطبيعية والحضارية - قد ساهمت بدور فعال في اختلاف نوعية التصميمات والتخطيطات المعمارية ، وقد ترك كل عامل من هذه العوامل بصمات واضحة كان لها تأثيراً كبيراً على العمارة الدينية بشكل عام ، وقد تدخلت بصورة واضحة في تنوع أشكال العناصر المعمارية وكيفية بنائها .

وفيما يلي يتم ذكر بعض هذه العوامل كل على حدة حسب أهميته والدور الذي يؤديه :

## ١- العامل الديني :

يعتبر هذا العامل من أقوى العوامل المؤثرة في العمارة البيزنطية ، وذلك حيث أنه كان الدافع الوحيد وراء بناء هذه العمائر الدينية ، وتقول الدكتورة « الفت حموده » ، « في مرحلة الديانات السماوية فقط ارتبط فن العمارة الدينية بظهور الديانة المسيحية سمي فن العمارة فيها بفن العمارة الرومانتيكية ونلاحظ أن الفن المعماري قد اتجه إلى التعبير عن عالم الروح اللامتناهي وبالتالي تغلب الجانب الروحي على الجانب المادي ، حيث ظهرت موضوعات اختلفت عما كانت تعالجها العمارة الكلاسيكية من قبل ، فأصبحت تعكس صراعات الروح وآلامها في سبيل إنتصار الدين الجديد ودور هذا الدين للسمو بهذه

الروح إلى عالم الخلود" (١). فكانت سيطرة العقيدة المسيحية سبباً في إخراج العناصر الكنسية بهذه الصورة المبهرة - ولم تظهر أية مبادئ دنيوية فقدت بهذه المهارة الفائقة ولم تستخدم فيها أجود الخامات الطبيعية والمعادن والأحجار الكريمة - والتي حرص المهندسون في بنائها على إضفاء مظاهر الروعة والفخامة التي تناسبها ، " فالمسيحية تؤمن في الإله الواحد الذي يعيش خالداً في السموات والذي يتميز باللاتهائية في القدرة والحكمة والمحبة ، وجميع الخطوط المقوسة في الكنيسة البيزنطية الكبرى والعناصر المسيحية تتحد للتعبير عن هذه الفكرة فالكنيسة البيزنطية تمثل تعبيراً أساسياً عن الإيمان المسيحي في الرب " (٢) . ولقد لجأ المعمارون في ذلك إلى تكييف العناصر المعمارية للكنائس بما يتلاءم مع خدمة أغراض العقيدة ، وشمل ذلك التوسع في المساحات الداخلية التي تتمثل في الصحن الأوسط الذي يستوعب المصلين ، والمؤدي إلى الحنية في الجانب الشرقي التي يتقدمها المذبح أو الهيكل المخصص للقيام بالقداس الديني لخدمة الكنيسة والذي يرتفع قليلاً عن المستوى الأرضي للصحن حتى يتمكن الجالسون في القاعة من رؤيته بوضوح .

وبزيادة تأثير هذا العامل ، ورغبة في تحقيق أقصى أهداف المعمار الديني إتجه المهندسون إلى زيادة عدد الطوابق الداخلية والتي تساهم بدورها في ارتفاع المبني نفسه والتي اشتملت على العديد من الغرف الجانبية الخاصة بالطقوس الدينية .

وكانت اهم العناصر المعمارية التي تجسد هذا العامل الديني هي القباب التي تعلن عن جلال الإله ، والتي تحمل في داخلها معاني رمزية ، ويرى المؤرخون أن الإتجاه نحو هذه الرمزية كان سبباً من أسباب تكوين الأشكال المعمارية التي ظهرت بصورة واضحة في الشرق ، فهي تضفي جمالاً وروعة على المكان المقدس المخصص لعبادة الإله ، وهذه الفكرة قد استحوذت على أذهان المعمارين البيزنطيين اللذين سعوا بكل الطرق لتحقيقها ، وقد غطت هذه القباب باختلاف أحجامها وارتفاعاتها جميع المساحات المختلفة للكنائس أسفلها ، وذلك لأنها ترمز للسماء أو جنة الشهداء ، كما تمثل الكنيسة في حد ذاتها كوناً مصغراً يضم الشهداء والقديسين والمؤمنين ومعتنقي الديانة المسيحية .

(١) الطابع المعماري بين التأسيس والمعاصرة ، النار المصرية اللبنيانية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٧٠ ، ٧١ .

(٢) J. Aroant Hamilton , Byzantine Architecture And Decoration , B . T. Baisford L. T. D. London, 1933, P. 276 .

وقد ظهرت بعض عناصر معمارية أخرى كالمحراب\*، فضلاً عن القبو الذى يعتبر من أهم العناصر المعمارية فى الكنيسة البيزنطية - بجانب القبة - وقد عرف فى الحضارة المصرية القديمة فى عهد الدولة القديمة ، كما هو الحال فى غرفة الدفن بهرم زوسر المدرج<sup>(١)</sup> . أى أن أصوله المعمارية ترجع أيضاً لأسباب دينية .

وبالرغم من تطور هذه العناصر المعمارية وإتساع الكنائس وزيادة مساحاتها الخارجية ، إلا أنها ظلت محتفظة بوظيفتها الأساسية المتمثلة فى خدمة الدين المسيحى .

## ٢- العامل المناخى ؛

ساد الإمبراطورية البيزنطية المناخ الحار الذى إنتشر فى جميع أنحاءها ، وقد كان له دوراً واضحاً فى التأثير على أشكال العمارة من الداخل والخارج ، وبصفة عامة فالمناخ السائد بكل منطقة يتدخل فى تحديد الملامح الأساسية لتشكيلاتها المعمارية والعمرانية ، سواء كان ذلك بالنسبة لمدى تجميعات المباني وتداخلاتها المعمارية ، وجدوى إطلال فتحاتها على الداخل أو الخارج ، وما هى عروض الشوارع والأفنية المناسبة لكل مناخ وعلاقتها بارتفاعات المباني المطللة عليها ، كذلك الحصول على التهوية الطبيعية ، فأى توجيه أنسب للمبنى بالنسبة للرياح السائدة وهل هذه الرياح ثابتة الإتجاه أم متغيرة ، وهل تتطلب معالجة معمارية تحد من كمية وقوة أشعة الشمس الساقطة ، وما مقدار إتساع النوافذ فى كل حالة<sup>(٢)</sup> . وبالتالى فإن المعمار البيزنطى إتخذت أشكاله ملامح خاصة فى محاولة التكيف مع هذا المناخ الحار ، فنجد أن المهندسين البيزنطيين لجأوا إلى إبتكار طرق معمارية وطرز فنية معينة ، وكان إختيارهم لعنصر القبة له دلالة خاصة - فضلاً عن دلالتها الرمزية - حيث أنها تتمتع بخاصية مميزة من حيث ملاءمتها للحرارة الشديدة ، فهى تساعد على التخفيف من حدة الحرارة فى داخل الكنائس وذلك لأن سطحها المنحنى يقلل من قوة أشعة الشمس المتعامدة على السطح ، كما ينطبق ذلك أيضاً على عناصر القباب المنحنية داخل الكنائس والتى تغطى الأسقف الجانبية التى يقل إرتفاعها عن القبة الأساسية ، كما إهتم المعمارىون البيزنطيون أيضاً بتنفيذ فتحات النوافذ فى أسفل جسم القبة ( الجزء الأسطوانى ) حتى تساعد على الإضاءة والتهوية ، كما حرصوا على التقليل من عددها وظهرت بمساحات صغيرة حتى تحد من دخول أشعة الشمس .

(١) مصطنى عبد الله شحمة ، دراسات فى العمارة والفنون القبطية ، هيئة الآثار المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص

(٢) ألفت يحيى حموده ، الطابع المعمارى بين التاصيل والحاصرة ، الدار المصرية للكتابية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ،

(\*) المحراب ، هو المتعلقة المرتفعة فى الحنية التى تملوها نصف القبة فى شرق الكنيسة .



وذلك بالإضافة إلى " وجود الأسطح المستوية مشتركة مع القباب ذات الطابع الشرقي الأصيل والفتحات الصغيرة الضيقة للشبابيك المرتفعة نسبياً عن منسوب الأرضية ، تلك الحوائط المستمرة الغير متكسرة والعقود المتكررة التي تحيط بالأفنية الداخلية ، وكل هذه العوامل كونت الخواص المعمارية لهذا الطراز البيزنطي ، والتي تعتبر من أهم الصفات والمعالم المميزة للعمارة البيزنطية " (١) .

### ٣- العامل الجيولوجي :

وهو يعنى طبيعة الأرض ومليقاتها المختلفة وما تحتويه تربتها من " مواد اولية مثل المحاجر والمناجم ، ومدى قابليتها للزراعة والتي تساعد على تكوين المجتمعات الإنسانية حيث تزدهر الحركة المعمارية " (٢) .

والمواد الطبيعية التي إستخدمت في بناء العمائر البيزنطية هي الحجارة والطوب ، والزلط الذي إستخدم بعد ذلك في خليط الخرسانة ، " ففى المناطق الوسطى والجنوبية مثل القسطنطينية واليونان والبلقان وجنوب غرب روسيا وجنوب العراق ومصر واستخدمت الأحجار فى التدعيم ، وكان الإعتماد الأساسى على الطوب الذى يمثل المادة الشائعة . وذلك نتيجة لخصوية التربة الفنية بالمادة الطينية ( الطمى ) - وهى المادة الأولية والخامة الأساسية فى صناعة طوب البناء - وهذه البلاد السابقة تمتعت بامتلاك مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية الخصبة التى ساعدت أيضاً على إستقرار العمال والبنائين وتجمعهم حولها مما يوفر الأيدي العاملة اللازمة .

كما إعتد على الأواني الفخارية التى كانت تستخدم بصفة خاصة فى بناء الأسقف والقباب التى تغطى الكنائس - والتي كانت تصنع من مادة الطين حيث تشكل ثم تحرق فى أفران خاصة حتى يتبخر الماء الموجود بطبيعة الحال فى هذه المادة نهائياً ، ومن ثم فلا يتأثر بالمياه مرة أخرى ، وكان الغرض من الإعتماد عليها فى البناء هو " تخفيف الأحمال الناتجة من وزن الأسقف على الحوائط ويلاحظ ان سقف كنيسة القديس فيتال قد صمم بهذه الطريقة بالإضافة إلى العزل الحرارى الناتج عن إستخدام هذه المواد الخفيفة " (٣) .

(١) توفيق أحمد عبد الجواد ، تاريخ العمارة ، الجزء الثانى ، المصور المتوسطة الأوروبية والإسلامية ، مكتبة

الأندلس المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٧ .

(٢) الفت يحيى حموده ، الطابع المعمارى بين التاصيل والمعاصرة ، الدار المصرية اللئنانية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٥٦ .

(٣) توفيق أحمد عبد الجواد ، تاريخ العمارة ، الجزء الثانى ، المصور المتوسطة الأوروبية والإسلامية ، مكتبة

الأندلس المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٢ .

أما الأحجار فكانت المادة الشائعة الإستخدام وخاصة فى الأراضى المرتفعة مثل أرمينيا والقوقاز والأناضول وسوريا وكريت وقبرص حيث تكثر المحاجر الطبيعية . فهى لم تكن متوفرة كالطوب لذلك اضطرت الحكومة البيزنطية إلى إستيرادها من مصادرها فى هذه البلاد ، كما إستوردت أيضاً خامة الرخام الطبيعى " التى كانت تستخدم فى صناعة الأعمدة داخل الكنائس، كما إستخدمت أيضاً فى تغطية الأرضيات ، فكانت تستورد من المحاجر التي تقع فى منطقة حوض البحر المتوسط، الشرقية بالنسبة للمقسطنطينية ، ولذلك نجد أن العمارة البيزنطية تأثرت كثيراً بتلك الأحجار الضخمة التى كانت تبني بها المباني التنكارية والتي كانت تستورد من تلك البلاد ، وترد إليها من الخارج " (١) . كما تأثرت أيضاً - العمارة البيزنطية - بجميع المواد السابقة والتي كان لها الأرواح على شكل التفاصيل الخاصة بالمباني المعمارية الدينية والدنيوية بصفة عامة .

#### ٤ - العامل التكنولوجي \*

كان من الطبيعى أن تخضع مواد البناء المستخدمة لأساليب التقنية الحديثة التى كانت تضى عليها " خواص هندسية مختلفة سواء من حيث المقاسات أو اللون أو الكثافة أو المقاومة ، مما يحدد لها إستعمالات معينة بناء على سماتها المكتسبة وما يتبعها من معانٍ إيجابية " (٢) . فالسطح الأملس يختلف فى المعنى والإيحاء عن السطح الخشن أو المجدد كما يحدث فى التركيبات الرخامية سواء المثبتة على الأعمدة أو المنفذة على الأرضيات ، وذلك على سبيل المثال .

وهذه الأساليب كانت إحدى العوامل الرئيسية التى أثرت على الشكل معماری البيزنطى وطرق بنائه ، فنلاحظ أساليب التشييد قد اختلفت وتطورت فى العمارة ، وإتجه المهندسون إلى إستحداث وسائل فنية جديدة مثل " إستعمال القبة المحمولة على أربعة مثلثات كروية أو محمولة على أربع حنيات للتغطية الأفقية ، فينتقل بذلك حمل القبة

(١) المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٢) الفنت يحيى حموده ، الطابع المعماري بين التأسيس والمعاصرة ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٩٩ .

(\*) تعريف التكنولوجيا . التكنولوجيا تعبير يحتوى على شقين ، الشق الأول ، تكنو ، والشق الثاني ، لوجيا وكلمة تكنو ، هى إلتصاف لكلمة ( تكنيك ) Technique وهى تعنى بالعربية تقنية ، ومعناها الأساليب التنفيذية الفنية ، أما الشق الثاني وهو لوجيا ، فهو مأخوذ من اليونانية يعمتى علم ، فيكون التعبير بالكامل معناه ، علم الوسائل التنفيذية الفنية ، وهو يشمل دراسة المواد والخامات والأدوات والأساليب المختلفة التى يستخدمها الفنان أو المهندس للحصول على أفضل مستوى من الإنجازات فى العصر ولت يمكن وبأقل تكلفة متاحة ، ونحن نطلق التكنولوجيا الحديثة على أى مواد أو أساليب متطورة بالنسبة لما كان متبعاً قبل ذلك .

خلال نقاط ارتكاز محدودة مما يساعد على إضفاء مظهر الخفة التي تميزت به القبة البيزنطية " (١). ومع زيادة التطور التقني في هذه الأساليب الإنشائية، تمكن المهندسون من تغطية مساحات مستطيلة بنفس الطريقة السابقة، ولكن على مساحات أكبر، وذلك بتجاوز مجموعة من القباب التي توحى بالإستطالة في شكلها العام، وأوضح مثال لهذا التطور هو كنيسة القديس مرقص في فينيسيا. وبالرغم من أنها تعد نموذجاً لتأثيرات المعمار البيزنطي في فينيسيا، إلا أنها تعتبر من أروع الأمثلة التي تمثل التخطيط الصليبي البيزنطي ذو القباب المتعددة واتقنها.

### ● الطرز المختلفة للكنائس البيزنطية :

إتخذ المعمار البيزنطي اشكالاً وتصميمات متعددة، فبالإضافة إلى بعض العوامل السابقة والمواد المستخدمة فقد إعتمدت عمارة الكنائس في الإمبراطورية في تصميماتها على أنواع مختلفة من الطرز المعمارية التي كانت تحمل في داخلها بعض "التأثيرات الرومانية والتأثيرات الإغريقية التي كانت مزدهرة في القرن الرابع الميلادي في مدن الشرق الكبرى كالأسكندرية وأنطاكية وأنقرة" (٢). فضلاً عن "تأثيرات الفن الساساني الذي كان له الفضل في إحياء فنون الشرق القديمة" (٣). وقد كان لهذين الفنين تأثيرهما الواضح على فن العمارة البيزنطي، وهذا الإنصهار والإندماج الفني بين العناصر الشرقية واليونانية من السمات المميزة للفن البيزنطي بشكل عام والعمارة بشكل خاص.

كما ظهرت ثمة آراء تشير إلى أهمية بعض المناطق التي "تعتبر مصادر أساسية لفن المعمار البيزنطي كآسيا الصغرى، والبعض الآخر أرجع المصادر المعمارية إلى أرمينيا والعراق، ولكن في النهاية أجمعت الآراء أن المنطقتين اللتين كانت لهما أكبر إسهام في ذلك هما سوريا والأناضول،" (٤). وخاصة أن الفن السوري يتميز بالواقعية والإهتمام بالتعبير عن الحماس الديني ونقل الأحاسيس والمشاعر الروحانية السامية، وهذه الخصائص وجدها البيزنطيون أكثر قرباً وملائمة لأفكارهم وأهدافهم الفنية التي تتفق

(١) المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٢) توفيق أحمد عبد الجواد، تاريخ العمارة، الجزء الثالث، المصور المتوسطة الأوروبية والإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٣٣.

(٣) المرجع السابق، نفس المكان.

(٤) J. Arontt Hamilton, Byzantine Architecture And Decoration, B. T. Baisford L. T. D. London, 1933, P. 36, 37.

وعقيدتهم الدينية ، وكان ذلك منذ البداية واستمر حتى العصور الوسطى في الإمبراطورية ويؤكد ذلك الدكتور « داود عبده داود » بقوله : " في الفترة الأولى كانت سوريا هي حلقة الإتصال بين الشرق وبيزنطة ، وعن طريقها إنتقلت عناصر فنية كثيرة ، ولكن منذ القرن الحادى عشر الميلادى يظهر أن أرمينيا أخذت من سوريا هذا المركز وأصبحت هي التي تمد الفن البيزنطى بالأفكار الجديدة " (١) .

وقد ساهمت كل بلد أو منطقة من المناطق السابقة ببعض التخطيطات والتصميمات الأساسية في عمارة الكنائس ، كما كان لها دوراً أساسياً في إدخال بعض العناصر والتعديلات الجديدة ، وظهرت العمارات الكنسية من خلال أربعة أشكال من التخطيطات ، وهي : أولاً ، التخطيط البيزنطى ، ثانياً ، التخطيط المركزى ، ثالثاً : التخطيط ( الطراز ) الصليبي ، ورابعاً ، التخطيط ( الطراز ) المقرب . ولم تكن هذه التخطيطات أو الطرز ذات طابع بيزنطى خالص ، وفيما عدا التخطيط الصليبي - فهي ترجع إلى أصول رومانية وازمينية - كما سبق الإشارة - .

وسيتم التناول بالتفصيل شرح كل نوع من هذه الطرز المختلفة كل على حدة مع ذكر أمثلة للكنائس التي إعتمدت في بنائها على هذا التصميم أو التخطيط.

## التخطيط البيزنطى :

البيزنطى عبارة عن بناء كبير يضم قاعة مستطيلة الشكل مقسمة إلى مساحات طولية تسمى الأجنحة ، وقد توقف عدد هذه الأجنحة داخل الكاتدرائيات على عدد الدعائم أو الأعمدة الداخلية ، فبعض القاعات تقسم إلى ثلاثة أجنحة بواسطة صفين من الأعمدة وكان ذلك هو التقسيم الشائع لمعظم الكاتدرائيات ، والبعض الآخر إحتوى على خمسة أجنحة وذلك من خلال أربعة صفوف من الأعمدة ؛ وهذا النوع من الكاتدرائيات كان متبعاً مع الكنائس الكبيرة مثل كنيسة القبر المقدس والميلاد في فلسطين ، وكذلك كنيسة القديس ديمتريوس ، وكنيسة القديس بطرس في روما " (٢) .  
وجميعها تنتمى للقرنين الرابع والخامس الميلاديين ، وكانت كل واحدة من هذه البيزنطيات تحتوى على مجموعة من الأبواب التي تتفق في عددها مع عدد الأجنحة المقسمة داخلياً

(١) الفن البيزنطى ، محيط الفنون ، الفنون التشكيلية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ٢٢٧

(2) Lyn Rodley , Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 21 .

(\*) البيزنطى معناها الأصلى القصر الملكى أو قاعة الحكمة وتعرف أيضاً بالكاتدرائية .

لتحل محل الجوانب الخارجية النصف دائرية ، ويتقدم هذا البناء البازيليكى قناء واسع ، ويحيط بالمساحة الكلية - البازيليكاً والفناء الخارجى - جدار مرتفع يفصلهما عن العمائر الخارجية الأخرى .

وتتميز البازيليكاً بصفة عامة بإتساع مساحة الجناح الأوسط الذى يزيد على مساحة الأجنحة الجانبية . وفى البازيليكاً المقسمة إلى ثلاثة أجنحة يحمل صفى الأعمدة سقف هذا الجناح الأوسط الذى يعرف أيضاً بالرواق الكبير، ويمتاز بالإرتفاع عن الجناحين الجانبيين ، " وتتخلله نوافذ عليها لإضاءة المبنى تسمى النوافذ المشعة (Clearstory Windows) ، واشتملت بعض هذه الطرز على صفين من الأعمدة فى كل من جانبي المجاز الأوسط حيث يحمل الجزء المنخفض منها شرفة مخصصة للسيدات .

ويرجع سبب إتساع هذا الجناح الأوسط إلى إستقبال واستيعاب أكبر عدد من المصلين والمتعبدين فى هذه الكنائس واللذين يتجهون بأنظارهم إلى قبلة الكنيسة أو كوة المذبح - حيث تقام الشعائر الدينية المقدسة وتقدم القرابين - التى تتخذ شكل نتوء خارجى بارز على هيئة نصف دائرة ويغطيها نصف قبة ، وهذه " القبلة كانت فى البداية مخصصة للعرش وتمثل سمة وثنية تدخل فى تخطيط هذا النوع من الكاتدراليات، حيث أنها كانت فى الأصل تمثل مقعد الرب " (١) .

وهناك مساحة مستطيلة تتقاطع مع القاعدة الأساسية للبازيليكاً وتفصل صحن الكنيسة عن منطقة المذبح تعرف بالمجاز المستعرض (Transept) وهى تعطى لمسقط الكنيسة الأفقى شكل الصليب رامزة لجسد السيد المسيح المصلوب - كما تبدو فى شكل (٨٢) -

وقد تميزت الكنائس البازيليكية قديماً بالمدخل الشرقى بدلاً من الغربى " ولكن فى أواخر القرن الرابع وبداية الخامس الميلادى شاع وجود هذا المدخل الشرقى والمؤرخ ريفوارا (Rivoira) يشير إلى أن أن القدم مثال على الجزء الخارجى البارز الشرقى يوجد فى بازيليكاً اورسيانا فى مدينة رافينا (٣٧٠ - ٣٨٤ م) وفكرة توجيه الكنيسة نحو الشرق تمثل سمة شرقية " (٢) .

(1) Talbot Rice, Byzantine Art , Penguin Book Ltd, Harondsworth Meddlesex, Great Britain, 1935, P. 58 .

(2) Loc . Cit .

وقد كان هذا التخطيط البيزنطى هو الشكل الشائع للكنائس المسيحية منذ البداية ، وكانت روما هي منشأ هذه الكاتدرائيات ، والعديد من السجلات تؤكد على وجود هذه الكنائس في الشرق اليوناني " (١) ، وتضم روما مجموعة من أروع الكنائس ، وكانت هذه الكاتدرائيات في روما تغطي عادة بالأسقف الخشبية ، ولكن في الشرق - في سوريا على سبيل المثال - اعتمدت على السقوف الحجرية المقبية في التغطية بدلاً من السقوف الخشبية ، وصحب هذا التغيير ظهور بعض التعديلات التي طرأت على طبيعة البناء . ففى حالة استخدام الأحجار في القبة حرص المهندسون على زيادة سمك كل من الجدران والأعمدة ، كما تميزت أيضاً بالمتانة والثبات ، أما في حالة السقوف الخشبية فلم يكن هناك ما يدعو لذلك لأن الأحمال فوق الجدران والأعمدة ليست بثقيلة فظهرت الأعمدة أكثر نحافة والجدران أقل سمكاً .

وقد كانت هذه البيزنطية قديماً عبارة عن قاعات كبيرة مخصصة للإجتماعات أو إصدار الأحكام في العهود الوثنية ، ومع دخول المسيحية أصبحت النموذج المثالي للعبادة وإقامة الطقوس الدينية بعد أن أزال المهندسون منها وأضافوا إليها بعض العناصر المعمارية ، " وكثير من الباحثين الأجانب وفي مقدمتهم الفريد بتلر (Butler) و إيتلين وايت (White) و كروسبى بتلر (Crosby Butler) و دالتون (Dalton) و برجر (Briggs) و ميل (Mald) و ستفنسون (Stephenson) و فلتش (Fletcher) و سومرز كلارك (Clark) ،... وغيرهم ، يرجعون أصولها الأولى إلى أنواع العمائر الرومانية القديمة التي كان يمثلها أساساً ساحة العدل عند الرومان ، حيث يعتقد فيها المحكمة الرومانية بالإضافة إلى اعتبارها مكاناً لإنجاز الأعمال التجارية ، وعلى هذا الأساس فإن أصحاب هذا الرأي يعتقدون بأن هذا التخطيط قد إنتقل إلى الكنائس المسيحية التي شيدت بعد إعترااف الإمبراطور قسطنطين بالديانة المسيحية إذ أنه لم يكن أمام المسيحيين في هذا الوقت سوى الحصول على مباني قديمة أياً كان نوعها لتحويلها إلى كنائس " (٢) . ويصف الدكتور « ثروت عكاشة » التعديلات التي طرأت على هذه العمالركى تعبير عن المضمون الجديد للدين المسيحى بقوله " فغداً مكان القاضى ومن حوله مستشاروه اللذين يتصدرون قاعة الحكم هو مكان المطران ومن حوله القساوسة اللذين يمثلون في نظر المسيحيين السيد المسيح بين حوارييه في قبلة الكنيسة (Apse) ، وكذلك تحول المذبح

(1) J. Arnott Hamilton, Byzantine Architecture And Decoration, B. T. Balsford L. T. D. London, 1933, P. 37.

(2) ممثلقى عبد الله شيخه ، دراسات في العمارة والفنون القبطية ، هيئة الآثار المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص

Altar الذى يحرق فوقه البخور أمام القاضى الروماني قبل إفتتاح الجلسة إلى المذبح المسيحى الذى يوضع فوقه القريان من خبز وتبيد ، ويات مكان تجمع جمهور المصلين المتعارضين المتفرجين هو مكان المصلين <sup>(١)</sup> .

وبالرغم من نسبة هؤلاء الباحثين مصدر الطراز البيزنطى إلى الأبتية الرومانية ؛ إلا أن بعض العلماء يرون أن المصدر الأول الذى اشتقت منه هذه الكنيسة تخطيطها هو قاعة الأعمدة الضخمة فى المعبد المصرى القديم فى العصر الفرعونى فى عصر الدولة الحديثة ، أى البيزنطى الرومانية كان مصدرها العمارة الفرعونية <sup>(٢)</sup> .

وينبغى الإشارة إلى أنه بالرغم من إستمرار ظهور هذا الطراز البيزنطى بما تضمن من إختلافات وإضافات تتلاءم وطبيعة ومناخ كل بلد إلا أنه لم يخضع إلى الكثير من التطورات ووصف بأنه تخطيط مبتدل ولايلائم المتطلبات اللاهوتية البيزنطية أو المكر البيزنطى ، ومع نهاية القرن الخامس الميلادى بدأ ينحسر إستخدامه والإعتماد عليه فى جميع أنحاء الإمبراطورية حتى إنقرض تماماً إلا فى مناطق قليلة فى روما وبلغاريا وشمال اليونان التى إحتوت على نماذج على درجة من الأهمية .

وقد إعتمدت عمارة الكنائس البيزنطية بشكل بسيط على هذا الطراز وكان بمثابة المدخل أو البداية لإكتشاف وخلق أنواع من التصميمات والإنشاءات الجديدة الأكثر تطوراً ، وتعتبر كنيسة القديس أبولينار الجديدة من أوضح أمثلة المعمار البيزنطى التى تؤكد على وجود هذا الطراز الرومانى .

### كنيسة القديس أبولينار الجديدة \* :

هى إحدى الكنائس التى إعتمدت فى تصميم بنائها على هذا الطراز البيزنطى ، وقد أنشئت فى رافينا بالقرب من المقر الملكى الرسمى وكانت مخصصة لإقامة المراسم والإحتفالات الخاصة بالبلاط ، وهى كما تبدو فى شكل (٨٣) والذى يمثل المسقط الأفقى لهذه الكنيسة التى تتكون من مساحة مستطيلة " تتميز بالإتساع ، حيث تبلغ

(١) تاريخ الفن ، الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ١٠٢ .

(٢) مصطفى عبد الله شحمة ، دراسات فى العمارة والفنون القبطية ، هيئة الأثار المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٦٠ .

(٣) بنيت فى الربيع الأول من القرن السادس الميلادى بأمر الملك ثيودوريك كهدية للسيد المسيح .

مساحة مدخلها مائة وأربعة قدم x إحدى وسبعون قدم \* (١) . وهو ينقسم إلى ثلاثة مساحات رئيسية وهي صحن الكنيسة ( المجاز الأوسط ) وجناحين جانبيين بواسطة الأعمدة الرخامية - التي تم إحضارها من القسطنطينية - التي تصطف على جانبيه ، ويصل عدد هذه الأعمدة إلى أربعة وعشرين عموداً ، وهذه " المساحة المستطيلة يبلغ طولها ضعف عرضها كما أن عرض المجاز الأوسط فيها يساوى ضعف عرض كلاً من الجناحين الجانبيين " (٢) . وفي نهاية المجاز الأوسط (Navc) في الناحية الشرقية من الكنيسة يقع هيكل المذبح ومن خلفه المحراب المقدس حيث تقام فيها الطقوس الدينية ، وكما يتضح من الرسم المعماري إختفاء المجاز المستعرض الذي يتقدم منطقة المذبح والذي كان ظهوره أساسياً في التخطيطات القديمة .

وكما يلاحظ في شكل رقم (٨٤) السقف الخشبي الذي يغطي هذا البناء والذي يحمله كلا من جدارى المجاز الأوسط - والذي تحمله بالتالى الأعمدة الإثنى عشر في كل جانب - ونتيجة لإرتفاع هذا السقف عن سقف الجناحين الجانبيين فقد تم عمل فتحات علوية للنوافذ تسمح بالتهوية والإضاءة ، وهي تظهر بوضوح في المستوى الثانى وتشبه العقود فى أشكالها - تتخلل فتحات النوافذ أجسام القديسين والقديسات فى هذا المستوى - كما تظهر هذه النوافذ فى الحوائط السفلية المحيطة بالقاعة من الخارج والخاصة بالأجنحة الجانبية وكانت فى البداية نظراً لسرية العقيدة والطقوس يفضل وجودها أعلى المبنى . أما خارج المبنى فقد تم إضافة أجزاء معمارية جديدة حيث انشئ برج أجراس بمحاذاة الجانب الأيمن من الكنيسة ، وعلى إرتفاع يصل إلى مائة وثلاث وعشرين قدماً ، كما نفذت فتحات طولية ومكررة بإرتفاع البرج وزودت بمصابيح لتركييز الأضواء عليه وتسهيل تهويته ، وهذه بالإضافة ترجع إلى بداية القرن الحادى عشر . وقد كان هذا المنصر المعماري وهو البرج يظهر بصورة واضحة فى الغرب أما فى البلاد الشرقية فى الإمبراطورية فقل وجوده إلا فى بعض كنائس قليلة وذلك لأن " ظهور أبراج الأجراس فى الشرق يرجع إلى الإتصال الثقافى والفنى مع الغرب " (٣) .

(1) Guiseppa Bovini, Ravenna, Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New York, P. 78 .

(٢) ثروت عكاشة . تاريخ الفن ، الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، ( دار سعد الصباح ، القاهرة ) ، ص ١٢٣ .

(٣) ستيمن ريسان ، العضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٣١٩ .

(٤) القمم ، وحدة للقياس وتقدير طول القدم الواحدة بحوالى ٣٣ سم .

(٥) هذه التسمية مشتقة من كلمة Navis اللاتينية وهي تعنى السفينة التى ترمز إلى نقل المؤمنين يسلم إلى سماء الخلاص .



كما تضمنت هذه الإضافات بناء قببة تغطي المبنى والتي لا تؤثر على شكل الكنيسة من الخارج كما وسعت المنطقة الخارجية المحيطة بها حيث يوجد فناء كبير يتقدم مدخل الكنيسة من الناحية الغربية. وذلك بغرض عزل الكنيسة عن ضوضاء الطريق ، كما إتخذ مكاناً لشرح التعاليم الدينية لمعتقى المسيحية وموضعاً للمغتسل المستخدم لشعائر وتطهير الأيدي قبل الدخول إلى الكنيسة" (١) .

ويضيف الدكتور ثروت عكاشة ، قائلاً : " وكانت الكنيسة المستطيلة الشكل ما تزال على ما كانت عليه إلى اليوم بأعمدها الطويلة التي تشد نظر المتعب ، وتدفعه نحو المحراب هي البناء الأملئ لمواكب الشعائر الدينية التي تقتضى بإقترب جماهير المصلين من المحراب في موكب تقدمه الصدقات والمشاركة الرمزية في مناوله العشاء الرباني ، وعندما ألقى هذا الموكب من طقوس الكنيسة الشرقية غدت البازيليكا المستطيلة بدعة قديمة وحلت محلها الكنيسة المركزية المحور التي تواكب طقوسها الساكنة " (٢) .

### التخطيط المركزي (المغطى بقبة) :

العنصر الأساسي في المباني المنفذة وفق هذا التخطيط هو القبة\* التي تغطي المساحة السفلية والتي تعلق المركز مباشرة ، وكانت هذه المباني في العهود القديمة تنقسم إلى فئتين : الفئة الأولى هي المباني ذات التخطيط الدائري ، أي التي تتميز بالسقف الأفقي المستدير ، ومع وجود ممشى حول المساحة المركزية ، أما الفئة الثانية : تعتمد فيها الأبنية على التخطيط المربع ، وكانت هذه الفئة الأكثر اهمية واعتمد عليها المعمارون بشكل أساسي في العمارة البيزنطية .

وهذا التخطيط يعتمد كثيراً على المعمار الوثني حيث كانت هذه المباني تستخدم كأضرحة أو مواقع تعמיד أو مقابر\* وكان منشأها منسوباً إلى روما التي تضم اقدم هذه المباني ، ولكن الإكتشافات الحديثة في الشرق وخاصة في برجامون والقسطنطينية تشير إلى وجود هذه المباني المستديرة ، ولذلك فإن وضع القبة المبنية على الإسطوانة يمثل إبتكاراً من نسج الفكر اليوناني والروماني" (٣) . ويجب الإشارة إلى " أن

(١) ثروت عكاشة ، تاريخ الفن ، الفن البيزنطي ، الجزء الحادي عشر ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(3) Talbot Rice, Byzantine Art , Penguin Book Ltd , Harmondsworth Meddlesex , Great Britain , 1935 , P. 61 .

(٤) القبة التي تغطي هذا التخطيط ترجع إلى القرون طويلة سابقة ، وكانت قديماً تصنع من الطين والقضبان في سبيل لتوزيع التجويف المستدير السفلى .

أولى هذه المباني هي كنيسة القديسة كونستانتزا في روما " (١) .

وقد إنتشرت هذه المباني في الشرق والغرب من أنحاء الإمبراطورية ، وقد تطورت أشكالها الخارجية ، فمن هذه المساحة المركزية الدائرية تم إضافة تصميم هندسي آخر ثماني أضلاع يحيط بها ، كما في كنيسة البعث المبنية في القدس بأمر الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع الميلادي ، وقد تم إستبدال الشكل الدائري من الداخل وحل محله شكل ثماني الأضلاع من الخارج ، وأوضح الأمثلة على هذا التغيير هو مسجد قبة الصخرة بالقدس ، ومن " المحتمل أن هذه الفكرة أو التصميم يرجع أصلها إلى سوريا ، ودور سوريا له دلالة عظيمة في تطوير المباني المركزية ، ولابد الا يغيب عن أذهاننا أن مبنى قبة الصخرة يمثل أوج التطور في الحجم والروعة في الدولة التي كانت تمثل في وقت ما جزء هام من الإمبراطورية البيزنطية " (٢) .

أما الفئة الثانية فهي تعتمد على التخطيط المربع الذي تغطيه القبة ويذكر جى ارنوت هاميلتون (J. Arnott Hamilton) " أن هذا " التخطيط أصبح يمثل جوهر المعمار البيزنطي ونشأت فكرته في إيران والعراق ، وبلغت سوريا والأناضول ، كي تصبح السمة الأساسية في الكنائس ذات هذا التخطيط المركزي " (٣) . وهذا يؤكد تأثير المعمار البيزنطي ، حيث كانت هذه الدول تابعة للإمبراطورية الرومانية ، " وكان هذا التصميم الأولى ، البداية في تطور البنيان المعماري البيزنطي بشكل عام " (٤) .

وتصميم الكنيسة التي تعتمد على هذا التخطيط تتميز بالمساحة المحدودة المتواضعة التي يتساوى فيها طول الكنيسة مع عرضها ، وبالرغم من ذلك إلا أنها تتمتع بالرحابة وتعطى إحساساً بالإتساع ، وذلك يرجع إلى فضل بناء القبة العلوية التي تساهم في تحقيق الإحساس باللانهاية ، وقد أصبح هذا الإرتفاع مرغوباً فيه بالنسبة للكنائس التي تعتمد على هذا التخطيط ، كما فضله المعماريون عن الطول الذي تميزت به الكاتدرائيات - وترتكز هذه القبة على إسطوانة مرتفعة وتنتهي هذه الأسطوانة مع بداية إنحناء القبة ( من أسفل ) وتوجد بها فتحات للنوافذ التي تسمح بالإضاءة وتجذب الأنظار إلى اعلى .

(1) Ibid, P. 82 .

(2) Ibid . P. 63.

(3) Byzantine Architecture And Decoration, B. T. Baisford L. T. D. London, 1933 , P. 274 .

(4) Ibid , P. 38 .

" ويجب الإشارة إلى أن هذه الكنائس ذات التخطيط المربع تتميز عن الكاتدراليات بأنها الأنسب للقيام بالمراسم الدينية المقدسة " (١) .

وتعتبر كنيسة القديسين سرجيوس وياكوس في القسطنطينية من أوضح الأمثلة المعمارية التي اعتمدت على هذا الطراز والتي تبدو في شكل (٨٥) . وفيما يلي نتناول بالتفصيل التخطيط المعماري لإحدى الكنائس البيزنطية التي تعتمد على هذا الطراز وهي كنيسة القديس فيتال\*، وقد وصفها جيوسيبي بوفيني (Giuseppe Bovini) بقوله : " وتتميز عمارة كنيسة القديس فيتال بأنها فريدة من نوعها ، وقد اقر المؤرخ أندريس اجنيلوس (Andreas Agnellus) في القرن التاسع الميلادي ، انه ليس في إيطاليا كنيسة تضاهيها ، ويضيف كويسى (Choisy) انه لا يوجد في أى مكان آخر مبنى يجد فيه الإنسان طاقم متناغم وجذاب مثل ذلك التوازن الهيكلي مندمجاً مع هذه الصيحة المعمارية " (٢) .

وكما نرى في شكل (٨٦) الذي يتضح فيه الشكل الخارجى للكنيسة وهي كما تبدو مكونة من هيكليْن ثمانيين بمساحة كبيرة ، وعلو أحدهما الآخر ، والهيكل الأول هو الذي يعلو سطح الأرض مباشرة ، وذو مساحة كبيرة ، وحدوده الخارجية تحيط بالمشى الذي يتوسطه المبنى الثماني ( الداخلي ) مركز الكنيسة ، والهيكل الآخر وهو الأصغر في المساحة يعلو الهيكل السابق ، وهو عبارة عن شكل مئمن الأضلاع أيضاً ، يرتفع عالياً ليغطي بالقبة التي يعلوها السقف الهرمي المنفذ بالخشب ، ويلاحظ هنا أن القبة نصف كروية أى لم تبلغ إستدارتها شكل القباب التي ظهرت في الكنائس البيزنطية اللاحقة ، وخاصة قبة كنيسة آيا صوفيا .

أما بالنسبة للتخطيط الداخلي فتبينه من شكلى (٨٧- أ ، ب) حيث نجد أن هذا الهيكل الأول يحتوى على طابقتين تحملهما الأعمدة ذات التيجان التي تغطيها العقود ، وقد تبادلت النوافذ مع الأعمدة المثبتة في الجوانب الداخلية لهذا الهيكل والتي تعمل كدعامة للحائط في كل ركن من الأوجه الجانبية .

(1) Ibid , P. 28 .

(2) Ravenna , Harry N. Abrams , Inc . Publishers, New York , P. 111.

(\*) شيد هذه الكنيسة الإمبراطور جستنيان لإسترداد مدينة راهينا ، وبدء العمل فيها عام ٥٤٠ م ، واستغرق بناؤها سبع سنوات ، وزينت جدرانها بطوب أحمر طويل ورفيع مشهور بإسم جولياس لأنه كان يستخدم في راهينا في المبانى المسلول عن تشييدها المهندس جوليانوس .

ويذكر الدكتور توفيق أحمد عبد الجواد أن : " أهم ما يميز القبة فى هذا المبنى أنها تتركز على معلقات\* (Pendentives)<sup>(١)</sup> . وتتكون هذه المعلقات "من عقود صغيرة تسمى العناصر المعقودة ، ومكانها الجدران المثمنة الشكل فوق العقود الثمانية التى تتوسط الكنيسة ... ، وثمة شرفة تعلو العقود وتطل على المجاز الأوسط تنعزل فيها النساء أثناء الصلاة ، حيث كانت هذه الطقوس البيزنطية تقضى بالفصل التام بين الرجال والنساء " (٢) .

يتبقى الجزء الدائرى الناتج والخاص بشرقية الكنيسة والمذبح ، الذى يتخذ شكل نصف سداسى مغطى بقبة خشبية كما يبدو من الخارج ، ومن الداخل يوجد قوس النصر الذى يتقدم الحنية ( شرقية الكنيسة ) ويجاورها من الناحيتين غرفتان ، الأولى تقع فى الناحية الشمالية ، والثانية فى الناحية الجنوبية ، وكلتيهما صمما لإعداد الطقوس الدينية ومكاناً لحفظ الأدوات الخاصة بهذه الطقوس .

ويصف الدكتور ثروت عكاشة ، هذه الكنيسة بقوله : " تعد هذه الكنيسة من الناحية المعمارية نموذجاً متطوراً للكنيسة المتمركزة ذات المحور الراسى " (٣) . فهى تعتمد على الشكل المثلث الذى يعلوه القبة التى تغطى المركز مباشرة . ويضيف رايس (Rice) فى كتابه عن الفن البيزنطى مؤكداً : " ان كنيسة القديس فيتال تمثل فى تخطيطها المعماري آخر مراحل التطور فى هذه المباني المركزية التى حدثت فى إيطاليا وبيزنطة فى عهد الإمبراطور جستنيان " (٤) .

## التخطيط الصليبي :

يتلخص هذا الأسلوب فى التعديلات والتغيرات الجديدة التى طرأت على النموذج البيزنطى الذى يعتمد على التخطيط المغطى بالقبة ، وقد اتخذ هذا

---

(١) تاريخ العمارة ، الجزء الثانى ، المصنوع المتوسطة الأوروبية والإسلامية ، مكتبة الأجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٥ .

(٢) ثروت عكاشة ، تاريخ الفن ، الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ١٣٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٤) Byzantine Art, Penguin Book Ltd, Harmondsworth Meddlesex, Great Britain, 1935, P. 62 .

(\*) المعلقات أو الدلايات ، وقد شاع استخدام هذا النموذج المعماري فى عهد الإمبراطور جستنيان ، ويتضح الإعتماد عليه فى الكنائس البيزنطية ، وترجع أصوله إلى التقاليد الأجنبية فهو يمثل سمة للمعمار الخلقونى .

الطرز شكل الصليب ذو الأربعة أذرع المتساوية والذي يشبه الصليب الإغريقي في بعض الأحيان ، وكل ضلع من اضلاع الصليب تغطيه الأسقف، حيث ان هذا التخطيط تعلوه قبة واحدة فقط كما في ضريح جالا بلاسيديا براهينا ، وفي بعض الحالات تم تغطية جميع اذرع الصليب بالقباب وكانت القبة الوسطى التي تغطي المركز - مركز الصليب - هي الأكبر ، والأكثر ارتفاعاً . مثل كنيسة الرسل بالقسطنطينية \* .

" وقد جاء هذا التخطيط في جوهره ومظهره مخالفاً للتخطيط البازيليكي ، فبينما كان الشكل المستطيل اهم ملامح الكنيسة البازيليكية ، إذا بشكل الكنيسة في هذا التخطيط مربعاً بدلاً من كونه مستطيلاً ، وبينما كانت الأسقف الخشبية المسطحة والجمالونية هي اهم وسائل التغطية في الأسلوب البازيليكي إذا بأسقف هذه الكنائس ذات التخطيط البيزنطي تعتمد على التغطية بالقباب وأنصافها والأقباء .

وكان نتيجة لإتخاذ هذه الكنيسة الشكل المربع وتغطيتها بالقباب ان حل الإيوان المربع محل الجناح المستطيل ... ، وأصبح على جوانب المربع ممر قصير يغطي قيو ، وبهذا اضحى مسطح الكنيسة على شكل الصليب بحيث يتجه النظر مباشرة في الكنيسة البيزنطية نحو القباب بدلاً من ان يتجه في الكنيسة البازيليكية نحو الحنية الرئيسية - (١) .

وكانت هذا التطور في بدايته رغبة من المهندسين في جعل صحن الكنيسة أكثر إتساعاً ، وتم ذلك عن طريق تطوير الأجزاء المتدلية الكروية التي تحمل القبة الواحدة في التخطيط المركزي ، والوصول منها إلى بعض الأشكال المعمارية المركبة وتوسيع الأقواس الحاملة التي تستوعب أكبر عدد من القباب والأقبية .

وعلى المستوى الأرضي تم التوسع في المحراب ، وبناء المصليات الجانبية المشيدة على امتداد الجوانب الخارجية لتلائم متطلبات الطقوس الدينية المتزايدة ، وبذلك تمتعت الكنيسة ذات الشكل الصليبي بالرحابة والسعة واتاحت الفرصة لتجمع أكبر عدد من المصلين والعايدين داخلها .

(٥) هناك بعض المراجع تشير إلى كنيسة الرسل بالقسطنطينية كمثال لهذا النوع من التخطيط الصليبي ، كما انها تعد في نفس الوقت مثالا للكنائس المتمدة القباب .

(١) - اشرف سيد محمد البخشولجي ، كنائس ملوى الأثرية ، دراسة أثرية معمارية ، دار نهضة الشرق ، جامعة

وقد قسم الصحن فى هذه الكنيسة من خلال مجموعة من القطاعات التى تنفتح على بعضها البعض ، ويمرور الوقت وزيادة التعديلات المعمارية إتجه المهندسون إلى زيادة عنصر الجاذبية فى هذه الكنائس من خلال الإهتمام ببعض السمات الجمالية المعمارية وإضفاء الدقة على العناصر المعمارية الأخرى لدرجة أن المهندسين اضطروا فى هذه الحالة إلى التخلّى عن المساحات الواسعة التى تميز بها هذا الطراز ، وبالرغم من هذه الإضافات والبناءات الجديدة على هذه الكنائس إلا أنها إحتفظت بتصميمها الأسمى وهو القبة التى تعلو المساحة المربعة ، ويجب الإشارة هنا إلى أنه فى بعض الأحيان كانت هذه الكنائس تضم الأعمدة التى تحمل القبة والتى تمتد بطول الصحن من الغرب إلى أن تتصل بالنتوء الخارجى من الجدار الشرقى بها .

وينكر لاين رودلى (Lyn Rodley) أن هذه الكنيسة ذات التخطيط الصليبي إلى جانب طرازها الهندسى البسيط وسهولة البناء فيها ، أصبحت النوع المعماري القياسى والمتكامل للمعمار البيزنطى<sup>(١)</sup> . الذى شاع استخدامه وإستمر الإعتماد عليه حتى أواخر العهد البيزنطية وبالأخص طوال الخمسة قرون الباقية فى تاريخ الإمبراطورية . كما إنتقل إلى العديد من المناطق خارج حدودها وذلك لأن هذا الطراز كما يصفه رايس . " يعد من أنسب الطرز المعمارية التى تتلاءم مع طبيعة العالم البيزنطى الروحى ، حيث أنه يتمتع بالجاذبية الخاصة من جانب الطابع الصوفى الدينى للتعاليم المسيحية ، كما أن تصميمه يجمع بين رمز العقيدة ( الصليب ) والأحاسيس الروحانية التى توحى بها القبة "<sup>(٢)</sup> . بالإضافة إلى أنه كان أكثر إحتواءً لمقابر أو أضرحة شهداء العقيدة المسيحية ، وخير مثال على ذلك ضريح جالا بلاسيديا فى رافينا فى القرن الخامس الميلادى ، " وأول الكنائس التى تمثل هذا الشكل هى كنيسة (Nea Ekklesia)<sup>(٣)</sup> . فى القرن التاسع الميلادى عام ٨٨٠ م .

كما أن أقدم هذه الكنائس عشر عليها فى القسطنطينية والتى تعتمد على هذا الطراز هما الكنيسة الشمالية التابعة لدير قسطنطين ليبس (Lips) وكنيسة ميريلايون<sup>(٤)</sup> . كما عثر فى العاصمة على كنيسة القديس يوحنا الصغير\* ، ذات الشكل

(1) Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 139 .

(2) Byzantine Art , Penguin Book Ltd , Harmondsworth Meddlesex , Great Britain , 1935 , P. 65 .

(3) Lyn Rodley. Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 137 .

(4) Ibid, P. 135 .

(\*) يرجع تاريخ بنائها إلى القرن العاشر الميلادى (٩٤٦ - ٩٥٥ م) .

الصليبى أيضاً ، ويجب الإشارة هنا إلى أن هذا الطراز كما يرى « ستيفن رنسمان ، بالرغم من أنه يتسم بالطابع البيزنطى الخالص إلا أنه " لم يبلغ من الشيوع فى القسطنطينية ابداً مبلغ شيوعه فى الولايات " (١). وذلك يتضح من خلال مجموعة الكنائس التى ظهرت فى مدينتى كابادوكيا وسالونيك والتي لم يتبق منها شيئاً الآن ، بالإضافة إلى مجموعة الكنائس التى عثر عليها فى جبل آتوس، ولكن قد تم فيها بعض التعديلات فى الأذرع الخارجية للصليب .

أما فى اليونان فقد كثر بناء هذه الكنائس حيث ساد الإقتصاد الإقتصادى والدعم المادى مما ساعد على وجود أفضل التصميمات البيزنطية ، مثل كنيسة هوزيوس لوكاس\* التى تتميز بالقبة المرفوعة على البناء الثماني الأضلاع من خلال دعائم تمتد فى أركان الجناح المركزى الربيع وأربعة أجنحة تتخذ شكل الصليب حول القلب المقبب . كما فى شكل ( ٨٨) . ويجب الإشارة أيضاً إلى كنيسة دير دافنى ونيامون التى تعتمد كل منهما على نفس التخطيط الصليبى .

والجددير بالذكر أنه لم يتم تحديد منشأ هذا الطراز ولكن قد أشار بعض المؤرخين إلى أهمية عمارة أرمينيا وعلاقتها بعمارة الكنائس البيزنطية ومدى تأثيرها عليها " حيث كان الطراز السائد فى كنائس أرمينيا هو الطراز الصليبى ، غير أن المهندسين أبدعوا فى تطور هذا النظام فخلقوا منه أشكالاً متعددة فلم تعد تبدو صليبية من الداخل والخارج ، بل حدثت تعديلات عديدة فأحياناً كانت المساحات الواقعة بين الأذرع تشغل بحجرات يمكن استعمالها فى الأغراض الدينية ، ويبدو المبنى من الخارج مربعاً وأحياناً أخرى تعمل حنية كبيرة فى نهاية الأذرع الأربعة للصليب وتترك بارزة خارج المبنى وبذلك تكون دعامة طيبة للقبة الوسطى وتساعد فى مقاومة الضغط الذى تحدثه على المبنى ، وفى بعض الأحيان نجد المبنى من الخارج على شكل مئمن أو دائرة ، وترجع بعض هذه الكنائس إلى ألة رن السابع الميلادى ، ولا بد أنها مرت بمرحلة طويلة من التطور ، ولا بد أن تكون هناك عمارة ذات قيمة فى البلاد فى القرون المسيحية المبكرة كانت ذات فضل فى تطور العمارة البيزنطية وتقدمها " (٢) . وخير مثال على ذلك ضريح جالا بلاسيديا فى رافينا الذى يرجع تشييده إلى القرن الخامس الميلادى ، وهو يعتمد فى تصميمه على التخطيط

(١) الحضارة البيزنطية ، ل ترجمة عبد العزيز لوفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٣١٩ .

(\*) مبنية فى النصف الأول من القرن الحادى عشر بأمر الإمبراطور لسلطنطين التاسع مولوماكوس .

(٢) داود عبده داود ، الفن البيزنطى ، محيط الفنون ، الفنون التشكيلية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ٢٢٨ .

الصلیبی - المیسط - المتساوی الأضلاع ، والذي يبلغ طول ضلعه أربعة وثلاثون قدم ، ويتقدم الضلع الخاص بالمدخل مساحة مستعرضة تزيد قليلاً عن عرض ضلع المدخل كما نرى في شكل ( ٨٩-١ ) . ويعلو نقطة تقاطع الأذرع الأربعة برج مربع الشكل ويرتفع قليلاً عن الجوانب الأربعة وهو يغطي القبة الصغيرة الداخلية ، كما يتبين من شكل ( ٨٩-ب ) .

وفي كل جانب من الجوانب الداخلية في الحوائط توجد الأعمدة التي تحمل القباب البرميلية التي تغطي الأضلاع الأربعة ، والتي تخفف من الأحمال عن جدران المبنى ، وكما يبدو من الشكل السابق يتميز هذا المبنى بالمظهر المتواضع بالمقارنة بأضرحة الأباطرة العظام ، كما توجد في كل حائط من الحوائط الخارجية مجموعة من المرات المغلقة التي تضيء على المبنى بعض الحيوية .

### ● التخطيط ذو القباب المتعددة :

يعرف هذا الطراز بالكاتدرائيات المقبية ، وهذا النوع من التخطيطات يعتمد على الدمج بين تصميمي الطراز البيزنطكي ( الكاتدرالي ) والطراز المقبب ، ويتميز التخطيط فيها بالمسقط الأفقي ذو القاعدة المستطيلة المقسمة إلى اجنحة تفصلها صفوف الأعمدة ، وبدلاً من القبة الواحدة التي تغطي التخطيط المركزي المربع ، ظهرت عدة قباب متفرقة أو متجمعة ، كما احتوت الزوايا المتجاورة لهذه القباب على مجموعة من القبوات أو انصاف القباب التي تغطيها، مثال ذلك كنيسة القديس يوحنا، شكل (٩٠)، التي تظهر بها القاعدة المستطيلة والقباب التي تغطيها وتغطي الأذرع الجانبية .

وقد سبق ظهور هذه النماذج في آسيا الصغرى التي اشتملت على العديد من الكنائس المقبية ذات التخطيط البيزنطكي ويجب الإشارة إلى أن " نظام الغرف الممتدة طولياً والمسقوفة من خلال الغرف قد استخدمت قديماً في الحمامات الكبيرة والقصور الرومانية " (١) . وكما نلاحظ أن هذه التصميمات الأولية للمباني الدنيوية في روما كانت سبباً في تطور العمارة المسيحية البيزنطية والتأثير فيها بشكل واضح ، وذلك يؤكد أن المعمار البيزنطي يمثل محاولة لتحقيق التوافق والمزج بين النماذج والأساليب القديمة والتطبيقات الجديدة، المعاصرة ، لخلق عناصر معمارية فريدة ومتميزة .

(1) Talbot Rice , Byzantine Art , Penguin Book Ltd , Harmondsworth Meddlesex , Great Britain , 1935 , P. 67 .



كما ينبغي الإشارة إلى أن " القسطنطينية تمثل أول موقع لتصميم الكاتدرائيات المقيبة، وكنيسة القديسة إيرين<sup>(١)</sup> أقدم هذه النماذج وترجع إلى (عام ٥٣٢ ميلادية ) ، والتخطيط فيها يتميز بالبساطة لأن التصميم يشير إلى البازيليكا على المستوى الأرضي ، أما الجناح المركزي فهو عريض جداً ، وبدلاً من وجود السقف الخشبي المعتاد أو القبة البرميلية الشكل ، هناك إثنين من القباب عند كل طرف ، وكل منها موضوع على الدلايات التي تحملها الأقواس المتعارضة<sup>(٢)</sup> .

وهناك نوع آخر من التخطيط المتعدد القباب يعرف بالتخطيط الخماسي المقيب والمسقط الأفقى لهذا التخطيط " يتساوى فيه المحور الطولى مع المحور العرضى أى على هيئة الصليب الإغريقى ، وتتعدد القباب فوق هذا النوع من الكنائس فبالإضافة إلى القبة التي تغطى مركز تقاطع أضلاع الصليب ، تظهر قباب فوق أضلاع الصليب الأربعة ، وأشهر كنيسة من هذا الطراز كنيسة الرسل المقدسين . المبنية فى عهد «جستنيان ، فى القسطنطينية عام (٥٣٦ - ٥٤٦ م ) شكل (٩١) ، وقد إنقرض ظهور هذا الطراز بعد إنتهاء عهد «جستنيان ، وإعتمدت الكنائس البيزنطية اللاحقة على أبعاد أكثر تواضعاً .

والجدير بالذكر " أن الكنيسة ذات التخطيط الخماسى المقيب هى أهم نماذج الكنائس المتعددة القباب ، ... وقد إنتقل هذا الطراز إلى العديد من المواقع الأخرى ، وأفضل الأمثلة الحية المتبقية هى كنيسة القديس مرقس فى فينيسيا (١٠٦٣ - ١٠٩٥ م )<sup>(١)</sup> . والتي يظهر من الرسم التخطيطى لها - كما فى شكل (٩٢) ، المسقط الأفقى الذى يتخذ شكل الصليب الإغريقى المتساوى الأضلاع ، وتشير الدوائر الخمسة المرسومة إلى القباب التى تغطى الأذرع الأربعة ومركز تقاطعها ، " انها تركز - هذه القباب - كما يصفها الدكتور ، توفيق أحمد عبد الجواد ، على الأكتاف الكبيرة المربعة التى فتحت فيها معرّات تركز على عقود ، وهذه الأكتاف تصل فى الوسط إلى أطراف الصحن ... وهذه الكنيسة تحتوى على خمس مداخل كبيرة ، .. وهى تعتبر المثل الواضح الذى يؤكد المعالم المتأثرة بتأثير الفن البيزنطى على العمارة فى مدينة فينيسيا الواقعة فى المنتصف بين الشرق والغرب<sup>(٢)</sup> .

(1) Loc Cit .

(2) Ibid. P. 70 .

(٣) تاريخ العمارة ، الجزء الثانى ، العصور المتوسطة الأوروبية والإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ،

ومن النماذج الهامة التي يجب الإشارة إليها هو النموذج المعماري الخاص بكنيسة آيا صوفيا " التي تعتبر أفضل ما يمثله المعمار الديني البيزنطي في عهد «جستنيان» ، وهي تعنى كنيسة الحكمة المقدسة \* (١) . وقد استغرق بناؤها خمس سنوات من عام ٥٣٢ - ٥٣٧ م ، وذلك يرجع إلى الأوامر الإمبراطورية الصارمة التي كانت تقضى ببنائها في أسرع وقت ممكن واستخدام أفضل الخامات المستوردة من انحاء العالم البيزنطي والإستعانة بأمهر المهندسين والبنائين \* .

" وتعد كنيسة آيا صوفيا أول نموذج كامل للكنيسة البيزنطية " (٢) . وذلك لما تميز به بناؤها ، حيث اشتمل على العديد من الطرز المعمارية المختلفة والتي تتكامل معاً في هذا المبنى ، طبقاً لما اجتمعت عليه آراء المؤرخين . كما ذكر الكاتب ، تالبوت رايس ، راي المورخ ميليه (Miller) بقوله الذي أكد : " انها تمثل دمج بين الآراء والأفكار العديدة ، وذلك يمثل أفضل تفسير مقنع لتطور النموذج المقرب لأن العناصر فيها تنتمي إلى المبنى المركزي المربع الذي يعلوه القبة ، والبازيليك ( الكاتدرائية ) الطولية المعمدة ، ذو التصميم الصليبي - الذي تغطي انصاف القباب زواياه وتنخفض قليلاً عن ارتفاع القبة الأساسية - وهي جميعاً تتوافر في التخليط الداخلي لمبنى آيا صوفيا وهذا الدمج بين العناصر السابقة جعل جميع جوانب المبنى تبدو مثل الوحدة الواحدة ، والتي تمثل علامة على مرحلة تطور تاريخ المعمار والتي ظلت باقية لأكثر من أربعة عشر قرناً ، على انها أفضل المباني التي تعبر عن هذه الفئة ، فليس هناك اعظم من مبنى آياصوفيا في العالم البيزنطي " (٣) .

ويتكون التخليط الهندسي لهذه الكنيسة بشكل عام - كما نرى في شكل (٩٣ - ١) - من مساحة بيضاوية الشكل أقرب إلى المستطيل ، حيث يتقدم هذه الكنيسة من الخارج صحن كبير تتوسطه الأعمدة ، ومن الداخل يتميز الصحن (صحن الكنيسة او القاعة الرئيسية) بالمسقط الأفقي الذي يتخذ الشكل المربع مضافاً إليه حنيتين بارزتين من الجهة الشرقية والغربية ، واللذان أكسبتها الشكل البيضاوي من الداخل، وهذا الصحن

(1) Lyn Rodley. Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 62 .

(\*) وصل عدد العمال والبنائين إلى حوالي عشرة الآت عامل .

(2) J. Arnott Hamilton, Byzantine Architecture And Decoration, B. T. Baisford L. T. D. London, 1933 , P. 111 .

(3) Byzantine Art , Penguin Book Ltd , Harmondsworth Meddlesex , Great Britain , 1935 , P. 69, 70 .

مفصول عن الأجنحة الجانبية التي تحده من الجانبين الشمالى والجنوبى بواسطة صفى الأعمدة التي تحمل القناطر، وهذا الصحن أو بهو الكنيسة يحتوى على طابقين يعلو بعضهما الآخر بواسطة القناطر العلوية فى الطابق العلوى مما يناسب القيام بالطقوس الدينية فقد خصص الطابق الأول لتلقيح تعاليم الدين المسيحى ، وللمتعبدين ، بينما الطابق العلوى يعتبر شرفة داخلية فقط . كما يبدو فى شكل (٩٣ - ب) .

وهذا الصحن المربع مغطى بقبة كبيرة تتميز بالإتساع والإرتفاع والشاهق حيث ترتكر على أربعة اعمدة ضخمة فى كل ركن من اركان المربع الأرضى . ويبلغ قطر هذه القبة خمسة وثلاثون متراً\*، وإرتفاعها عن سطح الأرض يصل إلى ثمانية وخمسون متراً ، وتقوم المعلقات . بدور كبير فى حمل هذه القبة ، والتي سبق وأن ظهرت فى كنيسة القديس فيثال ، " وتعتبر كنيسة ايا صوفيا هى المثل الأول على المقياس التذكارى ، حيث اصسحت القبة التى تنشأ على معلقات هى الخاصية المميزة للعمارة البيزنطية ، وبعد ذلك العمارة العربية " (١) .

وتحيط بهذه القبة مجموعة من القباب النصفية التى تغطى المساحة المستطيلة المضافة إلى المربع الأسمى لصحن الكنيسة ، وقد إستخدمت لتسقيف المساحة السفلية التى تنخفض عن سطح القبة الوسطى الكبرى وتدعمها أيضاً ، والتي تحملها المشكاوات ( التجاويف الجدارية ) .

وقد تشابهت هذه الكنيسة فى بنائها مع كنيسة القديسين سرجيوس وباكوس فى التسحلنطينية التى إعتمدت فى تخليطها على الشكل المثلث داخل تخليط مربع ، وهى تعد نموذجاً مصغراً لكنيسة اياصوفيا ، فقد بنيت فى الفترة ما بين عامى ٥٢٧ - ٥٢٦ م ، وتعتبر كنيسة ايا صوفيا مرحلة متطورة بالنسبة لها ، والتي ظهرت فى شكل (٨٥)

وإذا نظرنا إلى منظر الكنيسة من الخارج نجد أنها عبارة عن تكوين معمارى متكامل يتميز بالرسوخ والثبات ، حيث ينخفض من اعلى القبة إلى اسفل شيئاً فشيئاً فى تدرج بسيط ومريح للمشاهد ، كما يبدو فى شكل (٩٣ - ج) ، الذى يتبين من خلاله المآذن الأربعة التى اضيفت إليها خلال العصر العثمانى ، وقد إستخدمت المعادن والأحجار

(\*) يتساوى قطر القبة مع طول ضلع المربع المقام عليه الكنيسة .

(١) توفيق احمد عبد الجواد . تاريخ العمارة ، الجزء الثانى ، العمارة المتوسطة الأوروبية ، الإسلامية ، مكتبة

الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٨ .

النقيسة مثل : الذهب والفضة والرخام - التى حرص چستيان على إستيرادها لتزيين المبنى وتزيده فخامة وروعة - فى تغطية الجدران وتم تثبيت الألوام المعدنية كالرصاص الذى يغطي القبوات والذى يصل سمكه إلى ربع اليوصة والمثبت على عيدان الخشب التى تعلق القبة مباشرة .

ويجب الإشارة إلى أن هذه الإضافات المعمارية لجسم الكنيسة من الخارج أحدثت تغيرات فى شكلها الخارجى مما أدى إلى إنخفاض إرتفاع القباب نسبياً .

وقد ذكر ستيفن رنسمان " أن كنيسة آياصوفيا ظلت ذروة المجد التى أحرزها فن العمارة البيزنطى " (١) . وظهر تأثير طابعها العمارى المتميز فى الكثير من المساجد التى بناها الأتراك فى القسطنطينية فى القرون اللاحقة .

## ● نهاية المعمار البيزنطى ،

ومن القرن العاشر الميلادى وبعد ذلك، لم يحدث أى تحوير يؤدى إلى تخليلات جديدة ، ولكن كان هناك إتجاه عام نحو إزدياد الإرتفاع وإختزال أبعاد التخطيط الأرضى ، وطل الإعتماذ على الأساليب القديمة السابفة .

وبالنسبة للعاصمة القسطنطينية فلم يحدث أن تم بناء أية مبانى أو كنائس جديدة - وخاصة بعد فترة الإحتلال والنهب اللاتينى - إنما أعيد ترميم وإصلاح هدد العمانر نظراً لقلة الموارد المالية ، بالإضافة إلى عدم وجود البنائين المدربين أو المتميزين فيها . وأهم المباني التى تم ترميمها هى " الأديرة \* وذلك خلال السبعين عام الأخيرة من إستعادة المدينة ، وهى تمثل المرحلة الأخيرة فى المعمار البيزنطى فى القسطنطينية ، ومن المحتمل أن أعمال الترميمات هذه إستمرت حتى نهاية القرن الرابع عشر . وأشهر هذه الأديرة هو دير ( كورا ) Chora الذى أجرى ترميمه ، تيودور ميتوشيت ، عام ١٣١٥ م .

(١) الحصار البيزنطية ، ترجمة عبد العرير توفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٣١٨ .

(\*) عبارة عن مجموعة من المباني المتعددة وتشمل الكنائس والحصون والطواحين والمكتبة وهى بذلك تتميز بإتساع مساحاتها ، كما يجب الإشارة إلى أن هناك بعض الأديرة التى تحتوى على أكثر من كنيسة وتصل فى بعض الأحيان إلى خمسة كنائس .

(2) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 281 .

وقد يبدو أن الفنانين خلال القرون الأخيرة من الإمبراطورية المتدهورة كانوا يلجأون إلى تنفيذ التفاصيل الدقيقة داخل العمائر الكنسية ، ومعظم الكنائس في ذلك الوقت كانت تقع خارج القسطنطينية وخارج حدود الإمبراطورية نفسها، وبالرغم من أنها اتخذت سمات تجريبية إلا أن أساس التصميم كان البيزنطي الطابع ، وكانت القسطنطينية في ذلك الوقت لاتزال مصدر الإلهام الفني . وقد امتد أسلوب المعمار البيزنطي خارج حدود الإمبراطورية خلال القرن الحادى عشر والثانى عشر فى كل من روسيا وصقلية وهينيسيا .

فبالنسبة لروسيا بدأ تأثير المعمار البيزنطي منذ تولي « ياروسلاف ، حاكم روسيا ، وجعله كييف عاصمة لها ، واقتدى في بناؤها بالقسطنطينية التي اعتبرها نموذجاً يحتذى به وبنى كنيسة القديسة صوفيا التي اعتمدت على التخطيط الصليبي \* البيزنطي ، والمغطى بالقباب ، وقد استعان في تشييدها بالمهندسين البيزنطيين . كما استعان بالفنانين البيزنطيين أيضاً في تجميلها بالفسيفساء، حيث أكد الدكتور «داود عبده داود ، ذلك بقوله ان " كنيسة المخلص بكييف في القرن الحادى عشر الميلادى ، مبنية بصوف من الطوب ثم الحجر على التوالي وهى طريقة معروفة فى العمارة البيزنطية " (١) .

بالإضافة إلى الكنائس المبنية فى القرن الثانى عشر مثل كنيسة القديس جورج ، وكنيسة البشارة بالقرب من نوفجورود فى روسيا والتي تعتمد كل منهما على الطراز الصليبي ، ولكن مع ظهور بعض الاختلافات فى شكل القباب .

أما فى هينيسيا فقد إنتقل إليها الطراز البيزنطي المتعدد القباب وتمثل فى كنيسة القديس مرقس - كما سبق الإشارة إليها - وأخيراً صقلية التي إنتقلت إليها هذه الأساليب المعمارية " والكنيسة الوحيدة التي تحمل هذا الطابع هى كنيسة مارتورانو فى باليرمو عام ١١٤٣م ، والتي تعتمد على التخطيط الصليبي أيضاً " (٢) .

وقد تمثلت المرحلة الأخيرة من المعمار البيزنطي بصفة عامة فى " إنتشاره فى مجال المعمار الصربى والبلفارى ، وقد ظهرت بعض الأشكال المعمارية التي لا تعتمد على التطور ، بل اعتمدت على التقليد وإعادة إحياء الأشكال القديمة ، والسمة المميزة لهذا

(\*) ظهر التخطيط الصليبي فى روسيا خلال القرن العاشر عام ١١٩٦ .

(١) الفن البيزنطي ، محيط الفنون ، الفنون التشكيلية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ٣٠ .

(2) Lyn Rodley. Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 209 .

المعمار سطحية ، وتمثل تطوير الذوق البيزنطى للزخرفة الخارجية إلى جانب السمات الزخرفية التقليدية مثل التجاويف والأقواس وصفوف الطوب والحجر المتبادلة والموضوعة فى شكل نماذج زهرية ، وهذا الثراء الزخرفى له جذور فى المعمار البيزنطى وخاصة تلك الموجودة فى الأقاليم اليونانية التى تمثل المصدر الرئيسى لها ، وكانت معظم الأفكار المعمارية مقتبسة من المراكز الإقليمية إلى جانب الإعتماد على المصادر الحضرية<sup>(١)</sup> .

### ● العناصر المعمارية المختلفة وارتباطها فى الفسيفساء بها :

أصبحت الفسيفساء عنصراً أساسياً ومكماً لفن العمارة البيزنطية ، وامتزجا معاً إمتزاجاً واضحاً ، بعد ظهور هذه الفسيفساء بصورة مبسطة منذ البداية ، كما تبين زخارف العمودية الأرثوذكسية التى شغلت الفسيفساء فيها مساحات قليلة فى الجزء العلوى من الجدران وتم تطعيمها بأشكال المنحوتات المتجاورة ، التى تظهر فى شكل . (٩٤)

وقد تمكنت الفسيفساء تدريجياً من تغطية أغلب المساحات الداخلية للكنائس ، وتميز العصر البيزنطى بالتلازم القوي بين عنصرى العمارة والفسيفساء ، وصار من الغريب أن يتم تشييد الكنائس بدون هذه العناصر الجمالية المكتملة، كما لم توجد آنذاك لوحات او مساحات فسيفساء مستقلة بعيدة عن تلك المسطحات المعمارية إلا فى حالات نادرة فى العصور الأخيرة من العصر البيزنطى .

وقد تم وضع الفسيفساء وتوزيع موضوعاتها المختلفة وفقاً للمسطحات والأشكال المعمارية ومساحاتها وارتفاعاتها المختلفة داخل الكنائس ، كما توقف ذلك أيضاً على التخطيط الداخلى للكنيسة الواحدة ، فعلى سبيل المثال فى البازيليكا القديمة توافرت مساحات طولية كبيرة تمتد بطول الصحن الأوسط ، كما فى كنيسة القديس أبولينار الجديدة التى إشتهل فيها كل من جدارى المجاز الأوسط - شكل (٨٤) - على مساحات كبيرة من الفسيفساء قسمت إلى ثلاث مناطق افقية ، فالمساحة السفلية فيها التى تعلو القناطر ، ضمت صفتين أحدهما يمثل موكب الشهداء الذى يسير نحو السيد المسيح ، والثانى يمثل موكب الشهداء كما يبدو فى شكل (٩٥) ، والذى يتجه فى سيره إلى السيدة العذراء وكلاهما يتجهان إلى منطقة هيكل الكنيسة ، وكان ذلك بمثابة مشاركة من جانب الفنانين فى تنفيذهم لهذه الشخصيات المقدسة للمصلين الجالسين فى القاعة ، وهم متجهين بأنظارهم أيضاً إلى المنبج ، حيث تقام الطقوس الدينية المقدسة .

(1) Ibid, P. 278, 279 .

وحيث أن الجزء العلوى من هذه الجدران يتخللها النوافذ الطولية التى تشبه العقود ، فقد إستغل فنانو الفسيفساء هذه المساحات الفاصلة بين النوافذ فى تصوير مجموعة القديسين ، حيث يظهر قديس واحد فى المساحة منفصلة ، ويقف على مساحة خضراء ، يتساوى فيها ارتفاع قامته مع ارتفاع النافذة ، وفوق كل منحى خاص بالنافذة يقف زوج من الحمام أو الطيور المتقابلة ، أما المساحات العليا التى تتصل بالسقف الخشبى فهى مقسمة إلى قطاعات رأسية نفذت فيها موضوعات مختلفة خاصة بمعجزات السيد المسيح

أما شرقية الكنيسة والتى تتضمن منطقة المذبح فى البداية لم تستخدم الفسيفساء فى تزيينها ، ولكن فى كنيسة القديس أبولينار فى كلاسى ظهرت الحنية (شرقية الكنيسة ) ذات المساحة الكبيرة التى يتقدمها ويتصل بها قوس النصر الذى صور عليه من أعلى السيد المسيح يتوسط الإنجليين الأربعة ، كما يبدو فى شكل (٩٦) الذى أحسن الفنانون إستغلال كل جزئية منه فى تغطيته بالفسيفساء المناسبة له ، وأسفل النصف قبة العليا والتى صور فيها موضوع التجلى ، توجد مساحة مستطيلة فى جسم المحراب\* تتخللها النوافذ الطولية ، وعلى غرار الكنيسة السابقة ، فقد نفذت مجموعة من القديسين بشكل منفرد ، كل على حده فى مساحات الجدران المتبقية بين هذه النوافذ .

ومع تطور الطرز المعمارية وإتساع الكنائس ، وإستحداث بعض العناصر الجديدة وعلى رأسها القبة وما ترتب عليها من ظهور المعلقات ( الدلايات التى تحملها ) ، فقد خلقت مساحات جديدة خرجت عن الشكل المألوف أو المعتاد ، مما كان سبباً فى إبداع الفنانين وتكليف أعمالهم الجدارية مع هذه الأرضيات الجديدة ، ويقول فى ذلك الدكتور ثروت عكاشة : " وجد أهل بيزنطة فى الأسطح الداخلية للقباب والقبوات والحنيات وبقى العناصر المعمارية التى تدخل فى تكوين الكنيسة بمستوياتها المتدرجة الإرتفاع ، أنسب مكان لصور الملائكة والقديسين المتدرجى المكانة هم الآخرين لوفوق مرتبهم القدسية وحددوا لهذه الصور وطرق رسمها ومواقعها قواعد ثابتة لا يحدون عنها ، ومن هنا كان سر الجمع بين فنى العمارة والتصوير للتعبير عن الفكر الدينى " (١) . وبذلك خصصت القبة المركزية الكبيرة لتحمل صور السيد المسيح الحاكم الأعظم - وذلك بإعتبار أن مبنى الكنيسة نفسه يرمز إلى العالم السماوى على الأرض - سواء كانت صورة نصفية أو كاملة

(١) تاريخ الفن - الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ١١٠ .

(٢) كان المحراب فى البداية مخصصاً لتصوير الأشكال والموضوعات التى ترمز إلى مواقع المردوس .

منقردة ، أو يحيط بها مجموعة من كبار الملائكة المرسومين على خط دائرى واحد بحيث يتلاءمون فى شكلهم العام مع دوائر القبة المتحدة المركز ، وكانت هذه القبة تحتوى على مجموعة من النوافذ التى فتحت فى جسم الإسطوانة التى تنتهى مع بداية إنحناء القبة من اسفل ، وتعلو الدلايات مباشرة ، وصغر فتحات هذه النوافذ ساعد على وجود مسطحات مناسبة من الجدران بينها ، حرص فيها الفنان على ملئ كل جزئية ، وذلك بوضع صور للأبياء ، والعذراء فى بعض الكنائس كما فى قبة كنيسة المخلص على سبيل المثال ، والتي تظهر فى شكل (٩٧) .

اما فى الجزء الخارجى البارز من الجدار ( شرقية الكنيسة ) فقد إقتصرت فيه على تصوير العذراء وذلك فى الجزء العلوى - نصف القبة - وعلى الجدران الراسية السفلية تصور باقى الشخصيات الدينية كالقديسين وآباء الكنيسة .

وهذا يعتبر النموذج المثالى لتوافق فن العمارة مع فن الفسيفساء فى العصور الوسطى وفى إطار هذا التصميم العام، فإن شكل وحجم الكنيسة قد شهد العديد من التطورات ، كما ان تطبيق هذا التخطيط الطبقي المتدرج أصبح أكثر صرامة مع مرور الوقت . ولكنه قد إختلف من قطر إلى آخر ومن كنيسة إلى أخرى حسب التخطيط المعمارى الداخلى لها، حيث تختفى القبة على سبيل المثال فتتخلى العذراء فى هذه الحالة عن مكانها الأسمى لتوضع صورة السيد المسيح التى تصور بدلاً منها ، وأحياناً تستقل العذراء مركز القبة وذلك فى حالات نادرة ، ويجب الإشارة إلى أن هذه القبة كانت تمتلئ بالأشكال الرمزية والزخارف النباتية وذلك فى بداية العصر البيزنطى ، وأوضح مثال على ذلك قبة كنيسة القديس فيتال التى إحتوت على صور للإنجليين الأربعة وهى متمسة إلى أربعة مساحات تسيير فى إتجاهات منحنية إلى اسفل فى إتجاه القبة، كما يبدو فى شكل (٩٨) ، والذي نتبين من خلاله ، كيفية الإستفادة من المساحات المعمارية المختلفة والمتنوعة بها وتزيينها بزخارف الفسيفساء على أكمل وجه .

والجدير بالذكر أن الفنانين البيزنطيين كانوا يفضلون المساحات المنحنية عن المساحات المستقيمة فى تنفيذهم للفسيفساء وذلك يرجع إلى أن " الأسطح المنحنية ذات المناظر والموضوعات المتنوعة تتيح إنعكاس الضوء الذى يمثل جوهر الفسيفساء ، والإمتدادات الطويلة المستقيمة على الجدران يصعب تنفيذها ... فتعطى إنطباعاتاً بالإزدحام الذى يعود إلى غياب الإيقاع فى التصميم " (١) . مما يشير إلى أهمية هذه الجدران المنحنية والتي توجد فى أجزاء متعددة داخل الكنيسة متمثلة فى :

(1) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacher Art Books, New York, 1935, P. 163 .



١ - الدلايات (المعلقات) ، التي تشبه المثلث الذي ينحني ضلعا إلى الداخل وتوجه قمته إلى أسفل وتربط بين القبة والقناطر ، وكانت أشكال الإنجليبين ورموزهم الأربعة انسب العناصر التي يمكن تصويرها فيها - حيث أن عدد هذه الدلايات أربعة أيضاً - وذلك كان في أغلب الكنائس ، كما شغلت في بعض الأحيان بموضوعات تصور مواقف ومعجزات السيد المسيح كما في كنيسة المخلص بالقسطنطينية ، شكل (٩٧) .

٢ - المحاريب المنحنية ، ذات الإنحناءات العميقة الغير مغلقة - نصف مفتوحة - وهذا العمق يجعل من الممكن أن تمثل فيها صوراً لشخصيات واقمة على يمين ويسار المركز - صحن الكنيسة - وهذه الشخصيات تواجه بعضها في المساحة الحقيقية ، وعلى سبيل المثال : ملاك الشارة يقف وهو يواجه صورة امامية للسيدة العذراء ، أى أن المسافة الفراغية بين الصورتين تمثل فكرة التقاء محالين مختلفين " (١) . وذلك يمكن ملاحظته في شكل (٩٩) ، وكانت هذه الفكرة يتم التعبير عنها دائماً بتلقائية في لوحات مسطحة من خلال إدخال ناب أو عمود بينهما ، وهذه الرموز الساذجة لا تعد ضرورية فالجوة المراغية كافية لتوضيح الإتصال الروحاني بين الشخصيتين ، وقد تكرر ذلك الشكل في قوس النصر الذي صورت فيه العذراء في أحد الجوانب يمين القوس ، والملاك على اليسار حيث يتصلل بينهما فتحة القوس .

أما الجدران المستقيمة الممتدة فقد خصصت لتصوير الإحتفالات الدينية ومشاهد من حياة العذراء والسيد المسيح والقديسين، وهي تعد الأنسب للسرد القصصي والأحداث المتتالية ، حيث لا تعترضها أية فراغات معمارية تقطع الإتصال الفني بينها وبين المشاهد . أما المساحة الحدارية الخاصة بقوس النصر فقد تم الإستفادة منها أيضاً . فهي عبارة عن مساحة مستقلة عن الجدران الأساسية في الكنيسة ، " وهذا الفاصل ( قوس النصر ) يفصل المحراب الشرقي عن جسم الكنيسة ، وهو يمثل إحدى السمات التي نهت وتقررت في العالم البيزنطي ، ومن الصعب أن يوجد جانب داخلي بيزنطي بدون هذا الفاصل المصور وهو يمثل إطاراً معلقاً به لوحات ورسومات إضافية ، ... ، وقد إزداد إرتفاعه

(1) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner London, 1941, P. 23.

(\*) في العمود القديمة كان يتميز هذا الفاصل بالحجم المتواضع واستخدم الحجر في بنائه ولكن في القرن الثاني عشر حل الخشب محله ، وكان هذا القوس في أغلب الكنائس متصلاً بالجدار الشرقي ، حيث يعلو الحنية ويحيط بها .

بإزدياد مساحة الصور" (١) . التي تحمل مشاهد من العهد القديم والجديد وبعض الموضوعات التي ليس هناك مجالاً لتصويرها وسط الجدران الأخرى ففى بعض الكنائس ظهرت صور الإحتفالات الدينية فوق هذه الأقواس مثل عيد العنصرة .

والى جانب المساحات الكبيرة الممتدة فقد إهتم الفنانون البيزنطيون بتنفيذ القسيفساء فى الجزئيات المعمارية الصغيرة للربط بين تلك المساحات الرئيسية، كأطراف العقود التي نفذت بإستدارة كى تربط بين الدلايات واسطح الحوائط ، وتصل أيضاً بين القباب المتجاورة والقبية الأساسية ، كما ان المساحات الشريطية التي تغطى المنطقة السفلية للأقواس إستخدمت فى وضع الصور النصفية للشخصيات المقدسة داخل الميداليات مما يوحى بالإكتمال والإستمرارية .

أما التيجان التي تعلو الأعمدة فقد إستفيد منها فى تنقيذ المساحات والعناصر الزخرفية الهندسية والنباتية وأشكال الطيور كما تحدها الأطر أو الأشرطة الزخرفية المبسطة التي تبدو فى شكلى ( ١١٠٠ ، ب ) .

وبالرغم من الثراء الواسع لإستخدام القسيفساء داخل الكنائس إلا أنه لم توجد أية زخارف قسيفساء تغطى الجدران الخارجية لها خلال العصر البيزنطى، وظهرت فى حالات نادرة جداً\*، ويرجع ذلك إلى عدم إهتمام الفنانين البيزنطيين بتجميل هذه الجدران وإكتفوا بتبادل قوالب الطوب مع الحجارة فى تزيينها من الخارج ، حيث ان إهتمامهم الأساسى إنصب على داخلها فقط .

ومما سبق نلاحظ ان الصور البيزنطية الهائلة أو الضخمة لم تصنع على انها صور مستقلة ، وإنما نفذت بناء على تلك العلاقة القائمة فيما بينها مع إطارها المعمارى والمشاهد لها ، ويجب أن تكون علاقة تبيين إهتمام الفنانين اللذين ابدعوها ، وهى فى حالة وضعها داخل الكنيسة تشكل كياناً كلياً متوافقاً ومتسقاً له سمات خاصة ضرورية ، تمثل المجال الذي ازدهر فيه الفن البيزنطى ووصل إلى أوج عظمته .



(1) Talbot Rice , Byzantine Art , Penguin Book Ltd , Harmondsworth Meddlesex , Great Britain , 1935 , P. 14 .

(\*) ظهرت محاولات الفنانين الإيطاليين فى الخروج عن التقاليد المألوفة وإستخدام القسيفساء فى تجميل الجدران الخارجية من الكنائس وخاصة فى الواجهات .

## الفصل الثالث

### الموضوعات التي تناولها فن الفسيفساء البيزنطي

- فسيفساء القرون الأولى .
- العصر الذهبي الثاني للفسيفساء البيزنطية
  - أولاً : الموضوعات الدنيوية .
  - ثانياً ، الموضوعات الدينية .
- اللوحات الصغيرة .



### الفصل الثالث

## الموضوعات التي تناولها فن الفسيفساء البيزنطي

### ● فسيفساء القرون الأولى (السادس والسابع والثامن) ؛

تميز القرن السادس بنهضة فنية شملت العمارة والفنون باجمعها ، ويمجرد تولى الإمبراطور جستنيان ، حكم الإمبراطورية البيزنطية في عام (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ، شرع في بناء الكنائس والمباني الدينية التي حرص على تزيينها من الداخل بلوحات رائعة الجمال ، واعتمد الفنانون في ذلك على استخدام خامة الفسيفساء التي تغطي المساحات الشاسعة في هذه الكنائس الجديدة وهي كما ذكر الدكتور ثروت عكاشة ، " أنها كانت انصب مادة وسيطة للتعبير عن الموضوعات التجريدية وفق ايقوتوغرافية ذلك العصر .. حيث الدين الجديد ذو المنزلة الرفيعة والثراء العريض الذي يكفل له تسخير اعظم الفنانين شأنًا لتحقيق اغراضه " (١) .

وقد عرفت فترة حكم الإمبراطور جستنيان ، هذه منذ منتصف القرن السادس الميلادي بالعصر الذهبي للحضارة البيزنطية التي ازدهر فيها فن الفسيفساء في جميع انحاء الإمبراطورية ، وقد ظهرت هذه الفسيفساء في كنائس العاصمة القسطنطينية وسالونيك ورافينا وهذه الأخيرة إنتشرت فيها بشكل واسع .

ففي كنيسة آيا صوفيا وهي تعد من اهم كنائس العاصمة واكبر الكنائس الشرقية ، وجدت بقايا للوحات الفسيفساء التي تعتمد على الزخارف النباتية ونماذج الزهور المحورة والأشكال الهندسية المجردة ، حيث أنها تعرضت للزلازل والحرائق في بداية القرن السادس عام ٥٢٢ م ، وفقدت كثير من أثارها ، كما عثر على اطلال من الكنائس المزينة بلوحات الفسيفساء في العاصمة في كنيسة القديس سرجيوس وباكوس والتي استخدمت الألواح الذهبية في تغطيتها .

وتشير بعض الدراسات إلى " قلة التصوير في الكنائس في ذلك الوقت ، والكنيسة الوحيدة التي تحتوى على هذه التصاوير الأدمية تقع في العاصمة ايضاً في مدينة كالاندرهان كامى (Kalenderhane Camii) بالقرب من قناطر فالانس (Valens) ، والتي كانت من قبل كنيسة بيزنطية تحولت إلى مسجد . مبنية في نفس موقع كنيسة

(١) تاريخ الفن ، الفن البيزنطي ، الجزء الحادي عشر ، دار سعد الصباح ، القاهرة ، ص ١٢١ .

قديمة من منتصف هذا القرن ، وقد اكتشفت بقايا هذه الفسيفساء في كنيسة بوليوكتوس نتيجة عمليات الترميم، وهي تمثل واحدة من سلسلة الصور التي تشير إلى صورة تعمد قسطنطين على النواحية الغربية فوق المدخل<sup>(١)</sup> . وإندثرت باقي هذه الأعمال التصويرية ولم يتم العثور عليها ، ويرجع عدم الإقبال على تصوير الشخصيات المقدسة إلى كراهية هذه النوعية من التصوير وخاصة في القرن السادس .

وهي الغالب كانت هذه الآراء سائدة في العاصمة فقط ، وذلك لأنه بالرغم من وجود بعض الدلائل التي تشير إلى أن تصوير الأشخاص في لوحات الفسيفساء لم يظهر إلا في القرن التاسع ، إلا أن هناك نماذج لصور بعض الشخصيات الدينية مثل السيد المسيح والعتراء وبعض القديسين والقديسات في كنائس بعض المدن الهامة في الإمبراطورية في كل من رافينا وسالونيك، ففي رافينا\* التي تعتبر من أهم مراكز الفن البيزنطي وجدت مجموعة من الكنائس والتي احتوت على صور لهذه الشخصيات ، كما ترى في شكل ( ١٠١ - ١ ) التي يظهر فيها السيد المسيح مصوراً في هيئة محارب وفي سن صغيرة كما يتبين من رداءه ، ويمسك الكتاب المقدس في يده اليسرى والصليب في يده اليمنى ، ويقف بقدميه الإثنتين على حية من ناحية ورأس أسد من ناحية أخرى مما يوحي بالقوة والإنصار على الشر .

وكما ترى السقف المقرب الذي يعلو المساحة المصور فيها السيد المسيح مغطى بأشكال نباتية مجردة تتوسطها طيور صغيرة حاول فيها الفنان الإقتراب من الشكل الطبيعي وهي متفذة على أرضية ذهبية ، كما ترى في شكل ( ١٠١ - ب ) والمساحة بشكل عام يغلب عليها الطابع الزخرفي .

أما كنيسة القديس أبولينار الجديدة\*\* فهي تحتوى على مجموعة متميزة من لوحات الفسيفساء - سبق الإشارة فيها إلى الأعمال التي تنتمي لفترة الفن المسيحي المبكر - والتي تمثل أفضل أعمال الفن البيزنطي<sup>(٢)</sup> . وهي تغطي الجدار الشمالي

(1) Lyn Rodley, Byzantine, Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, P. 78.

(2) Guiseppe Bovini, Ravenna, Harry N. Abrams, Inc, Publishers, New York, P. 94 .

(\*) مدينة إيطالية تعرضت للإحتلال التوطى والأرى عام ٤٩٣ ثم عادت للسيطرة البيزنطية عام ٥٤٠ م واستمرت خاضعة للحكم البيزنطي طوال قرن ونصف ، حتى إنتهى مع بداية عام ٧٥١ م .

(\*\*) هذه الكنيسة هي الوحيدة التي حافظت على ترتيب الرواى للموضوعات الدينية المصورة .

والجنوبي لصحن الكنيسة وأحد هذه الجدران يحتوى على موكب القديسات والجدار المقابل يحتوى على موكب الشهداء ، كما نرى فى شكل (١٠٢) الذى يجمع بينهما فى صورة واحدة ، فنرى القديسات صورن فى حركة وإيقاع متكررين ومتتابعين وهن يرتدين الملابس الذهبية الموشاة بالجواهر والأحجار الكريمة ، التى زينت التيجان الخاصة بهن وتضع كل واحدة منهن عباءة بيضاء اللون على كتفها تختلف فيما بينها إختلافاً بسيطاً وتفصل جذوع النخيل بينهن ، كما كتبت فوق راس كل واحدة منهن الإسم الخاص بها ، وعند النظر إلى موكب القديسين نراهم قد تفنوا بنفس الأسلوب ، وبينما حملن القديسات التيجان لتكريم العذراء ، حمل القديسين التيجان لإهدائها للسيد المسيح فى الجدار المقابل .

وقد صور هذين الموكبين وسط المساحات الخضراء المزينة بالزهور والورود المتنوعة الألوان والأشكال ، وكان ذلك رمزاً للجنة التى تنعم فيها هذه الشخصيات المقدسة .

كما تكرر ظهور هذه الشخصيات فى مدينة سالونيك باليونان التى تعتبر ثانى أكبر مدينة فى الإمبراطورية البيزنطية التى أصبحت محراباً لفن القسيسفاء المسيحية مثل رافينا نظراً لتعدد الآثار التى وجدت بها <sup>(١)</sup> . وأشهر هذه الآثار هى كنيسة القديس ديمتريوس التى إحتوت على نوعين من التصاوير الجدارية أحدهما منقذ بالفريسك ويقع فى المستويات العلوية من جدران صحن الكنيسة ، أما القسيسفاء فتوجد فى الأجزاء السفلية ومعظمها فقدت نتيجة للحريق الذى تعرضت له البلاد فى عام ١٩١٧م ، وتحتوى هذه القسيسفاء على موضوعات دينية تصور شخصيات مقدسة للعذراء وهى جالسة على العرش وحولها الملائكة والقديسين ، كما توجد صور للقديس ديمتريوس نفسه مع بعض الرعاة المصلين والمتبرعين منقذة على كلاً من جانبي العمود الرئيسى فى هذا الصحن . وهذه الشخصيات تمثل أعضاء المجمع الدينى أو حجاً إلى هذا الضريح ، ومثل هذه اللوحات كانت شائعة أكثر من الأمثلة الفردية التى تمثل جزء صغير من هذا الأسلوب الزخرفى . فهى تحمل فى داخلها أهدافاً رمزية وتنتمى إلى الأسلوب التصويرى الروالى الذى ظهر فى العصور المسيحية المبكرة .

(1) Carlo Bertelli. General Editor, The Art of Mosaic, Per Jonas Nordhagen, Byzantine Treasures, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989, P. 104 .

وفى لوحة أخرى بالقرب من الجانب الخارجى، صور هذا القديس يقف إلى جانب طفلين ، وهذه اللوحة تعتبر فريدة من نوعها وتختلف عن موضوعات الفسيفساء فى الكنائس الأخرى، حيث صور الأطفال وسط هذه الشخصيات الهامة ، ويبدو ذلك فى شكل (١٠٣) ، كما يظهر القديس "ديمترىوس" يتوسط كل من الأسقف يوحنا الذى أعاد تصميم المبنى عام ٦٣٤م بعد الحريق الذى تعرض له ، ورجلاً آخر يدعى "هوليونتىوس" وهو المؤسس الحقيقى لهذه الكنيسة ، كما نرى فى لوحة شكل (١٠٤) ، ولم تقتصر فائدة هذه الموضوعات على تمجيد الشخصيات الدينية وتكريمها ، بل كانت أيضاً وسيلة للتعريف بسياسة وتاريخ المدينة نفسها ، وذلك يتأكد من " النقش المصور اسفل اللوحة السابقة التى تشير إلى تحرير سالونيك بعد هجوم السلاف ( الصقالية ) عام ٦١٢ بعد الميلاد " (١) .

وبالإضافة لهاتين المدينتين السابقتين فقد تكرر ظهور هذه الموضوعات التصويرية فى المقاطعات الشرقية التابعة للإمبراطورية ، فعلى سبيل المثال ، فى مدينة غزة حيث زخارف كنيسة القديس سرجيوس \* التى إحتوت على صور للعذراء والسيد المسيح والقديس سرجيوس وحاكم فلسطين ، فضلاً عن مجموعة من الصور الروائية التى تسجل مشاهد من العهد الجديد على غرار مشاهد كنيسة القديسة ماريما ماجورى بروما .

ولم تستمر فترة الإزدهار الفنى لهذه الفسيفساء طويلاً، فبانقضاء القرن السادس وزيادة الحوادث الطبيعية التى تسببت فى تهدم جميع الكنائس الأثرية بما فيها من لوحات الفسيفساء ، قد زالت وإختفت باقى الآثار الفنية الخاصة بالفسيفساء خلال القرن السابع وقضى على أغلبها تماماً وبالأخص فى العاصمة القسطنطينية ، إلا فى بعض أماكن متفرقة داخل وخارج أنحاء الإمبراطورية ومجاورة للعاصمة مثل نيقية \*\* التى عثر فيها على كنيسة كواميسيس (Koumesis) ودورميشان وقد إحتوت الأولى على صور للعذراء والملائكة متفذين على خلفية ذهبية وهى تعطينا بعض الملامح عن التطورات التى طرأت على فن الفسيفساء خلال القرون الأولى للمصر البيزنطى، فى الوقت الذى إندثر فيه فن العاصمة وخاصة أن زخارف كنيسة نيقية تحمل سمات فنية قريبة الشبه من فن القسطنطينية .

(1) David Talbot Rice, Art of The Byzantine Era, Thames and Hudson, Ltd., London, 1963, P. 67.

(\*) بنيت هذه الكنيسة فى القرن السادس عام ٥٣٦ بعد الميلاد .

(\*\*) تقع هذه المدينة جنوب القسطنطينية . .



وفي أثناء القرن الثامن وبداية التاسع تأثرت أشكال الفسيفساء بالتحريم والحظر الرسمي لتمثيل السيد المسيح والقديسين، وهي الفترة المعروفة بحركة محطى الصور والتماثيل الدينية ومهاجمة المعتقدات الدينية ، وكان هذا الحظر قد فرض بالقوة لمدة قرن وربع من الزمان . وكان نتيجة هذا التأثر أن تدهور فن الفسيفساء وقل إنتاج الأعمال الفنية فى مقر الإمبراطورية ، ولم تقض على الفن تماماً حيث تباين هذا التأثر من إقليم إلى آخر بل وانعدم فى بعض الأقاليم حسب قربها من العاصمة ومدى سيطرة العاصمة عليها، مثل قبرص وإيطاليا وجنوب آسيا الصغرى التى كانت تمثل ملاذ لمؤيدى الصور .

وأصبح إتجاه الفنانين منذ ذلك الوقت أكثر ميلاً إلى إستخدام بعض الرموز والأشكال المجردة فى تصوير الموضوعات والشخصيات الدينية حسب تعليمات البطارقة والرهبان اللذين كان لهم دور كبير فى تنفيذ هذه الأعمال بأنفسهم .

وقد تم محو الآثار الدينية التى تصور حياة السيد المسيح والعنراء والقديسين من بعض الكنائس فى العاصمة وخارجها ، ففى كنيسة آيا صوفيا فى القسطنطينية عثر على فسيفساء فى القباب والجدران الجانبية تحوى بعض التصميمات الهندسية والوردية وبعض أشكال للصليبان ونجوم فضية على خلفية زرقاء ، كما أن بعض اللوحات ظهرت فيها صورة منفردة للصليب على أرضية ذهبية وكانت هذه اللوحات فى الأصل تحتوى على صور تصفية للسيد المسيح والقديسين كما أزيلت الشخصيات ووضعت مكانها مكعبات فسيفساء من نفس لون الخلفية .

وقد ظهر الصليب بصورة واضحة فى كنيسة القديسة إيريني بالقسطنطينية ، كما ترى فى شكل (١٠٥) حيث يبدو ذو مساحة كبيرة ومحدد باللون الأسود، وقد نُفذ على مكعبات ذهبية وفضية اللون ، ويبدو أن " الصليب أصبح النموذج السائد على هذه الأعمال ليحل محل وجوه وأجسام الشخصيات " (١). وترجع سيادة إستخدام الصليب بهذه الكيفية إلى عهد الإمبراطور جستنيان ، ورغبته فى التوفيق بين أصحاب مذهب التوحيد والكنيسة ، ولم يقتصر ذلك على القسطنطينية وحدها فقد إنتشر ظهوره أيضاً فى نيقية، حيث حل الصليب الكبير محل وجه العنراء على قمة كنيسة كواميسيس ، يؤكد ذلك وجود بعض مكعبات الفسيفساء المتبقية من رأسها عند إزالتها لتوضع صورة الصليب بدلاً منها ، كما أن الأجزاء الخارجية من كنيسة دورميشان فى نيقية أيضاً ، وبعض أعمال

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 128.

الفسيفساء فى كنيسة آياصوفيا فى سالونيك تتضمن صلباناً مماثلة، حلت محلها اعمال  
فسيفساء بعد ذلك .

وفى بعض الكنائس تم إستبدال صور! للشخصيات المقدسة بصور للأشجار  
والزهور والطيور وعولجت بأسلوب زخرفى بدلاً من وضع الصليب، كما حدث فى كنيسة  
إيرينى بالقسطنطينية وكنيسة تيوتوكوس فى مدينة بلاشرينا .

### ● العصر الذهبى الثانى للفسيفساء البيزنطية :

مع إنتضاء حركة مناهضة الصور الدينية فى منتصف القرن التاسع الميلادى ،  
بدأت مرحلة فنية جديدة ، تمثلت فى إعادة بناء الكنائس وتشييدها على نطاق أوسع ،  
وعاد لفن الفسيفساء مجده وإزدهاره مرة أخرى ، بعد فترة كساد دامت ما يقرب من قرن  
ونصف من الزمان ، ويرجع الفضل فى هذه النهضة إلى الأسرة المقدونية التى حكمت  
الإمبراطورية فى تلك الفترة ومؤسسها « باسيليوس الأول » ( ٨٦٧ - ٨٨٦ م ) الذى كان سبباً  
فى تشجيع الفن وإحيائه مرة أخرى فى تلك الفترة . وقد سار على نهجه كل من تبعه من  
الحكام المقدونيين مثل : « ليو السادس » و « قسطنطين السابع » ، لذلك عرف عصر هذه  
الأسرة بالعصر الذهبى الثانى للحضارة البيزنطية ، حيث أعيد ترميم المباني الدينية  
والكنائس التى قد تعرضت للزلازل ، كما بنيت القصور التى زينت بالفسيفساء .

ويجب الإشارة إلى أن إزدهار الفسيفساء فى تلك الفترة يعود إلى إرتباطه  
بالعمارة التى وفرت لها مساحات جدارية كبيرة ، ساعدت على إنتاج كم هائل من الأعمال  
الفنية ، وقد إستمر هذا الإزدهار منذ ذلك الحين - منتصف القرن التاسع - حتى أوائل  
القرن الثانى عشر \* وبالرغم من إختفاء الكثير منها إلا أن المتبقى منها يدل على مدى  
البراعة والمهارة التى تميزت بها هذه الفسيفساء، فضلاً عن التشجيع الذى ناله الفنانون  
فى ذلك الوقت .

ولم تعد النهضة الفنية للفسيفساء إلا أيام الأسرة الباليولوجية فى القرن  
الثالث عشر بعد عودة الإمبراطورية مرة أخرى فى عام ١٢٦١ م ، حيث بدأت موجة  
جديدة لتزيين الكنائس فى أواخر القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر الميلادى فى  
القسطنطينية ، وتناولت الموضوعات بطريقة جديدة ظهرت فى أشهر كنيسة فى ذلك

(\*) وذلك لأن مع بداية القرن الثالث عشر تعرضت القسطنطينية للإحتلال اللاتينى الذى إنتهى مع قدوم الأسرة  
الباليولوجية .

الوقت وتسمى كنيسة المخلص . " وهى تشهد ازدهار الفسيفساء حتى آخر العصور البيزنطية " (١) .

وخلال هذا التذبذب الواضح فى المستوى الفنى للفسيفساء منذ منتصف القرن التاسع وحتى الرابع عشر ظهرت موضوعات الفسيفساء ذات الطابع الخاص والتي انقسمت إلى نوعين مختلفين إبان هذا العصر البيزنطى هما :

الموضوعات الدنيوية والدينية التى كان لكل منهما ظروف خاصة اثرت فى وجودهما وتكوينهما ، كما ارتبطت كل نوعية من هذه الموضوعات بمباني ومساحات معمارية معينة ، وتييزت بأسلوب معين للمعالجات الفنية سواء فى استخدام العناصر او التكوينات وافتقاء الألوان وطريقة استخدام مكعبات الفسيفساء وطريقة تنفيذهما .

### أولاً : الموضوعات الدنيوية :

زخرت القسطنطينية بالمباني العديدة والقصور والمنازل الفاخرة التى تخص الأباطرة والأمراء ، وكان لابد من تزيين هذه المباني الفخمة حتى تناسب ثراء وعظمة أصحابها بما يتفق وروح المجتمع البيزنطى ، وبطبيعة الحال لم يجد الفنانون أنسب من خامة الفسيفساء لى يستخدمونها فى إخراج أعظم الأعمال الفنية ، والتي كان أغلبها ارضيات فى بادئ الأمر والتي إندثرت بفعل الكوارث الطبيعية والأحداث المدمرة .

وقد تناولت هذه الموضوعات تصوير المناظر التاريخية التى تسجل حروب الأباطرة تخليداً لذكراهم ، كما تناولت أيضاً صوراً لأعمالهم ومواقف من حياتهم اليومية وبعض رحلات الصيد التى كانوا يقومون بها، ولم يكن الهدف منها تسجيلياً بقدر ما كان تزيينياً وتجميلاً .

ويجب الإشارة إلى أن أقدم الموضوعات الدنيوية التى عثر عليها فى القسطنطينية ترجع إلى القرن الرابع\* وتتنمى إلى عهد أحد خلفاء الإمبراطور قسطنطين وهو فالانس ، (٣٦٤ - ٣٧٨) م ، وهى عبارة عن ارضية فى ثيلا بالقرب من القناطر التى سميت بإسمة قناطر فالانس ، -

(1) Cyril Mango, The Art of the Byzantine Empire, Prentice, Hall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersey, 1972, P. 87 .

(\*) هذا العمل الذى ينتمى إلى القرن الرابع يعتمد إلى حد ما عن الأسلوب البيزنطى وهو أقرب إلى الفسيفساء الساسانية والرومانية ولكن تم الإشارة إليه هنا لأنه ينتمى إلى اللوحات المنفذة داخل مباني القسطنطينية .

ويرجح أنه منفذ لصالح شخصية خاصة وليست شخصية إمبراطورية ، نراه في شكل (١٠٦) وهي جزئية من الأرضية وتظهر فيها فتاة صغيرة بجسد عارى ، تضع على كتفها الأيسر رداء وتمسك بطرفه الأخر بيدها اليمنى وتتمايل في خفة ورقة .

وقد وجدت نماذج من هذه الفسيفساء الدنيوية في أوائل العصر البيزنطى ، وكانت شديدة التأثير بموضوعات البلاط الروماني التي استمدت منها أسلوبها ، وأشهر هذه النماذج فسيفساء القصر العظيم المقدس بالقسطنطينية ، وهو العمل الدنيوي الذي لا يزال قائماً حتى الآن ، وهو يضم اطلاقاً من ارضيات هذا القصر ، كما نرى في جزئية منه شكل (١٠٧) التي صورت فيها مجموعات من الحيوانات والطيور الطبيعية والخرافية فضلاً عن صور الأشخاص سواء الرعاة أو الصيادين ، حيث نشاهد الصياد المسك بالرمح ويقف بجوار الشجرة المرسومة في يسار اللوحة . كما توجد بعض شجيرات تتخلل مجموعات الشخص والحيوانات ، وتحدد هذه الأرضية بأكملها اطر خارجية تحتوى على أوراق الشجر الصغيرة من بينها تظهر اشكال الطيور المختلفة .

وإذا نظرنا إلى أرضية الفسيفساء الرومانية مثل الموجودة في بيزا أرمينا لوجدنا نوعاً مماثلاً لأسلوب هذه الفسيفساء وطريقة معالجتها ، كما نرى في لوحة شكل (١٠٨) ، التي نلاحظ فيها رسوم الحيوانات الأليفة والمتوحشة وتتخللها الأشجار أيضاً ، كما نرى الصياد الممتطي الحصان في مقدمة اللوحة ويطارد هذه الحيوانات ، وكلا اللوحتين إشتراكاً في الخلفية ذات المكعبات البيضاء .

وقد تناولت موضوعات الفسيفساء في القصر المقدس مشاهد من الحياة اليومية ومناظر الريف ورحلات الصيد وسباق المركبات ، وتتجلى في هذه اللوحات ملامح الكلاسيكية الكاملة وكان أسلوب ذلك العصر لا يمت بصلته إلى الكلاسيكية باستثناء زخارف قصور الأباطرة والأشراف ، وهذه الكلاسيكية نراها في الإلتزام بالإستدارة ومحاكاة الطبيعة ، وظهور الشخصيات بأوضاع وحركات مختلفة تضيف عليها الحيوية والرونة .

وهناك ثلاث تفصيليات من فسيفساء هذا القصر تتضح فيها هذه الأساليب ، الأولى تجدها في شكل (١٠٩) ، وهي جزئية من اللوحة السابقة شكل (١٠٧) ، وتتميز بواقعية الموضوع المتمثل في عملية حلب الشاة التي يقوم بها الرجل ، وقد صورت فيها اجسام كل من الرجل الجالس على يمين اللوحة واثنين من الشياة بدقة شديدة ، وراعى فيها الفنان النسب التشريحية محاولاً الوصول بها إلى الشكل الطبيعي ، واهتم بدراسة اقدامها وراعى الدقة في تنفيذ فراثيهما بمكعبات الفسيفساء ، التي اتخذت إتجاهات دائرية والتي تميزت أيضاً بالدرجات اللونية المتوافقة .

والتفصيلية الثانية نشاهد فيها فتاة تحمل قدراً فوق كتفها، كما يبدو في شكل (١١٠) ، وهي أيضاً تنقل إلينا مشهداً من واقع الحياة اليومية وما تقوم به الفتيات كل صباح ، ونرى خلفها الجزء العلوى من أوراق الشجرة المرسومة خلف الفتاة ، ولولا تساقط أجزاء كثيرة من اللوحة لتمكنا من رؤية باقى العناصر التى تشترك مع الفتاة فيها .

واللوحة شكل (١١١) نرى فيها آخر هذه المشاهد التى تختص بتصوير الحياة اليومية، حيث يقوم فيها الصبى بإطعام الحمام ، ولا ينبغي أن يفوتنا الدقة التى رسمت بها (السالل) التى يمسك بها الصبى كما نفذت بجودة فائقة فظهرت وكأنها حقيقية ، كما راعى أيضاً الفنان النسب الطبيعية لجسد الصبى واهتم بدراسة ثنانيا ملابس ، ونقل التشريح الطبيعى لرأس الحمام ، تجلى ذلك فى رسم ملامح الوجه بدقة ، وتشترك التفصيليات الثلاثة السابقة فى جمال وهدوء الألوان التى نفذت بها العناصر المختلفة على الخلفية البيضاء ، ورقة المعالجة التشكيلية فى أسلوبها .

ولم يقتصر ظهور الفسيفساء الدنيوية فى القصور والمباني الفاخرة فقط ، بل ظهرت أيضاً فى الكنائس المختلفة ، وأشهر هذه الأعمال لوحتى الإمبراطور «جستنيان» والإمبراطورة «تيودورا» فى كنيسة القديس فيتال ، وهذه نوعية جديدة طرأت على الموضوعات الدنيوية ، وتندرج تحت قائمة التصوير الإمبراطورى ، وهى توضح مدى السيطرة الإمبراطورية فى ذلك الوقت . فقد تميزت هذه الموضوعات بأغراضها السياسية فضلاً عن الأهداف التجميلية والترفيهية للموضوعات الدنيوية .

وتحتل هاتان اللوحتان حنيتى المذبح المتقابلتين فى صحن الكنيسة ، وموضوعهما "يعتبر أول مثل للفن البيزنطى الإمبراطورى الحقيقى" (١) . وهو يصور لحظة تقديم القرابين والهدايا للكنيسة من قبل الإمبراطور «جستنيان» والإمبراطورة «تيودورا» ، حيث يحمل «جستنيان» إناء القرين الذهبى ، شكل (١٥) - سبق الحديث عنها - وتحمل الإمبراطورة «تيودورا» أيضاً كأس القرين المقدس ذو اللون الذهبى ، وقد كانت هذه الأواني أحد الأدوات اللاهوتية الدينية التى كان يرسلها السادة البيزنطيون إلى الكنيسة الجديدة فى راينا بمناسبة تأسيسها ، وهذا التقليد الخاص بمنح أوعية القرابين المقدسة من التقاليد الرومانية الراسخة ، كما كانت هذه الأوعية تصور باثنين من المقابض

(1) P. B. Hetherington, Mosaics, Paul Hamlyn, London, 1967, P. 16.

فى الفن المسيحى ، ولكنها هنا تبدو صديعة المقابض " (١) . كما نرى فى لوحة شكل . (١١٢) ، التى تظهر فيها الإمبراطورة ذات المعطف الملكى القرمزى - وهو الرداء المخصص للطقوس والمناسبات الرسمية - يتقدمها إثنان من المسئولين فى الدولة ، وعلى يسارها تقفن سيدات من حاشية البلاط الملكى ، وقد ظهرت بأبهى الثياب والأردية المنهبة ذات النقوش والزخارف ، والتى تمثل علامة السلطة والرخامة " والتى إقتبست من الملابس الشرقية الشائعة فى مصر وبالبيرا " (٢) . وتقف هؤلاء السيدات جميعهن على خط أفقى واحد وفى تتابع مقصود ، كما يبدو فى شكل : (١١٢ - ١) ، وكان الفنان أراد من التصاق اجسام شخصوه بهذه الطريقة ، الإيحاء بأن هناك العديد من الشخصيات المصورة ، كما تجلى ذلك أيضاً فى مجموعة الأشخاص اللذين يمثلون رجال الحرس الإمبراطورى الخاص بالإمبراطور جستنيان ، وتبين ذلك فى شكل (١١٣) - وهى تفصيلية من لوحة سابقة شكل (١٥) .

وبالرغم من أن الموضوع فى هاتين اللوحتين يعبر عن طبيعة الحياة وينقل إلينا واحدة من المراسم الإحتفالية لسادات المجتمع البيزنطى ، إلا أن هذين العملين غير واقعيين ، وذلك لأن الدراسات التاريخية تشير إلى " أن جستنيان وتيودورا لم يذهبا مطلقاً إلى رافينا ولم يقدموا أية هدايا لكنيستها " (٣) . ولكنهما يحملان فى داخلهما معان رمزية كما يذكر الدكتور ثروت عكاشة ، ناقداً للوحة الإمبراطور جستنيان ، ؛ لقد جاء تصوير الإمبراطور رمزاً للوحدة بين السلطة الروحية للكنيسة من ناحية وسلطة الدولة الدنيوية من ناحية أخرى ، وتشير الطغراء\* على الترس إلى علو كعب الجند بوصفهم حماة العقيدة (٤) . وأضاف " أن لهاتين اللوحتين الجداريتين من الفسيفساء قيمة تاريخية وفنية كبيرة تنفردان بهما لأنهما على رأس اللوحات النادرة التى حفظها لنا الزمن والتى سجلت عظمة مراسم البلاط البيزنطى الذى إندرت معالنه " (٥) .

(1) Giuseppe Bovini, Ravenna, Harry/Abrams, Inc., Publishers, New York, P. 148.

(2) Ibid, P. 146.

(3) Op. Cit., P. 138.

(٤) تاريخ الفن ، الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، دار سعد الصبياح ، القاهرة ، ص ١٣٨ .

(٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٦) الطغراء هى علامة يرمز بها إلى اسم السيد المسيح وهى عبارة عن حرفين يونانيين متشابهين هما P.X واحياناً

تتحد بالصليب .

وتميّزت الموضوعات الدنيوية التي تصور الشخصيات الإمبراطورية خلال العصور البيزنطية وخاصة في العصر المقدوني بسمّة جديدة هي ارتباطها بالطابع الديني ، حيث جمع الفنانون في لوحاتهم بين صور الأباطرة وهم يمارسون أحد نشاطاتهم الدنيوية ( الحياتية ) وصور السيد المسيح والعذراء أو الإثنين معاً ، وكانت هذه اللوحات تصور تقديم هؤلاء الأباطرة القرايين أو عرض لأعمالهم التي يكلفون بها في الإمبراطورية ، كما نرى في شكل (١١٤) ، والتي يبدو فيها القس « الكسيوس »\* يقدم النموذج المقترح للكنيسة إلى السيد المسيح - في اللوحة الأساسية التي يظهر فيها أيضاً زوج من الملائكة يقفان على جانبي السيد المسيح وفي الناحية المقابلة للقس «الكسيوس» يقف القديس شيتال بملابسه الرسمية - .

وكانت هذه المشاهد معروفة في الفن المسيحي المبكر وهناك عدد كبير منها في كنائس روما . وكان الهدف منها هو تمجيد الأباطرة وإعلاء منزلتهم ، ولم تكن هذه الموضوعات تظهر بصورة واضحة في الفسيفساء البيزنطية إلا بعد فترة التحطيم ، وشهدت تطوراً ملحوظاً نتيجة التلازم الواضح بينها الذي ارتبط بمفهوم تدعيم الآلهة للأباطرة ، أو مغتصبى العرش اللذين قد يمتلكوه بفضل معونتهم .

وقد ظهرت امثلة عديدة في القسطنطينية تؤكد ذلك - خاصة في كنيسة آياصوفيا التي إحتوت على العديد من الصور الإمبراطورية وإمتدت حتى نهاية عصر الفسيفساء البيزنطية ، تذكر منها لوحة أعلى الباب المركزي لصحن كنيسة آيا صوفيا ، تراها في شكل (١١٥) ، ويظهر فيها « ليو السادس » راعياً أمام السيد المسيح الجالس على العرش في منتصف اللوحة ، ونرى صورتين في خلفيتها ، اليمنى للملاك جبريل ، واليسرى للعذراء ، وكل منهما وضع داخل جامه ذات إطار زخرفي مبسط ، وهذه اللوحة تعبر عن ندم الإمبراطور « ليو السادس » على زيجته الرابعة\*\* بعد وفاة زوجاته الثلاثة ، وأسلوب هذه اللوحة يعود إلى " المنجزات الفنية السابقة لحقبة التحريم حيث يرجع شكل لحية السيد المسيح الكثة وشعره الطويل المسترسل إلى التمثيلات الفنية فوق بعد الإمبراطور « جستنيان الثاني »، كما أن جذع العذراء والملاك جبريل بملامحهما التي تبدو واضحة تنبثق من حقبة ما قبل التحريم" (١) . التي كان تُميّز بالطابع الزخرفي وغلبة التسطيح والجمود على الأشكال .

— الفن —

(١) تروت عكاش ، تاريخ الفن البيزنطي ، الجزء الحادي عشر ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ص ٢١٩ .

(\*) توفي هذا القس قبل إتمام بناء الكنيسة والذي تولى إكمال العمل هو القس «كسيان»؛

(\*\*) كان القانون الكنسي البيزنطي يحرم الزيجة الرابعة . عن : ستيفن رشميان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة

صبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٨٤ .

وعندما إزدادت القيود في الإمبراطورية حول التصوير خلال حركة تحطيم الصور، لم تتأثر بها الأعمال التصويرية الدنيوية، بل إنها كانت سبباً في تشجيع البعض خاصة البعيدين عن رقابة العاصمة - في الإقبال على طلب هذه الموضوعات، وممارسة الفنانين لها على نطاق أوسع، وبالأخص اللوحات الخاصة بصور الشخصيات الدنيوية بالإضافة إلى الموضوعات السابقة، " كما برع الفنانون وإزدادت مهاراتهم الفنية في تنفيذ اللوحات الشخصية ودلينا على ذلك أن الإمبراطورة « إيريني » كانت تأمر بتصوير لوحات شخصية لها ولإبنها كي تعلقها في كنيسة بيج في القسطنطينية، كما قام « تيوفيلوس »\* ( ٨٢٩ - ٨٤٢ م ) بتعليق أعمال جديدة تصور الفلاحين الحاصدين للفواكه في القصر الإمبراطوري، إلا أن نقص عدد المراسم والورش الفنية أدى إلى قلة إنتاج الأعمال الفنية للرسامين وفنانى القسيفساء»<sup>(١)</sup>.

وقد إستمر ظهور هذه الموضوعات في قصور الأباطرة حتى القرن التاسع الميلادى، فعندما بنى باسيليوس الأول قصره الكبير في القسطنطينية، " وللأسف أن هذا القصر قد إختفى أيضاً ولم يعد له أى أثر، وكان حسب وصف المؤرخين القدامى له من أفخم القصور، وكانت به أعمالاً نادرة من القسيفساء، فقد صور الإمبراطور فيه يحيط به قواده، كما ظهر في منظر آخر جالساً على عرشه ومعه زوجته الإمبراطورة يودوكيا وأولاده"<sup>(٢)</sup>. وهناك بعض الدلائل التي تؤكد على إستمرارية ظهور هذه الموضوعات بعد القرن التاسع وحتى القرون التالية في العصر البيزنطى، " حيث يشير المؤرخ بروكوبيوس (Procopius) إلى التصوير الدنيوى المنفذ بالقسيفساء والذي يصور القائد « بليزاريوس »\*\* في مشاهد القتال وكذلك "جستيان" و"تيودورا" ومجلس الشيوخ عند إنتصاراتهم على ملوك القانداال المخربين والقوطيين، وصور الإنتصار من هذا الشكل قد تكررت خلال أواخر العهد البيزنطية، وتمثل أساس هام من أسس الفن الدنيوى الذي لا ندرك عنه الكثير"<sup>(٣)</sup>.

(1) Lyn Rodley, *Byzantine Art and Architecture*, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 127.

(٢) داود هبه داود، الفن البيزنطى، محيط الفنون - محيط التشكيلية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠، ص ١٦٩.

(3) Lyn Rodley, *Byzantine Art and Architecture*, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 79 - 80.

(\*) اشتهر رسام في عهده بالإنتاج الغزير ويدعى « لازيوس » الذي إستمر في تصوير اللوحات الشخصية بالرغم من الإنذارات المدنية التي وجهت إليه وإلى الفنانين بشكل مام فكانت النتيجة أن امر تيوفيلوس بإحراق بيده.  
(\*\*) القائد الأعلى في الجيش البيزنطى.



وفي المعر الشمالى لهذه الكنيسة توجد صورة للإمبراطور «الإسكندر» شقيق «ليو السادس»، نراه في لوحة شكل (١١٦) ويظهر فيها واقفاً في منتصف اللوحة مرتدياً الزى الرسمي الملكى، والوشاح المزخرف حول الجسم والتاج المزين بالؤلؤ ويمسك كرة في يده اليسرى وفي اليد اليمنى كيس صغير مملوء بالتراب ومغلف بالحريز وهو رمز للتواضع والغناء. ويغلب عليها أيضاً الجمود الذى سيطر على وقفة الإمبراطور وملامح وجهه وخاصة نظرة عينيه.

وتوجد في لوحة أخرى فوق الباب المؤدى إلى الصحن من الجانب الجنوبي الغربي الذى تظهر فيه العذراء وتحمل السيد المسيح طفلاً، وهى جالسة على العرش ويقف على جانبيها كل من الإمبراطور «قسطنطين» والإمبراطور «جستنيان»، وهذه اللوحة التى نراها في شكل (١١٧) "تعتبر مثلاً نادراً للتصوير البيزنطى حيث الأباطرة السابقين معاً موظفة اللوحة هو تخليد ذكرى مؤسس العاصمة الذى يقدم نموذج للمدينة، ويانى الكنيسة الإمبراطور «جستنيان»، الذى يقدم التصميم الخاص بها" (١).

وبما أن كنيسة آيا صوفيا قد إحتوت على فسيفساء كثيرة تنتمى لمراحل زمنية مختلفة، فقد عثر فيها على لوحتين توضحان مدى التطور الذى وصلت إليه موضوعات التصوير الإمبراطورى خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، نراهما في شكل (١١٨)، وشكل (١١٩)، فالأولى نشاهد فيها السيد المسيح يجلس في وضع جليل على العرش المزخرف باللالئ ومرتدياً عباقته الممتدة ممسكاً بالإنجيل، ويتوسط الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس (١٠٤٢ - ١٠٥٥) يعلوه نقش يسجل اسمه، وعلى يساره الإمبراطورة «زويه»، يملابسها الفاخرة التى إختفى الجزء السفلى منها نتيجة تساقط مكعبات الفسيفساء، ورسمت خلف رؤوسهم الهالات المقدسة وقد تميزت عنهم هالة السيد المسيح المرسوم بداخلها الأضلاع الثلاثة للصليب، "وهذه الصورة تمثل المراسم السنوية حيث الإمبراطور والإمبراطورة يمنحان المال والتبرعات للكنيسة. كما يجدر الإشارة إلى أن رأس الإمبراطور والنقش الذى يحمل اسمه قد تبدل مرة أو مرتين وذلك لأن الإمبراطورة «زويه»، كان لها أكثر من زوج" (٢) وذكر "أيس" رأى المورخ ويتيمور (Whittemore) الذى أشار إلى أن كلاً من الوجه والنقش قد طرا عليهما التعديل للإشارة إلى الإمبراطور

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 162.

(2) Ibid, P. 233.

الجديد وهو قسطنطين التاسع موناكوس، الذي يمثل الزوج الثالث للإمبراطورة<sup>(١)</sup> .

أما اللوحة الثانية فهي تنتمي لفترة لاحقة في عهد « آل كومنينيون ، وتصور الإمبراطورة « إيريني ، تقف جانب العنواء والإمبراطور « يوحنا الثاني كومنينوس ، من الناحية الأخرى في الجناح الإمبراطوري في الممر الجنوبي وهي تحمل نفس الموضوع السابق . وكلتا اللوحتين نفذتا على خلفية ذهبية براقلة .

وهذه الصورة ترتبط بالصورة السابقة فهي مكملة لها حيث تعلن عن الأسرة الكومنينيه\* الحاكمة في ذلك الوقت والتي تمثل خليفة الأسرة المقدونية التي كانت الإمبراطورة « زوية ، آخر من يمثلها . وتعتبر لوحات التصوير الإمبراطوري لهذه الأسرة امتداداً حقيقياً للتقليد الشائع في العهد المقدوني<sup>(٢)</sup> .

وأخر الأمثلة هنا ، والتي تحتوي على موضوعات إمبراطورية وشخصيات دينية ، توجد في كنيسة المخلص في كورا<sup>١</sup> بالقسطنطينية وهي توجد في الممر المؤدى إلى الصالة الأساسية للكنيسة ، وهي تصور « تيودور ميتوشيتس» راعماً أمام السيد المسيح في شكل تقليدي وهو يرتدي عباة فاخرة تشبه في نقوشها وزخارفها ملابس الأتراك الغزاة اللذين ظهروا بعد ذلك في القسطنطينية . ويمسك في يديه نموذج للكنيسة التي رممها ويقدمه للسيد المسيح ، كما نلاحظ القبعة التي تلو رأسه والتي توضح مكانته البارزة في البلاط الملكي والتي يبدو فيها التأثير الشديد بالأساليب الشرقية .

وهذه اللوحة نفذت على أرضية ذهبية خالصة ويحيط بها شريط زخرفي عبارة عن خطوط هندسية مبسطة بالإضافة إلى الإطار الخارجي الأكثر سمكاً والذي احتوى على أشكال الفروع النباتية المجردة ، كما تبين اللوحة شكل (١٢٠) .

وقد ظهرت في نفس الكنيسة بعض الصور الدنيوية التي لا تمثل لوحات منفردة أو مستقلة بل تجدها عبارة عن عناصر تخللت مساحات الفسيفساء العريضة التي تغطي الجدران بها ، مثل التفصيلية التي تصور مدينة الناصرة وتظهر بها مجموعة من

(1) Art of The Byzantine Era, Themes and Hudson . Ltd . London , 1963 , P. 102 .

(2) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 234 .

(\*) عثر على كثير من الصور الإمبراطورية الخاصة بهذه الأسرة في العديد من الكنائس والأديرة وكانت تصور إباطرها منفردين أو في مجموعات وتسجل حروبهم مع النورمانديين والأتراك .

المنازل والبيوت المتجاورة وبعض التلال والأشجار التي تراها في شكل (١٢١) ،  
وتفصيلية أخرى تحتوي على تصوير لطاووس يغلب عليه الطابع الزخرفي يقف بوضع  
جانبي على الحشائش أمام مدخل مبنى معماري وبعض الأشجار ، وهي تمثل أحد الأركان  
في لوحة من لوحات الفسيفساء في الكنيسة حيث أنها تنحصر بين إطارين زخرفيين  
تشاهدهما في أسفل اللوحة ومطعمان بالمكعبات الذهبية ، كما يبدو في شكل (١٢٢) .  
واللوحتان السابقتان تشتركان في الخلفية الذهبية أيضاً .

## ثانياً : الموضوعات الدينية :

كان ظهور هذه الموضوعات له السيادة في أعمال فسيفساء هذا العصر ، وكانت  
تعتبر بمثابة المؤشر الحقيقي لقياس مدى إرتقاء فن الفسيفساء وإزدهاره ، وذلك لأن  
فسيفساء العصر البيزنطي لا تعنى سوى الفن الديني الكنسي .

ونتيجة طبيعية لسيطرة الديانة المسيحية في الإمبراطورية وإعتناق الأباطرة  
لها ، ان امتلات الكنائس بأمر الأباطرة والرهبان بلوحات الفسيفساء التي ترتبط إرتباطاً  
وثيقاً بها ويجب " ان تكون تعبيراً صادقاً عن العقيدة وأن يشكل إختيارها وإنتقاء مواقعها  
تفسيراً تصويرياً للشعائر الدينية وما ترمز إليه من طقوس " (١) . وأصبحت هذه  
الموضوعات خالية من أية تأثيرات من الفن الوثني الروماني ، كما لم تستهدف أيضاً  
الخيال وتعاملت مع الواقع بشكل واضح ، وجعلت من المشاهد جزءاً منها ويدخل في حيز  
قداستها من خلال الترتيب الهرمي للكنيسة التي تمثل هذا العالم .

ولم يظهر التصوير الديني في القرون البيزنطية الأولى بوضوح ، ولم يكن هناك  
ما يعوق إنتشار هذه النوعية من الموضوعات سوى فترة التحريم التي أثرت تأثيراً كبيراً  
على ظهورها وإزالة الكثير منها ، ولكن سرعان ما تم التغلب على هذه الصعوبات بفضل  
جهود الأباطرة والفنانين وبعض الرهبان المؤيدين للصور في منتصف القرن التاسع  
الميلادي ، كما يقول الدكتور « ثروت عكاشة » حتى تم لهم " القضاء الحاسم في عام ٨٦١  
وأخذ التصوير الديني يعود أدرجه إلى الكنائس بعد ان كان محرماً ، وعادت من جديد  
فكرة البابا « جريجوريوس » الأكبر من أن الصور الدينية في الكنائس يغنى بها الأسمى  
بالنظر إليها عن الكتب التي لا حيلة له في قراءتها مما كان له أكبر الأثر في مسيرة الفن

(١) ثروت عكاشة ، تاريخ الفن ، الفن البيزنطي ، الجزء الحادي عشر ، دار سماد الصباح ، القاهرة ، ص ٢١٦

الدينى " (١) . وقد ظهرت محاولات لتصوير هذه الموضوعات ولكنها تمت بحذر شديد وانقسم الفنانون فى ذلك إلى قسمين أحدهما كان لا يحدد أى إثارة أو إحياء لحركة التخطيط السابقة ، والقسم الآخر من الفنانين كان يرى ويفضل التمهّل فى تنفيذ وإخراج الأعمال الفنية مما ساعد على تبلور فن الفسيفساء وتنمية المهارات الفردية والجماعية لديهم .

ويفسر الدكتور ، داود عبده داود ، ظهور هذه الموضوعات بأنه كان " هناك بعض العوامل التى ساعدت على تناولها بهذا الكم ، أحدهما كان الإتجاه الجديد فى التصوير الإمبراطورى ، فبعد أن أصبح الأباطرة والرهبان يصورون مع السيد المسيح والعذراء ، لم يعد هناك أية محظورات تقيد أو تمنع تصوير هذه الشخصيات ، وأصبح مباحاً بعد ذلك بل كان من القريب عدم ظهور هذه الموضوعات الدينية الخالصة فى أى من الكنائس البيزنطية خلال هذا العصر ، كما ساعدت عمارة الكنائس ؛ وبالأخص العمارة الداخلية لها سواء فى الجدران والقباب والمعقود والقبوات والحنفيات على تعدد واختلاف نوعية الصور فى الموضوعات نفسها ، فكانت لكل صورة مكانها المخصص لها لتظهر أهميتها كاملة ولتدل على فكرة معينة " (٢) . وكانت هذه إحدى السمات المميزة لأسلوب زخارف الفسيفساء فى القرن التاسع الذى يمكن التعرف عليه من خلال الأطلال الباقية ، وهى تشير إلى بعض الصور التى لها علاقة بالطراز المعماري فى الكنائس ، وكان الفنانون فى بادئ الأمر أكثر ميلاً إلى تنفيذ الصور الفردية للشخصية الواحدة بدون مناظر أو أية مجموعات مكتملة ، وعلى سبيل المثال ، نرى صورة مستقلة للعذراء تحمل المسيح طفلاً على خلية خالية تماماً ، وهى تجلس على العرش ، كما فى شكل (١٢٣) ، ويجب الإشارة إلى أنه " فى الفترة من القرن التاسع إلى الحادى عشر الميلادى ، أصبحت العذراء تصور وحدها فى محارة المحراب الذهبية " (٣) .

وكانت صور الموضوعات الدينية توضع حسب أهميتها فى ترتيب تنازلى داخل الكنائس البيزنطية فى العصور الوسطى ، وكانت هذه الموضوعات مقسمة إلى ثلاث مناطق ، المنطقة الأولى عند الجزء العلوى للكنيسة تتضمن صور مقدسة عديدة ومركز القبة المركزية مخصصاً لتصوير السيد المسيح فى هيئة الحاكم الإلهى ، بينما تجويف

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٢) الفن البيزنطى ، محيط الفنون - الفنون التشكيلية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ١٦٨ .

(3) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul , Trench , Trubner, London , 1941 , P. 21.

الجانب الخارجى البارز مخصص لتصوير العذراء والمنطقة الثانية منخفضة فى بنيان الكنيسة ومليئة بالمشاهد عن حياة السيد المسيح المصورة على الدعائم التى تحمل القبة الأساسية ، والمنطقة الثالثة السفلية التى تحتل القباب والجدران العلوية تتضمن صور القديسين تبعاً إلى تقويم الكنيسة ( أعياد القديسين ) . وقد تباين توزيع هذه المناطق وطراً عليها بعض التعديلات والإضافات التى تتناسب وحجم الكنيسة والمساحات الداخلية بها .

ولم يكن هناك أنسب من الأسلوب القصصى الروالى ملاءمة للفسيفساء التى غطت هذه المساحات الشاسعة من الكنائس، وأصبح هذا الأسلوب بمثابة " العنصر السائد فى التصوير خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين " (١) . وقد سبق ظهور هذه النوعية من التصوير الروالى وخاصة فى الفنون المسيحية المبكرة وكانت تعتبر تقليداً شائعاً فى فترة ما قبل التحطيم ، ولكنه قد تعرض لبعض التعديلات ، مثل إختزال بعض التفاصيل الروائية بدلاً من السرد التفصيلى الممل للأحداث والقصص الدينية ، ولم يقتصر هذا الأسلوب الروالى على قصص من الكتاب المقدس بل كان وسيلة لوصف مشاهد من إحتفالات وأعياد ومناسبات دينية تقام فى الكنيسة .

وقد إعتمد على هذا الأسلوب فى تزيين كنائس القسطنطينية وبعض كنائس أخرى فى أقاليم داخل أنحاء الإمبراطورية ، وأوضح الأمثلة التى ظهرت فى العاصمة نجدها فى كنيسة آيا صوفيا التى إحتوت على صور للعذراء والمسيح الطفل فى المحراب ، والسيد المسيح الحاكم الأعظم وحوله الملائكة ومشاهد تصور تحطيم اللوحات الخاصة بالأنبياء والقديسين عند الجانب الشمالى والجنوبى إلى جانب صورتين تمثلان عيد الحصاد اليهودى والتعميد فى الممرات المقبية وفى التجاويف عند قاعدة كل عمود يوجد صور من آباء الكنائس .

كما وجدت هذه الموضوعات فى كنيسة الحواريين المقدسين وقد تضمنت العديد من المشاهد الإنجيلية ووجوه الحواريين وفى مركز القباب صور الحاكم الأعظم والصلب وعيد الفصح والتجلى وصعود السيد المسيح . والموضوعات السابقة المختلفة تنتهى للصور الإحتفالية التى تمثل الأسلوب الروالى ويضاف إليها مشاهد الميلاد والتعميد والخيانة وصعود إيعازر والدخول إلى القدس وهذه الأمثلة قد تكرر ظهورها فى كنيسة تيوتوكوس فى القصر الإمبراطورى بالقسطنطينية .

(1) Lyn Rodley, *Byzantine Art and Architecture*, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 160 .

أما خارج العاصمة فقد عثر على لوحات فسيفساء تحمل هذه الموضوعات الدينية الإحتفالية في كنائس كل من سالونيك وثيقه وكبادوكيا .

والقرون التالية شهدت تطوراً ملحوظاً في فسيفساء الكنائس وتبلورت هذه الموضوعات بشكل أوضح ، وعرفت هذه الفترة بفترة الإحياء \* الفن لخامة الفسيفساء والتي ازدهرت فيها أعمال الفسيفساء عن ذي قبل ، ولكن معظم الآثار الخاصة بهذه الفترة زالت وخاصة في القسطنطينية ، ويمكن التعرف على هذه الآثار والأعمال من خلال اللوحات التي عثر عليها في كنيسة هوزيوس لوكاس ، باليونان ، وفي بعض الأديرة والكنائس في مدينة دافني بالقرب من أثينا ولوحات كنيسة نيامون في جزيرة خيوس ، فجميعها تحمل كثيراً من فن العاصمة وتقترب منه إلى حد كبير وإلى جانب المراكز الهامة خارج العاصمة ، فقد وجدت أعمال فسيفساء تنتمي إلى هذه الفترة في كنائس كل من ثيقه وكبادوكيا وقبرص والبلقان ولا تزال بحالة جيدة .

وتميزت موضوعات هذه الفترة " بالزيادة في عدد المناظر والصور التمثيلية في المحارب المقدسة - مع بداية القرن الحادي عشر - وتناسب تناسباً طردياً مع الزمن ، وأدى ذلك إلى الإنحلال التدريجي للنظام المتشدد وازداد ثراء التصميمات وقل عدد صور الشخصيات الفردية ، ففي كنيسة هوزيوس لوكاس - نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلادي - كانت تحتوي على أكثر من مائة وخمسين صورة ، أما كنيسة دافني - وهي تنتمي لنهاية القرن الحادي عشر الميلادي - فقد وصل عدد الصور فيها إلى أقل من خمسين صورة <sup>(١)</sup> . وقد تماثلت أعمال الفسيفساء في الكنائس السابقة في الأسلوب من حيث تألف الفسيفساء مع المسطحات المعمارية في الكنائس وانتقاء الأماكن المناسبة للوحات التي كانت تتبع نظام التخطيط الطبقي الذي يضم الصور الرسمية للمستويات الإلهية مع عدد قليل من الأعمال التي تصور الإحتفالات الهامة في الكنيسة .

وهناك بعض الأمثلة من هذه الموضوعات وجدت في كنيسة هوزيوس لوكاس ودير دافني، كما نرى في شكل (١٢٤) الذي يصور ميلاد السيد المسيح - في كنيسة هوزيوس لوكاس - وعادة تصور العذراء في هذا الموضوع مستلقية على فراش بجانبها المسيح المولود وموضوع في فراشه الذي يتخذ الشكل المستطيل ومبنى بالطوب وذلك المشهد ( العذراء والسيد المسيح ) مصوراً أمام فتحة الكهف ، في حين يجلس يوسف النجار على الجانب

(\*) هذه الفترة بدأت في القرن الحادي عشر الميلادي مع مجيء الأسرة المقدونية .

(1) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941, P.56.

الأيمن وينظر إلى الملائكة في السماء ، كما يلتفت مجموعة من الرعاة حول العذراء ينظرون أيضاً إلى الملائكة في إنتظار البشارة ، ويسقط شعاع النور من السماء - المشار إليها بتصف دائرة مرسومة أعلى اللوحة - فوق السيد المسيح ، وكذا تتجه أنظار الأشخاص جميعها إليه دلالة على أهميته فهو أساس العمل بأكمله ، وينبغى الإشارة إلى أن " عملية إحمام الطفل التي تقوم بها المربيات في يمين اللوحة من الملامح الأساسية في الميلاديات البيزنطية " (١) .

وعلى القباب الجانبية أسفل القبة الرئيسية مباشرة ، نشاهد لوحة أخرى تصور موضوع صلب السيد المسيح ، كما في شكل (١٢٥) ، حيث ينتصف الصليب الكبير المساحة المصورة ويظهر فوقه السيد المسيح مثبتاً بواسطة مسامير الصلب في كلتا يديه وقدميه حيث نرى الدماء تسيل منهم جميعاً ، ويقف كل من العذراء على يمينه والقديس يوحنا على يساره ، وفيما عدا هؤلاء الأشخاص الثلاثة تظهر بعض الرموز مثل القرصين الصغيرين فوق رأس السيد المسيح ، واللذين يمثلان الشمس ذات اللون الأحمر والقمر الذي يتخذ اللون الأزرق الفاتح ، كما توجد جمجمة ترمز لأدم أسفل قدمي السيد المسيح في قاعدة اللوحة : وموضوع الصلب هنا يعتبر من الأمتلة التي تعرض لها الفنانون ، ويقدم القرن السادس الميلادي بدأ ظهوره بشكل متكرر بالرغم من تردد البعض في تصوير السيد المسيح على الصليب " (٢) .

ويوجد نموذج آخر في دير دافني يصور موضوع التجلي ، كما نرى في شكل (١٢٦) فيظهر السيد المسيح فوق هضبة مرتفعة في الوسط و على يمينه النبي إيليا المصور في سن متقدمة ، أما على اليسار فقد صور النبي موسى شاباً صغيراً ، ويقف كل منهما على هضبة مرتفعة أيضاً ، وفي أسفل توجد ثلاث شخصيات في حالة تضرع وخوف وقلق وهم القديس بطرس في اليمين والنبي يعقوب صور أسفل السيد المسيح ، وعلى اليسار القديس يوحنا ، ويحيط بجسد السيد المسيح ثلاث هالات بيضاوية الشكل تتخذ درجتين من اللون الأزرق الداكن ، والخارجية تنفذ باللون الفضي وتخرج من جسده أشعة مضيئة تتخذ الألوان الذهبية والفضية .

ويبقى مثال آخر في نفس الدير لا ينتمي لصور الإحتفالات ، ولكنه يعتبر خير نموذج للتوافق المثالي بين العمارة والفسيفساء ، فكما نرى في شكل (١٢٧) صورة

(1) Dalton , Byzantine Art and Archaeology , Clarendon Press , Oxford , 1911 , P. 654 .

(2) Ibid , P. 658.

تصفيه للسيد المسيح الحاكم الأعظم في القبة ويمسك الإنجيل بيده اليسرى واليد اليمنى مرفوعة قليلاً وهي تعنى متحه البركة لأهل الأرض ، وهو يظهر ملتجئاً وتحيط برأسه هالة يتوسطها أضلاع الصليب ذات اللون الفضى محاط به إطار دائرى ومنفذ على خلفية ذهبية اللون ، وقد تساقطت معظم أجزائها ، وعند الإتجاه إلى اسفل عند حواف القبة نرى مجموعة من الشخصيات المقدسة التي يفصل بينها مساحات طولية يرجح أن تكون هذه الفتحات النوافذ الخاصة بها .

وقد رسم السيد المسيح في حجم مهيب ، ويحتل مساحة كبيرة ، ولنا أن نتخيل الحجم المرسوم به إذا علم " أن قطر العين الواحدة فقط يبلغ عشر بوصات \* (١) . وقد اضيفت إلى سلسلة الإحتفالات الدينية السابقة مجموعة جديدة من هذه الموضوعات مثل موضوع العشاء الأخير وغسيل اقدام الرسل ، وخيانة يهوذا - سبق رؤيته في شكل رقم (٤٧) - والنزول من الصليب ، وعبادة المجوس ، والهروب إلى مصر ، وقد استمر ظهور هذه الموضوعات السابقة في القرون الأخيرة للعصر البيزنطى .

وأروع الأمثلة التي تحتوى على كم هائل من هذه الموضوعات تجدها في كنيسة كورا (Chora) \*\* ، حيث عثر فيها على مجموعة كبيرة من الصور القصصية التي تصور العذراء تعرض صوراً للسيد المسيح في طفولته " ومجموعة صور من خلال ثمانية عشر مشهد ابتداء من تصوير حلم يوسف إلى تصوير السيد المسيح في عيد الفصح " (٢) . وقد انفردت صورة العذراء والمسيح الطفل بإحدى القباب الداخلية بهذه الكنيسة يحيط بها ملوك إسرائيل الذي إتخذ كل ملك منهم مساحة خاصة به يوصلها عن الأخرى اطر زخرفية حمراء اللون تتخللها اشربة ذهبية ، كما يبدو في شكل (١٢٨) ، وهذه تعتبر حالة فريدة من نوعها بالنسبة لتصوير العذراء في القبة ، حيث كانت مخصصة للسيد المسيح الحاكم الأعظم ، وقد وضعت صورته في القبة الجنوبية للكنيسة.

(1) P. B. Hetherington, Mosaics, Paul Hamlyn , London, 1967, P. 35.

(2) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 300 .

(\*) البوصة ، وحدة للقياس وهي تعادل إنشين ونصف من الستينيات .

(\*\*) كانت تسمى Kariye Djamil أو Kariye Camil ثم تحولت إلى مسجد في عهد الأتراك .

والنظام الفنى لهذه الكنيسة يعتمد على إنثنين من الموضوعات أولهما موضوع البحث وهو تصوير جدارى ويمد من الحقل الأعمال المميزة في العصر البيزنطى ، والثانى فسيفساء يصور تجسيد العذراء التي انفردت بصورتها في إحدى القباب الداخلية ، وكان الدمج بين لوحات الفسيفساء ولوحات التصوير الجدارى المنفذة بخامة الفريسك في الكنائس من السمات المميزة لهذا العصر .



وهناك مثال آخر يدور حول العثور في طفولتها ، في لوحة شكل رقم (١٢٩) وتوجد في إحدى القباب الجانبية أسفل القبة مباشرة ، وهي تحتوي على مجموعة من القديسين والقساوسة اللذين يلبسون البركة من العذراء الصغيرة التي نراها على يسار اللوحة من أسفل وخلف رأسها رسمت الهالة المقدسة هي ومن يحملها ، وتظهر خلف الأشخاص البوابة ذات الأعمدة الكورنثية ، ومن ورائها الأشجار ، " وهي تمثل التطور الهام في فن القسيسة في القرن الرابع عشر الميلادي حيث بدأت الأشكال المعمارية والزخرفية تحل محل الخلفية الذهبية " (١) . وفي الجانب المقابل توجد مجموعة من الأشخاص يرجح أن يكون من بينهم العذراء من الهالة التي تحيط برأسها ، ومجموعة من المبانى المعمارية والأشجار والطوائس ، وهذه اللوحة تتخذ مساحة شبه مربعة ينحني كل ضلع من أضلاعها إلى الداخل ويحيط بها من الخارج شريط زخرفي من الألوان الأزرق والأحمر والذهبي ويغلب اللون الأزرق عليها ، وفي الوسط رسمت دائرة تحتوي على مجموعة من الأطر الزخرفية ذات الطابع الهيلينستي .

كما نفذت بعض المشاهد التي تصور معجزات السيد المسيح مثل شفاء المرضى والعاجزين ومساعدة المحتاجين كما يتضح من شكل (١٣٠) ، وقد تكرر ظهور هذه الأعمال في كنيسة فيتي كامي (Fetiye Camii) التي اشتملت على العديد من الصور الدينية الإحتفالية التي لم يتبق منها سوى لوحة التعميد وصورة السيد المسيح الحاكم الأعظم في القبة الذهبية ، كما يبدو في شكل (١٣١)، (١٣٢) حيث تظهر القبة كاملة في الشكل الأول وصورة السيد المسيح في الشكل الثاني ( التفصيلية ) .

أما خارج القسطنطينية فهناك بعض الأمثلة التي يتضح فيها فن العاصمة وتشبهه تماماً مثل نظام زخارف الفسيفساء في كنيسة الحواريين المقدسين في سالونيك ، فهي تتطابق في أسلوبها وترتيبها مع الصور المنفذة في كنيسة كورا بالقسطنطينية ، فهي تحتوي أيضاً على تصوير الحاكم الأعظم في القبة والأنبياء في أسفل وصور الإنجليين على الدلايات ، ومجموعة من الصور الإحتفالية في القبة المحيطة .

وبالرغم من اشتراك كنائس الإمبراطورية في هذه الموضوعات الدينية وتوحيدها ، إلا أنها تختلف وتباين في بعض التفاصيل فلا توجد لوحة تشبه الأخرى وذلك حسب أساليب المراسم الفنية والتطور الفني لها .

(1) Henri Stierlin, Orient Byzantine, De Constantinople à l'Armenie et de Syrie en Ethiopie, Office du Livre, S.A. Fribourg (Suisse), 1988, P. 207 .

" وهذه المشاهد التي تصور السيد المسيح والعذراء تعتبر عنصراً أساسياً في زخرفة الكنائس في عهد باليولوجوس ، كما أن إتحاد الصور الدينية الإحتفالية مع الصور الروائية يمثل سمة قياسية للزخرفة في كنائس هذا العصر " (١) .

### ● اللوحات الصغيرة :

وكما ظهرت الموضوعات الدينية في لوحات الفسيفساء ذات المساحات الكبيرة والمنفذة على جدران الكنائس مباشرة ظهرت أيضاً في نوعية جديدة من الأعمال وهي عبارة عن لوحات مستقلة يمكن نقلها من مكان إلى آخر ، وعادة كانت توضع في الكنائس وقد إقتبست فكرتها من الأيقونات الخاصة بصور القديسين التي كانت سبباً في إثارة حركة المناهضة قديماً ، وقد عثر على أمثلة من هذه اللوحات المتوسطة الحجم تصور العذراء والسيد المسيح ، والثانية تصورها وحدها ، وكلتاهما لا تزيد مساحتهما الكلية عن المتر المربع الواحد\* .

ومع بداية القرن الثاني عشر الميلادي تطورت هذه اللوحات وصغر حجمها بشكل ملحوظ ، حتى أن معظم هذه الصور لا يصل ارتفاعها إلى خمسة وعشرين سنتيمتراً بل يقل عنه " (٢) . وقد عثر على لوحات كثيرة منها تحمل نفس الموضوعات السابقة التي تصور الإحتفالات الدينية والتي إختفى فيها ظهور القصص الروائية .

ولوحة السيد المسيح المتوفى التي ذراها في شكل (١٣٢) تشير إلى اللحظة التي أعقبت النزول من الصليب حيث نشاهد آثار المسامير على يديه والتي قد استخدمت في تثبيته على الصليب ، وبالرغم من ظهور بعض العضلات في جسده إلا أنه يبدو عليه الضعف والهزال<sup>٣</sup> وقد ظهرت بعض الحروف الذهبية التي نقشت فوق الصليب وهي تمثل إسم هذا النوع من الصور البيزنطية " (٣) . ولا يتضح لون الخلفية ذهبى أم فضي وقد

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 301 : 309 .

(2) Ibid . P. 321 .

(3) Carlo Bertelli, General Editor, The Art of Mosaic , Xavier Barral et al, Mosaic Vaults and Floors in Islam and West, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989, P. 163 .

(\*) تبلغ مساحة الأولى ٦٠ × ٨٥ سم ، توجد في كنيسة ماري ياماكارستوس ، ولترجع للقرن الحادي عشر ، والثانية مساحتها ٩٥ × ٦٢ سم ، وهي محفوظة في المتحف البيزنطي في رافينا ، وترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي .

تساقطت أجزاء كثيرة منها ، وهذه اللوحة محاطة بإطار فضى بالغ الروعة ويحتوى على فروع متكررة من أوراق الأكانتوس الدائرية التى تتخللها أشكال الطيور والحيوانات ، كما نرى من بينها أشكال هندسية بداخل بعضها يظهر الصليب .

ومن بين الموضوعات التى صورت فى هذه اللوحات المصغرة ، موضوع الصليب والتجلى والبيشارة بصورة مستقلة ، وفى بعض الأحيان ظهرت مجموعة من الموضوعات فى لوحة واحدة، وأوضح مثال على ذلك لوحة الكتابة التى تتضمن جناحين أيمن وأيسر وكل جناح يضم ستة إحتفالات دينية مختلفة .

وموضوع البشارة نراه فى شكل (١٣٣) ، " وهو يعتبر من أفضل الأعمال الدينية التى تماثل فى أسلوبها الفسيفساء الجدارية فى كنيسة المخلص نظراً إلى الوجوه المطولة والقامة الطويلة والخلفية المتقنة والوضع الدقيق للملاك والميل إلى التفاصيل " (١). والشكل المعماري المرسوم فى الخلفية على الأرضية الذهبية والشعاع الخارج من الجزء النصف دائرى المرسوم فى أعلى اللوحة والذي يرمز إلى السماء ، يشبه فى ذلك موضوع الميلاد فى كنيسة هوزيوس لوكامس شكل (١٢٤) .

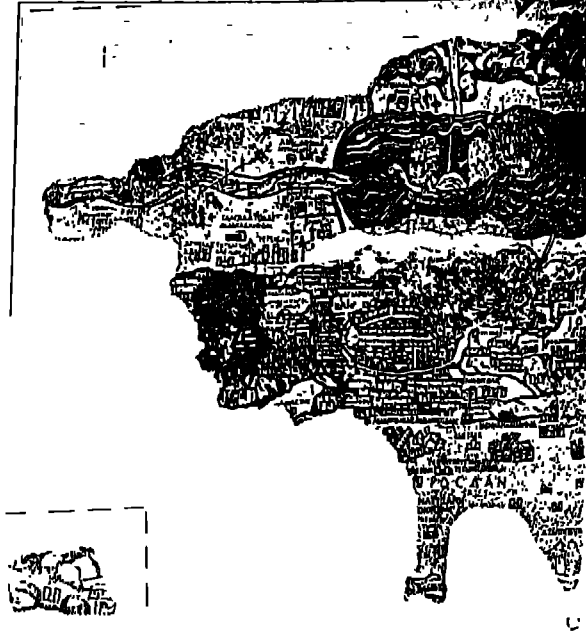
أما صورة لوحة الكتابة نراها فى شكل (١٣٤) الذى يصور الجناح الأيسر منها ويتضمن مشاهد من حياة السيد المسيح وهى مقسمة إلى ستة أجزاء يحمل كل جزء منها موضوع دينى يختلف عن الآخر وهى على التوالى: موضوع الصليب ، الدخول إلى القدس ، صعود السيد المسيح ، تصوير مدينة الأموات ( الجحيم ) ، وفاة العذراء ، العشاء الأخير ، ويعرض الجناح الأيمن صور الموضوعات الآتية : الميلاد و البشارة والتعميد والدخول إلى المعبد وصعود إليمازس والتجلى، وكلا من الجناحين محاط بإطار فضى اللون ومنقوش بزخارف بديعة ، ويشير "لاين رودلى" إلى أن " إعداد الأطر الفضية ودقة زخارفها بهذا الشكل، يرجع إلى أن القسطنطينية كانت مركز التميز الفنى " (٢) .



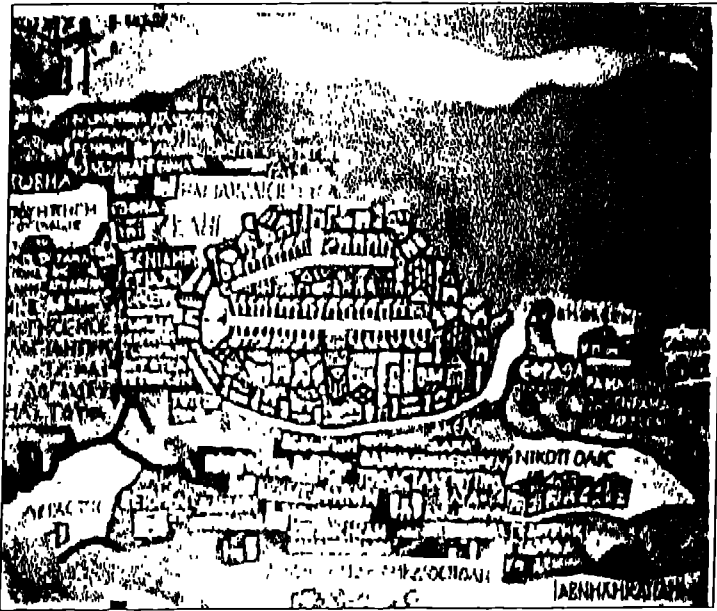
(1) David Talbot Rice, Art of The Byzantine Era, Thames and Husdon, Ltd., London, 1963, P. 235.

(2) Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 339 .



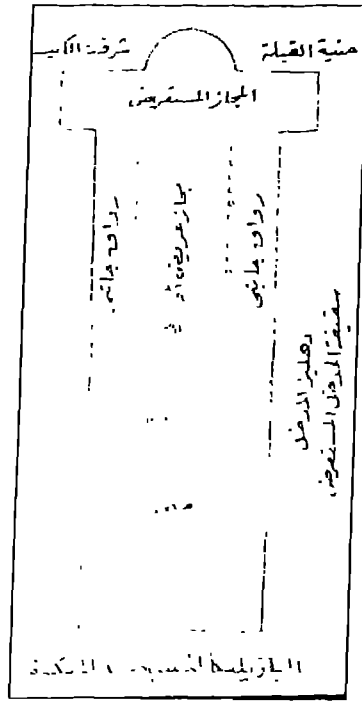


شكل رقم (٨١) (من أعلى لأسفل) ساحل البحر المتوسط ، البحر الميت ، جزء من مجرى الأردن ، مدينة القدس - فسيفساء الخريطة - (تفصيلية) من أرضية كنيسة مار جرجس مادبا - الأردن - القرن السادس الميلادي .

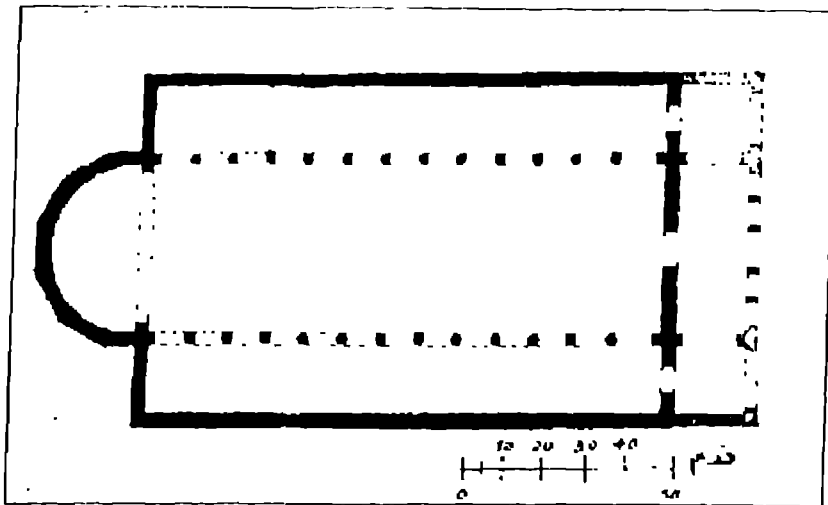


شكل رقم (٨١-أ) مدينة القدس - (تفصيلية) فسيفساء الخريطة .





شكل رقم (٨٢) رسم تخطيطي للبازيلكا المسيحية القديمة .



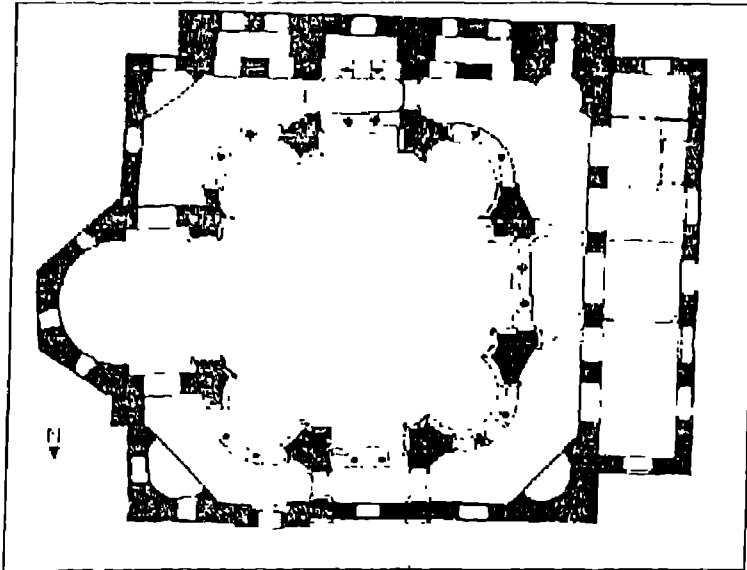
شكل رقم (٨٣) مسقط أفقي لكنيسة القديس أبولينار الجديد قرأتينا .





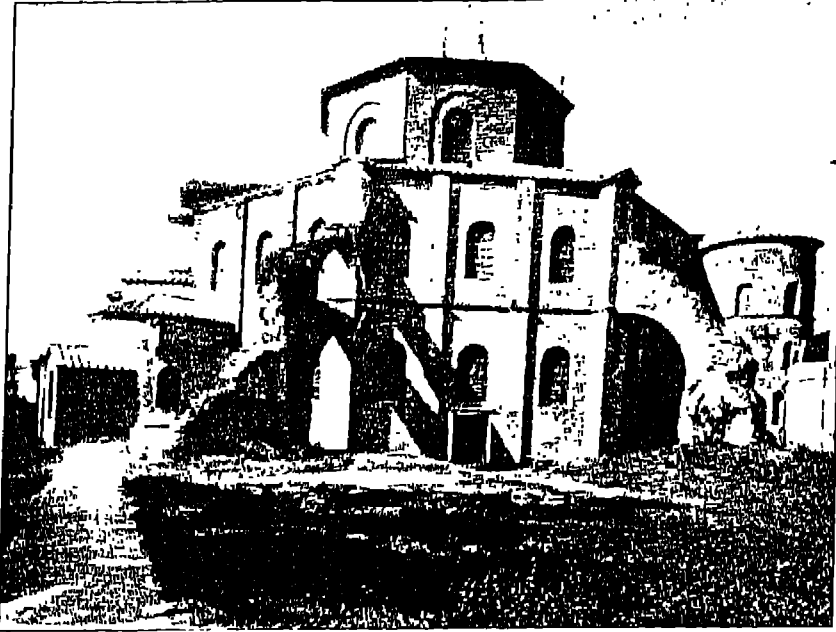


شكل رقم (٨٤) منظر داخلي للصحن ومنطقة المذبح - كنيسة القديس أبولينار الجديدة - رافينا

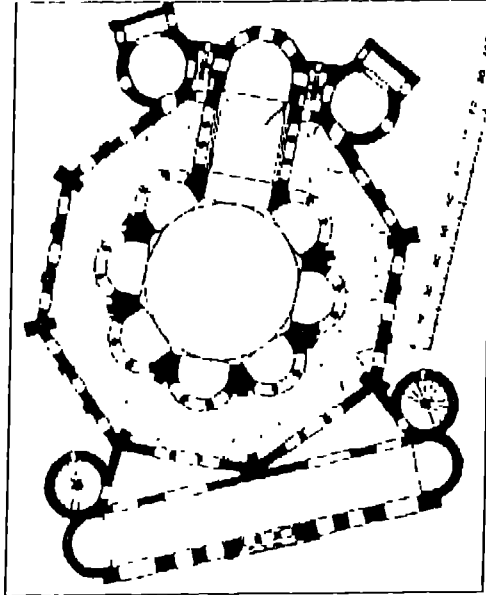


شكل رقم (٨٥) مسقط أفقي لكنيسة القديسين سرجيوس وياكوس - القسطنطينية .



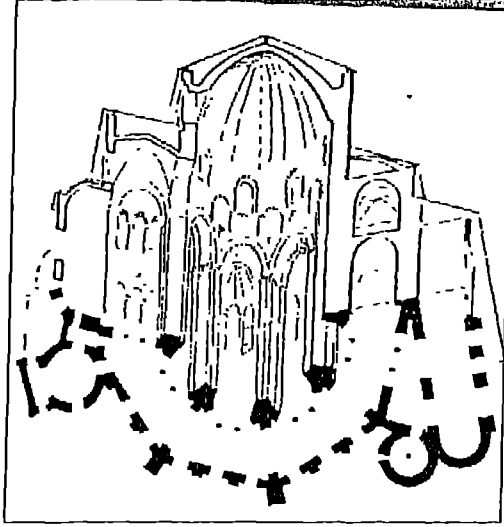


شكل رقم (٨٦) منظر خارجي لكنيسة القديس قيثال - راقينا .

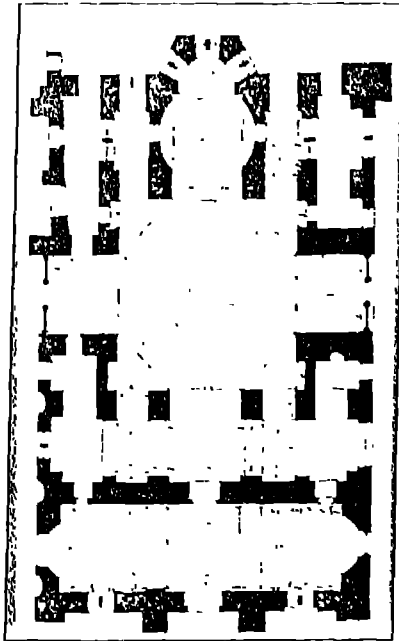


شكل رقم (٨٧-أ) مسقط أفقي لكنيسة القديس قيثال .



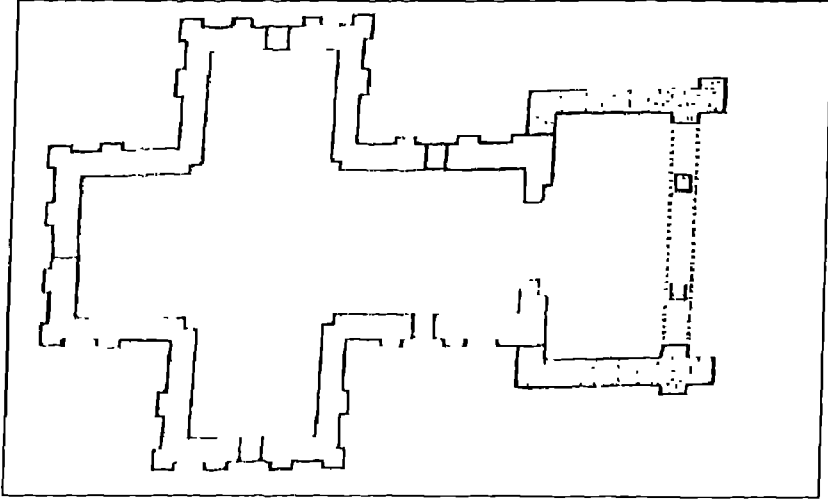


• شكل رقم (٨٧-ب) قطاع طولى لكنيسة القديس فيثال .

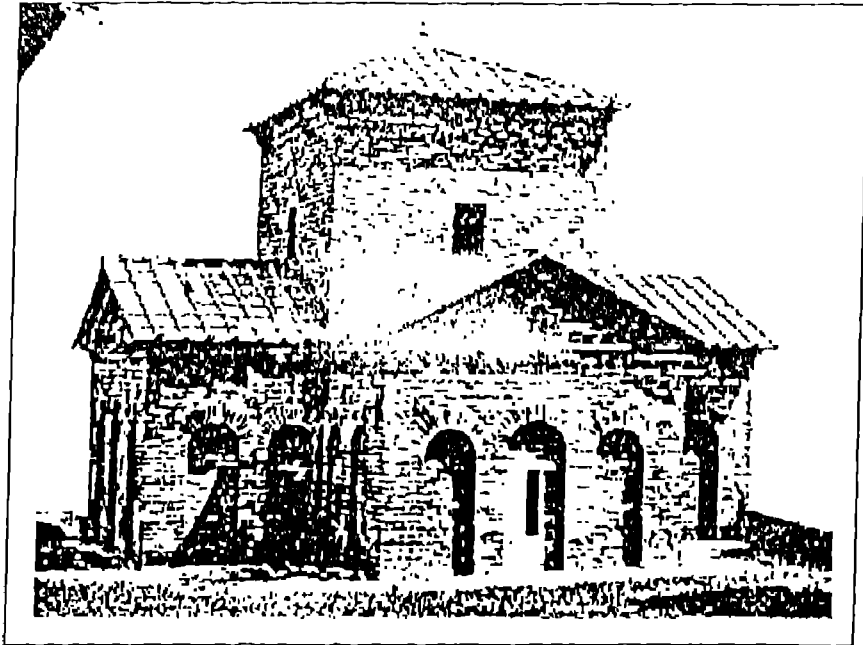


• شكل رقم (٨٨) مسقط أفقي لكنيسة هوزيوس لوكاس - التخطيط الصليبي المثلث .





شكل رقم (٨٩-أ) مسقط أفقي لضريح چالابلاسيديا - راقينا - التخطيط الصليبي المتساوي الأضلاع.

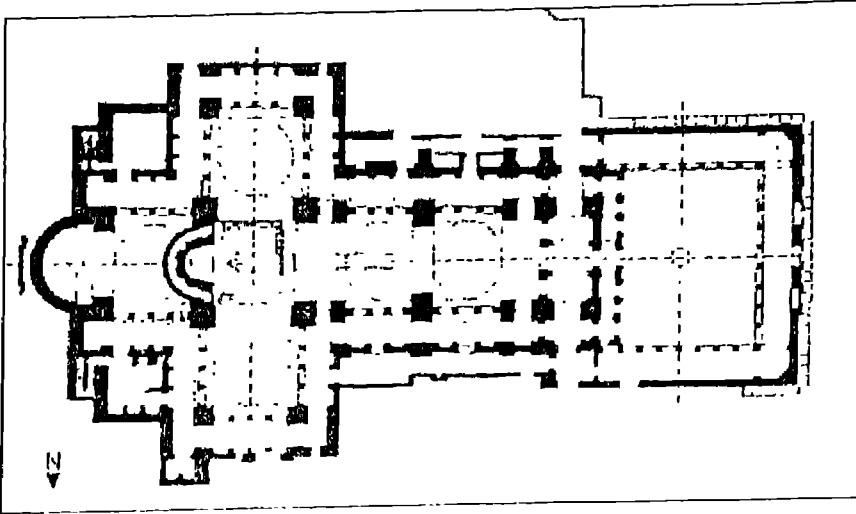


شكل رقم (٨٩-ب) منظر خارجي لضريح چالابلاسيديا - راقينا .

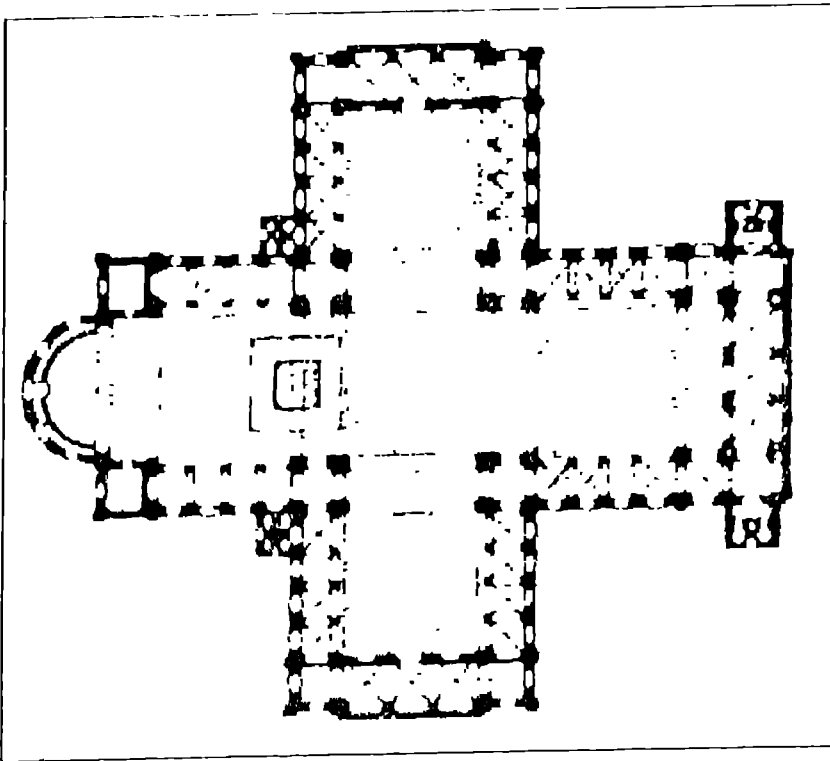




-٢٠٩-

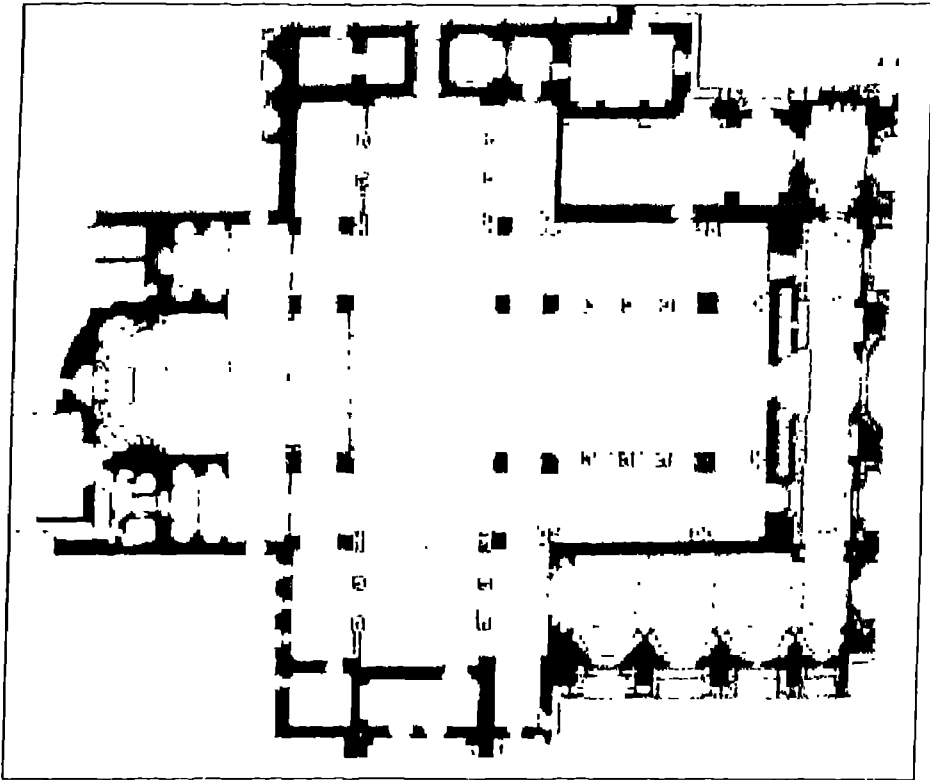


شكل رقم (٩٠) مسقط أفقي لكنيسة القديس يوحنا في إفسوس - التخطيط البازيليكي المقبب .



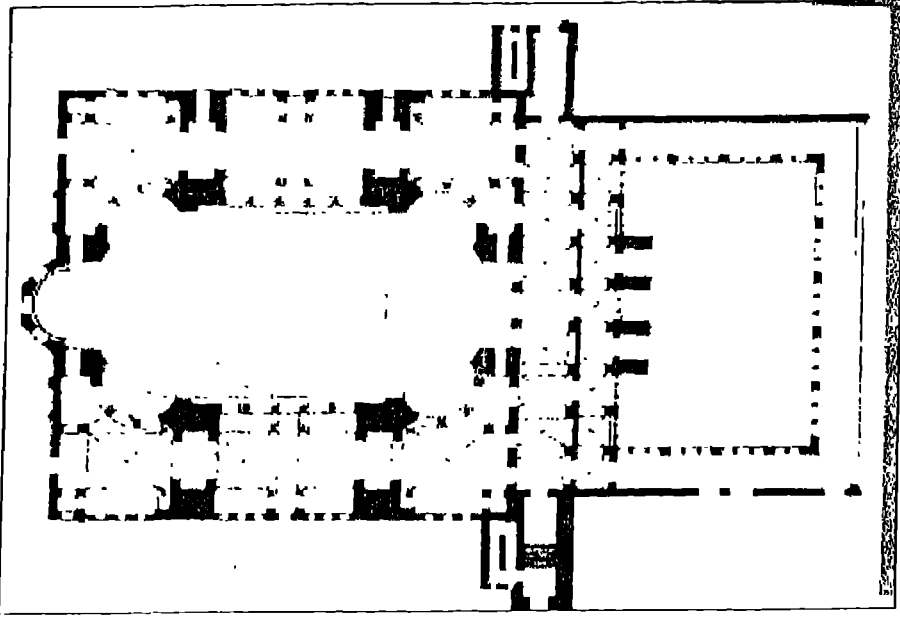
شكل رقم (٩١) مسقط أفقي لكنيسة الرسل المقدسين بالقسطنطينية - التخطيط الصليبي المقبب .



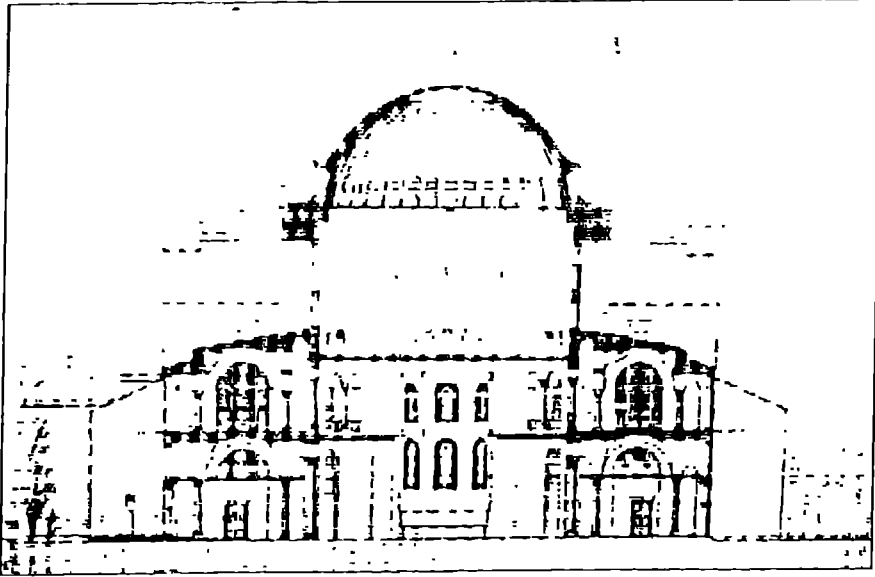


شكل رقم (٩٢) مسقط أفقي لكنيسة القديس مرقس - تينيسيا - الطراز المقيب •



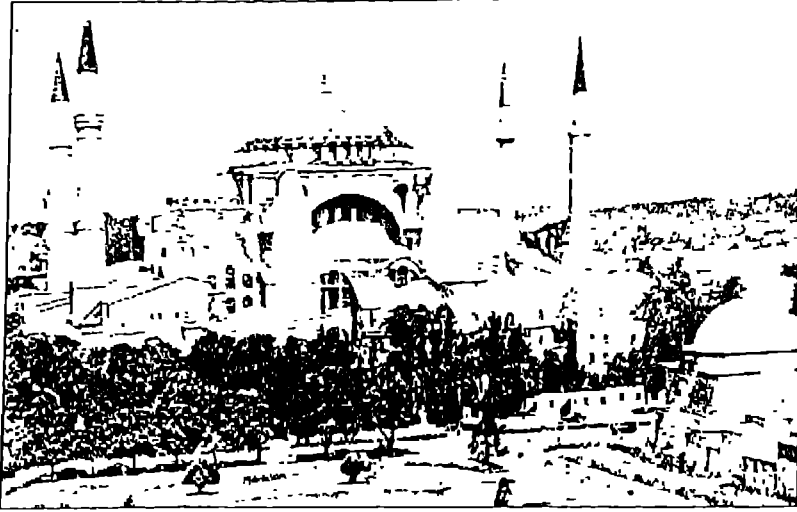


شكل رقم (٩٣-أ) مسقط أفقي لكنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية.



شكل رقم (٩٣-ب) قطاع عرضي لكنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية.





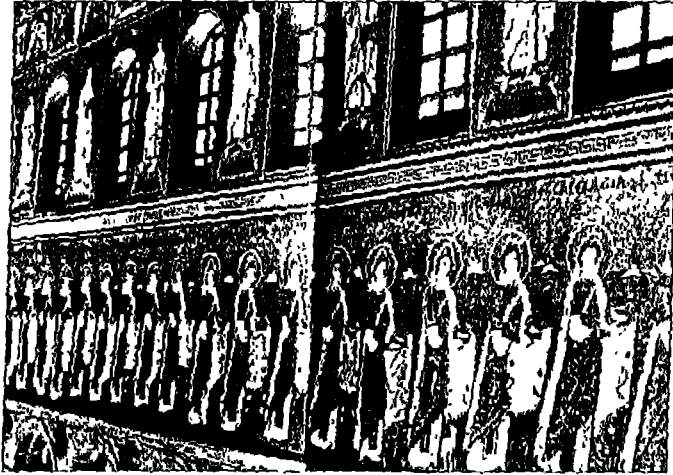
شكل رقم (٩٣- ج) منظر خارجي لكنيسة آيا صوفيا - بالقسطنطينية .



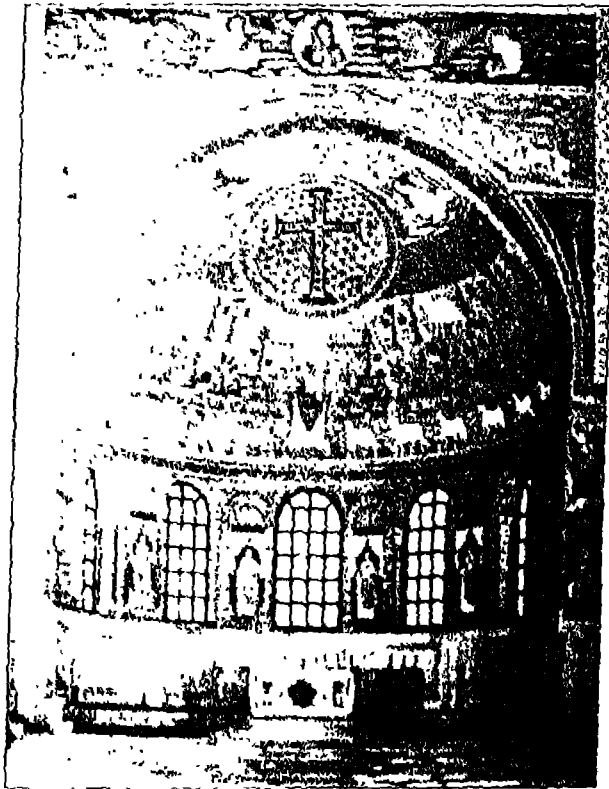
شكل رقم (٩٤) زخارف الفسيفساء بالمعمودية الأرثوذكسية - راقينا - القرن الخامس .





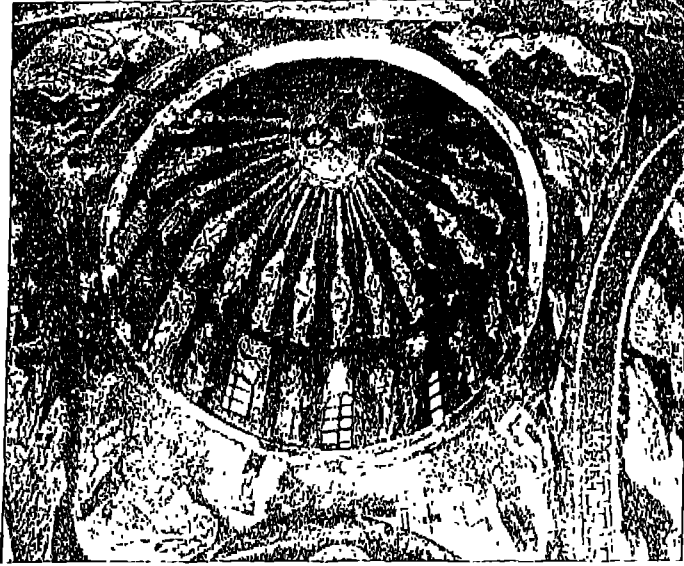


شكل رقم (٩٥) فسيفساء المجاز الأوسط - الجدار الشمالي - كنيسة القديس أبولينار الجديدة  
راقينا - القرن السادس الميلادي .

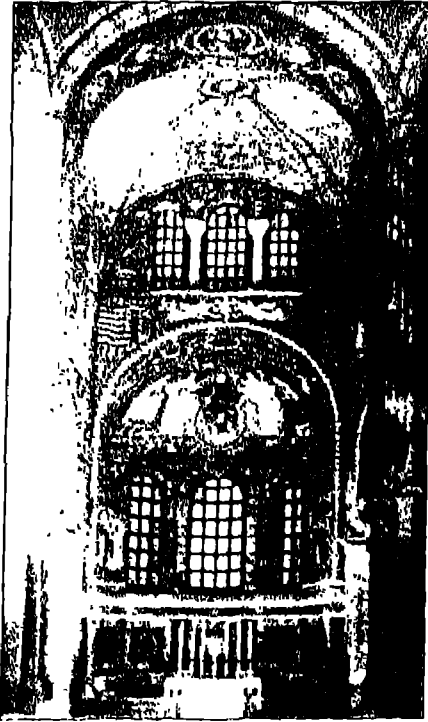


شكل رقم (٩٦) فسيفساء الحنية وقوس النصر - كنيسة القديس أبولينار في كلاس  
- راقينا - القرن السادس الميلادي .



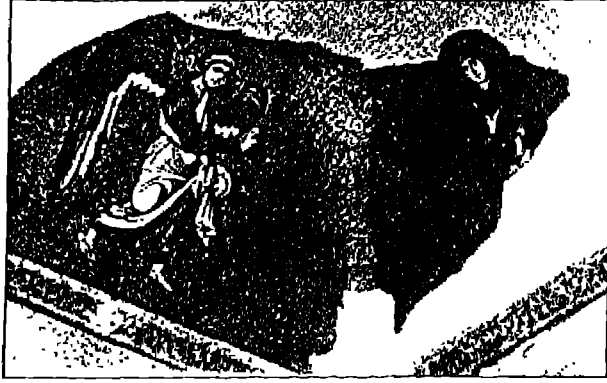


شكل رقم (٩٧) فسيفساء القبة والدلايات - كنيسة المخلص - القسطنطينية .

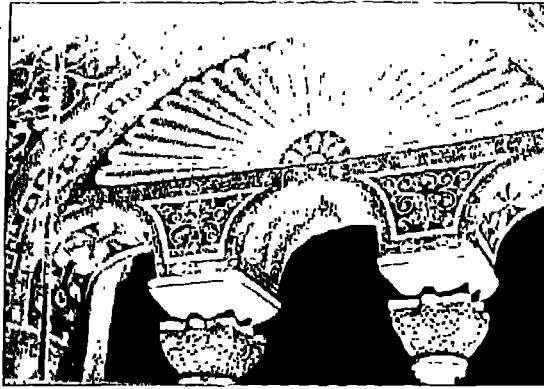


شكل رقم (٩٨) فسيفساء القبة والجانب الشرقي - كنيسة القديس قيثال .. رافينا - القرن السادس الميلادي .





شكل رقم (٩٩) فسيفساء أحد المحاريب الجانبية (العذراء وملاك البشارة) دير دافني أثينا .



شكل رقم (١٠٠-أ) زخارف فسيفساء - وحدات هندسية ونباتية (تعلو تيجان الأعمدة) كنيسة القديس فيتال - رافينا - القرن السادس الميلادي .

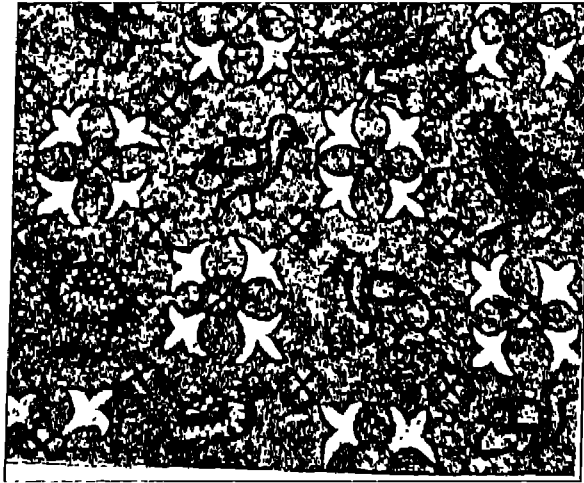


شكل رقم (١٠٠-ب) زخارف فسيفساء - وحدات هندسية وطيور (تعلو تيجان الأعمدة) كنيسة القديس فيتال - رافينا - القرن السادس الميلادي .





شكل رقم (١٠١-أ) فسيفساء السيد المسيح - الكنيسة الأسقفية - رافينا  
القرن الخامس الميلادي.



شكل رقم (١٠١-ب) زخارف الطيور والنباتات المجردة (تفصيلية) فسيفساء السيد المسيح  
في الجدار المقبب الكنيسة الأسقفية - رافينا - القرن الخامس الميلادي.







شكل رقم (١٠٢) فسيفساء موكب القديسات والقديسين كنيسة القديس أبولينار الجديدة  
راقينا - القرن السادس الميلادي.

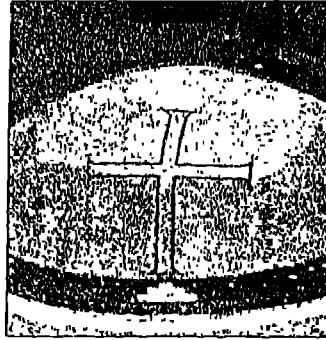


شكل رقم (١٠٣) القديس ديمتريوس مع طفليين - فسيفساء كنيسة القديس ديمتريوس  
سالونيك - القرن السابع الميلادي.





شكل رقم (١٠٤) القديس ديمتريوس والأسقف يوحنا مؤسس الكنيسة - فسيفساء كنيسة القديس ديمتريوس - سالونيك - القرن السابع الميلادي •



شكل رقم (١٠٥) صورة الصليب - فسيفساء الحنية - كنيسة القديسة ايرين - سالونيك - القرن الثامن الميلادي •



شكل رقم (١٠٦) تفصيلية من أرضية فيلا بالقرب من قناطر فالانس (فسيفساء) - القسطنطينية - القرن الرابع الميلادي •



-٢١٩-



شكل رقم (١٠٧) فسيفساء الأرضية - تفصيلية من القصر المقدس بالقسطنطينية - منتصف القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (١٠٨) فسيفساء الأرضية - فيلا الإمبراطور الروماني - بيزا أرميرينا روما - منتصف القرن الرابع الميلادي.





شكل رقم (١٠٩) حلب الشاة - (تفصيلية) فسيفساء القصر العظيم المقدس  
القسطنطينية - القرن السابع الميلادي.



شكل رقم (١١٠) فتاة تحمل قدرا - (تفصيلية) فسيفساء القصر العظيم المقدس  
القسطنطينية - القرن السابع الميلادي.







شكل رقم (١١١) صبي يطعم حماراً - (تفصيلية) فسيفساء القصر العظيم المقدس  
القسطنطينية - منتصف القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (١١٢) فسيفساء الإمبراطورة تيودورا وحاشية البلاط الملكي - الحنية الشمالية  
كنيسة القديس قيتال - راقينا - القرن السادس الميلادي.





شكل رقم (١١٢) سيدات من حاشية البلاط الملكي - تفصيلية من فسيفساء الإمبراطورة تيودورا - كنيسة القديس فيثال - راقينا - القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (١١٣) رجال الحرس الإمبراطوري - تفصيلية من فسيفساء الإمبراطور جستنيان - كنيسة القديس فيثال - راقينا - القرن السادس الميلادي.





شكل رقم (١١٤) القس إلكسيوس - (تفصيلية) فسيفساء الحنية الرئيسية  
كنيسة القديس فيثال - القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (١١٥) ليو السادس راكعا أمام السيد المسيح - فسيفساء تغطي أعلى الباب المركزي  
لصحن كنيسة أيا صوفيا - القسطنطينية - القرن التاسع الميلادي.





شكل رقم (١١٦) الإمبراطور الإسكندر - فسيفساء الممر الشمالي - كنيسة أيا صوفيا القسطنطينية .



شكل رقم (١١٧) العذراء والإمبراطور قسطنطين والإمبراطور جستنيان - فسيفساء تقطي أعلى الباب الجنوبي الغربي - كنيسة أيا صوفيا - القسطنطينية .



شكل رقم (١١٨) السيد المسيح بين الإمبراطورة زوية وزوجها - فسيفساء كنيسة أيا صوفيا القسطنطينية - القرن الثاني عشر الميلادي .







شكل رقم (١١٩) العنراء بين القديسة إيرينى وزوجها الإمبراطور يوحنا الثاني كومنينوس  
فسيفساء الجناح الإمبراطوري في الممر الجنوبي - كنيسة أيا صوفيا - القسطنطينية  
القرن الثاني عشر الميلادي.



شكل رقم (١٢٠) تيودور ميتوشيسس يقدم نموذج الكنيسة للسيد المسيح - فسيفساء كنيسة  
المخلص - القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي.





شكل رقم (١٢١) مدينة الناصرة - (تفصيلية) - فسيفساء كنيسة المخلص -  
القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي .



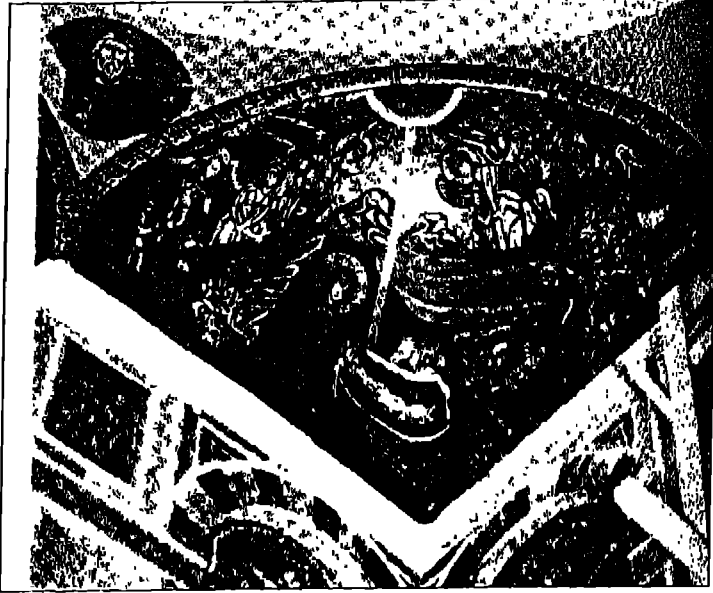
شكل رقم (١٢٢) طاوس - تفصيلية - فسيفساء كنيسة المخلص - القسطنطينية  
القرن الرابع عشر الميلادي .



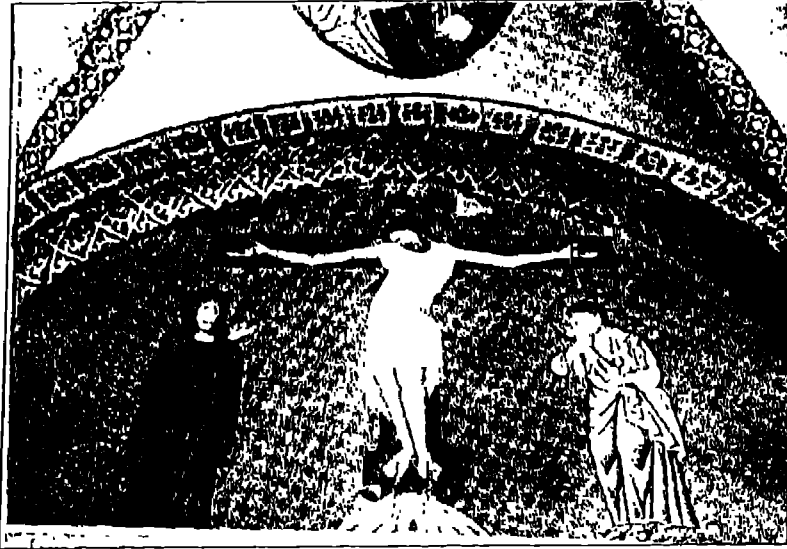


شكل رقم (١٢٣) العذراء تحمل المسيح طفلا - فسيفساء المحراب - كنيسة آيا صوفيا  
القسطنطينية - أواخر القرن التاسع الميلادي.





شكل رقم (١٢٤) ميلاد السيد المسيح - فسيفساء كنيسة هوزيوس لوكاس - (الإتحفاء السفلي المدعم للقبة المركزية) بالقرب من دافني - أثينا - بداية القرن الحادي عشر الميلادي .



شكل رقم (١٢٥) صلب السيد المسيح - فسيفساء كنيسة هوزيوس لوكاس - أثينا - القرن الحادي عشر الميلادي .





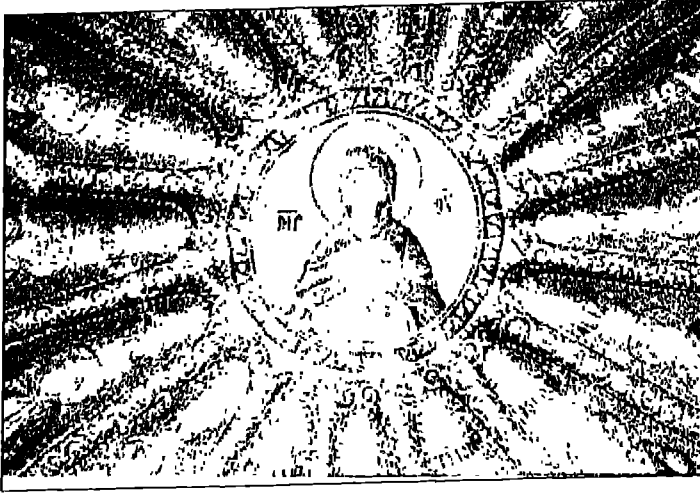


شكل رقم (١٢٦) موضوع التجلي - فسيفساء دير دافني - (الإحتفاء السفلي المددعم للقبّة المركزية) - بالقرب من أثينا - القرن الحادي عشر الميلادي .



شكل رقم (١٢٧) المسيح الحاكم الأعظم - القبّة الرئيسية - دير دافني (أتيكا) بالقرب من أثينا - القرن الحادي عشر الميلادي .





شكل رقم (١٢٨) العذراء والمسيح طفلا - فسيفساء قبة كنيسة المخلص - القسطنطينية  
القرن الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (١٢٩) مشاهد من حياة العذراء - فسيفساء إحدى القباب الجانبية - كنيسة المخلص  
القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي.





شكل رقم (١٣٠) صورة من حياة السيد المسيح (مساعدة المحتاجين) فسيفساء إجدى الدلايات  
كنيسة المخاص - القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (١٣١) فسيفساء قبة كنيسة (فيتي كامي) - القسطنطينية - القرن الرابع عشر.





شكل رقم (١٣١-١) المسيح الحاكم الأعظم - (تفصيلية) فسيفساء قبة كنيسة  
فيثي كامي) - القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (١٣٢) النزول من على الصليب - (المسيح المتوفى) فسيفساء اللوحات الصغيرة  
المحمولة - مهداه للكاتدرائية الرومانية القسطنطينية - بداية القرن الرابع عشر الميلادي.







شكل رقم (١٣٣) موضوع البشارة - فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة - متحف فيكتوريا وألبرت - بداية القرن الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (١٣٤) فسيفساء الجانب الأيسر من لوحة الكتابة - متحف أوبرا ديل كاتدرائية فلورنسا - أواخر القرن الرابع عشر الميلادي.



## الباب الثالث

### القيم الجمالية لفن الفسيفساء البيزنطى

#### ● الفصل الأول :

التقنيات المختلفة للإستعمال الفنى لخامة الفسيفساء البيزنطية .

#### ● الفصل الثانى :

تناول العنصر الأدمى والصور الشخصية فى فسيفساء العصر البيزنطى .

#### ● الفصل الثالث :

الحركة واللون فى تكوينات الفسيفساء البيزنطية .

#### ● الفصل الرابع :

إنتشار الفن البيزنطى وامتداده فى الفنون الأخرى .

#### ● الفصل الخامس :

تجربة الباحثة الفنية ومحاولة إستخلاص قيم جمالية معاصرة مستوحاة من الفسيفساء البيزنطية .



## الفصل الأول

### التقنيات المختلفة للإستعمال الفنى لخامة الفسيفساء البيزنطية

- تعريف الفسيفساء .
- أنواع الفسيفساء البيزنطية واستعمالاتها المختلفة .
- كيفية إعداد لوحات الفسيفساء .
- تنفيذ لوحات الفسيفساء .
- تطور الأساليب التنفيذية فى الفسيفساء البيزنطية .



## الفصل الأول

### التقنيات المختلفة للإستعمال الفنى لخامة الفسيفساء البيزنطية

#### ● تعريف الفسيفساء :

الفسيفساء هي إحدى الخامات الفنية التي تستخدم في التصوير الجداري ، ويتميز التصوير بهذه الخامة بأسلوب خاص في المعالجة التشكيلية ، فهي تعطى تأثيرات سطحية تختلف عما تحدته الخامات التصويرية الأخرى ، وهذا الأسلوب المميز هو الذي يضفي عليها طابعاً متفرداً ، حيث نجد أن الأعمال الفنية المنقذة بهذه الخامة يغلب عليها الطابع التجريدي المسطح الذي تحدته المعينات الصلبة المتجاورة التي ظهرت في صورة خامات طبيعية وصناعية ، فالخامات الطبيعية نجدها في الرخام وبعض الأحجار الكريمة . أما الأنواع الصناعية فهي عبارة عن الفسيفساء الزجاجية والفسيفساء الخزفية .

" والفسيفساء الزجاجية ( الأزما تى ) هي خامة واسعة الإنتشار وذلك لثرائها اللوني وتنوع ملمسها بين ناعم وخشن ... ولقد بلغ استخدام هذا النوع ذروته عند البيزنطيين حيث استخدموه بدرجة واسعة لرونقة وألوانه المتعددة ... كما اضيف إليها اللونين الذهبي والفضي<sup>(١)</sup> . وكانت هذه القطع الزجاجية يتم تلوينها بواسطة الأكاسيد المعدنية مثل أكسيد القصدير الذي كان يستخدم لإنتاج الألوان المعتمة ، وأكسيد النحاس وأكسيد الكروم للحصول على كل من اللونين الأزرق والأخضر على التوالي .

ولقد اختلفت صناعة اللون الذهبي والفضي وكانت أكثر تعقيداً من صناعة الألوان المألوفة ، وتتلخص صناعته في تغطية المكعب الزجاجي بطبقة رقيقة من الذهب أو الفضة ، وتثبت هذه الطبقة فوق الزجاج بتعريضها للحرارة ، ثم يسكب قدر من المينا المنصهرة ذات اللون الأحمر أو الأخضر القاتم فوق هذه الرقائق الذهبية أو الفضية ، ثم تحرق مرة أخرى وتبرد ببطء ، وبذلك يكون مكعب الزجاج الواحد مكون من ثلاث طبقات ، هي قاعدة المينا الملونة والطبقة الذهبية والطبقة الزجاجية الشفافة والتي تمثل الطبقة الخارجية الواقية التي قد تسقط وتؤدي إلى رؤية المناطق القاتمة التي تراها داخل

(١) نهاد عبد النعم محمد ، فسيفساء عصر النهضة والإستفادة منها في التصميمات الجدارية لإحدى القرى السياحية ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، ( كلية الفنون الجميلة ، جامعة حلوان ، ١٩٩٦ ) ،

الخلفية الذهبية ، " وفي العصور القديمة كانت طبقة المينا من الزجاج الملون ، ولكن اعتباراً من القرن الثامن الميلادي كان الزجاج الأحمر هو المستخدم لأنه يحقق ثراء أكبر للون الذهبي" (١) . وكانت الفسيفساء الزجاجية بهذا الشكل تحقق أهم سمة لفن الفسيفساء والتي تتمثل كما يذكر، جوسب بوفيني (Guiseppe Bovini) في " إبراز المؤشرات الضوئية التي تتحقق من خلال مكعباتها اللامعة ، حيث تحجز بين طياتها بعض أضواء الشمس المتألقة " (٢) .

أما النوع الثاني فهو فسيفساء القطع الخزفية التي كانت تصنع من الطين المحروق في أفران الحريق الخاصة ثم بعد ذلك يغطى بمادة زجاجية ملونة (Glacé) بالوان مختلفة ومتعددة الدرجات وتحرق مرة أخرى ، وهذه المادة تكسب المكعبات الخزفية سطحاً لامعاً ولمساً ناعماً ، ويجب الإشارة إلى " أن البيزنطيين أول من إستعملوا هذا النوع الخزفي " (٣) .

وقد إستخدمت هذه الفسيفساء بصفة عامة - الطبيعية والصناعية - في تجميل الأسطح المعمارية وقد ظهرت " لأول مرة في العصور الرومانية " (٤) . حيث زينت بها أرضيات الحمامات ، وانتشرت بعد ذلك في العصر المسيحي المبكر ، ثم ازدهرت إزدهاراً كبيراً في العصر البيزنطي، الذي أصبح التصوير الجداري فيه يعتمد اعتماداً أساسياً عليها ، فقد كانت طبيعة هذه الخامات تلائم المساحات الداخلية الكبيرة في الكنائس ذات الإضاءة القليلة الخافتة سواء كانت هذه المساحات مسطحة كالجدران الراسية أو منحنية كالقباب والحنيا ، وحيث أن هذه الفسيفساء تتمتع بسطح لامع فهي تعكس الإضاءة الطبيعية ، لذلك كان المهندسون البيزنطيون في بنائهم للكنائس يتحكمون في كمية الضوء الساقط وإجاهه من خلال مواقع النوافذ ومساحتها ، وذلك حتى لا تفسد الأثر الجمالي لهذه الخامات ، لذا نجد أن لوحات الفسيفساء الداخلية تتفوق في الناحية الجمالية عن اللوحات المنقذة على الجدران الخارجية وذلك لأن الجو الداخلي المغلق والمحيط باللوحات يكسبها طابعاً سحرياً خاصاً .

(1) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacl er Art Books, New York, 1935, P.

(2) Ravenna, Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New York, P. 79 .

(٣) احمد سليم احمد ، اثر إستخدام التصوير الجداري فوق ملاط الطين في تجميل قرية كلابشة ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، ( كلية الفنون الجميلة ، جامعة حلوان ، ١٩٩٨ ) ، ص ٣٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٤ .



وتمتاز أعمال الفسيفساء بصلابة مادتها وقوة تحملها وتمتاز عن غيرها من أعمال التصوير الجداري - كالفريسك على سبيل المثال - ببقائها قروناً طويلة محتفظة ببهائها ونقاء ألوانها وحيويتها ، فضلاً عن مقاومتها لعوامل التحلل أو الإهيار التي قد تسببها الأملاح والرطوبة ، كما أن ألوان الطلاءات لاتتأثر بمرور الزمن ولا تتلف بالمقارنة بلوحات الفريسك التي تتعرض للفطريات التي تغير ألوانها وتسبب في تشقق الطبقة الخارجية من العمل المصور مما يؤدي إلى تساقطه سريعاً .

وينكر « جيوسيب بوهيتي » ، تعريف فنان عصر النهضة دومينكو جيراندايو (Domenico Ghirlandaio) لمادة الفسيفساء بأنها الطلاء الأصيل المتجدد على مر الزمان<sup>(١)</sup> . مما دعى بعض الفنانين إلى تفضيلها على خامة الفريسك ، يؤيد ذلك " راي الفنان جون ادينجتون سيموندس (John Addington Symonds) الذي أكد في مقالاته على سمو الفسيفساء على الفريسك لأنها تمثل إضافة معمارية مستخدمة على نطاق عريض في « مونريال » - وتتسم بالروعة والثراء البراق من جميع جوانبه<sup>(٢)</sup> . فضلاً عن إمكانياتها في تحقيق الثراء اللوني من خلال وضع المكعبات المختلفة الألوان والمتفرقة في الخلفية ذات اللون الواحد، مما ينتج عنه إيقاعات لونية تضيف على اللوحات جودة وتميز من نوع خاص ، وقد استخدم الفريسك كعنصر مساعد ومكمل للوحات الفسيفساء البيزنطية داخل الكنائس كما في آيا صوفيا ، وكنيسة المخلص بالقسطنطينية .

## ● أنواع الفسيفساء البيزنطية واستعمالاتها المختلفة ،

وقد اعتمد البيزنطيون على أنواع مختلفة من هذه الفسيفساء والتي اختلفت باختلاف استخداماتها ونوعية السطح المنقذة عليه ، في الأرضيات والجدران واللوحات الصغيرة .

فقد كانت " الفسيفساء الحجرية تستخدم فوق الأسطح التي تتحمل التأكل والإحتكاك مثل الأرضيات والأوعية الخاصة بالنافورات والقنوات المائية وقد حلت محلها ألواح الرخام الصغيرة في منتصف العصر البيزنطي<sup>(٣)</sup> .

(1) Ravenna, Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New York, P. 12 .

(2) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacher Art Books , New York, 1935, P. 36.

(3) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press , New York 1994, P. 35 .

أما الفسيفساء الخزفية والزجاجية والأحجار الطبيعية \* كالكوارتز وحجر (Chrysaowlla) الأزوريت ويعرف أيضاً باللازورد ، والحجر البركاني \* (١) . فيفضل استخدامها جميعاً في اللوحات الجدارية واللوحات الصغيرة المستقلة إلى جانب الأحجار الكريمة \* التي حرص البيزنطيون على استخدامها وخاصة في عصر محطى الصور وفضلوا الإعتماد عليها في تصوير الإله أو السيد المسيح الذي لا يليق تنفيذه بالأحجار العادية الرخيصة الثمن ، فقد كان على مأيدي الصور الأيقونية أن يختاروا أتمن المواد لهذا الغرض إلى جانب المكعبات الذهبية ، ومن ثم أصبحت هذه الخامات الفاخرة وسيلة لتصوير الأفكار المقدسة \* (٢) .

وقد احتوت مساحة الفسيفساء الواحدة على تداخل هذه الأنواع المختلفة وإندماجها معاً ، فلم يظهر عمل فني يقتصر فيه الإعتماد على نوع واحد من هذه الفسيفساء ، فإلى جانب المكعبات الزجاجية الشائعة الإستخدام في العصر البيزنطي والتي كانت تشغل أغلب المساحة المنفذة ، ظهرت المكعبات الحجرية ذات الألوان الطبيعية والتي استخدمت في تنفيذ التفاصيل الخاصة بالمناطق التي يسقط عليها الضوء - التي لا تعكسه بما أنها تتمتع بخشونة سطحها الذي يمتص الضوء - في الوجوه والأيدي ، وذلك يمثل أولى الأمثلة المعروفة عن الحجر الطبيعي، وهي السمة التي دامت خلال عهد الفسيفساء البيزنطية لأكثر من ألف عام كما ساعدت درجاته المتنوعة على توفير مختلف ألوان البشرة كما في وجوه القديسين القائمة الألوان ، والملائكة أصحاب البشرة الفاتحة اللون في المستوى العلوي للكنائس \* (٣) . وكان الهدف من إستخدام هذه الأحجار الطبيعية يرجع إلى الإيحاء بشفافية ونقاء الوجوه المقدسة التي تصور على جدران الكنائس والتي تبدو حقيقية أكثر من كونها صوراً على الجدران .

كما تباينت مكعبات الرخام ذات اللون الأبيض مع مكعبات الزجاج البيضاء في ملابس القديسين والحواريين ، والتي يصعب التفريق بينها في معظم الحالات ، ويبدو

(1) Louisa Jenkins, Barbara Mills, The Art of Making Mosaics, D. Van Nostrand Company, Inc., New Jersey, Toronto, London, New York, 1957, P. 10, 11.

(2) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941, P. 10.

(3) Carlo, Bertelli, General Editor, The Art of Mosaic, Per Jonas Nordhagen, Byzantine Treasures, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989, P. 103 .

(\*) مثل الياقوت الأحمر والزربرجد واللؤلؤ ، وقد شهد القرن السادس استخدام هذه الأحجار بشكل ملحوظ نظراً لثرائها كما في كنيسة القديس شينال براهينا .

ذلك في شكل (١٣٥) الذي يظهر فيه الرداء الأبيض الخاص بالمقديس «بطرس» ، في العمودية الأريانية .

وقد كان الدمج بين هذه الأنواع المختلفة من مكعبات الفسيفساء وسيلة للتمييز بين نوعية السطح ، فالفسيفساء الذهبية والفضية ذات البريق المعدني اللامع تعطى إحساساً بالصلابة ويروز السطح ، أما الفسيفساء الحجرية فتعكس طبيعة السطح العتم الذي له دور كبير في إظهار نعومة الوجوه المصورة .

وبذلك استفاد الفنانون البيزنطيون من إختلاف طبيعة هذه المكعبات في تحقيق بعض الإنطباعات الفنية والتي تثرى لوحاتهم وتخدم أغراضهم المقدسة .

### ● كيفية إعداد لوحات الفسيفساء :

كانت أعمال الفسيفساء تتخذ حسب التصميم المطلوب والذي يحمل الموضوعات المختلفة ، ويقتضى أسلوب التنفيذ تجهيز السطح المراد تجميله - وهو يعرف بأرضية العمل الفنى - ، وخلال العصر البيزنطى كان هناك نوعين من الأرضيات : النوع الأول وهو الجدران الخاصة بالأسطح المعمارية المختلفة سواء الجدران الراسية أو الأفقية ( الأسقف ) والأسطح المنحنية كقباب وحنيات الكنائس ، وهذا النوع كان له الإنتشار الأوسع .

أما النوع الثانى ، وهو الأرضيات ذات السطح الخشبي وهى الخاصة باللوحات الصغيرة المحمولة . وكان كل نوع يتطلب تجهيزاً خاصاً يختلف فى طريقة إعداده عن الآخر ، كما اختلفت المادة اللاصقة المستخدمة فى تثبيت مكعبات الفسيفساء على كل منهما .

فتجهيز سطح الجدار يجب تنظيفه جيداً\* وتنقيته تماماً من أية شوائب عالقة به تمنع عملية الإلتصاق أو تتسبب فيما بعد فى تساقط الفسيفساء ، كما يجب ألا يكون السطح املساً ، ويتم تخشينه وذلك للتمكن من تثبيت أول طبقة من اللصق ، وهذا بالتأكيد أقل أهمية بالنسبة لفسيفساء الأرضيات أكثر منها فى الحوائط والأسقف حيث يكون اللصق أهم شئ فى البداية لهذه الأسطح حتى لا يسقط عندما يجف ، كما أن الطبقة النهائية من اللصق المستخدم يتبغى أن تكون ملساء حتى يتم رسم التصميم فوقها بسهولة .

(\*) عملية التنظيف تتم بغسل الجدران بكميات كبيرة من الماء لتخليصها من الأملاح .

والمادة اللاصقة التي كان يعتمد عليها في ذلك هي الملاط الأسمنتي ، وهذا الخليط يتكون من الأسمنت والرمل والماء وأحياناً يضاف إلى الأسمنت مسحوق بودرة الرخام ، وتتوقف صلابة هذا الخليط على مقدار الماء المضاف إليه . وقد كان الرومان قديماً يخلطون الرماد البركاني والحجر المطلقاً في سبيل إنتاج أسمنت مماثل <sup>(١)</sup> . وكان يتم تحضير هذا الخليط قبل العمل مباشرة حتى لا يجف أثناء العمل ويسبب تشققه .

" وأفضل أنواع الملاط التي كانت تستخدم في ذلك الوقت هي التي تتكون من خليط من مسحوق بودرة الرخام والجير والأسمنت البورتلاندي " <sup>(٢)</sup> . ويتم تغطية سطح الجدار بهذا الملاط - بعد غسله وتجفيفه - بطبقة أولى في سبيل الحصول على سطح مستوى منتظم ، وبعد ذلك ينفى وضع طبقة ثانية من الأسمنت القوي التي سوف تستقبل الفسيفساء عليها ، وفي بعض الأحيان كانت توضع طبقات ثلاثة ، إذا لم يكن السطح ملائماً للفسيفساء بعد وضع الطبقة الثانية ، وفي سبيل تحقيق أعلى درجة من التجانس والتماسك بين هذه الطبقات كان الفنانون يحرصون على وضع القليل من قطرات الماء المتناثرة فوق كل طبقة أسمنتية قبل وضع الطبقة التالية ، كما يجب الإشارة إلى أن أكثر الأعمال التي إحتفظت بشكلها العام ولم تتعرض للسقوط أو للتلف ، ترجع إلى رقة سمك الطبقات الأسمنتية الموضوعة فوق الجدار ، " وتشير البيانات إلى أن سمك هذه الطبقات يتراوح بين أقل من بوصة واحدة في الطبقة الأولى وربع البوصة في الطبقة الثانية ، ومع استخدام الأسمنت ذو الجودة العالية فإن قطع الفسيفساء لا تسقط وتصبح أكثر تماسكاً وبقاءً ، ... ، وتساقل أعمال الفسيفساء ترجع إلى زيادة سمك الطبقة الأولى الأساسية وسوء جودتها ، ومثال ذلك ، أن الترميم الحديث لقوس النصر في كنيسة القديسة "ماريا ماجوري" في روما - والذي ينتمي إلى القرن الخامس الميلادي - إتضح فيه أن الطبقة الأسمنتية الأساسية سمكها خمس سنتيمترات موضوعة على جدار من الطوب الناعم الذي لم يلتصق جيداً مع هذه الطبقة ، وكذلك فإن الطبقة السطحية من الأسمنت المثبت عليها قطع الفسيفساء مفصولة عن الطبقة الأساسية في بعض المناطق " <sup>(٣)</sup> . وفي سبيل علاج هذه الحالة يجب إزالة هذه الطبقة الفاسدة وإعداد السطح من جديد مع مراعاة مراحل الإعداد السابقة .

- 
- (1) Louisa Jenkins, Barbara Mills, The Art of Making Mosaics, D. Van Nostrand Company, Inc., New Jersey, Toronto, London, New York, 1957, P. 30 .  
 (2) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics , HaHer Art Books , New York , P. 38.  
 (3) Ibid . , P. 38, 39.

## ● تنفيذ لوحات الفسيفساء :

بعد جفاف الطبقات الأسمنتية في مرحلة الإعداد السابقة تأتي مرحلة تنفيذ العمل الفني حيث يتم نقل الخطوط الأساسية للتصميم فوق الطبقة الأسمنتية السطحية ، وفي بعض الأحيان كانت توضع طبقة رقيقة من الجبس الأبيض فوق طبقة الأسمنت الأخيرة حتى تزيد من وضوح الخطوط العامة والتفاصيل الدقيقة للتصميم المرسوم ، وكانت العناصر تلون باللون الطبيعي والتي سيتم وضع مكعبات الفسيفساء وفقاً لها .

وكان الرسم يتم بالفرشاة حيث يبدأ الفنانون العمل من أعلى المساحة متجهين في ذلك لأسفل حتى لا يفسد ما تم عمله .

" وقد اتبع الفنانون البيزنطيون في تنفيذهم للفسيفساء الطريقة المباشرة التي تعتمد على تركيب قطع الفسيفساء باليد على طبقة الملاط ، وقد كانت هذه الطريقة متبعة منذ القدم حتى بلغ فن الفسيفساء أوجه خلال القرن الثالث عشر الميلادي " (١). وفي القرون التالية لجأ الفنانون إلى طريقة أخرى تختلف عن هذه الطريقة السابقة والتي عرفت بالطريقة الغير مباشرة فقد أتاحت للفنانين العمل داخل الورش الفنية ، وتلخص هذه الطريقة في استخدام مساحات واسعة من الورق الذي يتم رسم التصميم فوقه ، وتنفذ مكعبات الفسيفساء عليه ، وبعد الإنتهاء من وضع المكعبات يتم لصق مساحة الورق حسب المساحة المنفذة فوق السطح العلوي للمكعبات وتترك لتجف . ثم تثبت فوق طبقة الملاط الموضوعه فوق سطح الجدار ويتم الضغط على مكعبات الفسيفساء حتى تتخلل طبقة الأسمنت اللينة المسافات بين قطع الفسيفساء المتجاورة ، وبعد جفافها تماماً يتم نزع الورق بواسطة الماء الساخن .

أما في الطريقة المباشرة والتي يتم التنفيذ فيها في المكان مباشرة ، يجب على الفنانين توخي السرعة في وضع مكعبات الفسيفساء ، حيث أن الملاط الأسمنتي يتميز بسرعة الجفاف ، لذلك كانت توضع كميات الملاط بالتدريج وعلى أجزاء حسب المساحة التي سيتم تنفيذها ، وبعد الإنتهاء من العمل ينبغي إزالة الأثار المتبقية من هذه الطبقة اللاصقة ، ثم يتم تحضير طبقة طازجة أخرى عند العمل في اليوم التالي .

---

(1) Louisa Jenkins , Barbara Mills , The Art Of Making Mosaics , D . Van Nostrand Company , INC . , 1957 , P. 36 .

وبعد الإنتهاء من وضع البلاطات تماماً يتم تنظيفها. وتبقى طبقات الملاط التي تظهر بين قطع الفسيفساء، وهذه الفراغات يتم تلوينها بلون يتناسب ويمتزج مع لون المكعبات المرصصة ، وذلك يتضح في أغلب لوحات الفسيفساء داخل الكنائس .

وقد كانت الطريقة المباشرة أكثر ملائمة لفنانى العصر البيزنطى ، حيث انها كانت وسيلة لإحداث تأثيرات سطحية ولونية مختلفة ، وذلك لأن وضع البلاطات باليد فوق الملاط ينتج عنه سطح غير منتظم وذلك يكسب العمل الحيوية والثراء اللوني وخاصة عند سقوط الضوء ، حيث تعكس هذه القطع المائلة الضوء في إتجاهات مختلفة نتيجة لتغير زوايا المكعبات نفسها ، وهذا يفسر سر الجاذبية العظيمة لأعمال الفسيفساء البيزنطية .

وهذه الخاصية لا يمكن تحقيقها من خلال اللوحات الصغيرة المحمولة حيث انها تختلف في أسلوب تنفيذها عن اللوحات الجدارية، وذلك لأن الأرضية في هذه الحالة والتي يتخذ عليها العمل الفني تمثل لوحة خشبية تتوقف مساحتها على الموضوع المصور أو على حجم الشخصية المرسومة بالداخل والتي يحددها الفنان ، " وينبغي أن تحتوى هذه المساحة الخشبية على عوارض خشبية رفيقة مثبتة في جوانبها الأربعة وتتناسب في ارتفاعها مع ارتفاع المكعبات ، كما يجب توافر سطحها الخشبي الخشن حتى يحقق أفضل التصاق مع مكعبات الفسيفساء ، وذلك عن طريق الخطوط المتعارضة التي يتم إحداثها في السطح ، والمادة اللاصقة المستخدمة في هذه الحالة عبارة عن طبقة من خليط الشمع والراتنج المجهز<sup>(١)</sup> - الذى يتم به طلاء السطح الخشبي للوحة ثم تثبت المكعبات الصغيرة الحجم فوقه . ويتميز هذا الخليط بأنه مقاوم للرطوبة مما يحقق ثبات هذه الأعمال فترات طويلة .

## ● تطور الأساليب التنفيذية في الفسيفساء البيزنطية ،

على مدى القرون الطويلة خلال العصر البيزنطى تنوعت الأساليب التنفيذية للوحات الفسيفساء ، واختلفت حسب نوعية العمل نفسه سواء على الجدار أو على اللوحة الخشبية ، وقد ظهرت التطورات الفنية بدرجات متفاوتة في جميع القاليم الإمبراطورية واختلفت حسب قرب الإقليم من العاصمة ، ويعددها ، كما ظهرت أيضاً التطورات الخاصة بكل إقليم على حدة .

(١) Carlo, Bertelli, General Editor, The Art of Mosaic, Per Jonas Nordhagen, Byzantine Treasures, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989, P. 111 .

وتتلخص هذه التطورات في تغيير حجم المكعب الواحد، والمساحة الأسمنتية التي تتخلل الفراغات بين مكعبات الفسيفساء، والإتجاهات المختلفة التي تتخذها المكعبات المرصصة، وزوايا الميل الخاصة بها .

وقد تنوعت قطع الفسيفساء وتباينت في أحجامها وأشكالها فهي عادة تتخذ الشكل المربع أو المستطيل " وتتراوح أحجامها - حجم القطعة الواحدة - بين ثمن البوصة وثلاثة أرباع البوصة " (١) . وكانت هذه الأحجام تصنف حسب أماكنها في التصميم، فكانت القطع الصغيرة مخصصة لتنفيذ الوجوه وأصابع الأيدي والزخارف الدقيقة؛ والأحجام المتوسطة تستخدم في تنفيذ الأجسام والملابس، أما الأحجام الكبيرة فكان يفضل الإعتماد عليها في تنفيذ الخلفيات الطبيعية والمباني المعمارية والخلفيات بصفة عامة، كما نلاحظ أن هذه القطع غير متساوية الحواف وذلك يرجع إلى الأدوات المستخدمة في تكسير وتقطيع هذه الخامات الصلبة .

ولوحة الفسيفساء في تنفيذها تعتمد على ترصيص هذه المكعبات ذات الأحجام المتناسبة بجوار بعضها البعض وموازية للخطوط الداخلية والخارجية للعنصر الواحد، وفي بعض الأحيان كان الفنانون المنفذون يلجأون إلى عدم الإلتزام بهذه الإتجاهات المتوازية داخل العنصر وذلك تبعاً للشكل المصور، وكما نرى في شكل (١٣٦) تظهر الإتجاهات التي تتوازي مع بعضها وتسير في خطوط مستقيمة وخاصة في كف اليد والمكعبات البنية التي توازي الخط الأسود في يسار الصورة، أما الإتجاهات المتعارضة فتبدو بوضوح حيث تتداخل المكعبات الخضراء والحمراء والصفراء والبنية معاً بطريقة عشوائية، مما جعل العين تنظر في جميع اتجاهاتها وذلك بهدف الحصول على التأثير الثرى للملابس ذات النقوش البديعة والمطرزة والتي تخص سيدات البلاط الملكي، وهذا الأسلوب التنفيذي تلحظه في العديد من الملابس الخاصة بالأباطرة والتي تفرض على الفنان التنفيذ بهذه الطريقة .

ومنذ بداية العصر البيزنطي وفي القرون الأولى منه، كانت مكعبات الفسيفساء تتمتع بالحجم الكبير الغير منتظم إلى حد ما، كما كانت هذه المكعبات تتباعد فيما بينها بحيث يظهر الأسمنت بوضوح، مما يضفي على العمل بعض النعومة ولكن دون أن ينقص من وضوح التصميم، ولكنه يبدو في صورة أكثر تجريدية بالمقارنة

(1) Edgar, Waterman Anthony, .A History of Mosaics , Hacher Art Books , New York , 1935 , P. 39.

بالأعمال التي نفذت في الفترة الأخيرة ، يتبين ذلك في شكل (١٣٧) . والذي يبدو فيه أيضاً الأسلوب الخطى المحدد للأشكال بصفة عامة ، فترى هذه الخطوط تحدد الخط الخارجي للشعر وخصلاته ، كما تحدد الوجه بأكمله لتفصله عن منطقة الشعر كما تظهر أيضاً ملامح الوجه بالأخص في العينين والأنف ، وقد عبر الفنان بهذه الخطوط الداكنة عن الجفنين والمنطقة الظلية الفاصلة بين الفم والذقن والتي تتمثل في الخط المنحنى البنى اللون ، وعادة تتخذ هذه الخطوط الكميات السوداء أو البنية اللون ، " وقد كان الهدف منها هو تحقيق وضوح شكل العنصر ويروز مناطق الضوء من عمق اللوحة ، وهذا التقليد يضى طابعاً خاصاً وإيقاعاً هاماً على العمل الفني " (١) .

ولم يقتصر استخدام هذه الخطوط في الوجوه فحسب ، وإنما ظهرت محددة لجميع العناصر المرسومة داخل اللوحة فبرزت في ثانيا الملابس وتحديد الشكل بصفة عامة ، وأوضح الأمثلة التي تؤكد استخدام هذا الأسلوب الخطى هي فسيفساء القرن الحادى عشرى " هوزيوس لوكاس " ، حيث نجدها في موضوع الصلب، شكل (١٢٥) ، حيث الكميات الداكنة تحدد جسد السيد المسيح المصلوب .

وقد كانت هذه الخطوط الداكنة تتناسب في أحجامها مع الأحجام العامة للفسيفساء فتزيد مع زيادة حجم القطعة الواحدة ، وتصغر بصغر حجمها ، ويمرور الوقت بدء يقل حجم المكعب الواحد وأصبح أكثر إنتظاماً ، كما نلاحظ في شكل (١٣٨) ، والذي يتضح فيه إختفاء الخطوط الداكنة المحددة إلى حد ما - بالمقارنة باللوحة السابقة - واستعاض عنها الفنان بمكعبات رمادية اللون ، كما نتبين فيها الإنتقال التدريجى بين المكعبات التي تحمل لون البشرة والمكعبات الصفراء والتي رقت ، في وضع تبادلى رقيق وذلك للتعبير عن منطقتى الضوء والظل ، وتبقى هذه الخطوط الداكنة تحدد الراس فقط - ولا تتخلل خصلات الشعر كما في المثال السابق - والتي تم تنفيذها بمكعبات صفراء وحمراء ويرتقالية وبنية ، ووضعت في اتجاهات منتظمة تبدأ من اعلى الراس وتوجه في خطوط منحنية إلى اسفل لتنتشر على الجبهة ، مما يحقق التوافق والتناغم اللونى المقصودين -

ويجدر الإشارة هنا إلى طريقة وضع الكميات الذهبية ذات الزوايا المائلة ، والتي كما نرى فيها عدم إنتظام سطحها مما يعطى إنطباعاً لونياً متلألاً ، " وهذا الأسلوب

(1) Louisa Jenkins , Barbara Mills , The Art Of Making Mosaics , D . Van Nostrand Company , INC. , 1957, P. 49 .



الخاص بالقطع المائلة يمثل ابتكاراً يعود إلى القرن السادس والذي سبق تنفيذه في كنيسة القديس بوليوكتوس في القسطنطينية المبنية عام ٥٢٥ - ٥٢٧ م<sup>(١)</sup>. وقد ساد انتشاره في خلفيات لوحات الفسيفساء بصفة عامة والتي كان يتم تنفيذها في اتجاهات مستقيمة رأسية وأفقية ، بعد تحديد الخط الخارجى للعناصر الأساسية ، والتي ظهرت بوضوح في فسيفساء كنيسة آيا صوفيا، شكل (١١٥) ، وقد تركت مسافات واسعة بين مكعباتها مما أعطى إحساساً بالخطوط الأفقية الحادة والتي تقلل من التأثير اللامع الذى يحدثه اللون الذهبى ، والذي حرص الفنان فيما بعد على إظهاره ومراعاة تقريب مكعبات الفسيفساء مما ينتج عنه الأثر اللامع الممتد للون الذهبى ، وأعمال الفسيفساء اللاحقة في كنيسة آياصوفيا يتحقق فيها بوضوح حيث أن " فسيفساء الممر الضيق المؤدى إلى صحن الكنيسة تصبح مكعباتها مرئية من زوايا متدرجة من أسفل وتم وضعها فى وضع مائل ومتجاورة حتى تصبح أسطحها مثبتة بطريقة طبيعية بزوايا تسعون درجة بالنسبة للمحور البصرى للمشاهد " (٢) .

ولم ينتشر الإعتماد على هذا الأسلوب المائل للقطع فى جميع أنحاء الإمبراطورية فقد ذكر الكاتب كارلو بير تيللى (Carlo Bertelli) أنه قد " اختص ظهوره فى فسيفساء دافنى " (٣) على سبيل المثال ، أما بالنسبة للقسطنطينية فقد بدأ التقليل من الإعتماد عليه وإقتصر استخدامه على تنفيذ المناطق البسيطة مثل أذرع الصليب ، والهالة النورانية التى تحيط بالسيد المسيح أو خلف رؤوس الشخصيات المقدسة ، وذلك فى عهد آل باليولوجوس خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى واستمر حتى نهاية العصر البيزنطى . فقد تم إستبدال هذه الطريقة بنظام البتيان المضلع - مع الحفاظ على نفس الإحساس الثرى للألوان - الذى تم تغطيته بالمكعبات المتجاورة من اللون الذهبى والذي يحقق إنعكاسات منتشرة على الشخصيات المحيطة مثل الأشعة الصادرة من الحلية المركزية لقبة كنيسة فيتى كامى (Fetiye Camii) كما سبق فى شكل (١٣١) .

- 
- (1) Carlo, Bertelli, General Editor, The Art of Mosaic, Per Jonas Nordhagen, Byzantine Treasures, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989, P. 102 .
  - (2) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench , Trubner , London , 1941, P. 33.
  - (3) General Editor, The Art of Mosaic, Per Jonas Nordhagen, Byzantine Treasures, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989, P. 107 .

كما لجأ الفنانون إلى طريقة متميزة في إبراز التفاعل بين السطح المستوي والضوء الساقط عليه ، حيث تم ترصيص مكعبات الفسيفساء على شكل الصدفة التي تتكرر في مساحة الخلفية مجاورة لبعضها البعض ، وتعلو كل واحدة منها الأخرى ، وبذلك يتجنب الفنانون اللمعان الممتد الناتج عن المكعبات المائلة ، وتبدو الإنعكاسات المتلازمة ، والتي ظهرت في فسيفساء كنيسة المخلص في القسطنطينية - لوحة تيودورا كعماً أمام السيد المسيح ، شكل (١٢٠) - ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي إعتد فيها على الشكل الزخرفي الصدفي في الخلفية ، حيث سبق ظهورها في الخلفيات البيضاء في فسيفساء القصر العظيم المقدس في القسطنطينية .

كما شهدت هذه الفترة الأخيرة تطور الأساليب التنفيذية بصورة ملحوظة ، حيث بلغت أوجها من حيث الزيادة المتناهية في صغر حجم المكعبات وتجاورها بدرجة أكبر ، وذلك في سبيل تصوير العديد من التفاصيل وخاصة ملامح الوجوه ، والذي نتبينه في شكل (١٣٩) الذي تبدو فيه ملامح السيد المسيح أكثر طبيعية ، ولا تكاد أن نرى أو تميز شكل المكعبات أو اتجاهاتها .

" ويتجلى هذا الأسلوب بصورة أوضح في اللوحات الصغيرة التي تقاسمت التفاصيل الكثيرة ، ولذلك تكون هذه الصور من إنتاج عدد قليل من المراسم التي أنتجت هذه الفسيفساء الأثرية ذات الطابع الخاص " (١) . ونرى في شكل (١٤٠) أقصى مراحل هذا الأسلوب تطوراً ، حيث أصبحت المكعبات أكثر صغراً ، مما زاد العمل دقة فالقّة - ذلك بالنسبة للوحات الصغيرة المحمولة - والتي برزت من خلال ملامح السيد المسيح ويده وصفحتي الكتاب المقدس والخلفية التي بدت وكأنها مساحة واحدة من اللون الذهبي وليست مكعبات متراصة .

وقد تميزت هذه اللوحات الصغيرة بإحاطتها بإطار معدني ذو نقوش وزخارف نباتية وحيوانية ، كما في شكل (١٣٢) " وهذا الشكل الجديد قد شاع أيضاً خلال عهد البيزنطيين ، وظل إستخدامه هرونياً في العالم البيزنطي " (٢) .

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press , New York 1994 , P. 321.

(2) Ibid., P. 322 .

ولقد شاع استخدامه أيضاً حتى بعد إنقضاء هذا العهد في الأقاليم المجاورة ،  
ولم يقتصر الإنتشار على هذا الأسلوب الفني في إخراج لوحة الموسيقى وإنما إنتقلت  
معظم الأساليب التنفيذية السابقة إلى كثير من الأقاليم الشرقية والغربية ، والتي تأثرت  
بالفن البيزنطي في جميع النواحي ، ومع إختلاطها بالأساليب المحلية الخاصة بكل إقليم  
إتخذت اشكالاً وأساليباً جديدة ، ولكنها ظلت في داخلها تحمل الأساسيات الفنية  
البيزنطية .





## الفصل الثاني

### تناول العنصر الآدمي والصور الشخصية في فسيقساء العصر البيزنطي

- مقدمة .
- العنصر الآدمي وأهميته في الفن البيزنطي .
- الصور الشخصية .
- الصور الثنائية والجماعية .
- أهمية الصورة الشخصية في الفسيقساء البيزنطية



## الفصل الثامن

### تناول العنصر الأدبي والصور الشخصية في فسيفساء العصر البيزنطي

#### ● مقدمة :

منذ بداية العصور الفنية القديمة ، كان العنصر البشرى على درجة كبيرة من الأهمية ، واعتمد عليه الفنانون بشكل أساسى ، حيث كان بمثابة العنصر الرئيسى الذى يقوم عليه العمل التصويرى ، ولم ينصب إهتمام الفنانين فى تصويرهم له كعمل مستقل بذاته ، وإنما كان الهدف منه يتحصر فى تسجيل مواقف الحياة اليومية للبشر بصفة عامة ، وتصوير نشاطاتهم اليومية المختلفة مع الكائنات الحية الأخرى ، مثل الصيد أو رعى الأغنام أو ما تقوم به السيدات داخل المنازل وخارجها ، ومن خلال اللوحات التى تصور هذه الموضوعات يتضح دور الفنانين فى نقل الشكل الطبيعى لهذه الأجسام البشرية التى تنوعت أوضاعها وحركاتها تبعاً لما يؤدونه من أعمال دون النظر إلى كيفية رسم هذه الأجسام ، أو إخراجها بأية صورة سواء كانت متناسبة فى أبعادها أم لا .

وعلى سبيل المثال لم يبرز إهتمام الفنانين بتشريح الجسم البشرى أو مراعاتهم للنسب الطبيعية إلا فى الفن الإغريقى ، الذى إكتملت فيه المعايير الفنية لتصوير الجسم الإنسانى؛ حيث الإعتناء برسم تفاصيل الجسم بدقة ، وتصوير العضلات التى أضفت القوة على اجساد الرجال فى حين ظهرت السيدات بأجسام يلفقها الهدوء والرقّة ، وتطغى عليها ملامح الأنوثة الكاملة ، أما فى العصر الحجرى فقد ظهرت الأجسام مسطحة تماماً وذات خطوط بدائية ساذجة ، وذلك يعود إلى أن الفنانين كانوا مدفوعين فى ذلك لأسباب معينة - سبق ذكرها - فى تصوير جسم الإنسان من خلال العديد من الأوضاع والأحجام والألوان المختلفة، والتى كانت الأعمال الفنية من خلالها تعكس بعض الأغراض أهمها : الغرض الروالى والغرض الروحى ؛ فالغرض الروالى يتحقق عندما يلجأ الفنانون إلى التعبير عن معنى معين أو عرض بعض القصص التاريخية أو سرد لبعض الأحداث السابقة ، فهم يصورون تلك العناصر الأدبية وفقاً لواقع هذه المشاهد والوقائع ، وقد سبق ظهور هذه الأعمال فى الكهوف المصرية القديمة ، وفى النقوش البابلية والآشورية ، ورسوم الأوانى اليونانية القديمة وبعض المخطوطات . وقد تميزت الشخصيات المصورة فى هذه الأعمال السابقة بالتشابه الكبير - ذلك فى كل عمل على حده - حيث لم يركز الفنان على إبراز الملامح التى تميز الشخصية الواحدة عن الأخرى أو التفريق بينهم ، لأن هدفه الوحيد هو تسجيل الحدث ، ولكنها اختلفت فقط من حيث أسلوب وطابع كل فن من الفنون التابعة لها .

أما الغرض الثانى وهو الغرض الروحى فقد تحقق من خلال نظرة النقاد والفنانين للجسم البشرى بوصفه الرداء الخارجى للروح مهما اختلف مظهره الخارجى ، وفى هذه الحالة لم يعط الفنان إهتماماً بدراسة هذا الجسد ، لذلك ظهر فى الأعمال التصويرية آنذاك ذو بعدين إثنين فقط، حيث يتجرد الجسد من ماديته فى سبيل إبراز هذا المضمون الروحى فيبتعد الإنسان عن تجسيد التفاصيل أو الأشكال الطبيعية ، ويطفى فى النهاية الشكل المسطح المجرد ذو الصلاب الزخرفى ، والذى بدأ ظهوره فى العصر المسيحى المبكر ، حيث لم يكن للجسد أهمية فنية ، وذلك باعتباره شيئاً مادياً وجزءاً من الحياة المادية الزائلة ، وقد استمر ذلك المفهوم وساد فى الفن البيزنطى - موضع البحث - والذى إتخذ خلاله تصوير الجسد البشرى مكانة خاصة وفريدة من نوعها، حيث أصبح رمزاً للعالم السماوى المقدس وحلقة الإتصال بينه وبين العالم الأرضى .

### ● العنصر الأدمى وأهميته فى الفن البيزنطى :

يعتبر العنصر الأدمى من أهم العناصر التصويرية التى استخدمت فى التصوير البيزنطى ، والذى أصبح الوسيلة الوحيدة للتعبير عن أفكاره ومعتقداته الدينية وصار الأساس فى جميع الأعمال الفنية المنفذة بالفسيفساء ، حيث قامت عليه الموضوعات الدينية والديوية ، ولكنه لم يحظ بهذه الأهمية منذ البداية حيث أن الدين المسيحى كان يحظر تصوير الأشكال الأدمية والحيوانية ، ولكن تأثيرات الفن الرومانى ظهرت فى الفن البيزنطى فى كثير من الموضوعات الفنية وطرق تناولها ، إلا أن هذا التأثير لم يمتد إلى تصوير الجسم الأدمى إلا فى البداية فى حالات قليلة ، واتضح فيها عدم إهتمام الفنان البيزنطى بدراسة النسب الطبيعية أو تشريح الجسد .

وفى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس زاد الإهتمام بحجم الشخصيات المصورة وأصبح الإهتمام أقل بالتفاصيل والوضع والمنظر فى الخلفية ، ولكن ظل عدم الإهتمام بدراسة الجسم نفسه ، وقد ظهر ذلك فى بعض أعمال الفسيفساء الديوية فى القصر المقدس بالقسطنطينية ، والتى بدت فيها بوضوح الطبيعية فى تصوير شكل الجسم ، كما يبدو فى جسد الرجل الذى يتقدم الجمل الذى يحمل المظللين على ظهره ، فى شكل (١٤١) ، ويمرور الزمن وتوغل المسيحية داخل القطار الإمبراطورية ، إتجه الفنانون إلى الإبتعاد تدريجياً عن تصوير جسم الإنسان بهذه الصورة نتيجة للمعاليم المسيحية والتى كانت تحرم تصوير الكائنات الحية بصفة عامة ، " وقد شهد القرن السادس الميلادى التحول ، عن الرسوم الطبيعية بشكل عام ، وهذه الفترة هى التى عاصرت فترة بناء الكنائس الجديدة ، وبدء زوال الصلات والتأثيرات الفنية السابقة " (١) .

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 111.



ثم أصبح الجسم البشرى بعد ذلك يصور فى وضع جاف وثابت تماماً بوتخلت جميع الشخصيات عن العديد من الحركات الطليقة أو حتى الإلتفاتات البسيطة ، من أجل أن تصبح صورة امامية مسطحة ، وأوضح دليل على ذلك صور الآدميين الموجودة فى كنيسة القديس أبولينار التى تصور القديسين كما فى شكل (١٤٢) .

ولقد إستمر تصويره بهذه الطريقة فترة طويلة حتى حلت فترة النزاع الأيقونى التى ركزت بصفة خاصة على تصوير الإنسان ، والتى اثرت على ظهوره فى الفسيفساء البيزنطية ، وحيث كانت سبباً أساسياً فى منع تصويره نهائياً ، وحلت محله الرموز وأشكال الصليب المختلفة ، وبذلك إختفى تصوير العنصر الأدمى فى هذه الفترة بصورة مؤقتة ولكنه سرعان ما عاد إلى الظهور مرة أخرى بعد إنتهاء هذه الحركة المناهضة ، وانتشر بصورة واضحة حيث وجد الفنانون أن هناك دافعاً ضرورياً لتنفيذ هذه الشخصيات ، ويفسر ذلك كل من " تيودور ستوديوم (Theodor Of Studium) و جون الدمشقى (John Of Damascus) بقولهما : إن العلاقة بين الشكل الأسمى وصورته ، هى علاقة تشبه تلك العلاقة بين الرب الأب والمسيح الإبن ، والشكل الأسمى طبقاً للأفكار العقائدية الجديدة ، حيث كان يعتقد أنه ينتج صورته بدافع الضرورة ، وكخلل شئ ماى بنفس الطريقة التى ينتج فيها الرب الأب الإبن ، والترتيب الهرمى الكلى للعالم المرئى هو نتيجة للعالم الغير مرئى ، وهكذا أصبح العالم نفسه سلسلة متصلة من الصور التى تتضمن ترتيباً تنازلياً ، المسيح (صورة الإله) ، ثم الإنسان ثم الأشياء الرمزية ، وكل ذلك ينبع بالضرورة من اشكالها الأصلية المتعددة من خلال الأصل الواحد وهو الإله " (١) .

فلم يكن تصوير الإله فى صورة إنسان هدفاً فى حد ذاته بقدر ما كان الإنسان رمزاً له ، فيبدو السيد المسيح فى صورة الإنسان الذى يعد ظل الإله على الأرض ، وهذا يفسر الإنتقال المفاجئ لتصوير الشكل الأدمى بهذه الصورة ، ومن ثم ظهور العديد من الشخصيات الدينية المختلفة .

وترجع أهمية العنصر الأدمى فى الفسيفساء البيزنطية إلى أنه إستخدم فى تصوير الشخصيات الدينية المقدسة حيث كان للصورة الدينية قدسيته وجلالها ، ويضفى الفنان عليها من الإحترام والتوقير بقدر ما يتناسب مع مكانتها ، لذلك فقد جعل الفنانون

---

(1) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941, P. 6.

البيزنطيون " الشكل الآدمى العنصر الأول فى تكويناتهم الفنية ولهذا لا تكاد ترى فيما تركه الفنانون من منتجات بيزنطية خالصة ، أى الهندسى بالتحوير أو بالتبديل فى الشكل الآدمى ليجارى الأهداف الزخرفية أو التعبيرية ، إذ كان الشكل الآدمى عندهم هو الوسيط المرئى الذى يسمو بالروح إلى كل ما هو إلهى ، ونحو ما هو خارق للطبيعة غير ذاتى " (١) . أى أنه بالرغم من الطابع المجرد الذى إصطبغ به العنصر الآدمى وظهوره بصورة مسطحة بعيدة عن التجسيم إلا أنه لم يفقد أى جزء من أجزائه ، أو إبتعد عن صورته الطبيعية ، أو ناله أى شئ من التحريف أو التشويه فى الشكل العام .

وأهم الشخصيات الدينية التى إستخدم العنصر الآدمى فى تصويرها ، فى الموضوعات الدينية والبيزنطية هى العناصر الثلاثة المكونة للثالوث المقدس (العظيم ذو الجلالة - المسيح - العذراء ) ، بالإضافة إلى صور الملائكة والأنبياء والقديسين ، وفى بعض الأعمال لجأ الفنانون إلى تصوير هذا العنصر للتعبير عن بعض الرموز والأشكال وتجسيد بعض الظواهر الطبيعية .

وفيما يلى يتم تناول كل شخصية من الشخصيات السابقة حسب أهميتها وظروف تواجدها فى هذه الفسيفساء :

## ١- العظيم ذو الجلالة (العنصر الأول فى الثالوث المقدس) :

قل تصوير هذا العنصر فى الفسيفساء البيزنطية ، حيث أن صورة السيد المسيح نفسها تجمع فى إعتقادهم بين هاتين الشخصيتين - الإله وابنه - ، وقد ظهرت صورة الإله بأشكال مختلفة فى هذه الفسيفساء فأحياناً تظهر منفردة ، وأحياناً فى صورة أشخاص عدة ، وفى الأعمال القليلة الأولى التى ظهر فيها الإله ، تم تصويره فى شكل رجل مسن يجمع بين ملامح الخالق والمنقذ معاً ، وهو مفهوم ظهر خلال فترة التحطيم ، وأصبح راسخاً فى الفن البيزنطى خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، وهذا المفهوم يصور فى شكل دائرة مملوءة بالنجوم ويمسك بيده دائرة ترمز إلى الكرة الأرضية يعلوها الشمس والقمر وعلامات فلكية ، وعلى الهالة الثورانية المقدسة كتبت كلمات الخالد الأبدى " (٢) .

(١) ثروت مكاشة ، تاريخ الفن . الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، دارسعاد المسباح ، القاهرة ، ص ٣٦١ .

(2) Dalton, Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press, Oxford, 1911. P. 670.

أما الحالة الثانية التي صور فيها الإله فلم يظهر بصورة شخص واحد وإنما تمثل في صورة ثلاثة اشخاص متجاورين وفي سن واحدة ، تحيط برؤوسهم من الخلف الهالات المقدسة ، وذلك نراه في لوحة الفسيفساء شكل (١٤٣) ، وتبدو فيها الأشخاص الثلاثة يرتدى كل واحد منهم عباءة بيضاء تتقدمهم مائدة تعلوها فطائر ثلاثة ، وفي هذا العمل " يظهر الرب بهذه الكيفية لبشر « سارة » زوجة « النبي إبراهيم » بأنها ستنجب طفلاً في العام القادم ، وهو « النبي إسحق » ، وهي تبتدى إندها شهياً ، وذلك لسنها المتقدمة ، ويجب الرب : أهنك شئ يصعب على الرب " (١) . وهذه اللوحة هي التي صورها الفنان يؤكد ذلك إيماءات الأيدي ونظرات العين والتفات احد الأشخاص براسه نحو « النبي إبراهيم » وزوجته « سارة » في شكل (١٤٤) ، وهي مكملة للمشهد السابق حيث يحمل فيها « إبراهيم » العجل الثمين إلى المتضدة ، ويرى بعض النقاد " أن إحدى هذه الشخصيات هي التي تمثل الرب ، والشخصيتين الأخرتين تمثلان ملاكين كما جاء في سفر التكوين الخاص بهم " (٢) .

وقد تم الإشارة إلى شخصية الرب أيضاً بواسطة كف اليد التي تمتد من اعلى اللوحة الأولى - شكل (١٤٣) - وهذه الطريقة تم الإعتماد عليها في معظم اعمال الفسيفساء وهي تخرج دائماً من بين مجموعة من السحب او من شكل نصف دائرة ترمز إلى السماء ، وترجع أهميتها إلى أنها تبارك الموقف بأكمله موضوع العمل الفني، وهي تظهر في الغالب في أكثر الموضوعات التي تصور السيد المسيح يقوم بمعجزاته في شفاء المرضى أو مساعدة المحتاجين ، والذي يعد ثاني عنصر هام من عناصر الثالوث المقدس .

## ٢- السيد المسيح :

بالرغم من أن المسيح يعتبر العنصر الثاني في الثالوث المقدس إلا أن صورته أصبحت لها الصدارة في جميع أعمال الفسيفساء ، وصار ظهوره في اللوحات شينا أساسياً ، والمحور الرئيسي الذي تدور حوله الموضوعات منذ العصور المسيحية المبكرة ، حتى أواخر العصر البيزنطي ، وإمتد إلى ما بعد ذلك .

وقد كانت هناك بعض الآراء المعارضة التي ترى إستحالة تصوير السيد المسيح في شكل آدمي، ولأن ذلك يؤدي بهم إلى الوقوع في الأخطاء المذهبية التي تفصل في طبيعة

(1) Giuseppe Bovini, Ravenna, Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New York, P. 124.

(2) Loc . Cit.,

السيد المسيح ، فتصويره إنسان وهو يتمتع بصفة الألوهية يجعل له طبيعيتين إلهية وناسوتية ، وذلك يعدوته كفراً ، لذا يبدو جسد السيد المسيح فى لوحات الفسيفساء البيزنطية متجرداً من طبيعته المادية إلى حد كبير ، وقد حقق الفنان ذلك اعتماداً على التصوير الثنائى الأبعاد الذى يعتمد على الطول والعرض فقط فيبدو الجسد مسطحاً بعيداً عن التجسيم .

ولم يكن يظهر بهذه الصورة منذ البداية<sup>(١)</sup> حيث اضفى الفنانون عليه الطبيعة البشرية الخالصة والتي ظهرت فى الأعمال المسيحية المبكرة وخاصة فى مشهد صعود إليعازر ، فنجد تعبيرات وجهه وطريقة تصفيف شعره تبتدو فى هيئة الفليسوف ويرتدى معطف ، وتعلأ فى قدميه ، ويمسك الإنجيل الذى يمثل رمز الفيلسوف<sup>(٢)</sup> . وقد صور أيضاً فى هيئة المحارب الظافر، وفى صورة الراعى الصالح ، فى اللوحتين السابقتين شكلى (١٠١-١) ، (٧٧-١) ، وبالإضافة للإشكال السابقة ، فقد إتخذ شكل السيد المسيح بصفة عامة هئتين متميزتين فى أعمال الفسيفساء ، إما جالساً أو واقفاً ، ففى الأعمال الأولى كان النموذج المستخدم فى تصويره وهو جالساً على العرش يعلو الكرة الأرضية ، " وأقدم الأمثلة على ذلك موجود فى مقابر القديس "بريسيل" من منتصف القرن الرابع الميلادى ، وكذلك أعمال الفسيفساء القديمة فى مدينة رافينا وروما والتي أصبحت نادرة فى الفن البيزنطى بعد فترة التحطيم وفى أعمال قليلة ، صور السيد المسيح جالساً فوق قوس قزح مع وجود كرة أرضية صغيرة عند القدم<sup>(٣)</sup> . والشكل (١٤٥) يصور السيد المسيح جالساً فوق الكرة الأرضية ويتوسط القوس الكسيوس \* وأحد الملائكة من ناحية ، والقديس فيتال وملاك آخر من الناحية الأخرى ( يمين السيد المسيح ) ، ويقفون جميعاً فى مشهد يصور الجنة حيث الأزهار والأنهار الأربعة المتدفقة من بين الشقوق الصخرية والتي تم تصويرها على شكل خصلات مجدولة من الصوفيرالتي تظهر فى قاعدة اللوحة أسفل الكرة الأرضية ، حيث يخرج إثنين من هذه الأنهار على كل جانب ، كما يتبين من شكل (١٤٦) .

(1) Charles Wentluck, The Human Figure in Art From Prehistoric Time to the Present day, Smeets Publisher , Amsterdam , 1972. P. 27 .

(2) Dalton, Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press, Oxford , 1911. P. 672.

(٣) منذ القرن السادس بدأ تصوير مسمى الكنائس بجوار السيد المسيح .

وتجدر الإشارة إلى " أن مشهد الجلوس على العرش هذا يعتمد على التصوير الإمبراطوري التقليدي الذي يشير إلى جلوس الإمبراطور على العرش وحولته المتوسلين إليه ، وهو يمثل نموذجاً مبكراً عن الصيغة التي أصبحت مقياساً في التصوير البيزنطي " (١) .

أما الهيئة الثانية لتصوير السيد المسيح فهي التي لها الغالبية في الظهور في لوحات الفسيفساء ، حيث السيد المسيح الحاكم الأعظم الذي ظهر بصورة مستديمة في قباب الكنائس البيزنطية ، " ويغلب على مظهره العام في هذه الحالة الجمود والصرامة التي تعود إلى الإتجاه نحو الزهد في الفن البيزنطي " (٢) . كما تتناسب هذه الهيئة مع وظيفته كقاض يحكم بين البشر في موضوع الحساب الأخير على سبيل المثال .

وأهم ما يميز السيد المسيح في جميع لوحاته وصوره ، هي حركة اليد اليمنى المرفوعة ، وما يصاحبها من إشارات أصابعه التي يبارك بها جميع البشر .

وإلى جانب الحالات المنفردة التي صور فيها السيد المسيح ، فإنه يظهر أيضاً بجوار العذراء على العرش ، أو يتواجد الإثنين معاً في العمل الفني الواحد، مصورين بحركات وأوضاع مختلفة .

### ٣- العذراء ،

نظراً لأن شخصية العذراء تعد والدة السيد المسيح ، فإنه من المألوف ظهورها معاً في الأعمال الفنية ، وكانت معظم أعمال الفسيفساء البيزنطية تجمع بينها ، وبصورة معينة وخاصة في فترة طفولة السيد المسيح ، حيث تصور وهي حاملة له على ذراع واحدة أو كلا ذراعيها . وهذا التلازم الواضح أثار فضول بعض المؤرخين بحثاً عن مصدره ، ومعرفة سبب ظهورها بهذه الصورة، وقد ذكر "دالتون" (Dalton) في ذلك رأى المؤرخ "سميرنوف" (Smirnoff) الذي أشار إلى " أن نقش الألهة الرومانية على العملات هو السبب في اقتراح هذا النموذج ، وهناك بعض الآراء التي تعتقد أن ذلك يعود إلى تأثير التصوير المصري وخاصة صورة "إيزيس" ، وهي حاملة لطفلها " حورس " (٣) . حيث التماثل الواضح بينهما .

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press , New York 1994 , P. 44.

(2) Dalton, Byzantine Art and Archaeology, Charendon, Oxford , 1911. P. 672.

(3) Ibid, P. 673 .

" وقد اُضيف أن أقدم الأوضاع والأشكال التي اعتمد عليها الفنانون في تصوير العذراء وهي واقفة وتجسد دور الخطيبة ، وذلك يعود أيضاً إلى المنشأ المصري الوثني ، فقد كانت مستخدمة في الأصل في تصوير السيدات أو التعبير عنهن ، ولاحقاً من ذلك فإن ذلك الدور اقتصرت على العذراء التي تحمل المسيح الطفل على ركبتيها، أو تصور داخل ميدالية أو حلية مستديرة على الصدر " (١) .

وفي بعض أعمال الفسيفساء تظهر العذراء واقفة وهي حاملة للسيد المسيح بمفردها في مساحة خالية أيضاً من الأشكال ، وقد ظهرت بهذه الصورة في كنائس عديدة ، نلاحظ ذلك في شكلي (١٤٧ ، ١٤٨) ، حيث نلاحظ فيهما تغير وضع السيد المسيح وإشارات الأيدي ، ففي الأولى ترى كل منهما ينظر إلى المشاهد - المتواجد داخل الكنيسة - والعذراء تمسكه بكلتا يديها ، أما الثانية فنلاحظ فيها إلتفاتة بسيطة من جانب السيد المسيح الذي ينظر إلى أمه ، وهي تنظر في اتجاه أمامي ، كما أنها تحمله بيد واحدة ، واليد الأخرى تشير بها إليه ، وترجع هذه الإختلافات الطفيفة إلى بعض التغيرات التي لحقت بالفنانين وطريقة التصوير الخاصة بهم ، وتنفيذهم لهذه الأعمال حسب طبيعة كل إقليم وتقاليده الفنية ، كما يعود التغير في وضع الجلوس بالسيدة العذراء ، إلى " أنه بعد مرحلة النزاع الأيقوني ( أواخر القرن التاسع الميلادي ) ، فإن صور الشخصيات كان يفضل تصويرها واقفة ، وذلك لأن معارضو الصور إتهموا الفنانين المصورين للعذراء وهي جالسة بالكفر وعبادة الأصنام " (٢) . ولكن بعد الإنتهاء من فترة المنازعات والصراعات تماماً" عاد الفنانون - خلال القرن العاشر والحادي عشر الميلادي - إلى تصوير الشخصيات الواقفة مرة أخرى ، أما الشخصيات الجالسة فقد اقتصرت تصويرها على الأقاليم البعيدة عن تأثير العاصمة ، فكانت صور العذراء في هذه الحالة تعنى الحامية للدولة " (٣) . كما ظهرت في بعض الأعمال " تمثل الحكمة الإلهية ، وقد طغت عليها الطبيعة الإنسانية ، وهي مصورة بهذا الشكل على قوس النصر في كنيسة مونريال وآية صوفيا في كيبف " (٤) .

(1) Loc. Cit.

(2) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941, P. 21.

(3) Loc. Cit.

(4) Dalton, Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press, Oxford, 1911. P. 674.

ومهما اختلف وضع العذراء سواء في الجلوس أو الوقوف أو تغيرت طريقة تصويرها ، فقد اتخذت الوضع الأمامى الثابت ، وذلك حتى لا ينقطع اتصالها بالمشاهد أو المتعبدين في الكنيسة ، وهذا في أغلب أعمال الفسيفساء البيزنطية .

## الملائكة :

تميزت صور الملائكة بأشكال اختلفت في تنفيذها عن الشخصيات السابقة ، وبما انها شخصيات نوراتية التزم الفنان عند تصويرهم في شكل آدمى بإضافة بعض العناصر التشكيلية كالأجنحة الجانبية حتى يتم التعرف عليها ، ويسهل التفريق بينها وبين الكائنات الأدمية الأخرى التى لها خصائص مختلفة عنها ، " وقد كانت الملائكة تصور في أشكال لشخصيات صغيرة شابة وترتدى الرداء الرومانى والمعطف الطويل وبدون الأجنحة ، وتم إضافة الأجنحة بعد ذلك ، على سبيل تقليد الشخصيات التى حققت الإنتصار ، بما ان الصور القديمة عن هؤلاء الملائكة المجنحين تصورهم حاملي الأكاليل ، تماماً مثل الأسلوب المتبع قديماً ، وهذا الشكل ينتمى إلى الفترة الأولى ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين " (١). والنموذج الذى يصور هذه العناصر الأدمية الشابة يتضح في شكل (١١٩) الذى تبدو فيه الملائكة المجنحة تلتفت حول الجامة المستديرة التى يتوسطها الصليب ، وهم رافعين أذرعهم حاملين لها ، وقد تكرر ظهور هذه الملائكة بجانب السيد المسيح والسيدة العذراء في شكل (١٤٥ ، ١٥٠) حيث يظهر مرتدين الملابس البيضاء وتحيط برؤوسهم الهالات النوراتية المقدسة ، وبما يميز صور الملائكة منذ العصور المسيحية القديمة وحتى البيزنطية ، هى ظهورهم حفاة الأقدام على غرار غالبية الشخصيات المقدسة ، وهم في ذلك يختلفون عن الأباطرة اللذين حرص الفنانون في تصويرهم على ارتدائهم لعملاً تظهر معظم أقدامهم ، وقد صورت بعض الملائكة أيضاً في هيئة أزواج متقابلة يحملون التيجان ، كما في فسيفساء كنيسة القديس « هيتال » شكل (١٧) ودير القديسة كاترين " .

وأشهر صور الملائكة التى ظهرت في الفسيفساء البيزنطية كانت تخص الملاك «جبريل» وهو كبير الملائكة الذى نتبينه في شكل (١٥١) ، وأكثرها يميزه ضخامة جناحيه اللذين امتدا على مساحة واسعة يميناً ويساراً ، كما ظهر هذا الملاك في العديد من موضوعات الفسيفساء كما في آيا صوفيا ، شكل (١١٥) .

(1) Ibid , P. 675.

وقد شاع تصوير الملاك ميخائيل في عهد الإمبراطور « جستنيان » ، كما قل ظهور الملاك راغائيل ، الذي يبدو في شكل (١٥٢) في أعمال الفسيفساء البيزنطية ، وجميع هذه الملائكة يظهرون بالرداء الإمبراطوري الذي يتكون من الرداء اليوناني الطويل والسترة المربعة ، وفي القرون التالية عندما أصبح هذا الشكل المميز مألوفاً ، أصبحوا يرتدون الرداء الإمبراطوري المطرز، وبعد ذلك ارتدوا وشاح الإمبراطور « قسطنطين » ،<sup>(١)</sup> .

وبالإضافة للأشكال السابقة للملائكة فقد كانت هناك بعض الملائكة الصغيرة التي كانت تصور مع السيد المسيح بفرض حراسته عند ميلاده ، أو كما ظهرت أيضاً في مشهد وفاة العذراء ، أو مشهد ( موضوع ) البشارة ، والطرء من الجنة والتي ظهرت في أغلب موضوعات الفسيفساء داخل الكنائس إلى جانب بعض صور للقديسين والحواريين .

## الشخصيات الثانوية :

إلى جانب عناصر الثالوث المقدس والملائكة، والشخصيات الدينية الأساسية في الفن البيزنطي ، فقد كان هناك أيضاً بعض الشخصيات كالأنبيا والحواريين والإنجليين والقديسين ، والتي تعد من العناصر الأدمية الكاملة والدعم للشخصيات الأساسية السابقة في لوحات الفسيفساء ، وهذه الفئات الأربعة قد تم الإعتماد عليها بصورة واضحة في جميع الموضوعات والإحتفالات الدينية منذ الفترات المسيحية الأولى ، وحتى أواخر العصر البيزنطي ، في كافة أرجاء الإمبراطورية ، وهذه الشخصيات بالرغم من قداستها ، إلا أنها صورت في أشكالها الأدمية الحقيقية نظراً إلى طبيعتهم الإنسانية الخالصة ، وبذلك إحتفت الأجنحة - التي كانت تخص الملائكة فقط - وظلت فقط الهالات المقدسة تحيط برؤوسهم ، وقد تم تصوير بعض الأنبياء مثل النبي ﴿ إبراهيم ﴾ الذي ظهر في شكل (١٤٤) مع زوجته ﴿ سارة ﴾ وكلاً من النبي ﴿ موسى ﴾ ، والنبي ﴿إلياس﴾ اللذين يقفان بجوار السيد المسيح في موضوع التجلي\* - النبي ﴿ موسى ﴾ على يسار السيد المسيح ، النبي ﴿ إيلياس ﴾ على يمينه - الذي صور على جدران الكنائس، كما سبق رؤيته في شكل (١٢٦) - أو على اللوحات الصغيرة المنفصلة .

والشكل (١٥٢) يظهر فيه النبي ﴿ موسى ﴾ مصوراً في سن صغيرة ويتسلم الوصايا العشر من الرب الذي أشير إليه باليد التي تخرج من السماء ، وقد صور ثلاثة من الحواريين في موضوع التجلي وهم على التوالي : ﴿ يوحنا ، بطرس ، ويعقوب ﴾ .

(1) Op. cit., P. 676.

(\*) يختص ظهور الهالات المقدسة خلف رؤوس النبيين والحواريين في فسيفساء القديسة كاترين .



وكان الحواريون دائماً يظهرُونَ بصحبة السيد المسيح في كثير من لوحات الفسيفساء التي تحمل موضوعات الإحتفالات الدينية، وهم عادة يصورون معاً في مجموعات ، أو في تتابع مستمر كما في موقع التعميد الأرثوذكسي ، وفي مشهد تتويج السيد المسيح .

وقد تميز الحواريون عند تصويرهم بيهتمام الفنانين بإظهار فارق السن ، والأعمار المتفاوتة بينهم ، والتي تتضح من خلال تباين ألوان الشعر ، كما في لوحتي خيانة يهوذا والعشاء الأخير ، شكلى (٤٧ ، ٨٠ د) ، وهاتان اللوحتان تعبران من أوضاع الأمثلة التي تبين تجمعات الحواريين مع السيد المسيح .

وقد ظهرت أيضاً صور القديسين في مجموعات أو في صورة أزواج ، وكان تصويرهم بهذه الكيفية يعتبر أحد الرموز الخاصة للتعبير عن إنتصار العقيدة المسيحية <sup>(١)</sup> ؛ كما ظهرت حالات منفردة ، ومن أهم القديسين اللذين إهتم الفنانون بتصويرهم هم رجال الدين اللذين كان لهم دوراً هاماً في نشر الديانة المسيحية ، والشهداء أصحاب البطولات مثل القديس "لورانس" في شكل (٤٤) ، والقديس "فيتال" الذي صور بالملابس الرسمية الرومانية، وهي كما نرى في شكل (١٥٤) عبارة عن الرداء القصير المشدود على الخصر من خلال النطاق المحلى بالجواهر والعباءة الطويلة المثبتة في أعلى الكتف الأيمن ، والتي تتضمن نماذج هندسية من المربعات والدوائر والأشكال المثمنة المترابطة ، وكما نلاحظ إمتداد يديه المغطاه بهذه العباءة ليتسلم التاج من السيد المسيح ، " وهي علامة على التبجيل والتمجيد الذي شاع في الفن المسيحي القديم، وذلك لأن الإنسان العادى الذي كان يقترب من الإمبراطور ليسلمه أى شئ أو يحصل منه على أى شئ يجب عليه تغطية يديه بأطراف ردا له ، وهذه الحركة مصورة على الآثار في الشرق وشائعة جداً في فسيفساء مدينة رافينا <sup>(٢)</sup> .

وفي شكل (١٥٥) نرى صورة القديس "جورج" - والذي يظهر بمفرده في مساحة مستقلة من الجدار - وهو يرتدى الملابس الرسمية الرومانية ذات النقوش المنهبة التي تبدو أكثر فخامة من ملابس القديس "فيتال" ، كما نلاحظ أنه صور بلامح شابه كما يتضح أيضاً من لون الشعر ، بالمقارنة بلامح وجه القديس "فيتال" ولون الشعر الذي بدى عليه الكبير بشكل ملحوظ .

(1) Op. cit., P. 678.

(2) Guisepp Bovini, Ravenna, Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New york, P. 54.

وقد صور الفنانون بعض القديسين أثناء تأديتهم مهامهم الوظيفية، مثل القديس يوحنا المعمدان الذي يظهر دائماً يقوم بعملية التعميد للسيد المسيح في موضوع التعميد المصور في أغلب الكنائس المسيحية والبيزنطية ، كما كان أكثر القديسين ظهوراً مع السيد المسيح والعذراء، كما في لوحة الضراعة ، شكل (١٥٦) .

والقديس يوحنا كان يصور في أشكال مختلفة حسب الأهمية أو الشخصية التي يعبر عنها، فعند تصويره كحواري يظهر بصورة شاب بدون لحية ، بينما يبدو في شكل رجل مسن له لحية عند تصويره رجل إنجيلي .

إلى جانب الشخصيات الدينية السابقة فقد وجدت بعض الصور الدنيوية لأباء الكنائس ومؤسسيها وصور للسيدات والأباطرة ، وبعض صور لرجال الحرس الإمبراطوري ، كما ظهرت أيضاً صوراً للأطباء اللذين يعالجون المرضى بدون مقابل مادي ، وكان يفضل تصويرهم بالقرب من الأضرحة ، أما المحاربون المقدسون فيصورون على الأعمدة والأقواس في القبة المركزية .

ونرى في شكل (١٥٧) صورة لأحد الجنود ، كما يتضح من ملابسه ، والأدوات المستخدمة في القتال ، كالسيف والدرع في يده اليسرى .

وقد ظهرت أيضاً بعض الشخصيات الشريرة والشياطين التي كانت تصور في شكل عناصر آدمية مجنحة ، وعادة يصورون في مشهد الغواية .

كما اعتمد على العنصر الأدمي في الفن البيزنطي في تجسيد بعض العناصر الموجودة في الطبيعة مثل الأنهار ، والجبال والشمس والقمر، أو التعبير عن بعض الرموز التي كانت تصور في شكل آدمي ، " وتجسيد هذه الأمور المعنوية بهذه الطريقة قد ورثها الفن البيزنطي عن الفن اليوناني ، وأشهر هذه التجسيديات تتمثل في تجسيد نهر الأردن في مشهد التعميد " (١) . والمصور في هيئة رجل مسن يجلس على يمين السيد المسيح ، ويتميز بالجسد الضخم النصف عاري ، والشعر الطويل واللحية وكلاهما نفض باللون الأبيض ، وكما يتضح من الشكل (١٥٨) فإنه قد اتخذ وضعاً يتناسب تشكلياً مع الإطار الدائري المحيط بالمشهد ، ويتدفق الماء خلفه من خلال قدر صغير ، ويستمر تدفق الماء ليغطي جسد السيد المسيح .

(1) Dalton, Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press, Oxford , 1911. P. 679.

وهناك بعض " التجسيدات الشهيرة في الفسيفساء البيزنطية مثل تجسيد الحياة والحظ في هيئة الشباب ، وتجسيد السنة في شكل شخصية انثوية ، ... وأما تصوير شهور السنة والفصول الأربعة فاعتمد على صور نصفية أو أشكال آدمية كاملة ، كما أن الروح قد جسدت أيضاً من خلال العناصر الأدمية الصغيرة ، ونفس هذه المعالجة اتبعت في تجسيد روح العذراء المتوفاة " (١). شكل (١٥٩) .

وأشهر هذه التجسيدات هي تجسيد مدينة الأموات في مشهد الجحيم ، شكل (١٦٠) ، حيث تظهر أبواب الجحيم في شكل آدمي له شعر ولحية رمادية توحى بتقدم السن ، ويظهر السيد المسيح واقفاً فوقها ليحطمها ويمد إحدى ذراعيه ليمسك بذراع آدم ليصعد به إلى الجنة ، ويمسك باليد الأخرى الصليب الذي يبدو أكثر استطالة من الأشكال السابقة للصليب .

وفي لوحة شكل (١٦١) وهي عبادة المجوس ، يتجلى نوع آخر من التجسيدات ، حيث نجد ثلاث شخصيات يظهرون في تتابع مستمر يقدمون الهدايا للعذراء والسيد المسيح ، وهم ثلاثة من ملوك المجوس "الذين يمثلون رموزاً للقارات الثلاثة المعروفة للعالم وقتذاك ، وهي آسيا وأفريقيا وأوروبا" (٢) . وهذه القارات هي التي تجسدها العناصر الأدمية التي تنحني أمام السيد المسيح ، وعادة يصورون بهذه الملابس ذات الطابع الشرقي كما يتميزون بالأعمار المتفاوتة ، وقد سبق تصويرهم أيضاً يتقدمون مكبب القديسين في كنيسة القديس أبولينار الجديدة .

## ● الجسد العاري في الفسيفساء البيزنطية :

في نهاية الحديث عن تصوير الجسم الإنساني في الفسيفساء البيزنطية ، ينبغي الإشارة إلى نقطة هامة ألا وهي تصوير الجسد العاري في هذه الفسيفساء ، والذي يتضح من ملاحظة هذا العنصر البشري في أعمال الفسيفساء الكثيرة والمتنوعة ، أنه نادراً ما يصور بهذه الكيفية ، كما إقتصر ذلك على شخصيات بعينها ، وذلك يرجع إلى بعض الأسباب :

(1) Loc. Cit

§١٤٢.

(2) Paul Zucher, Style in Painting, Dover Publications, New York, 1963, P. 54.

- أولاً : طبيعة الفن البيزنطى الدينية التى فرضت عليه سمات وموضوعات خاصة ،  
والتي نظرت من خلالها إلى العنصر الأدمى على أنه مجرد أداة أو رمز لبعض  
الأحداث والقصص الدينية التى بدورها تخدم العقيدة ، ولم تنظر إليه كعنصر  
جمالى ومستقل فى حد ذاته ، كالفنون الإغريقية على سبيل المثال .
- وثانياً : تأثير الدين الإسلامى على الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية ،  
حد من تصوير العنصر الأدمى بهذه الطريقة ، وخاصة بعد فترة التحطيم التى  
رفضت تصوير الكائنات الحية بشكل عام .
- وثالثاً : نوعية الموضوعات التى ظهرت فى الفسيفساء البيزنطية والتى كانت تهتم  
بموضوعات دينية بحتة ، وبذلك لم يكن هناك مجالاً لتصوير جسد الإنسان  
عارياً إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

ونتيجة لهذه الأسباب السابقة ، نجد ان الفنان البيزنطى لم يهتم  
بالنسب التشريحية ، كما أن تصوير الجسد العارى كثر ظهوره فى الأقاليم الغربية من  
الإمبراطورية - البعيدة عن التأثيرات الشرقية - والأقاليم التى ظهرت بها التأثيرات  
البيزنطية فى الغرب أيضاً ، ونرى أمثلة لهذه النوعية من التصوير منذ بداية العصور  
البيزنطية، حيث يظهر جسد السيد المسيح عارياً فى موقع التعميد والمياه تغطى النصف  
الأسفل من جسده ، شكل (٧٩) .

كما يتكرر تصوير جسد السيد المسيح عارياً أيضاً على الصليب فى موضوع  
الصلب ، وفى اللحظة التى أعقبت النزول من على الصليب ، شكلى (١٢٥)،(١٣٧) ،  
وكان الغرض من ذلك هو رغبة الفنان فى تفاعل المشاهد مع الحدث ، ووصف الآلام التى  
كان يشعر بها السيد المسيح ، والتى انعكست على الملامح التشريحية لجسده .

ومن الموضوعات الدينية التى صور فيها الجسد البشرى عارياً ، هى موضوعات  
الخلق ، والإغواء والطرود من الجنة ، والحساب الأخير ، وقد صورت هذه الموضوعات على  
جدران كنيسة بلاتينيا بباليرومو، وجدران القبة فى مدخل كنيسة القديس(مرقس  
بشيتسيا).

فى شكل (١٦٢) يصور موضوع الإغواء والطرود ، حيث نرى فى اليسار -  
موضوع الإغواء - كلاً من آدم وحواء يقفان فى وضع متقابل أمام شجرة التفاح ، وجسد  
كل منهما عارياً تماماً ، وعلى اليمين من نفس الجدار يصور موضوع الطرد ، حيث يشير  
السيد المسيح المرتدى عباءته المميزة إلى كل من آدم وحواء بالخروج من الجنة ، وقد حرص  
الفنان على التعبير عن هذا المعنى بحركات راسيهما وذراعيهما وملامح وجهيهما .

أما قبة كنيسة القديس مرقس فهي تحتوى على جميع هذه الموضوعات السابقة ، والتي تم تصويرها فى مقاطع رأسية داخل المساحات الثلاثة الدائرية التى تحيط بمركز القبة ، وقد تكررت اشكال آدم وحواء فى كل مقطع حسب موضوع المشهد المصور ، كما نرى فى شكل (١٦٣) .

ونلاحظ فى تصوير هذه الأجساد بصفة عامة ، الإفتقار إلى المنظور وتجاهل النسب التشريحية فظهرت الأجسام مسطحة وعديمة التناسق ، ويقول فى ذلك بول زوشر (Paul Zucher) : " إن معالجة الجسم البشرى تكشف عن آثار من التقليد الرومانى التى ظلت باقية ونافذة فى الفن البيزنطى ، ولذلك فإن الحركات حرة والمشاعر واضحة وتتناقض مع الطبيعة ، بينما التشكيلية الصارمة للتقليد البيزنطى تسود هذه الأعمال بوضوح " (١) .

## ● الصورة الشخصية ،

تعتبر الصورة الشخصية من أهم الأعمال الفنية التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعصر ، كما انها تعد أكثر هذه الأعمال التى تكشف عن اتجاهات عصرها وتحدها ، وذلك بالمقارنة بأى نوعية أخرى من الموضوعات المصورة التى يتحكم فيها الفنان ويصوغها وفقاً للمقاييس الجمالية التى تميز عصره .

والعنصر الأساسى فى هذا العمل هو الشخصية الماثلة أمام الفنان ، والتى يهتم فيها الفنان بنقل الملامح الخاصة بها والمميزة لها ، أى أن الأمر يتعدى أكثر من تصوير وجه آدمى فقط ، وذلك هو سر نجاح العمل الواحد ، حيث أن الفنان يهتم أيضاً بالمعنى الأدبى فهو ينقل الطابع الخاص بالشخصية المصورة سواء كان ذلك يمثل تلميحاً لطباع هذه الشخصية بشكل عام أو التركيز على إحدى هذه الطباع السائدة وفى سبيل ذلك يتغاضى عن بعض التفاصيل الغير ضرورية .

ومع أن الصورة الشخصية كما يراها بول زوشر ، تختلف من حيث أشكالها الواقعية وعلاقتها الجمالية ، إلا أن أهدافها مشتركة من حيث ثلاثة جوانب أو أهداف رئيسية هى : وصف الشخصية المرسومة ( أو التماثل الوصفى ) ، والبصيرة النفسية ، والترابط التشكلى التصويرى ، والإهتمام بأى جانب من هذه الجوانب السابقة يعتمد

(1) Ibid , P. 20 .

على الفترة الزمنية التي ينتج فيها العمل الفني<sup>(١)</sup> . فضلاً عن إختلاف اساليب الفنانين وإختلاف رؤيتهم التشكيلية فى العصر الواحد .

أما الفن البيزنطى فقد إتخذت الصور الشخصية طابعه المميز فظهرت الشخصيات المصورة بالوجوه ذات التعبيرات الجافة والنظرات الجامدة للأعين ، وبالأجسام الثابتة المسطحة .

### ● الصور الثنائية والجماعية :

لم تظهر صورة الشخصية الواحدة فى اللوحة فقط ، وإنما ظهرت ايضاً اللوحات التي تضم أكثر من صورة وهى الصور الثنائية والجماعية ، وفى هذه الحالة لم تصبح اللوحة نتيجة إتصال الفنان والشخصية الواحدة الجالسة أمامه فقط ، وإنما أصبح الوضع أكثر تعقيداً ، وذلك لأن وجود الإثنين من الشخصيات لن يتم تصويرهما بنفس الطريقة السابقة ، مما يجعل الفنان يلجأ إلى خلق نوع جديد من الربط بين عناصره المصورة عن طريق الأوضاع والنظرات المتبادلة التي تنتج الموضوع المراد تصويره ، بعد أن كانت اللوحة عبارة عن تسجيل مجموعة من الإنفعالات والإستجابات الشعورية الداخلية للفرد الواحد .

والفنان يجد صعوبة أكبر عندما يقوم برسم مجموعة من الأشخاص المتجمعة ، لأنه فى ذلك يحاول تحقيق الإنسجام والترابط الروحى بينهم ، بدلاً من جلوسهم فى أوضاع رتيبة لا إتصال فيها ، كما ظهرت طريقة جديدة فى هذه الحالة وهى الخلفية ذات المنظر الداخلى مما يوحد أو يفسر سبب تواجد هذه الشخصيات معاً ، وقد تظهر هذه الشخصيات ايضاً داخل المنظر الطبيعى ، ولكن يقل ترابط الأشخاص فيها عن المنظر الداخلى ، وقد توافرت هذه النوعية من الخلفيات بصورة كبيرة فى القسيساء البيزنطية والتي تجمع بين العديد من الشخصيات المتجمعة ، كما يبدو فى شكل (١٦١) .

وكما كان موضوع المشهد المصور ينقل حدثاً معيناً تاريخياً أو دينياً ، كلما إزداد تفاعل المشاهد أو المتدوق له ، حيث يتحول نظر المشاهد عن الوجوه والشخصيات وينصب إهتمامه على الأفعال والحركات محاولاً إستنباط الموضوع القائم عليه العمل الفنى ، وفى هذه النوعية من الصور الشخصية تتجه أنظار الأشخاص الجالسين - المصورين داخل

(1) Op. Cit. , P. 127 .

العمل - نحو الشخصية الأساسية والتي تظهر بصورة واضحة في الحوارات المقدسة بين العذراء والسيد المسيح والقديسين، أو الموضوعات التي تصور الولائم والإحتفالات الدينية مثل العشاء الأخير ، أو الحساب الأخير .

### ● أهمية الصورة الشخصية في الفسيفساء البيزنطية :

تتلائم الصورة الشخصية تلازماً واضحاً مع العنصر الأدمى في الفسيفساء البيزنطية ، بل وتدعمه في كثير من الأعمال التصويرية ، وكما إنقسمت الموضوعات الفنية في العصر البيزنطى إلى دينية ودينيوية ، فقد كان من الطبيعى أن تظهر العناصر الأدمية والصور الشخصية التي قامت عليها هذه الموضوعات في فسيفساء الكنائس ، ونادراً ما كانت تظهر هذه الصور الشخصية في لوحات منفصلة أو مستقلة بالمقارنة بفنون العصور الأخرى - حيث أن أغلبها كانت متصلة بالجدران الداخلية للكنائس ، وكان الإنتشار الأوسع لصور الوجوه الدينية ، أما صور الوجوه الدينيوية فقد ظهرت في بعض لوحات الفسيفساء ، ففي بداية العصر البيزنطى في أرضيات القصر المقدس بالقسطنطينية نجد أن الفنانين إعتدوا في تصويرهم على الوجه الأدمى في زخرفة الإطار الخارجى المحدد للمساحة الكلية للأرضية ، وكما يبدو في شكل (١٦٥) ، وهذا " الوجه يخص أحد القادة القوطيين اللذين هزمهم الإمبراطور البيزنطى " (١) . وهو مرسوم داخل حلقة دائرية زخرفية ويتمتع بالوضوح والدقة المتناهية في تصوير الملامح .

وأشهر الصور الشخصية الدينيوية في الفسيفساء البيزنطية هما صورتى الإمبراطور " جستنيان ، والإمبراطورة " تيودورا ، والتي حرص الفنان فيهما على إظهار ملامح القوة والجلالة بما يليق بمكانتهما الملكية .

فضلاً عن بعض الصور الشخصية التي تخص أفراد الحاشية أو البلاط الملكى ، فكما يبدو في شكل (١٦٦) ، صورة لرئيسة سيدات الحاشية وتدعى "جوانينا" \* ، بالإضافة إلى صور الأباطرة في موضوعات التصوير الإمبراطورى ، كما في صورة الإسكندر مثل شكل (١١٦) ، والصورة الخاصة بالكسيوس - ابن الإمبراطور حنا الثانى كومنينوس والإمبراطورة إيرينى شكل (١١٩) - والتي إحتلت جزء جانبى من الجدار المجاور للوحة والديه ، كما نرى في شكل (١٦٧) .

(1) David Talbot Rice, Art Of the Byzantine Era , Thames And Hudson, LTD . London , 1963 , P. 53 .

(\*) هذه السيدة إبنة القائد بليزاريوس القائد الأعلى فى الجيش البيزنطى .

أما الصور الشخصية الدينية فيختلف مفهومها في التصوير البيزنطي عن مفهومها في أنواع التصوير الأخرى ، ويرجع ذلك إلى أن الهدف من تصوير معظم هذه الشخصيات المقدسة ، لم يكن بدافع تصوير الشخصية بعينها ، وإنما تقديساً لها. وكما أن معظم الوجوه المصورة في لوحات الفسيفساء لم تكن بالقطع تحمل الملامح الأصلية أو الطبيعية ، كاللوحات الخاصة بتصوير عناصر الثالوث المقدس ، التي يمكن أن نجزم بأن أصحابها لم يجلسوا قط أمام الفنان لتصويرهم في لوحاته ، وإنما اعتمد على قدسيتها وصفاتها الروحية التي حاول الفنان من خلالها التعبير عن ملامحهم الخاصة ، والتي نلاحظ فيها بالرغم من ذلك - أنها لم تختلف كثيراً منذ بداية العصور البيزنطية حتى آخرها . وكذا ينطبق الحال على صور وجوه الملائكة والإنجيليين ، إلا صور القديسين ورجال الدين، حيث يتبين فيها إختلاف ملامح كل قديس عن الآخر فقد كانت تصور شخصيات حقيقية بعينها ، وتتمتع بمكانة خاصة لدى الأفراد .

وعند النظر إلى صورة وجه السيد المسيح علي سبيل المثال - نجد أنها إتخذت بعض الملامح والصفات والأوضاع التي يسهل إدراكها بمجرد النظر إليها ، فقد اعتمدت صورة السيد المسيح على شكلين إثنين ، " الصورة اليونانية حيث السيد المسيح مصوراً على أنه شاب صغير بدون لحية ، أما الصورة الشرقية فيظهر فيها في صورة رجل ناضج في سن الثلاثين له شارب ولحية قصيرة وشعر طويل يتدلى على الأكتاف ، ولكن في التصوير اليوناني فإنه يصور أحياناً بشعر طويل وأحياناً قصير ، والنموذج الذي يتضمن اللحية موصوف بأنه النموذج المسيحي ويبدو أنه صدر من فلسطين " (١) .

وهذان النموذجان نراهما في الشكلين (١٦٨)،(١٦٩) ، فالصورة الأولى هي صورة نصفية للسيد المسيح داخل حلية جدارية ، وتبدو على ملامحه صغر سنه وتحيط برأسه الهالة المقدسة بداخلها الصليب المطعم بالصدف والأحجار الكريمة ، أما الصورة الثانية فيظهر فيها السيد المسيح الملتحي ، التي أصبحت من النماذج الشائعة في القرن العاشر الميلادي (٢) . وهو مصور جالساً على العرش ، بيد مرفوعة بحركتها المميزة ، ويجب الإشارة هنا إلى " الأخطاء التي وقع فيها المرممون في منتصف القرن التاسع عشر حيث يظهر الصولجان ذو اللون الأحمر في يده اليسرى ، وقد كان السيد المسيح من قبل مصوراً يحمل كتاباً مفتوحاً على النص ، أنا هو ملك المجد ، ... ، وقد تم تصويره ملتحياً بالرغم من أن تصويره في رافينا يعتمد على النموذج عديم اللحية " (٣) .

(1) Dalton, Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press Oxford , 1911. P. 672.

(2) Paul Zucher, Style in Painting, Dover Publications, Inc., New York , 1963, P. 69.

(3) Guiseppe Bovini, Ravenna, Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New york, P. 100 .



وأهم ما يميز فسيفساء الصور الشخصية خلال هذا العصر، هو أنها إتخذت أحجاماً متناهية في الصغر، سواء في مساحتها الكلية أو أحجام القطع داخلها، فكانت في النهاية عبارة عن لوحات صغيرة محمولة تحتوى على صورة نصفية للشخصيات المقدسة، كالسيد المسيح والعذراء وبعض رجال الدين، وأهم هذه الأعمال، الصورة النصفية التي تخص السيد المسيح في شكل (١٤٠) -

كما ظهرت لوحات كاملة صور فيها الجسم الأدمى بأكمله، مثال ذلك صورة النبي «صمويل» الذي يبدو في شكل (١٧٠) واقفاً يصلى ويتجه ناحية اليمين - يمين اللوحة - حيث تظهر إشارة للسماء في الركن العلوي منها .

ومن أشهر الصور الثنائية في هذه اللوحات، صورة القديسة أن التي صورت بكامل جسدها وهي تحمل العذراء . وصورة أخرى تظهر فيها العذراء تحمل المسيح طقلاً، ولكنها هنا تبدو في وضع نصفى كما في شكل (١٧١)، وهي تحمل السيد المسيح وهو يحاول تطويقها بذراعيه في وضع ملئ بالرفقة والحنان والذي ننتبئه أيضاً من خلال نظرات أعينهما . كما تتداخل الهالتان المرسومتان خلف رأسيهما، واختص السيد المسيح برسم الصليب القضى اللون داخل الهالة الخاصة به، وبدت العذراء بزياً المعتاد ذو اللون الأزرق الموشى بالخطوط الذهبية، في حين ارتدى السيد المسيح عباءة ذات لون ذهبي خالص. وخلفية اللوحة منقذة بالمكعبات الذهبية تخللتها كتابات يونانية باللون الأحمر .

وهناك نموذجين للصور النصفية لشخصيتين مقدستين تتمتع كل منهما بتأثير ديني قوى على الأفراد، ففي شكل (١٧٢) تظهر صورة " القديس نيكولاس (Nicholas) الملقب بصانع المعجزات " (١). وشكل (١٧٣) يصور القديس جون كريسوستوم (John Chrysostom) وذلك يتضح من النقش المحرر في الخلفية على جانبي الهالة المقدسة، " ويعنى القديس يوحنا ذو القم الذهبى، وهو أحد القديسين القلائل اللذين حظوا بالتبجيل في الكنائس الشرقية والغربية " (٢) .

ونلاحظ في هاتين اللوحتين التشابه الكبير في وضع الشخصية في كل منها، وحركة اليدين، وإشارات الأصابع، وكلاهما يحمل الإنجيل بيده اليسرى، وهو مماثل لوضع السيد المسيح المصور في قباب الكنائس الذي يحمل الإنجيل ويبارك بيده اليمنى

(1) Alice Bank , Byzantine Art , Aurora Art Publishers Leningrad, 1977 - 1985, P. 230 .

(2) P. B. Hetherington, Mosaics , Paul Hamlyn , London , 1967 , P. 28 .

ويظهر الإختلاف فى الملابس والملامح الخاصة بكل منهما ، حيث يظهر القديس «نيكولاس» برأس بيضاوى ويتميز بشمر وشارب ولحية ، نفذوا جميعاً باللون الأبيض ، ورسمت خلف رأسه هالة إختلفت فى شكلها عن الشكل المعتاد، حيث إمتلأت بعدد كبير من الصليبان الصغيرة التى تبادلت اللون الأخضر والأحمر على الخلفية الفضية .

أما رأس القديس « جون » فهى كبيرة الحجم ووجهه يتخذ الشكل المثلث فهو يحتوى على جبهة عريضة مجعدة ، وذلك دلالة على عبقريته وثقافته الواسعة - التى عرفت عنه والتي أراد الفنان التعبير عنها بهذه الصورة - ، وإختلف لون خصلات الشعر الشارب واللحية عن اللوحة السابقة حيث نفذها الفنان بالدرجات البنية .

وقد تكرر شكل الهالة المرسومة خلف رأسه ، ولكن مع زيادة صغر أحجام الصليبان المرسومة بداخلها والتي بدت خلفيتها بيضاء اللون ، واللوحة بأكملها منفذة على خلفية ذهبية .

وبالإضافة إلى الأمثلة السابقة للصور الشخصية ، فقد كانت هناك صوراً للعناصر الأدمية التى يتم التعرف عليها دون النظر للملامح الوجهية ، وذلك من خلال بعض الصفات المرتبطة بها أو بعض الرموز المتلازمة معها أو نقش يعبر عنها ، وذلك فى حدود معينة حتى لا تجذب إنتباه المشاهد إليها وتصرفه عن الشخصية الأساسية ، وكان الفنانون فى تحقيقهم لهذه الأهداف يتجهون إلى تصوير هذه الشخصيات أو العناصر الأدمية وتوزيعهم فى أماكن خاصة داخل الكنائس ، كما إتخذت هذه الشخصيات صفات وأوضاع تشكيلية مميزة . فقد إحتلت معظم المساحة الرئيسية ، كما حرصوا على تصوير هذا الشكل فى وضع المواجهة فهو ينظر مباشرة إلى المشاهد ، وذلك تنبيهاً فى غالبية الفسيفساء التى تظهر بها صورة السيد المسيح ، والعذراء والقديسين ... إلخ ، وذلك فى حالة الصورة المنفردة .

وقد تميزت صور الأدميين والوجوه بهذا الوضع الأمامى بفرض التعبير عن قداساتهم ، والوجود الضلعى لهم فى الكنائس بالنسبة للمصلين أو المتواجدين داخلها ، وكانت الوسيلة الوحيدة فى إعتقادهم للتحدث مع هذه الشخصيات المقدسة ، من خلال هذه الصورة حيث أنها تحيط بالصحن أو قاعة الكنيسة من كل الجوانب ، وبالرغم من أن هذا الوضع من أهم مميزات تصوير العنصر الأدمى فى الفسيفساء البيزنطية ، إلا أن أصوله ترجع إلى الفنون الشرقية حيث " أن أقدم تمثيل كامل فى التصوير - ليس فقط للإله وإنما لما تحى القرايين والكهنة - فى إتجاهات أمامية توجد فى بلاد النهرين ، وفى

دورا أوروبوس ، والتأثير الكبير للفن الفارسي في الشرق الأدنى ، لاسيما في سوريا والأناضول ، كان له أكبر الأثر على سيادة الصورة الأمامية في التصوير البيزنطي " (١). والذي كان سبباً كبيراً في وجود هذا الطابع المتشدد الذي سيطر على أشكال العناصر الأدمية ، والذي ظهر بصورة واضحة في صور السيد المسيح والعذراء - الصور المنفردة - أو في صور القديسين المتجاورين في أغلب الكنائس . أما في صور التجمعات التي يتواجد فيها أكثر من شخص فلا يتناسب تصوير هذه العناصر الأدمية في وضع المواجهة وخاصة في حالة تصوير موضوع معين كحدث ديني أو تاريخي - حيث يختفى التفاعل بين الأشخاص وبعضها ، فأصبحت الطريقة المثلى لتصوير الوجه هي الوضع الجانبي لشخصين متقابلين ، وكلما زادت تجمعات الأشخاص تظهر الشخصية الأكثر قدسية في وضع المواجهة كما في لوحة السيد المسيح أو العذراء التي تنتمي لموضوعات التصوير الإمبراطورية .

أما في بعض مشاهد الإحتفالات الدينية مثل الصعود والبشارة والتعميد والدخول إلى القدس ... إلخ ، والتي يعتبر الحدث فيها هو الأساس فقلما نجد وجه آدمي في وضع المواجهة وفي هذه الحالة يتم إنفصال المشاهد عن الشخصية المصورة ويتبقى إنفعاله مع الحدث نفسه .

ولذلك لجأ الفنانون إلى طريقة جديدة في وضع الجسم الإنساني الذي إتخذ ثلاثة أرباع الجسد ، وفي حالة ثبات الجسد في وضع أمامي أو جانبي يظهر الوجه بهذه الطريقة - ثلاثة أرباع الوجه - " التي أصبحت من الأنماط السائدة في التصوير البيزنطي ، والتي تظهر بصورة واضحة في الصور التصفية المرسومة داخل الميداليات الدائرية وخاصة في دافني التي لم تعد فيها الصور الأمامية المتشددة هي المبدأ الأساسي ، حيث تم الإعتماد على الإتجاهات المائلة للوجوه ، فصارت تناسب المفهوم الجديد الذي إعتد على الميدالية كشكل من أشكال التخيل والتي تعتبر أول علامة من علامات الإرتخاء والتخفيف في نظامه المتشدد " (٢) . وكما نرى في شكل (١٧٤) موضوع الدخول إلى القدس يتضح فيه الإستغناء التام عن الصورة الأمامية ، وظهرت فيه جميع الشخصيات في أوضاع مختلفة ، تربط بينهم الوحدة النفسية للعمل المصور .

(1) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941, P. 44.

(1) Ibid, P. 29.

وقد احتلت صور الشخصيات والوجوه الأدمية مواقع معينة خصصت لها داخل الكنائس - بخلاف اللوحات الصغيرة المحمولة التي شغلت منطقة المذبح - وذلك تبعاً للأوضاع المختلفة التي إتخذتها ، فقد تنوعت أوضاعها بين أشخاص جالسين ، وأشخاص واقفين حيث يبدو الجسم بطوله الكامل ( بأكمله ) ، وصور شخصية تصفية تصور الجزء العلوى من الجسم ، وأخيراً الميداليات .

وتتخصص صور الأشخاص الجالسين في صورة السيد المسيح على العرش والعتراء كذلك ، سواء ظهر كل منهما بمفرده أو بجوار بعضهما البعض ، وصور الإنجليين ، وهم جميعاً يظهرين في وضع امامى تماماً ، وكانت انصب الأماكن لتصوير هذه الأشخاص الجالسة هي الأسطح المنحنية كالثقب والجزء الخارجى البارز من الكنيسة لتصوير السيد المسيح والعتراء ، أما اللدايات فخصصت لصور الإنجليين وهم مصورين في أوضاع مائلة ، وذلك حتى تتناسب في وضعها مع الإتجاهات المائلة للدايات التي تحمل الثقب ، فتصعب في مواجهة المشاهد أيضاً .

أما الشخصيات الواقفة فتتخذ بطبيعة الحال الجدران الراسية أو الأقبية البرميلية التي ليست على المحور الأفقى - وعلى الجدران الراسية للأقواس ، وذلك حتى يبدو في وضعهم الطبيعى في الواقع ، حيث الراس لأعلى والقدم لأسفل والذي يتطابق مع الفراغ داخل الكنيسة ، ولتحقيق الإتصال الحقيقى مع أرض الكنيسة والإيحاء بأنهم أشخاص حقيقية متواجدة مع المصلين ، لذلك فقد إتبع الفنانون في تصويرهم الإبتعاد عن المحاريب التي ترتفع على قواعد راسية أو الأقواس التي تحمل الثقب أو القناطر المعلقة ، وفي حالة عدم إتصال هذه الشخصيات بالأرضية ، أى في حالة تصويرها في غير أماكنها كالجدران العلوية في كنيسة القديس أبولينار ، شكل ( ١٤٢ ) ، فقد إضطرت الفنان إلى تنفيذ مساحة أفقية من الألوان المتداخلة التي يقف عليها كل قديس على حدة ، أو يلجأ إلى تصوير أشرطة من الزهور والنباتات الممتدة ، وفي بعض الأحيان كانت توضع بعض العناصر الزخرفية التي تشبه المحارة\* ، وتختلف هذه الأرضية باختلاف الشخصية التي تقف عليها ومدى قداستها .

(\*) تمط المحارة مقتبس من أرضيات القسيسفساء التي اشتملت على شكل المحارة ، والذي أصبح القائمة الأساسية

لأسلوب تنفيذ أرضيات القسيسفساء منذ أواخر القرن الرابع الميلادى وما بعده .

وتلى الشخصيات السابقة فى أهميتها الصور النصفية او الجذوع العلوية للشخصيات المقدسة ، وهى دائماً تظهر على الجدران الراسية التى لا بد أن يكون لها اطر محيطة بها - بإستثناء صورة السيد المسيح فى القباب - أو قاعدة أفقية يتم بها قطع جذوع الأشخاص فنلاحظ عدم ظهور الشخصيات بهذه الصورة فى المساحات الجدارية الكبيرة فى الكنائس حيث لا توجد أجزاء سفلية ، وتعد المحاريب الغير عميقة والمنخفضة وحواف الأقواس هى الأماكن المثالية لإحتواء هذا النوع من الصور ، كما يتبين فى شكل (١٧٥) .

وأخيراً صور الوجوه الشخصية داخل الميداليات الدائرية التى يظهر فيها الراس والأكتاف فقط مثل صور الميداليات التصفية فى كنيسة القديس فيثال فى أوائل العصور البيزنطية ، والصور النصفية فى هوزيوس لوكاس شكل (١٧٦) ، الذى يضم أربعة ميداليات تتضمن صور العذراء ، والقديس يوحنا المعمدان ، وإثنين من كبار الملائكة ، وفى شكل (١٧٧) تظهر صورة السيد المسيح داخل إحدى هذه الميداليات وتوجد فى نفس الدير أيضاً .

ويذكر أوتوديموس فى ذلك أن الهدف من " غياب الجزء الرئيسى من الجسم له أهمية دينية تؤكد على الطبيعة الروحانية بهذه الكائنات السماوية " (١). وقد اختلفت ألوان الخلفيات فى هذه الميداليات وتنوعت بين الدرجات الزرقاء والذهبية والفضية ، وتميزت بالأشكال الزخرفية المختلفة فى الأطر المحيطة بها ، كما اختلفت أيضاً فى طريقة المعالجة التشكيلية للخطوط والألوان لهذه الصور والعناصر الأدمية بشكل عام .





## الفصل الثالث

### الحركة واللون فى تكوينات الفسيفساء البيزنطية

- الاتجاهات الفنية المختلفة فى الفسيفساء البيزنطية .
- العناصر الأساسية فى تكوينات الفسيفساء .
- الحركة .
- الحركة فى الفسيفساء البيزنطية وأنواعها .
- اللون وأهميته فى الفسيفساء البيزنطية .
- اللون الذهبى فى خلفيات الفسيفساء البيزنطية .





### الفصل الثالث

## الحركة واللون في تكوينات الفسيفساء البيزنطية

### ● الإتجاهات الفنية المختلفة في الفسيفساء البيزنطية ،

تميزت أعمال الفسيفساء البيزنطية بأسلوب فني خاص ، فهي تختلف في معالجتها التشكيلية عن غيرها من الفنون السابقة ، وذلك بوصفها أعمالاً فنية يتوافر فيها عناصر التصميم المختلفة .. دون النظر إلى نوعية الخامات - والتي اتخذت طرقاً معينة في رسم الموضوعات والتكوينات الخاصة بها .

وقد تميز الأسلوب المتبع في الفسيفساء البيزنطية منذ البداية بالبعد عن تصوير الطبيعة ونقل الواقع . فقد كان القرن الخامس الميلادي يشير بالدليل على أنه عصر التجديد والتجريب، والذي ظهرت فيه صيغ جديدة وتركيبات قياسية للزخرفة الأثرية .. والتي تتجلى في اثنين من مباني التعميد في راينا<sup>(١)</sup> . مثل المعمودية الأرثوذكسية والمعمودية الأريائية .

ويعد أن سادت الكلاسيكية في الفنون الوثنية السابقة للفنون المسيحية والبيزنطية ، وبالرغم من ظهور تأثيراتها الواضحة على الفسيفساء البيزنطية ، إلا أن الفنانين فضلوا - وخاصة في البداية - الإبتعاد عن هذه الكلاسيكية التي لا تتفق مع طبيعة الفن البيزنطي الديني ، والتي إتضح في كثير من الموضوعات\* التي يبرز وجودها ، وذلك لأن الفن البيزنطي هو الفن المسيحي حيث المضمون الديني الذي يسود على غيره ، لذلك " فإن عمق ومدى الأشكال الكلاسيكية يمكن ملاحظتها من خلال التعبير عن الموضوعات المسيحية ، وكان الإهتمام الأساسي في الفن الكلاسيكي يتمثل في إدراك اليان العضوى للجسد البشرى ، وقد ظل ذلك قائماً في الفن البيزنطي بالرغم من ظهور أسلوب تصوير الشخصيات وتجريدها من ماديتها " (٢) . وقد بقيت آثار هذه

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York 1994, P. 43 .

(2) Kurt Weltzman, Classical Heritage In Byzantine Near Eastern Art, Various Reprints, London, 1981, P. 49 .

(\*) ساد على الفن البيزنطي في العمور القليلة تصوير الشخصيات الأسطورية تبعاً للأدب الكلاسيكي والنصوص المنقولة التي تتخذ أبطالها من الأباطرة والأساقفة .

الكلاسيكية مع مراعاة الإعتماد عليها بصورة مخففة في تنفيذ نوعية معينة من الموضوعات ، بالإضافة للموضوعات الدينية المسيحية - الا وهي الموضوعات الدنيوية - كما سبق الإشارة - وأكثر ما يميزها أرضيات القصر الإمبراطورى .

ولم تظهر هذه الكلاسيكية بشكلها المثالي في معالجة الأشكال أو العناصر الأدمية ، وإنما حاول الفنانون فيها الإقتراب من الشكل الطبيعي للجسم الأدمى ، وذلك في حالة تصوير الشخصيات الأدمية ، أما في حالة تصوير الإله والشخصيات المقدسة التي تسمو لمكانته و قدسيته ، فقد إعتد الفنانون على الشكل المجرد في سبيل التركيز على الروحانية .

وقد كان الفن المسيحى المبكر بمثابة المرحلة الإنتقالية للفن البيزنطى، وكان أسلوبه بداية واضحة ومحددة له ، وقد وصفه بعض المؤرخين بقولهم " إن نشأة هذا الفن المسيحى من الفن الوثنى السابق له ، كانت تمثل سياق التعايش بين الأسلوبين الطبيعى والكلاسيكى خلال العهد المبكر " (١) . وكما يلاحظ أن هذا التعايش أدى إلى ظهور تفسيرات جديدة منها أن هذا الأسلوب الكلاسيكى قد إقتصرت على الأعمال الدنيوية ، أما الفن الدينى فقد إلتجه إلى أسلوب تجريدى بعيداً عن تصوير الطبيعة والعالم الحقيقى الواقعى ، وذلك تحقيقاً للهدف الروحانى الذى يسمو بالعقيدة ، والتحرر من الأسلوب الوثنى القديم حتى لا يكون الفن المسيحى إمتداداً له ، كما أن الإعتماد عليه لا يناسب هذا الفن العقائدى ، ويقول فى ذلك الكاتب كورت ويتزمان (Kurt Weitzmann): إن الفن البيزنطى لم يتضمن أى تطور مباشر من الكلاسيكية إلى التجريد الثنائى الأبعاد أو العكس ، ولكن الفنانين البيزنطيين يمكنهم إستخدام الطابعين بحرية لتحقيق أغراضاً فنية معينة ، وهذه الملاحظات تشير إلى أنه ليس هناك مراحل كلاسيكية أو غير كلاسيكية مستقلة فى الفن البيزنطى " (٢) . وإنما إتخذت مراحل زمنية معينة تفاوتت تأثيراتها وظهورها فى الفسيفساء البيزنطية ، وظهرت الكلاسيكية فى صورة موضوعات وأحداث يغلغها الأسلوب التجريدى الذى بدأ فى طريقة تناول الموضوعات والشخصيات المصورة داخلها ، فعلى سبيل المثال: " موضوعات النزول من على الصليب والعشاء الأخير والسيد المسيح يركب حملاً عند دخوله القدس ، جميعها تعنى تفوق الأسلوب التجريدى على

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press , New York 1994 , P.111 , 112 .

(2) Classical Heritage In Byzantine Near Eastern Art , Various Reprints , London , 1981, P. 72 .

الواقعي ، ومن ناحية المعالجة التشكيلية فيلاحظ فيها إختزال التكوين إلى أبسط شكل له يسمح بأكبر معالجة تجريدية ويجعله أكثر وضوحاً<sup>(١)</sup> .

وقد سلك الفنانون في هذا المجال أسلوباً فريداً يميل بشكل واضح إلى أسلوب فني يميل إلى التحفظ، وذلك يعد نتيجة طبيعية للدمج بين محاولة الفنانين في الإبتعاد عن بعض سمات معينة في كلاً من الأسلوب الواقعي والأسلوب الكلاسيكي في تنفيذ عناصر تكويناتهم مما يوحى بتجسيمها المادي ، وبين حرصهم على المحافظة على إظهار تلك الأعمال والتكوينات في صورة مرئية واضحة . فتظهر الأشكال المنفردة بهذا الأسلوب الجديد ذات بعدين فقط ويعبده عن التجسيم الذي يوقع الفنانين المنفذين لها في أخطاء بالغة ، فجاءت الأشكال مسطحة وجامدة تفتقر إلى المرونة والحيوية .

وقد تباين الإعتماد على هذا الأسلوب التحفظي في الأقاليم التابعة للإمبراطورية ، فقد كانت الكنائس في العاصمة حريصة على إتباع هذا الأسلوب المتحفظ ، وقد قام الفنانون بإجراء التجارب للوصول إلى أساليب فنية جديدة رغبة منهم في الخروج عن هذه التقاليد المتشددة ، مما أدى إلى إختلاف الأسلوب الفني الخاص بتنفيذ هذه اللوحات من منطقة إلى أخرى ، فعلى سبيل المثال صور موضوع التجلي في كنيسة كنيستين مختلفتين هما كنيسة القديس أبولينار في كلاسى براهينا ، وكنيسة القديسة كاترين في مصر ، وقد نفذ هذا الموضوع في الكنيسة الأولى بأسلوب رمزي، أما في الكنيسة الثانية فقد غلب عليه الأسلوب التجريدي ، والسبب في ذلك أن كلاً من الكنيستين السابقتين تمثلان تقاليد تصويرية إقليمية خاصة وإهتمامات لاهوتية مختلفة ، فضلاً عن إختلاف ميول الفنانين وإبداعاتهم في كل منطقة .

ومن المثالين السابقين يتضح " مدى التعقد الذي وصل إليه التصوير البيزنطي خلال القرن السادس والذي تمثل في بعض المعالجات الجامدة لهذه الأعمال " (٢) بالرغم من أن هذه الفترة حدث فيها نضوج للتطورات التشكيلية والأسلوبية وخاصة بعد فترة التجريب التي دامت طوال القرن الخامس الميلادي .

(1) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941, P. 21 .

(2) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994, P. 114 .

وقد أدت الصراعات التي قامت ضد الأعمال الفنية في القرنين الثامن - السابع والثامن - إلى التأثير بصورة واضحة على أسلوب هذه الفسيفساء، فزادت من الإبتعاد عن الطبيعة وساد التجريد بصورة واضحة، وإختفى تصوير الأشكال الطبيعية بشكل ملحوظ، وأصبح أكثر ما يميز هذه الفترة الميل إلى إستخدام العناصر النباتية والهندسية ذات الطابع الزخرفي، أما الأشكال الأدمية والحيوانية فقد فقدت الكثير من طبيعتها وقلت التفاصيل الخاصة بالأجسام والملابس، فبدت هذه الأشكال أقرب إلى التخطيطية، " وأسلوب معالجة الملابس بهذه الطريقة والتصميم الخطى للعيون المحدقة يمثلان تعبيرات واضحة عن التجريد الذي ساد هذه الفترة، وبلغ أوجه في القرن الثامن الميلادي .. وأوضح مثال على إتباع هذه المعالجة الثنائية للخطوط يوجد في فسيفساء ابو لينار في كلاسى في الجزلية التي تصور ملابس إبراهيم وهو يقفاد اسحق إلى المذبح ٦٧٣ - ٦٧٩ م" (١).

ولقد إستمرت سيطرة الأسلوب التحفظى على لوحات الفسيفساء حتى القرن التاسع والذي أطلق عليه بعض النقاد والمؤرخين تعبير " الأسلوب الإقتصادي المتقشف" (٢). والذي بدأ يخفف من حدته العودة إلى الإعتماد على القيم الجمالية التصويرية للفن الكلاسيكى وإستخدام الأسلوب الواقعى محاولة من الفنانين التوصل إلى أساليب فنية أكثر تحراً وخاصة بعد فترة التحطيم، وظهور هذه الإتجاهات الفنية الجديدة كان سبباً في " وضع نهاية لهذا الأسلوب التجريدى في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الميلادي، وتحولت الأعمال الفنية إلى المعالجة الطبيعية الكلاسيكية للأجسام والملابس وتعبيرات الوجوه" (٣). وعرفت هذه الفترة في الفن البيزنطى بفترة « الإحياء الفنى، والتي أطلق عليها أيضاً « النهضة المقدونية»\*، وتميزت الأعمال في تلك الفترة بالميل إلى التقليد والمحاكاة.

- 
- (1) Kurt Wetzmann, Studies in the Arts at Sinai, Princeton University Press, New Jersey, 1982., P. 75 .
  - (2) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941, P. 56 .
  - (3) Kurt Wetzmann, Studies in the Arts at Sinai, Princeton University Press, New Jersey, 1982., P. 78 .

(\*) ارتبطت هذه النهضة بفترة حكم الأسرة المقدونية وذلك يرجع إلى دور حكامها في رعاية الفن وإقتصر على البلاط الملكى في القسطنطينية واقتصر عليه وحده .

وقد وصفت كلاسيكية هذه الفترة " بالسطحية فى معالجة الشخصيات وتماثلت فى ذلك مع الأسلوب الطبعى الذى لا يقدم المثالية البطولية للشخصية المصورة " (١) . على غرار ما كان يحدث للفنون الإغريقية ، وإقتصرت الكلاسيكية على الموضوعات فقط .

ومن ناحية أخرى كان للتأثيرات الهيلينستية دور واضح فى تغيير طابع الجمود والجفاف الذى سيطر على لوحات الفسيفساء البيزنطية، وإثارة الحيوية والبرونة على تكويناتها مما جعلها تتمتع بالشمولية والإنسانية، مما قلل من هذا الطابع المتشدد الغالب على الزخارف البيزنطية، حيث إتجه الفنانون إلى ربط عناصر الصورة الواحدة مع بعضها من خلال الحركات والإيماءات ، التى بالرغم من بساطتها وتنفيذها فى إطار محدود إلا أنها أكسبت هذه الأعمال قدراً من التحرر بصفة عامة .

ويقول فى ذلك الدكتور ، ثروت عكاشة ، " حملت المنجزات الفنية فى ظل الأسرة المقدونية خلال القرن التاسع إلى ما بعد هذا التاريخ كل دلائل الإحياء الفنى (Renovatio) من ناحية ، ومن ناحية أخرى قدمت طرازاً جديداً معبراً عن إتجاه شكلى جديد على الرغم من إستيعاب هذا الشكل للفن الكلاسيكى اللاحق والفن البيزنطى الباكر ، ونلمس هذا الإحياء فى إتجاهين ، أولهما : كانت معه إعادة إحياء للمنجزات الفنية السابقة لفترة التحريم ، وثانيهما : تعلق شديد بالمنجزات الكلاسيكية " (٢) . وإلتجاه الأول يتمثل فى لوحة الجانب الشرقى لكنيسة آيا صوفيا - شكل (١١٥) - أما الإلتجاه الثانى فيتمثل فى أغلب أعمال القرن العاشر الميلادى .

" ولم تعد الكلاسيكية تتوافق مع التيار العام خلال القرن الحادى عشر الميلادى " (٣) . حيث سلك الفنانون إتجهاً جديداً نحو المعالجة التعبيرية الأكثر حيوية فى أعمال الفسيفساء ، فظهرت الخطوط الإنسيابية للوجوه والملامح التى حرص فيها الفنان على الإهتمام بإظهار الإنفعالات الخاصة بها، والتى تحمل معان مختلفة وتعكس احساس درامية متنوعة . " وقد كان إكتمال هذا الأسلوب التعبيرى وتبلوره خلال القرن

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press , New York, 1994 , P. 194 .

(٢) تاريخ الفن ، الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر ، د.سعاد الصباح ، القاهرة ، من ٢١٧ ، ٢١٩ .

(3) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press , New York, 1994 , P.194 .

الحادى عشر الميلادى وهو يتضح فى فسيفساء آيا صوفيا ودير دافنى علماً بأن بدايته كانت فى أعمال الفسيفساء فى باليرمو " (١) .

وأوضح الأمثلة التى تبين هذا الأسلوب فى آيا صوفيا، هى لوحة الفسيفساء التى تظهر فيها كل من العتراء والإمبراطورة « إيرينى » وزوجها بلامح واضحة ، وقد تميز وجه العتراء بالخطوط الرقيقة، مما يوحي بالعدوية والهدوء . شكل (١١٩) .

وأدى هذا الإهتمام التدريجى بإظهار الإنفعالات أو التعبيرات الوجهية، أن ظهر ما يعرف " بالأسلوب المتكلف الأكثر تأثيراً ومبالغة مع نهاية القرن الثانى عشر ، وأشهر هذه الأعمال التى تتبع الأسلوب المتكلف، الفسيفساء الصقلية فى مونريال " (٢) . حيث تبدو وجوه الشخصيات ذات تعبيرات حزينة وترتدى اجسامهم ملابس تتجمع وتلتف الالتفات كثيرة ، وهذا ما يميز ذلك الأسلوب المتكلف .

وظهور هذين الأسلوبين لا يعنى إختفاء الأسلوب الأخر، ولكن الإعتقاد عليهما يتوقف على تقبل الأقاليم لهما، والتي نشأت بها أو التى إنتقلت إليها عن طريق الفنانين البيزنطيين، اللذين كانوا ينتقلون من إقليم إلى آخر حاملين الأساليب الفنية المختلفة ، والتي كان مصدرها فى اغلب الأحيان القسطنطينية .

وبالرغم من هذه الإتجاهات الجديدة وإجتهادات الفنانين البيزنطيين لتطوير الأسلوب الفنى للوحات الفسيفساء إلا أن هناك بعض الآراء \* الخاصة بالناقدين بيرس (Peirce) و تايلر (Tyler)، حيث " أشار كل منهما إلى الفن البيزنطى بالجفاف والجمود حتى القرن الثانى عشر الميلادى، مضيفين إلى أنه على الرغم من ظهور أفكار جديدة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، إلا أن الفن البيزنطى إنتهى مع قدوم الفرتجة ونهب القسطنطينية عام ١٢٠٤م ... ولكن جاء رأى العالم الفرنسى جابريل ميليه (Gabriel Millet) معارضاً لهذه الآراء وأشار إلى الإلتفات إلى أهمية هذه المرحلة الأخيرة فى عدد من الإصدارات والدراسات التى تعد هذه الأعمال ذات جودة عالية، والتي كانت نتاج العشرة اعوام الأخيرة ، وكان خطأ « بيرس » ، و « تايلر » ، ليس عند تقدير جودة هذا الفن، بل فى سوء تقدير طابع هذا الفن عندما وصفوه بالجمود والصلابة وهو العكس

(1) Op. Cit . P. 261.

(2) Loc . Cit .

(\*) ذكرت هذه الآراء فى كتاب صغير عن الفن البيزنطى عام ١٩٢٦ ميلادية .

يتميز عن غيره بالحيوية والإنسانية وأحاسسه العميق بالبهجة والزخرفة لأن الشخصيات تبدو طبيعية والمشاهد براقية ومكتملة ويتضح فيها الإهتمام بالتفاصيل<sup>(١)</sup> . وقد رأينا ميلاد هذا الأسلوب الإنساني خلال القرن الثاني عشر، وأوضح مثال لذلك الفسيفساء التي تصور العذراء والقديس يوحنا المعمدان يتوسطهما السيد المسيح في لوحة الضراعة شكل (١٥٦) ، والتي نلاحظ فيها النظرة التأملية في عيني كل من السيد المسيح والعذراء في حين يبدو القديس « يوحنا ، متأثراً للغاية وتقلب عليه مشاعر الحزن ، فضلاً عن الطبيعة التي رسمت بها الملامح وخصلات الشعر واللحية التي تخص كل من السيد المسيح والقديس « يوحنا » ، ويعتبر هذا النموذج السابق بمثابة بداية الأسلوب الجديد الذي تلازم مع فترة الإحياء الأخرى خلال عهد البيولوجوس<sup>(٢)</sup> .

وهذه النهضة التي حدثت في عهد الأسرة البيالوجوجية كان هدفها الأساسي هو زيادة الإهتمام بالتعبيرات الإنسانية ، والعودة من جديد إلى الإتجاه الكلاسيكي في إبراز البعد الثالث بعد زواله في القرون التالية للنهضة المقدونية<sup>(٣)</sup> ، والذي يتضح من الأمثلة السابقة في آيا صوفيا التي تتمتع جميع الأعمال فيها بالحيوية والميل إلى التفاصيل في رسوم الأشخاص والملابس والتي لا يوازيها أى إتجاه آخر سابق في الفن البيزنطي ، ... ، بالإضافة إلى فسيفساء كنيسة ( المخلص ) التي يتبين فيها أفضل الأعمال التي ظهرت خلال حركة الإحياء<sup>(٣)</sup> .

وأفضل الأمثلة التي تبرز هذا الإتجاه هي صورة السيد المسيح والعذراء التي نلاحظ فيها دقة الملامح المرسومة ووضوحها والإهتمام بدراسة الملابس وثناياتها في عباةتهما ، ويتجلى الإهتمام بالتفاصيل في رسم أصابع الأيدي والتاج الخاص بالأمير « إسحق » الذي رسم في يسار اللوحة أسفل العذراء ، في شكل (١٧٨) ، والتي نتبين منها الإختلاف الواضح في التعبيرات البادية على الوجوه في هذه اللوحة عن اللوحة السابقة ، حيث يبدو السيد المسيح والعذراء في ملامح تعكس المشاعر الفياضة المليئة بالحنان والشفقة .

(1) David Talbot Rice , Art Of the Byzantine Era , Thames And Hudson , Ltd , London , 1963 , P. 220 .

(2) Loc . Cit .

(3) Op. Cit., P. 222 , 223 .

ويعيداً عن جذران الكنائس تمثل هذه المرحلة؛ واحدة من أفضل الإبداعات البيزنطية، وهي عبارة عن صورة مصفرة تضم الشهداء الأربعة، اللذين تبدو التحفظية على هيئتهم ووضعهم بوضوح وذلك لأنها تتبع النموذج البيزنطي المثالي القديم<sup>(١)</sup>. وهي كما نرى في شكل (١٧٩)، حيث الإهتمام بتفاصيل أجسامهم التي رسمت في حركات طبيعية، كما تبدو الكلاسيكية والتعبيرية على ملامح وجوههم التي توحى بضعف وإستسلام هذه المجموعة من الرجال اللطيف أوشكوا على الموت دون أية محاولة للهروب .

وهذه النهضة الفنية الجديدة في العصور الأخيرة للفن البيزنطي قد أحدثت تجديدًا في فن الفسيفساء " وقد توصل المؤرخ اينالوف (Ainalof) في ذلك إلى أن الأعمال البيزنطية خلال القرن الرابع عشر تعود إلى مزج أساليب الغرب مع التقليد البيزنطي القديم بحيث تؤدي إلى الأصالة المبدعة ، ومن الصحيح أنه كانت هناك علاقة وثيقة بين البلاط الملكي لأسرة «اليولوجوس» ، وياق أوروبا - وخاصة إيطاليا خلال هذه الفترة - ولكن يبدو أن الأعمال البيزنطية هذه توضح مدى التأثير الإيطالي المباشر ، ... ، ويمكن إستثناء فسيفساء كنيسة المخلص حيث أنها تخلو من التفاصيل التي تشير إلى أي إستلها من الإتجاهات الإيطالية<sup>(٢)</sup> . وقبة كنيسة فيتي دجامي (Fetiye Djami) توضح هذه الإتجاهات الجديدة في بداية القرن الرابع عشر والتي نلمسها بوضوح عند مقارنة صورة السيد المسيح الذي يحيط به الأنبياء في القبة ، والتي ظهرت في شكل (١٣١) ، وهي تبدو أكثر رقة وعذوبة من صورة السيد المسيح الحاكم في دير دافني ، شكل (١٢٧) ، والتي تعود إلى القرن الحادي عشر ، فضلاً عن الحيوية البادية في توزيع جلسات ووضع الأنبياء . وهي تعتبر أفضل وأصغر زخارف الفسيفساء في القبة البيزنطية من حيث التكوين واللون وتمثل نهاية لفسيفساء البيزنطية والتقليد الأصلي الذي دام أربعين عاماً ... وفسيفساء فينيسيا توضح خصائص هذه المرحلة الأخيرة للمدرسة البيزنطية ومدى إتجاهها إلى التفاصيل الثانوية المكتملة للملابس والمعمار، بالإضافة إلى البهجة والخفة التي غلبت على اللوحات بشكل عام<sup>(٣)</sup> .

- 
- (1) Kurt Woltzmann, Classical Heritage in Byzantine Near Eastern Art , Various Reprints , London , 1981 , P. 66 .  
 (2) Edgar, Waterman Anthony , A History of Mosaics , Hacher Art Books , New York , 1935 , P. 229 .  
 (3) Ibid, P. 230 , 231 .



وفى نهاية الحديث عن اسلوب هنا الفن امكن التوصل إلى أنه بالرغم من تعدد الأساليب الفنية وتطورها فى الفن البيزنطى كما ذكره كورت ويتزمان ، " إلا أن الطابع الكلاسيكى لم يزل أبداً فى هذا الفن ، كما ان الظروف البيئية والفنية ساعدت على استمرار هذا الطابع خاصة أن العالم البيزنطى لم يتأثر بالقرب إلا فى فترة الإحتلال اللاتينى فى القرن الثالث عشر الميلادى ، " وقد افصح الطريق أمام الأسلوب التجريدى \* فى القرون الأولى منذ منتصف القرن السابع حتى أوائل القرن التاسع " (١) . وقد تلازمت هذه الأساليب المتباينة جنباً إلى جنب مع التحفظية التى سادت أعمال الفسيفساء البيزنطية فى ذلك الوقت .

### ● العناصر الأساسية فى تكوينات الفسيفساء :

تحتل التكوينات الفنية البيزنطية مكانة خاصة وفريدة ، وتختلف عن التكوينات الفنية التى تنتمى إلى العصور الأخرى ، وذلك يرجع بشكل أساسى إلى نوع الخامات وطبيعة تنفيذها على مساحات كبيرة من الجدران ، مما يتيح للفنان مجالاً أكبر وأوسع لإستخدام عدد أكبر من العناصر الفنية داخل التصميم ، فكان من الصعب أن تقتصر مساحة الجدار هذه على رسم شخصية واحدة - بخلاف منطقة المنبج فى الجزء الدائرى البارز فى شرقية الكنيسة اما منطقة القبة التى سادت فيها الصور النصفية للسيد المسيح فكان الفنان يلجأ إلى شغل هذه المساحة من خلال تقسيمها هندسياً بواسطة شرائط طولية مركزها هذه الشخصية وتتجه إلى الخارج - كما ان هذه الجدران تتصل فيما بينها وتمتد إلى أعلى وإلى أسفل وإلى اليمين واليسار ، فذلك كان ادعى إلى إدراك الفنان هذه المساحات الهائلة التى يجب عليه تغطيتها وملئها بمجموعات من الأشخاص والعناصر المحيطة والمكملة لها ، التى ترتبط فيما بينها من خلال موضوعات التصوير الروالى التى إعتد عليها البيزنطيون فى تنفيذهم للفسيفساء فى الكنائس ، كما إندمجت هذه المساحات المتجاورة من خلال بعض الوسائل التشكيلية التركيبية التى تخلق وحدة بصرية متناغمة ، وقد إتبع الفنانون فى توزيع تكوينات الفسيفساء داخل فراغ الكنيسة اسلوباً خاصاً يعتمد على فكرة التضال المنظورى \*\* الذى يجعل من الأشخاص

(1) Classical Heritage In Byzantine Near Eastern Art , Various Reprints , London , 1981, P.

80.

(2) Loc . Cit .

(\*) الأسلوب التجريدى الذى ظهر فى تلك الفترة لا يمثل إحداناً فنياً ولكنه اسلوب مميز للمتميزين من الصفات الروحانية .

(\*\*) التضال المنظورى أو التسبب يعرف أيضاً بالمنظور السلبى أو المنظور العكسى .

او التشكيلات الفنية المصورة فى اعلى الكنيسة تتساوى فى حجمها مع الأجسام المنخفضة والتي تتطابق فى حجمها وارتفاعها مع الحجم الطبيعى للمشاهد ، وذلك يعنى أن هذه الأجسام العلوية تتمتع بالحجم المذهل إذا إقترينا منها .

ويمكن الإقتراب من هذا المفهوم إذا تعرفنا على المفهوم الغربى فى التصوير داخل الكنائس، حيث كانت المساحات الرأسية مقسمة إلى مساحات أفقية متساوية، وبالتالي تتضاءل صورة الشخص المرسوم تدريجياً حتى تصغر فى الحجم وتصبح أكثر قصراً ، وبالتالي " فالإعتماد على المنظور السلبى أو العكسى كان الهدف منه هو الحفاظ على الحجم الجوهرى للصورة من التشوه البصرى " (١) . وبذلك نجح الفنانون البيزنطيون فى التحكم فى رسوم نسب الأشخاص والصور المنفذة على الأسطح المستوية والمنحنية ، وذلك تبعاً لما توقعوه من التشوهات الناتجة عن الرؤية من اسفل الأسطح المستوية، وقد تم رسم الأشكال أكثر إستطالة وأكبر فى العرض وخاصة فى الأجزاء العلوية البعيدة .

اما الأسطح المنحنية فيتضح فيها زيادة الإستطالة، فى سيقان الأشخاص - على سبيل المثال - وذلك حيث أن الأجزاء السفلية من أجسامهم تقع فى الجزء المنحنى من جسم القبة أو القبو ، والأجزاء العلوية تقع فى الجزء الأكثر إنحناء ، والذي تقترب نياً زاوية الرؤية من تسعين درجة بالنسبة للمشاهد - وبذلك تظهر الأشخاص بأشكال مشوشة إذا رسموا بنسبهم الطبيعية ، ويتابع هذا الأسلوب العكسى ، فإن الناظر إليها من أسفل يراها تبتو فى وضع طبيعى إلى حد ما .

ويجب الإشارة هنا إلى أنه قد تم إستبعاد صورة الشخص بالكامل فى القبة ، وذلك لأنه يظهر فى وضع الرقود على وجهه ، أو يبدو أنه يسقط من أعلى . وعلى نوع آخر من الأسطح المنحنية مثل المحاريب الرأسية تختلف معالجة رسوم الأشخاص التى صورت على الحواف الخارجية للمحراب الشبه إسطوانى ، وهذه الصور يصعب رؤيتها من الأمام ويمكن رؤيتها فقط عند الوقوف فى وسط الكنيسة عن بعد - حيث الضريح المقدس وحواجز الأيقونات - وبالتالي عند النظر إليها من هذه المنطقة يتبين أنها تتضاءل فى العرض أى تبتو تحيلة أكثر من الشكل الطبيعى لها ، وتقادياً لذلك التشوه يضطر الفنانون إلى رسم صور الشخص بزيادة فى العرض بحيث تكون أكثر سمكاً من الصورة المجاورة لها والتي رسمت فى وضع أمامى، وتعد مناظر كنيسة هوزيوس لوكاس نماذج

(1) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench , Trubner , London , 1941 ,

مذهلة ورائعة لهذا الحل" (١) ففى المحرابين الشبه دائريين فى الممر المؤدى لصحن الكنيسة، يوجد منظر غسيل الأقدام، والشك فى توماس، حيث صور القديس اندرو عند الحافة اليمنى للمحراب ويبدو فيها وكأنه يسير داخل اليمين بخطوة واسعة وراء منتشر بالعرض فيزيد من تأثير النقوش العريضة حول الكتفين والردفين، أما القديس د لوقا، على الحافة اليسرى فقد تم تصويره وهو يرتدى نعله ويضع إحدى قدميه على كرسي مرسوم امامه، وبذلك يتخذ وضعاً عريضاً هو الآخر. وذلك فى لوحة شكل (١٨٠) التى تصور غسيل الأقدام، وجميع الأعمال التى إتبعت فكرة أو أسلوب التضال النسبى لا يمكن النظر إليها عن قرب أو من وضع المواجهة، لأنها ستبدو سيئة جداً، وذلك لأنها نفذت بغرض رؤيتها من أسفل ومن زوايا جانبية حسب الإنحناءات المعمارية واتجاهاتها المختلفة (الراسية والأفقية والمائلة) داخل الكنيسة.

أما توزيع العناصر نفسها داخل التكوين الواحد فلم يتطلب أبداً الإعتماد على المنظور، لأن الفن البيزنطى يرفض المنظور والفراغ الثلاثى الأبعاد بجانب رفضه للعالم المادى. لذلك لا يتبع القواعد التى تحققه، ويتضح ذلك على سبيل المثال فى لوحة العذراء التى تتصاف كلاً من الإمبراطور قسطنطين وجستينيان، شكل (١١٧)، ويلاحظ فيها ان العذراء صورت بإعتبارها جالسة حاملة لطفلها السيد المسيح، ولكن الواضح غير ذلك فهى تبدو اقرب إلى وضع الوقوف، وذلك يرجع لعدم مراعاة الفنان إظهار البعد الثالث فى رسم النسب التشريحية لجسدها، فضلاً عن الشكل المتوازى المستطيلات الذى رسم أسفل قدميها، ويتضح فيه الملاحظات السابقة.

وعندما كان التكوين يتضمن العديد من الشخصيات فإن المشكلة الأولى لدى الفنان هى كيفية وضع وترتيب الشخصيات فى مشهد ذا مغزى - دون الإعتماد على المنظور بالطبع - وهذا المعنى سوف يوضح العلاقة بين هذه الشخصيات وبين البيئة المحيطة وحدود اللوحة، وحتى فى التكوينات البسيطة التى تضم إثنين من الأشخاص فإن معظم الترتيب يمثل عبئاً على الفنان، والقراغ المصور عندما يمتلئ بالعديد من الشخصيات التى تدلى إلينا بالقصة المصورة فإن تكوين المجموعة له أهمية بالغة، وهذا النموذج الروالى يؤثر على شكل التصميم أكثر من وجود شخصية واحدة أو شخصيتين، "والحقيقة المائلة فى ان الفنان يروى القصة، لا تشير إلى أنه يقصد التعبير عن حدث معين أو نبأ معين لأن العكس هو الصحيح، خاصة أن الفنانين خلال هذه العصور الوسطى

(1) Ibid , P. 32 , 33 .

يصورون القصص من المخطوطات القديمة ، وينقلونها إلى الجمهور الذي يدرك عنها الكثير" (١) . وبذلك يكون التركيز الأساسي على كيفية إخراج هذه القصص الروائية في صور فنية تشكيلية، وانحصرت المشكلة أمام الفنانين ورجال الدين في كيفية بناء التصميم ككل والجمع بين عناصره المختلفة خاصة " وأن مبدعى هذه الأعمال كان هدفهم الرئيسي هو تمثيل الصيغ الرئيسية في الديانة المسيحية" (٢) ، مع مراعاة وضعها في قالب الشكل الأخلاقي المرتبط أساساً بالعقيدة والتقاليد الصارمة لديهم والبادية على الشخصيات المصورة التي يتم تركيبها معاً في الفراغ المحيط بالعناصر والناج عنها أيضاً .

" والفراغ كصفة من صفات التصميم يعتبر العنصر الوحيد ذو الأهمية الكبرى حيث أنه الوسيلة الرئيسية للفنون في عملية الخلق والمحاكاة .. كما يعمل علي إيجاد الواقع المتعكس من عالم الحقيقة ، وهو يوجد كمعنى لتوحيد الصورة وتكوين ترابطها ، ومهما يكن الغرض منه فقد يمكن التعبير عنه في أساليب مختلفة ، والطريقة الوحيدة المبسطة هي طريقة تداخل الأشكال كما في أعمال الفسيفساء البيزنطية" (٣) .

وقد تباينت مساحات الفراغ داخل هذه التكوينات تبعاً لإختلاف الفترات الزمنية التي مرت بها هذه الفسيفساء ومدى تأثيرها بالفنون الأخرى ، ففي الأعمال الأولى القديمة وخاصة في أرضيات القصر المقدس بدت التأثيرات الرومانية في مساحات الفراغات الممتدة التي تخللت الموضوعات والعناصر الأدمية الدنيوية ، ولكن في " أوائل الفترة البيزنطية بدأ عمق المسافة الذي إستخدمه الإغريق والرومان في الإختفاء وبدا واضحاً في فسيفساء القرن السادس ( الموضوعات الدينية ) في كنيسة القديس هيتال ، فالمساحة هنا أضعف بكثير مما كانت في أعمال الرومان رغم أنها موجودة في ظهور بعض الأفراد امام آخرين" (٤) . وبحلول القرن التاسع الميلادي زادت مساحة الفراغ مرة أخرى ، وأصبحت هذه التكوينات خالية من أية مناظر في الخلفية كما في تجمعات القديسين ورجال الدين ، بل إكتفى فيها في بعض الأحيان برسم شخصية واحدة أو بعض الأشخاص تبعاً لقدسيتهما وظهورها منقرده بهذه الكيفية يعتبره البيزنطيون نوعاً من العبادة .

(1) Paul Zucher , Style In Painting , Dover Publications, Inc , New York , 1963, P. 48 .

(2) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench , Trubner , London , 1941 , P. 5 .

(٣) برنارد مايرز ، الفنون التشكيلية وكيف تنتقلها ، ترجمة سعد المنصوري ، سعد القاضى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٤٨ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٤١ .

ثم بدأ تدريجياً دخول بعض العناصر الرمزية كالأشجار وجدوع النخيل أو أجزاء من الستائر المتدلّية ، وبعض الخلفيات المعمارية سواء كان هذا المشهد داخلياً أو خارجياً ، أو تصويراً للطبيعة الجبلية ، وجميع هذه الأشكال المتعددة الخلفيات توافر وجودها في معظم تكوينات الفسيفساء في أغلب الكنائس البيزنطية .

ويجدر الإشارة إلى أن المناظر الكاملة للخلفية في هذه التكوينات البيزنطية لم تظهر في منتصف العصر البيزنطي ( أو العصور الوسطى البيزنطية ) ، والتي أطلق عليها النقاد اسم "الفترة الكلاسيكية" (١) . إلا أنها سادت في العصور الأخيرة ، والتي كانت بدايتها في أعمال "دافني" ، وبلغت ذروتها في فسيفساء كنيسة المخلص في القسطنطينية ، ثم إنتقلت بعد ذلك إلى كنائس فينيسيا وصقلية .

وكما يتبين في شكل (١٨١) الذي يعرض مشاهد متصلة من حياة السيد المسيح ، وتبدو فيه الخلفيات الطبيعية، التي تتمثل في الهضاب والتلال التي ترتفع عن سطح الأرض وتخللها المياه التي تظهر على الجانب الأيسر ، أما الخلفيات المعمارية فتظهر في الجانب المقابل في صورة رمزية مبسطة ، وهذه الخلفيات تحقق عنصرى الثبات والإستقرار في التصميم، وأعمال الفسيفساء في كنيسة المخلص تتميز بالإختلاف الشديد عن الأسلوب القديم لأن التكوين والمضمون أكثر تحراً ، ويتضح الإهتمام بتصوير الطبيعة وكذلك الولوج بالتفاصيل المألوفة ، وإتباع قواعد المنظور وإظهار الحركة" (٢) . وقد توافرت هذه السمات بوضوح في المثال السابق .

ويجب الإشارة هنا إلى أن الفنانين البيزنطيين إعتدوا في تنظيمهم لمجموعات الشخصوس وعلاقاتهم بالخلفيات المرسومة في هذه التكوينات على طريقتين إرتبطت كل طريقة بالإتجاهات الفنية التي سادت الفن في الفترات الزمنية المختلفة ، ففي الفترات الأولى تجاهل الفنانون الإحساس بالعمق، الذي يعد أحد عناصر التكوين الأساسية معتمدين في ذلك على التجريد الذي يسلب الأشخاص طبيعتها، فتبدو متراسة في تتابع يفقد العمل كثيراً من حيويته وينتج عنه إنفصال الشخصيات وعدم تجانسها معاً ، وأوضح مثال لذلك مشهد القديسين والقديسات في كنيسة القديس أبو ليناو الجديدة في شكل (١٠٢) .

(1) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941, P. 3.

(2) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacher Art Books, New York, 1935, P. 228.

أما الطريقة الثانية فهي التي اعتمدوا فيها على محاولة إظهار البعد الثالث للشخصيات المصورة والمشاهد الطبيعية والتي اقترنت في أسلوبها من الفنون الهيلينستية، والتي برزت بوضوح في أواخر العصور البيزنطية، وبالأخص منذ بداية القرن الثاني عشر وتبلورت في عهد آل باليولوجوس في أعمال كنيسة المخلص، كما سبق الإشارة إليها .

وقد راعى الفنانون البيزنطيون في هذه التكوينات دقة المعالجة التشكيلية، من خلال حرصهم على توافر مجموعة من القيم الجمالية التي تحققها العناصر التشكيلية وأسس التصميم المختلفة . " والعناصر التشكيلية أو مواد الفن تتكون من قيمة الخط الفاتح أو القاتم والظل والنور وهي درجات ظلية لونية، ومن اللون والملمس، والشكل. وترتيبها وتكوينها وتكاملها يعطينا ما نسميه العناصر التي هي عبارة عن الأشكال المجسمة والقراغات والمساحات الهندسية والمساحات القائمة والفاحة وكذا الفراغ" (١). وهي كما رأيناها في الفسيفساء تحتوى على أجسام الأشخاص ذات الخطوط الجامدة والحاددة والتي تبتعد عن التجسيم بالرغم من حرص الفنانين فيها على إظهار الضوء والظل، فضلاً عن الأشكال المعمارية، أما المساحات الهندسية فقد توافرت بشكل ملحوظ في الأطر الخارجية المحددة للوحات وبعض الزخارف التي تخللتها وذلك في فترة التحطيم وقد استمر ظهور هذه العناصر حتى بعد تلك الفترة .

أما أسس التصميم " فتضمنت بعض الأسس كالسيطرة والتكامل ( الترابط ) والتوازن والترديد ( الإيقاع ) والنسب ، ... وهي تعمل على تجاوب التصميم وجودة العمل الفني المصور" (٢) . فالتأثير الفني للوحة ينتج عن العلاقات المتبادلة بين هذه الأسس السابقة واندماجها معاً - والتي تحققها العناصر المرسومة - فمن الصعب الحصول على هذا التأثير من خلال تفاعل اثنين من الأسس فقط، وإنما العمل الناجح هو الذي يتضمن العديد منها، والتي تحقق المتعة البصرية والنفسية .

وهذه الأسس التي تكسب العمل الفني - وهي لوحات الفسيفساء البيزنطية - بعض القيم الجمالية، تتوقف على عنصرين أساسيين في التصميم، وهما الحركة واللون حيث يقوم كل منهما بدور هام في تمييز تكوينات هذه الفسيفساء عن غيرها من فنون الفسيفساء الأخرى، وهما يلي يتم تناول كل عنصر على حده مع بيان مدى أهميته في تكوينات الفسيفساء البيزنطية :

(١) بوفارد مايرز ، الفنون التشكيلية وكيف تتنوعها، ترجمة سعد المنصوري، وسعد القاضي، مكتبة النهضة

المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٣٥ .

(٢) المرجع السابق، نفس المكان .

## أولاً : الحركة :

" الحركة تمثل العنصر الأساسي الأصلي في العمل الفني ... ، وهي تعنى الطاقة الكامنة التي تحدد الحدود الخارجية للعمل ، وتشكيل جميع الأجزاء داخل هذه الحدود الخارجية له " (١). والإحساس بالحركة يمكن ملاحظته من خلال الخطوط والعناصر المرسومة ومحاولة الربط بين هذه الأجزاء التي تم تخطيطها، مما يحقق العلاقة التشكيلية المرئية في اللوحة ، والتي يشعر بها المشاهد ويتفاعل معها ، وبذلك "تظل الحركة العنصر الأكثر جاذبية لأنها تتضمن تغيراً في الظروف البيئية ، وهذا التغير يستدعي رد الفعل أو الاستجابة له ، وذلك من خلال العناصر المرسومة المتقابلة وانفعال المشاهد بها واستجابته لها " (٢) . ومن ثم كان الهدف من استخدام الحركة هو إشاعة الحيوية داخل العمل وخارجه .

ويمكن الحكم على جودة العمل الفني من خلال حركته التي تتمثل في مسار الخطوط والمنحنيات واتجاهاتها، وهي ذات التأثير الأقوى وليس من خلال الحركة الناتجة عن الأضواء والظلال أو التحولات من الظلال إلى الأضواء أو العكس .

ويؤكد ذلك . بيرينسون بيرنارد (Berenson Bernard) بقوله : " إن الرسم الجيد يماثل مرادفاً آخر للحركة ، واللوحة الجيدة تمثل عملاً فنياً له قيمة مليئة بالاعاني المطلوبة من هذا العمل المصور ، ولكنها تظل مجرد رسم طالما أنها لم تتضمن الحركة ، لأنها حينما تتضمن هذه الحركة يمكننا ان نقول انها تتضمن الجودة والأسلوب ايضاً المميز لها " (٣) . وذلك يعني ان اسلوب العمل الفني يتحدد بواسطة حركته التي من خلالها يمكن تمييز نوعية العمل وتقييمه .

(1) Berenson Bernard , *Aesthetics And History* , Doubleday Company , Inc , Garden city , N. Y. 1954 . P. 78 .

(2) Arnheim Rudolf , *Art And Visual Perception* Unviersity Of California Press, Berkeley Los Angeles , London , 1984 . P. 373 .

(3) *Aesthetics And Hilstory* , Doubleday Company , Inc , Garden city , N. Y. 1954 . P. 83 .

## الحركة فى الفسيفساء البيزنطية وأنواعها :

يمكننا تتبع الحركة فى الأعمال الفنية من خلال جانبيين وهما الثبات والتغير ، وقد توافر هذان العاملان بشكل واضح فى الفن البيزنطى الذى إتسم أسلوبه بالجمود والصلابة ، وذلك يرجع إلى جفاف غالبية العناصر والأشكال المرسومة التى سيطر عليها السكون التام الخالى تماماً من أية حركة - نتيجة التعاليم الصارمة المتشددة فى ذلك الوقت - ولكن هذه الحركة ظهرت فى الفسيفساء البيزنطية بشكل يختلف عن صورتها المباشرة والمألوفة ، وذلك تبعاً لطبيعة هذه الفسيفساء المنفذة داخل الكنائس ،والتي كانت تتطلب معالجة تشكيلية خاصة من خلال الربط بين اللوحات وبعضها ، وقد حاول الفنانون البيزنطيون تحقيق هذا العنصر الحركى عن طريق تكييف الموضوعات والشخصيات المرسومة فوق الأسطح المعمارية ذات الأشكال المختلفة ، وقد إعتدوا فى ذلك على تقسيم رؤية الحركة إلى ثلاثة أنواع هى :

- ١ - الحركة المرئية ( المباشرة ) : فى اللوحة والناجحة عن تغير إتجاه الخطوط والتغيير فى أوضاع أجسام الأشخاص المرسومين .
- ٢ - الحركة المحسوسة أو المدركة ( الغير مباشرة ) : وهى الناجحة عن تغير الألوان الساخنة والباردة وظلالها وإنتقالها التدريجى والمفاجئ ، وهذا النوع ينتج أيضاً عن حركة التركيب الداخلى للكنيسة .
- ٣ - حركة العين نفسها المرتبطة بالمشاهد المتواجد داخل الكنيسة .

وقد إعتد الفنانون على العامل الثانى فى تنفيذ أعمال الفسيفساء تبعاً للتركيب الداخلى للكنيسة ، وإختلفت نوعية الحركة حسب التخطيط المعمارى الخاص بكل كنيسة فبالنسبة للتخطيط البازيليكى المستطيل والذى يحتوى على سلسلة من المناظر المتتالية والتي تتحدد بدايتها ونهايتها وتسير فى إتجاه محدد يتوازى مع تسلسل الموضوعات ، مما ينتج عنه نوع من الحركة الإيقاعية المستمرة من المدخل إلى المحراب ، والتي سيطرت على البناء العام للكنيسة ، وأشهر النماذج التى تجسد هذا النوع من الحركة ، هو مشهد القديسين والقديسات اللذين رسموا فى حركة متتابعة ، ويتجهون بأجسامهم الساكنة إلى منطقة المذبح وتربط بينهم التيجان وأكاليل الثبات والزهور التى يحملونها فى أيديهم .



أما الكنيسة ذات القبة المركزية ، فنلاحظ فيها نوع آخر من الحركة الدائرية التي تأخذ العين في اتجاه دائري يسير حول المركز ، كما تتخذ هذه الحركة الإتجاه إلى أعلى حيث تصل إلى أقصى إرتفاع لها في مركز القبة ، وبالرغم من ثبات وضع الشخصيات المرسومة في تلك القبة ، " إلا أن تركيب القبة نفسه يحقق في الواقع حركة إيقاعية منتظمة تعتمد على الترتيب الإشعاعي للأشخاص الصادرة من المركز " (١) . مما يجعل حركة العين ترتد مرة أخرى في إتجاه عكسي لأسفل حيث الموضوعات المصورة أسفل القبة . وكان قديماً يتم التعبير عن هذه الحركة من خلال إتساع إنفراج سيقان الأشخاص وتداخلها - مع ثبات الجذع نفسه فيبدو الجسد في حالة ثبات - وبذا تقترب كل شخصية من الأخرى ، وبذا ذلك واضحاً في قبة معمودية راينينا ( المعمودية الأرثوذكسية ) شكل (٥٨) . وكانت هذه إحدى الوسائل المتعددة المستخدمة لكي تجعل صور الأشخاص متصلة وتتحرك باستمرار .

أما الكنائس ذات القباب المتعددة فكل شئ في الأجزاء المقبية يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع الأشكال المجاورة له بدون حدود صلبة أو حواجز توقف النظرة المتجولة ، وذلك لأن الحواف المستديرة للأجزاء المعمارية الداخلية تقود العين في حركة مستمرة من جدار لآخر حسب إتجاهاته المختلفة التي تتغير باستمرار .

وقد اعتمد الفنانون على وضع صورهم في كوات أو محاريب وعلى اسطح منحنية ومقوسة ، وهذه الأسطح المنحنية أو ذات الزوايا تحقق ما لم تحققه الأسطح المستوية من حيث الإحساس بالحركة ، فالشخصيات التي كانت على الأرضية المسطحة تلتفت نصف إتفانة فقط نحو بعضها ، أصبحت الآن تواجه بعضها وجهاً لوجه دون أن تتخلى عن منظرها الأمامي الملى بالعظمة ، وتصوير الشخصيات على الجانبين المتقابلين للكوات المنحنية أو ذات الزوايا فإنها تواجه بالفعل بعضها وجهاً لوجه في المساحة الحقيقية وتحدث مع بعضها البعض في إيقاع ملى بالحركة الناتج عن إتصال هاتين الشخصيتين المتقابلتين من خلال الفراغ الطبيعي في الكنيسة واتجاه المحاريب . ومن ذلك يمكن التوصل إلى أن " الجزء الجوهرى لحركة التركيب الحيوية يكمن في تأثيرات البروز الفراغى للكنيسة والتي أضفت على صور الموضوعات صفة الطبيعية والرونة والتألق والسحر الخاص ، وليس التصميم المسطح " (٢) .

(1) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941, P. 18.

(2) Ibid, P. 25.

أما الحركة المباشرة فهي التي يمكن ملاحظتها في اللوحات نفسها والتي تحتوى كل منها على موضوع خاص يختلف عن الآخر، وتتحقق هذه الحركة في موضوعات الفسيفساء البيزنطية من خلال إثنين من العناصر، وهما العناصر الخطية والعناصر الأدمية، والعناصر الخطية تجسدها فروع وأوراق النباتات المتداخلة والمتشابكة، والخطوط الهندسية التي تملأ الأطر الخارجية للوحات، وذلك يرجع إلى " أن طبيعة الخط هي نقل الحركة مباشرة وقد يكون إتجاهه مستقيماً أو منحنياً، منفصلاً أو ممتداً ... والتأثير الحقيقي للحركة ينتج عن وجود مساحات وأشكال - ذات ألوان فاتحة وقائمة - وكذلك تنتج الحركة المحورية والمائلة" (١). التي تغلب على العمل الفني وتحدد إتجاهاته العامة.

وهذه العناصر الزخرفية ظهرت بوضوح في أوائل العصر البيزنطى في فسيفساء كنيسة القديس فيتال بشكل خاص، التي إشملت على تقريعات أوراق نبات الأكانثوس التي تسير في خطوط دائرية منحنية تلتف يميناً ويساراً في جميع أنحاء المساحة المنفذة في شكل (١٢)، والذي ساعد على تأكيد هذه الإتجاهات التضاد اللوني الناتج عن تبادل اللونين الأزرق والذهبي في أوراق الأكانثوس.

أما العناصر الأدمية : فقد إعتمد عليها الفنانون بشكل أساسى في تحقيق هذا النوع من الحركة، وذلك " لأن الجسم البشرى يمثل أداة هامة للتعبير عنها" (١). وبواسطته يمكن تحديد مدى حجم الحركة ومدى قوتها، وذلك عن طريق العلاقات التي تحدثها حركات الأجسام المختلفة مع بعضها داخل اللوحة.

وفي القرون الأولى لفن الفسيفساء البيزنطى سيطر السكون والثبات على أغلب صور الأشخاص التي رسمت فرادى أو مجموعات متخذة الوضع الأمامى، وقلما يبدو هذا الجسد متحركاً إلا من خلال بعض الإشارات والإيماءات البسيطة التي نلاحظها من خلال صور السيد المسيح أو العذراء التي تحمل السيد المسيح، التي إكتفى فيها الفنان برفع الكف أو الساعد في حين يظل باقي الجسد ساكناً عديم الحركة، وكانت هذه الحركات المحدودة المقيدة تبدو جافة بدرجة مبالغ فيها، وكانت معقدة ومتشابكة أكثر من اللازم وكان ينظر إليها كأحد العوامل التي تحلق الإتصال الضرورى بين شخصيتين، كما

(١) برلارد مايلر، الفنون التشكيلية وكيف نتذوقها، ترجمة، سعد المنصورى، وسعد القاضى، مكتبة النهضة

لمصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٣٧.

(2) Arnheim Rudolf, Art And Visual Perception, Unviersity Of California Press, Berkeley Los Angeles, London, 1984, P. 405.

يتضح من صورة العذراء وهي تحمل السيد المسيح ، شكل (١٨٢) ، ويمكن مقارنة مدى التطور الذى طرأ على الأسلوب الحركى فى تغير الأوضاع الشخوص، من خلال شكل (١٨٣) التى تصف فيه العذراء تحمل السيد المسيح طفلاً فى وضع شبه أمامى ، وهي تميل براسها وعنقها لتتنظر إليه فى حوار يخلفه الرقة والمرونة ، كما يلاحظ أيضاً تغير وضع ذراعها لتحمل السيد المسيح بعيداً عنها إلى حد ما بالمقارنة بالوضع السابق الذى التصق فيه جسده بجسدها ، وتؤكد هذه الحركة ثنات عباها التى تنسدل من اكتافها والتى تزداد فى الناحية اليسرى من اللوحة نتيجة لحركة الذراع اليمنى المرفوعة لأعلى .

وقد قسم فرنسوا ديليزار\* (François Delsart) الجسم البشرى إلى ثلاثة مناطق وأشار إلى كيفية الإستفادة من الحركات الطبيعية المرتبطة بكل منطقة منه على حدة ، والتي تساهم بقدر كبير فى نقل الإنفعالات والحالات الشعورية المختلفة المراد التعبير عنها ، وهذه المناطق هى : " ١ - الرأس والعنق وهما يمثلان منطقة العقل ، ٢ - القفص الصدرى ويمثل المنطقة الروحية الوجدانية ، ٣ - اما الجذع والفخذين فيمثلان المنطقة الحركية بالإضافة للساعدين والأقدام المتصلين بالجذع ويمثلون وسيلة الإتصال أيضاً بالعالم الخارجى ، والساعدين لهما خاصية عاطفية بينما الأقدام المرتبطة بالجزء السفلى من الجذع لهما سمة حركية طبيعية ، وكل جزء فى هذين القسمين ينقسم إلى ثلاثة مناطق أيضاً ، فى الذراع هناك الجزء العلوى منه ( العضد ) وهو يعكس السمة الطبيعية ، والجزء السفلى منه ( الساعد ) تعكس سمة روحية عاطفية ، واليدين تعبر عن السمة العقلية ، وحركة مفصل الركبة تعطى سمة طبيعية ، والجزء العلوى من الساق ( منطقة الفخذين ) تعكس السمة الماطفية والروحية أيضاً ، وأخيراً القدم تعطى السمة العقلية أيضاً ، وهذا الوصف يعد مزجاً بين مواقع أعضاء الجسم وما ينتج عنها من وظائف حسية وطبيعية " (١) .

وبذلك تساهم الحركة بدور فعال فى تفسير المعانى الخاصة بالموضوعات المصورة ، والتي برزت بوضوح فى الموضوعات الدينية البيزنطية حيث أنها امتلأت بتجمعات الأشخاص المختلفة الأوضاع والحركات التى كانت فى البداية يتم التعبير عنها من خلال الأيدى الممدودة والملابس المتطايرة ، وكان الهدف منها هو سد الضجوات الفراغية التى

(\*) معلم الرقص الفرنسى .

(1) Ibid P. 405 .

تتخلل صور الأشخاص في المنظر لزيادة الإيقاع بالإضافة إلى أنها كانت محاولات بسيطة لصياغة الإتصال والاندماج بين الصور الأدمية وإستبعاد ظهور هذه العناصر في صفوف عديمة التجانس وتقعد الإستمرارية .

وهنا يجب الإشارة إلى أن حركة الشخص المصور داخل اللوحة تمثل حدثاً في الفراغ وذلك يعني أن تصوير موضوعات الإحتفالات الدينية تتضمن الكثير من الحركة ، ولكن لم تظهر هذه الحركات البشرية بشكلها الطبيعي إلا في العصور الأخيرة من الفن البيزنطي ، كما يتبين ذلك من فسيفساء كنالس دافنى وهوزيوس لوكاس حيث " تتميز فسيفساء دافنى بالتفوق الملحوظ وتباين وأناقة التصميمات وبراء الألوان والإبتكار في معالجة الحركات وتفسير المضمون وإمتداد الخطوط وتصوير الأجسام " (١) . كما يبدو في شكل (١٨٤) الحركات المتباينة للملائكة والتي تتمثل في إنحناء الجزء العلوى من أجسامهم فتشمل حركة الرأس والعنق والجدع والأذرع ، مما يوحي بحساس الشامل بالحركة التي تضفى على المشهد الطبيعية والحيوية والمرونة، ويلاحظ أن هذا المشهد قد جمع بين نوعين من الحركة حيث يبدو القديس يلتفت ناحية العنقاء برأسه ويتجه بذراعه وساقه إلى الناحية اليمنى من اللوحة، وصوره القديس بهذا الشكل تجسد نوعاً من الحركة الساكنة .

أما في هوزيوس لوكاس فقد إحتوت أعمال الفسيفساء فيها على العديد من الحركات الإنفعالية القوية والتي تحققت من خلال تصوير الموضوعات داخل حدود الأطر المستديرة ، التي تفرض على الفنان محاولة تكييف العناصر المرسومة بالداخل مع هذا الإطار الخارجى ، وسبيل الفنان في الربط بين عناصره هو المبالغة الشديدة في حركات الأشخاص وإختلاف أعضائهم، من خلال الحركات القوية للأذرع الممتدة والأقدام المتعارضة بالإضافة إلى تطاير الملابس ذات الثنايات المتعددة ولهذا السبب " يتميز أسلوب فسيفساء هوزيوس لوكاس بالمرونة والحيوية التي تتناسب مع حجمها الصغير ، وتتميز الأعمار الصغيرة بوجود الموضوعات الدينية مثل الصلب والصمود والتي تستدعى وضع تصميم قوى " (٢) . يغلب عليه الطابع الحركى الذى يربط الأطر ببعضها ، " أما كنيسة نيامون فتتمتع بتصميماتها بالبساطة والتركيبات المليئة بالحيوية والمزدهمة بالشخصيات " (٣) .

(1) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacher Art Books, New York, 1935, P. 172 .

(2) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench , Trubner , London ,1941 , P. 58 .

(3) Ibid , P. 59 .

وكنيسة آيا صوفيا تحتوى على أفضل الأعمال التى تكشف عن إتجاه مختلف تماماً بعيداً عن سكون الحركة، التى بدأ يحل محلها مفهوم إنسانى واقعى والذى يتضح فى لوحات الفسيفساء الخاصة بتصوير حياة السيد المسيح والعتراء، وموضوع الميلاد على سبيل المثال ، " ويبدو فيها الرغبة فى تخفيف الأشكال واختفاء الوجود البشرى المادى عليها ، وهذا الإتجاه هو الذى حرر الفن الدينى من القيود التى فرضها العالم البيزنطى الكلاسيكى ، والذى يمثل احد السمات الأساسية التى نراها فى الأعمال اللاحقة فى القسطنطينية " (١) . ويرجع السبب فى زيادة الإحساس بالحركة فى التكوينات البيزنطية إلى عودة التأثيرات الهيلينية التى حاولت التقليل من تأثير هذا النظام المتشدد الصارم فى اوضاع الأشخاص وحركاتهم ، " وخلال القرن الرابع عشر الميلادى تظهت الحركات الإنسانية بوضوح والتى حلت محل الصرامة والجمود فى تصوير الشخصيات المقدسة - (٢) . والتي تجلت فى أعمال الفسيفساء فى كنيسة المخلص فى كورا (Chora)، كما تبين فى شكل (١٨١) الذى يلاحظ فيه ان وضع الأشخاص فى المساحة المصورة وإتجاهات رؤوسهم وحركات الأذرع والجذوع تتخذ إتجاهاً دالرباً يدور حول المركز، الذى رسمت فيه دائرة امتلات بالكتابات والأشرطة الزخرفية ، مما يجعل المشاهد ينتقل برؤيته من مشهد إلى آخر من شخص إلى آخر حسب حركاتهم المتتالية والمتراصة ، ويشير ارنهايم رودلف (Arnheim Rudolf) - إلى أهمية هذه الحركات المرئية التى تعد مصدراً للإلهام الفنى لأنها هى المسئولة وحدها عن التعميرات والمعانى المختلفة " (٣) .

وبالإضافة إلى فضل الأساليب الهيلينية فى تأكيد عنصر الحركة فى هذه التكوينات ، فقد كانت هناك آثاراً للفنون الغربية ويذكر هنري ستيرلين (Henri Sturilin) :  
 " أن البيزنطيين الذين نحوا فى التوصل إلى هذه المهارات الفنية خلال القرن الرابع عشر الميلادى يشهدون على أنهم يتشابهون فى بعض السمات التى تواجدت فى فن الباروك الذى يعيل إلى أسلوب التصنع والتكلف فى التصوير " (٤)

(1) Henri Stierlin , Orient Byzantine (De Constantinople Al Armenie et de Syrie en Edhiopie ) , Office du Livre S . A . Frlourg (Suisse) , 1988 , P. 211.

(2) Loc . Cit .

(3) Art And Visual Percéption Unviersity Of California Press, Berkeley, Los Angeles , London , 1984 . P. 408 .

(4) Orient Byzantine ( De Constantinople Al Armenie et de Syrie en Edhiopie ) , Office du Livre S . A . Frlourg (Suisse) , 1988 , P. 211.

وبالرغم من ازدهار الحركة ووصولها إلى هذا المدى الملحوظ في أعمال الفسيفساء البيزنطية في العاصمة إلا أنه " ظلت هناك بعض الأعمال التي ظل فنانونها محتفظين بالوضع الأمامي لصورة الشخص المرسوم الذي يتميز بالسكون التام، وخاصة الصور المخصصة للعبادة مثل التعميرات الدينية العريضة التي تغطي جدران الكنائس واللوحات الصغيرة المحمولة، حيث سيطرة الروح المسيحية الشرقية القديمة التي سادت القرون الأولى في العصر البيزنطي، والتي تميزت أعمالها في ذلك الوقت بعدم الميل إلى تصوير الحركة والبعد عنها حتى في التعبير عن الصورة الطبيعية لها " (١) .

وينبغي الإشارة إلى أن زيادة المبالغة في الإعتماد على هذه الحركة تتجلى في أعمال الفسيفساء الفريية خارج أنحاء الإمبراطورية في كل من صقلية وثينيسيا التي كانت تحمل كئاسها الطابع البيزنطي الأصيل في تنفيذ الفسيفساء، كما يبدو في أعمال كنيسة بلاطينيا التي تتم عن الحركة القوية مع المهارة في التصوير والخلفية المليئة بالتفاصيل الدقيقة .

أما كنيسة مونريال ، فهي تحتوى على مجموعة من الأعمال التي تصور موضوعات الصيد المليئة بالحركات والأوضاع المتعددة ، كما في شكل (١٨٥) الذي رسم فيه الصياد بحركة عنيفة حيث تغيرت فيها أوضاع جميع أجزاء جسده ، وتلاحظ إهتمام الفنان في التعبير عن قوة حركته وهو يمسك القوس ويصوبه بقوة نحو فريسته ، مما نتج عنه سقوط الطيور على جانبي الشجرة .

وهناك نموذج آخر يصور هذه الحركة في كنيسة القديس مرقس، كما في شكل (١٨٦) الذي يعرض جزئية من مساحة الفسيفساء التي تصور فتاة وهي تؤدي بعض الحركات الراقصة - وهي تجسد شخصية سالومي - وتحمل طبقاً فوق رأسها به رأس يوحنا المعمدان التي أمر الملك هيردوس ، بقطعها بعد تأمرها هي ووالدتها عليه . وهذه الحركات من النادر ظهورها أو تصويرها في الفسيفساء البيزنطية بصفة عامة ، ولكنه بالرغم من ذلك فقد وصفت هذه الحركات المبالغة بأنها ميكانيكية وغير إبداعية، حيث لا يتوافر فيها البراعة الفنية في تلقائية الحركة .

وأهم الأسباب التي يجب الإشارة إليها والتي ساعدت في تبلور الأسلوب الحركي وتضوجه بهذا الشكل هو الإهتمام بالعنصر اللوني الذي يعد بمثابة العامل المدعم له ، وذلك من خلال إنتقاء الدرجات اللونية الساخنة والباردة، وكيفية توزيعها في لوحة الفسيفساء ، مما يمكن من تأكيد قوة الحركة وتحديد اتجاهاتها في هذه اللوحة .

(1) Loc. Cit.

## ● ثانياً : اللون وأهميته في الفسيفساء البيزنطية :

يعتبر اللون من أهم العناصر التشكيلية في التصميم والتي تتصل إتصالاً واضحاً بعين المشاهد للعمل الفني ، ومن خلاله يستطيع الفنان الوصول بالعمل الفني لأقصى مراحل الجمالية ، كما أنه يعتبر الأداة التي يعبر بها الفنان عما يصوره من موضوعات تتفق وروح عصره ، " واللون يمثل موضوعاً من الصعب التعامل معه لأن الألوان تنتمي إلى عالم الواقع ولا تعد مجرد أحاسيس متصورة " (١) . ويضيف الأستاذ أبو صالح الألفي ، الذي ذكر رأى رسكن (Raskin) الذي رأى ان البشر جميعاً متى تم تنظيمهم وإعتدال مزاجهم يتمتمون بقيمة الألوان ، هذه الألوان التي تسبب الراحة الدائمة والبهجة الحقة للقلب البشري ، وقد أضيفت بسخاء على أرقى المخلوقات وصارت دليلاً راعماً على الكمال فيها " (٢) . وذلك يعني أن اللون موجود في الطبيعة ، ومهما اختلفت هذه الألوان الحقيقية أو خرجت عن الصورة المألوفة لها في تصوير الأشكال إلا انها ستظل دائماً تستمد أصولها من الطبيعة ، ولا يمكن أن يوصف العمل الفني بالجودة لمجرد تطابق الوان عناصره مع الواقع كما ينكر الناقد هيربرت ريد (Herbert Read) قائلاً " إن إسعمال اللون بقصد الواقع يكون له إعتبار ثانوي " (٣) . وترجع إعتبارات أخرى يمكن من خلالها تقييم العمل والحكم عليه ، فهناك بعض الأعمال التي يمكن أن تتفوق من الناحية اللونية إذا توافرت فيها العلاقات اللونية المتجانسة والمتوافقة والتي تضى عليه قيم فنية خاصة كالإيقاع والتوازن .

واللون يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالضوء حيث لا يمكننا رؤية الألوان الخاصة بأى شكل من الأشكال الطبيعية إلا من خلاله ، والفنان من خلال الضوء ينتج العديد من الدرجات اللونية فهو يتيح للمعين فرصة رؤية هذه الدرجات المتنوعة والمشتقة من اللون الواحد .

وتنقسم الألوان إلى ألوان ساخنة وألوان باردة ، وللتعبير عن الضوء ( أو مناطق الضوء ) ، إعتد الفنانون على الدرجات اللونية الساخنة ، أما الألوان الباردة فأصبحت أكثر ملاءمة لتصوير الظلال ، كما أن الألوان الساخنة أو الدافئة توحي بالقرب ويستخدمها الفنان في التعبير عن العناصر الأمامية ، أما الباردة فهي توحي ببعد

(1) Berenson Bernard, Aesthetics And History, Doubleday Company, Inc, Garden City, N. Y. 1954 . P. 87 .

(٢) الفن الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار المعرفه ، ١٩٨٢ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣) نفس المكان .

الأشكال وهديتها ، وهذه الخاصية إعتد عليها الفنانون في تحقيق المنظور والإيحاء بالبعد الثالث الذي إبتعدوا عنه في الفسيفساء البيزنطية ، فقلما يظهر في هذه اللوحات ، كما أنها تساهم في الإحساس بالحركة في اللوحة فالإنتقال من الألوان الساخنة إلى الباردة يعطى حركة نحو الداخل في حين يعطى التحكم في قوة الألوان إلهاماً بالمساحة في الفضاء " (١) .

وترجع أهمية اللون إلى أنه يكسب العمل الفني قيمة جمالية " فاللون هو الذي يخدم الوظيفة ويخدم الشكل والنموذج، وبعد ذلك يخدم القيم المحسوسة والحركة داخل العمل ، كما يمكنه تفسير الأشكال وصياغة الكتل والتكوينات ويساعد على إستيعاب المشاهد ( المتذوق ) له. والأهم من ذلك أن اللون تابع للحركة ويتدخل في إدراكنا الحقيقية الطبيعية للأشياء، وهو يقوم بدور هام في تكوين الأضواء والظلال " (٢) . وهذه الأضواء والظلال تجسد العناصر المرسومة ، سواء كانت ألوانها حقيقية أو غير حقيقية عندما يستخدم الفنان بعض الدرجات اللونية التي ليس لها علاقة بالألوان الطبيعية، تحقيقاً للطابع الزخرفي أو التجريدي " والألوان تخدم الزخرفة في المقام الأول " (٣) . وهي تؤدي إلى تحقيق نفس الهدف الجمالي .

كما أن اللون يكسب العمل الفني بعض الصفات التشكيلية مثل السيطرة والترديد ( الإيقاع ) والتكامل ( الترابط ) ، ونلمس عنصر السيطرة في سيادة درجات لونية بعينها في مساحة اللوحة أو سيادة لون واحد فقط، وذلك عندما يلجأ الفنان إلى إستخدام لون واحد في التعبير عن معنى رمزي، كما يتبين من لوحات الفسيفساء البيزنطية التي تلب عليها اللون الأزرق كرمز للسماء أو الإحساس باللانهاية وإلتصافه في ملابس العذراء والمسيح ، " ويرمز اللون الأزرق إلى السماء ويرتبط اللون الأحمر من جهة أخرى بالمعاناة حيث تظهر العذراء في عباءة زرقاء ورداء أحمر اللون للجمع بين عناصر السماء وعناصر الألم في شخصيتها " (٤) . ويتضح من أعمال الفسيفساء البيزنطية أن أكثر الألوان سيادة وانتشاراً هو اللون الذهبي .

(١) برنارد مايرل ، الفنون التشكيلية وكيف نتناولها ، ترجمة سعد المنصوري ، سعد القاضي ، مكتبة النهضة المصرية

، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٥٤ .

(2) Bercuson Bernard , Aesthetics And History , Doubleday Company, Inc , Garden city , N. Y. 1954 . P. 89 .

(3) Loc Cit .

(٤) برنارد مايرل ، الفنون التشكيلية وكيف نتناولها ، ترجمة سعد المنصوري ، سعد القاضي ، مكتبة النهضة

المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٧ .



أما التردد والتكامل فيتحققا عند استخدام مجموعة من الألوان المتداخلة ومحاولة الدمج بينها ، فتحدث العلاقات المتبادلة بين هذه المجموعات والتي نلاحظها من تكرار الدرجات اللونية التي تتفاوت في قيمتها وقوتها المختلفة في جميع أنحاء العمل المصور .

وقد تميزت الفسيفساء البيزنطية بالثراء الذي أكسبها طابعها الزخرفي المتألق ، فقد كان الفنان البيزنطي على مهارة عالية في تنفيذ اللوحات ، وفي تقديره للتوازن اللوني بها والذي يتحقق من خلال الضوء الساقط على اللوحات ، وحيث أن هذا التوازن يفقد قوته عند النقاط المظلمة، لذلك استخدم الفنان درجات لونية كثيفة بحيث يتمكن المشاهد من رؤية اللوحة من خلال الظلال التي تسقط عليها ، ويرجع استخدام الألوان بهذه الكيفية إلى الوصول بلوحة الفسيفساء إلى أقصى درجات الجمال والعظمة التي تناسب قدسية الموضوعات وفخامة الكنائس البيزنطية وإبهار المشاهد بها وهو المتعبد داخل الكنيسة .

ولم يقتصر التحكم في مناطق الظل والنور على اللوحات فقط وإنما شمل جميع النواحي الداخلية للكنيسة ، وتبين ذلك من خلال النظام الذي إتبعه البيزنطيون في توزيع اللون بشكل عام داخلها ، وهذا التوزيع يمكن وصفه كما يلي :

مثملاً إعتد البيزنطيون على الترتيب الهرمي الذي يتم فيه وضع الموضوعات والشخصيات حسب أهميتها ، فقد إعتدوا أيضاً على نظام فني معين في توزيع اللون للوحات الفسيفساء بشكل عام ، حيث إعتبر الفنانون الكنيسة في حد ذاتها عملاً فنياً واحداً ومتكاملاً بما يتضمنه من موضوعات وأشكال الشخصوس والزخارف المختلفة ، لذلك إتبع هذا التوزيع اللوني نفس نظام التسلسل الهرمي للموضوعات ، والذي يتحقق من خلال الإتساق والتوافق للجدران الداخلية " فقد كان الترتيب العام يتبع تقسيم المبنى إلى ثلاث مناطق من أجل تحقيق صفاء الشكل ووضوح الفكر ، وبالتالي فقد إقتصر استخدام الألوان الفاتحة في المنطقة العلوية سواء في القباب أو الأقبية مثل الألوان البيضاء النقية ، والتي تم تلوينها بألوان خفيفة بالإضافة إلى الألوان الذهبية التي ساد ظهورها في هذه المنطقة من الكنيسة وهي تتفق مع الألوان الفاتحة في تحقيق فكرة السماء المقدسة المجردة من الماديات <sup>(١)</sup> . وهي في نفس الوقت ضرورية لإظهار الأشكال الفاتحة التي تم تصويرها في هذا الإرتفاع الشاهق وهي محاطة بالذهب المتلألئ والألوان الفاتحة

(1) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trubner, London, 1941, P. 37.

استخدمت في تنفيذ ملابس الملائكة التي تحيط بالسيد المسيح في مركز القبة والتي استخدمت الألوان الذهبية كخيوط تتخللها أو أشرطة تحدد نهاياتها وأطرافها العلوية والسفلية .

ولا يعنى الإعتماد على اللون الأزرق في تنفيذ عباءة السيد المسيح وردائه مخالفة لنظام التوزيع اللوني المتبع في هذه المنطقة، وذلك لأن اللون الأزرق يعطى إحساساً بخفة الأشكال ويوحى ببعدها - وذلك من الناحية التشكيلية - كما أنه يوحي بقديستها في نفس الوقت .

والمنطقة التالية التي تقع أسفل المنطقة السابقة والتي تصور فيها موضوعات الأعياد والإحتفالات الدينية ، وهي تعتبر أكثر الأجزاء إحتواءً على مجموعة كبيرة ومتنوعة من الدرجات اللونية ، وبذلك تستبعد الألوان الداكنة في هذه المنطقة ويقل التدرج اللوني في منطقة الظلال وتبرز المساحات المضيئة ذات الألوان الزاهية أما المنطقة الثالثة والأخيرة وهي المنطقة السفلى والتي تعتبر قاعدة التكوين الهرمي والمخصصة لتصوير القديسين ورجال الدين ، فتسود فيها الألوان الداكنة مثل الأخضر والبنى والأزرق والبنفسجي كل لون بدرجاته المختلفة والتي نجدها في مناطق الظلال بوضوح ، والتي تخللت الأجسام أيضاً عن طريق تنفيذ ثيابا الملابس الخاصة بها ، والتي إهتم الفنان بزيادة تفاصيلها وثباياتها فضلاً عن إظهار التجاعيد البارزة على وجوه أصحابها ، وهذه المبالغة في رسم التفاصيل والتجاعيد تقل في المنطقتين العلويتين - وذلك مما يساعد على تحقيق هدفين أساسيين ، أولهما : إيجاد التناسق بين هذه الألوان والدرجات المختلفة مع ألوان الألواح الرخامية التي غطت الجدران السفلى والتي تتصلح بالسطح الأرضي المباشر .

وثانيهما : وهو الأكثر أهمية ، أن هذه المساحة القائمة والداكنة من الألوان المستخدمة تساعد في زيادة رسوخ التكوين الهرمي وثباته وإتزانه من الناحية التشكيلية ، والذي يركز عليه باقي العناصر العلوية ، وبذلك تسير الألوان في ترتيب هرمي تصاعدي يقل تدريجياً كلما ارتفعنا إلى أعلى إلى أن يصل إلى القمة في قبة الكنيسة ، وينبغى الإشارة إلى الأسلوب الذي لجأ إليه الفنان البيزنطي في تنفيذ مساحات الظلال التي إمتدت يميناً ويساراً بجانب الشخصيات المصورة والتي إمتلأت بالألوان الداكنة، حيث إتجه في تقسيم هذه المساحات إلى شرائط متجاورة ومتدرجة من عدة ظلال أو درجات داكنة متقاربة ، وهذا التابع المقصود يوفر للفنان مساحة واسعة وثرية من الألوان بدلاً من الطريقة المعتادة التي إكتفى فيها الفنان بالإعتماد على درجتين داكنتين في ظل اللون الواحد .

ومما يساعد الفنان في تحقيق عنصر التمييز اللوني في هذه المساحات الظلية هو ان لوحات الفسيفساء ترى من مسافات بعيدة ، فضلاً عن الدور الذي يقوم به الضوء الخافت أو الغير مباشر الذي ينفذ من خلال التوافه المرتفعة في القباب والطوابق العليا في الكنائس، والذي يعتبر العامل الأساسي في اندماج وتجانس هذه الشرائط الظلية المتدرجة (وتعتبر أعمال الفسيفساء في دير دافني من أوضح الأمثلة التي تعتمد على هذا الأسلوب اللوني ، فقد جاءت لوحات الفسيفساء بها فاخرة ، وعلى درجة عالية من الجودة في التصميم والتنفيذ، حتى وصفها بعض النقاد " بالسجاد في دقتها ، وتعتمد على الألوان القاتمة في مساحات الظلال مثل اللون الأزرق والأخضر والبنفسجي، والتي تم تفضيلها على الإيقاعات الفاتحة حيث إقتصرت فيها استخدام الدرجات اللونية الحمراء والصفراء، والتصميمات بأكملها منقذة على خلفية ذهبية . أما كنيسة هوزيوس لوكاس فنجد أن لوحات الفسيفساء بها وصلت إلى أقصى مراحل التلوين اللامع الجميل ، وفاقته في جودتها أعمال دافني التي تبدو باردة وعميقة عند مقارنتها بها، ويرجع ذلك إلى سيطرة الإتجاه الكلاسيكي الذي يصور الأشخاص والذي ساد في أعمال هذه الفترة " (١) .

والشكل (١٨١) يوضح مدى الثراء اللوني الذي تميزت به فسيفساء دافني ، والذي يتبين من حسن إنتقاء الدرجات اللونية ، ومهارة الفنان في كيفية توزيع الدرجات اللونية الساخنة والباردة ومحاولة ترديدها في الأشكال والخلفية المصورة كل لون بدرجاته المختلفة ، مما يحقق الإيقاع والترابط اللوني في جميع أنحاء اللوحة .

" وتتميز أعمال الفسيفساء في كنيسة نيامون أيضاً بالثراء اللوني والتعارضات الحادة بين مناطق الظلال والنور .. بالإضافة إلى الومضات المفاجئة التي تبدو كأنها تنير المناظر وتضفي على الشخصيات قوة تعبير هائلة " (٢) .

ويصف الدكتور د ثروت عكاشة ، الأعمال السابقة في دافني ونيامون وهوزيوس لوكاس بقوله ، " إن فسيفساء القرن الحادي عشر الميلادي يتجلى فيها الحس الصارخ باللون في لوحات الفسيفساء الواضحة بالأضواء ، فقد كان الفنان البيزنطي يهدف إلى إثراء اللون أكثر مما يهدف إلى بيان الألوان الحقيقية لما يصور ، فتلمس في لوحة بمث آدم وحواء بكنيسة نيامون روح الفنان في إشاعة الألوان الصارخة مع ما بينها من تباين ،

(1) Carlo Bertelli, General Editor, The Art of Mosaic, Per Jonas Nordhagen, Byzantine Treasures, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989, P. 107.

(2) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul Trench, Trubner, London, 1991, P. 59.

وكذا الأمر في لوحة " جندي السنثوريون الروماني تحت الصليب " (١) .. السابقة في شكل  
١٥٧) - .

وقد ظهرت في كنائس القسطنطينية ورواينا وسالونيك أعمال الفسيفساء ذات  
الألوان البديعة والتي تضاهي في جمالها وزهالها الأعمال السابقة ، والتي تتبع نفس  
الأسلوب الفني الخاص بالتحول من الظلال الفاتحة إلى الظلال القاتمة . وأوضح هذه  
الأمثلة نجدها في القسطنطينية في كنيسة آيا صوفيا - في لوحة السيد المسيح الجالس  
على العرش وعلى جانبيه رسم وجهي العذراء والملك جبريل داخل جامتين مستديرتين ،  
شكل ( ١١٥ ) ، وقد أتبع في الخلفية النظام اللوني المتدرج الذي يتجلى في " تقسيم  
الأرضية إلى ثلاثة مناطق أو اشربة سفلية تبدأ باللون الأخضر الذي يرمز إلى الأرض  
ويعلوه اللون الأزرق الذي يرمز إلى السماء، أما اللون العلوي فهو الذهبي الذي يرمز  
إلى القبة السماوية " (٢) . وهذه المساحة الذهبية تمتد إلى باقي الخلفية .

والجدير بالذكر أن هذه الصياغة الحادة للظلال " استمر الإعتماد عليها في  
أعمال الفسيفساء وإلى ما بعد القرن الثاني عشر الميلادي فهي كانت أساساً وسيلة بصرية  
للزخرفة الفراغية وحرص الفنانون على نشرها بالتدريج وأصبحت علامة تميز القداسة  
ويدعمها الإتجاه التلخيصي المناقض للطبيعة حيث كانت هذه الأشكال تميل لأن تمتلئ  
بالمعنى التعبيري للتقديس غير اللينوى ... وهذه المرحلة تعد من أهم المراحل الزمنية في  
تطور الفن البيزنطي، ولكن سرعان ما بدأ هذا النظام اللوني يفقد إتساقه وتوافقته  
بالتدريج " (٣) .

ومع عودة الكلاسيكية في عهد آل باليولوجوس ، - منتصف القرن الثالث عشر  
- التي كانت تهدف إلى الحصول على آثار ثلاثية الأبعاد ، أن زاد الإهتمام بالشراء اللوني ،  
فضلاً عن تأثير التصوير بالفريسك الذي تلازم مع الفسيفساء في تلك الفترة، والذي كان  
نتيجته استخدام العديد من الدرجات اللونية المتعددة والمشتقة من الألوان الأساسية بما  
يتوافق مع هذا الإتجاه الجديد، والذي يتجلى بوضوح في إثنين من الكنائس التي تنتمي  
لتلك الفترة وهي كنيسة الحواريين المقدسين في سالونيك ، والتي تعود الأعمال المتبقية

(١) تاريخ الفن - الفن البيزنطي ، الجزء الحادي عشر، دارسك المصباح ، القاهرة ، ص ٣٣٧ .

(2) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacker Art Books, New York, 1935,  
P. 162 .

(3) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench , Trubner , London ,1941 ,  
P. 39 .

فيها إلى عام ١٣١٥ م ، وكنيسة فيتي كامي (Fetye Camii) بالقسطنطينية ، وأهم الأمثلة في العاصمة التي يمكن الإشارة إليها هي أعمال كنيسة المخلص التي تتميز بتنوع الألوان ورقتها ، ويتضح فيها الرغبة في الحصول على آثار إيقاعية توضح تأثير تصوير الفريسك المعاصر ، وهي كما يتبين من شكل (١٨٧) تزخر بالعديد من الدرجات اللونية الزاهية والتي من بينها اللون الأحمر المنفذ به الفراش الذي يرقد عليه الشخص المريض ، والدرجات الخضراء المتنوعة في الأرضية بالإضافة إلى ألوان الأشرطة الزخرفية المحيطة بالمساحة المثلثة من الخارج .

وقد تطور الإستخدام اللوني في لوحات الفسيفساء مع تطور الأساليب الفنية للعصر البيزنطي ، فالأعمال القديمة كانت تغلب عليها الألوان الفاتحة، وذلك من خلال استخدام مكعبات الأحجار الطبيعية كالرخام على سبيل المثال ، والتي تميزت بالألوان الطبيعية الهادئة وخاصة في الخلفية ، إلى جانب بعض الدرجات الملونة من مكعبات الزجاج ، كما ظهر في فسيفساء القديسة كوستانزا ، والقديسة مارياجوري ، والتي تم تنفيذها تبعاً للأسلوب الكلاسيكي .

وبالرغم من التأثيرات اللونية التي تحدثها المكعبات الزجاجية ، إلا أن نطاق الألوان المستخدمة في فسيفساء الجدران القديمة لم يكن عريضاً ، ففي كاتدرائية القديسة ماريا ماجوري مثلاً نجد ثمانية وأربعين درجة لونية من الأحمر والأزرق والوردي والأخضر والأصفر والرمادي والأسود والبنى ... وحيث أن لوحات الفسيفساء يفضل رؤيتها عن بعد فقد استخدم الفنانون القليل من الدرجات المتناقضة في سبيل الحصول على الأثر اللامع، ولكن وجود الألوان القوية في المناطق المضيئة هو الذي أنتج أفضل الأعمال القديمة ، ولكن بعد ذلك فإن فن الفسيفساء إتبع أساليب ومظهر التصوير في مضاعفة الدرجات وزيادة التدرج اللوني، بحيث أن أستديو القاتيكان به أكثر من ثمانية وعشرين الفاً من الظلال اللونية المختلفة<sup>(١)</sup> .

وقد بدت معالم الكلاسيكية بشكل واضح في الأعمال الدنيوية الأولى، وخاصة في أرضيات القصر المقدس ، كما يبدو في شكل (١٨٨) الذي يلاحظ فيه حرص الفنان على وضع الدرجات المتوافقة والتدرجة في أماكن الظل والنور بما يعطى التجسيد الطبيعي لوجه الرجل بعد أن كان الإنتقال مفاجئاً للدرجات اللونية، والذي بدا في

(1) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacher Art Books, New York, 1935, P. 41, 42.

الأعمال المبكرة ، كما في شكل (١٨٩) الذي عبر فيه الفنان عن المناطق البارزة في الوجه بالمكعبات البيضاء والبرتقالية والحمراء، فاللون الأبيض نجده فوق الحاجبين مباشرة ، ويمتد بطول الأنف ، كما توجد بعض هذه المكعبات البيضاء المتناثرة حول منطقة العين ، أما المكعبات البرتقالية فقد وضعت في الوجنتين وفوق الجفنين والأذن، أما المكعبات الحمراء فوضعت للتعبير عن أماكن الظل، كما يبدو في الخط الجانبى المحدد للأنف ، وهذا الأسلوب القديم المتبع في تلوين الوجوه يعطى إنطباعاً بعدم الإنسجام اللوني الذي تميزت به فسيفساء هذا العصر ، وقد تطور هذا الأسلوب نوعاً ما وبدأ الفنانون في التخفيف من حدة هذه الألوان المتعارضة شيئاً فشيئاً ، كما يبدو في شكل (١٩٠) ، فهو يعتبر مرحلة متقدمة بالمقارنة باللوحة السابقة ، وهذا يعبر عن سيطرة الأسلوب المجرّد الذي ساد في ذلك الوقت .

وأوضح الأمثلة على الإستخدام العريض للألوان الزاهية في الفسيفساء البيزنطية هي لوحات كنيسة القديس فيتال التي تحتوى على العديد من الدرجات اللونية المتباينة، والتي تشاهدها في المساحات المصورة أمام الأشخاص ، وحول العناصر الزخرفية الهندسية والنباتية المحورة والتي تألفت ألوانها وتنوعت بين الألوان الساخنة والباردة، التي أحسن الفنانون إختيارها وتوزيعها بما يحقق التوازن والإبداع الفني - الذي شمل أيضاً صور لوجوه الأشخاص وبالأخص لوحتي الإمبراطور جستنيان ، والإمبراطورة تيودورا ، .

وكانت طبيعة هذه العناصر تفرض هذا الإستخدام الواسع للدرجات اللونية ولكن مع إنكماش هذه العناصر والإبتعاد عن تصويرها في عصور التحطيم ، قل الثراء اللوني وذلك نتيجة طبيعية ترتبت على إستخدام عنصر واحد في مساحة الفسيفساء العريضة، سواء كان ذلك عنصراً آدمياً كالسيد المسيح والعذراء ، على سبيل المثال - أو إستخدام العناصر التشكيلية المنفردة كالصليب، الذي إقتصرت تصويره على تحديد الخطوط الخارجية فقط لأضلاع الأرملة ، واتخذ جسم الصليب في هذه الحالة لوناً واحداً هو لون الخلفية ، كما تبين في شكل (١٠٥) .

ولكن بعد إنتضاء هذه الفترة سرعان ما عاد الإعتماد على إستخدام الألوان الزاهية والمتألقة وخاصة في منتصف العصر البيزنطى ، ويقول في ذلك « أوتو ديموس ، " إن الفسيفساء لعبت دوراً هاماً في تطوير التصوير فيما بعد الحرب الأيقونية وهي الواقع فإنه ساد التصوير أيضاً، حيث كانت تسمح بالوان نقية ومتألقة تتجاوز في جوهرها

عنصر النار الذي ينقى كل شيء ، والذي يبدو أنه مستعد لتمثيل الروعة السامية للصور المقدسة " (١) . وهذه الفترة تميزت بتضوح وتبلور الأساليب الفنية بالأخص في معالجة الوجوه والأشكال، والتي تجلت بشكل واضح في وجوه السيد المسيح والعذراء التي ابتعد الفنانون في تصويرها عن إتباع الأسلوب اللوني في معالجة الوجوه السابقة ، شكلي ( ١٨٩ ، ١٩٠ ) ، فبدت الوجوه أكثر طبيعية وحيوية .

وقد إتبع الفنانون البيزنطيون في أسلوب تلوين الوجوه الإعتماد على الإضاءة القوية التي تشبه إلى حد ما الإضاءة المسرحية المباشرة، والتي نتج عنها العديد من الدرجات اللونية ذات الثراء والتنوع ، وهذه الإضاءة لا تعكس الضوء الطبيعي على المناطق البارزة في الوجه ولكنها " كانت مركزة في التجاويف والتجاويف المرسومة على ملامح الوجوه في تلك الأماكن التي من المتوقع أن نجد فيها أعمق الدرجات اللونية ولكن هذا الأسلوب اللوني يخطط نمط الوجه بوضوح وقوة أكثر من الصياغة اللونية المعتادة " (٢) . وهو أحد السمات الهامة التي تميز التناول اللوني في الفسيفساء البيزنطية " وتقدم كنيسة هوزيوس لوكاس" مثلاً شيقاً ومثيراً لهذا الأسلوب الذي يبدو في إحدى لوحات السيد المسيح في أحد الأقبية الثانوية واعتمد الفنان في تنفيذ هذه الطريقة على الإضاءة المباشرة الطبيعية القادمة من النافذة المجاورة " (٣) .

ولقد أصبحت صفة الثراء اللوني أهم ما يميز هذه الفسيفساء حتى أواخر العصور البيزنطية ، والتي برزت بوضوح في الأعمال الأخيرة في كنائس العاصمة في كل من أيا صوفيا والمخلص بكورا ، وهذه الأخيرة يجب الإشارة فيها إلى " التطورات الجديدة التي طرأت على الأسلوب اللوني من حيث الإضاءة الجديدة " (٤) . والتي ظهرت جلية على الملابس والأشكال المعمارية وهي تعتبر استمراراً للأسلوب اللوني الذي طغى على تصوير الوجوه .

(1) Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul Trench, Trubner, London, 1991, P. 10.

(2) Ibid , P. 36 .

(3) Loc Cit .

(4) Talbot Rice , Byzantine Art , Penguin Book Ltd., Harmondsworth , Middlesex Great Britain , 1935 , P. 102 .

## اللون الذهبى فى خلفيات الفسيفساء البيزنطية :

وأهم العوامل التى ساعدت على إحداء هذا الثراء اللونى وإبراز القيم الجمالية فى الفسيفساء البيزنطية، هو الإعتماد على اللون الذهبى الذى إنتشر بصورة واضحة فى الفسيفساء السابقة داخل الإمبراطورية، وامتد آثاره إلى خارج العاصمة فى فينيسيا وصقلية .

وفيما يلى نتناول الإستخدام التدريجى لهذا اللون، والإشارة إلى مدى أهميته فى الفسيفساء البيزنطية :

فألون الذهبى من الألوان التى تتمتع بالبريق اللامع والأثر القوى ، والذى ينبقى الإشارة إليه عند الحديث عن الألوان والدور الذى تؤديه فى الفسيفساء البيزنطية ، وقد إنفردت لوحات الفسيفساء بإستخدامه فى ذلك العصر واعتمدت عليه بشكل ملحوظ ، وأصبح ظهوره شيئاً أساسياً ومميزاً لطابع الفن البيزنطى ، فقد تلازم تلامزاً قوياً مع هذه الفسيفساء ، وهذا اللون كان يندر وجوده فى الأعمال الأخرى التى تنتمى إلى عصور فنية سابقة للعصر البيزنطى فهو يعد بمثابة إبتكار فنى جديد لهذه الحقبة الفنية ، كما نلاحظ تأثر الفنون الأخرى المعاصرة للفن البيزنطى كالفن الإسلامى واللاحقة، مثل فنون عصر النهضة التى إستخدمت الفسيفساء الذهبية بنفس الكيفية .

ولقد إعتمد البيزنطيون على هذا اللون لما تتمتع به من صفات حسية ودينية ورمزية " فاللون الذهبى لون يسلب الأشياء اجسامها، وهو لون له بريق سحرى من شأنه أن يخرج الإنسان من الواقع الأرضى ويرفعه إلى السماء أو الجنة .. ويلاحظ أن اللون الذهبى ليس لوناً بالمعنى الصحيح لأنه لا يشاهد فى الطبيعة " (١) .

ومن ثم إستخدمه البيزنطيون للتعبير عن رمزية الموضوعات الدينية والزيادة من صلابة الأجسام والعناصر ، وقد بدأ الإستعمال التدريجى لهذا اللون الذهبى حيث كان فى البداية يوضع بنسب قليلة فى تحديد الميداليات التى تحيط بوجوه القديسين أو الحواريين ، كما فى شكل (١٩١) ، أو فى أشرطة وزخارف الملابس الخاصة بأفراد الطبقات الحاكمة أو فى الهالات المقدسة التى تحيط برؤوس الشخصيات الدينية الهامة ، فضلاً عن وجوده فى الأحرف الكتابية وفى الأطر الخارجية .

(١) أبو صالح الأندلسى ، الفن الإسلامى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٠٥ .



وتتركز أهمية اللون الذهبى فى إستخدامه فى خلفيات الفسيفساء على الجدران والقباب ذات المساحات الهائلة والتي لم تظهر بصورة مفاجئة ، فبعد إنتشار اللون الأبيض فى خلفيات اللوحات القديمة ، بدأ تدريجياً إدخال ألواناً جديدة مثل اللون الأزرق الذى إنتشر فى خلفيات اللوحات التى تغطى الأجزاء العلوية من الجدران وغطت الأقبية الجانبية ، وأوضح مثال على ذلك قبة ضريح چالا بلاسيديا ، كما تبين فى شكل (٧٦) .

وظلت خلفيات اللوحات فى الأضرحة والكنائس يقتصر تلوينها على هذه المكعبات الزرقاء المتباينة ، وذلك حتى نهاية القرن الخامس الميلادى ، حيث " أنه مع بداية القرن السادس أصبح من المعتاد إستخدام الخلفيات الذهبية والذى إستمر بعد ذلك إلى أواخر العهود البيزنطية " (١) . وكان فى بدايات ظهور هذا اللون الذهبى ، وجدت بعض الأعمال التى تجمع بين اللون الأزرق والذهبي ، كما فى كنيسة القديس ابولينار فى كلاسى . والتي كانت " تحمل فى الأصل إسم القديس مارتينشو فى السماء الذهبية ، وهى تشير إلى أن إستخدام المكعبات الذهبية لم يكن شائعاً وذلك لأن رموز الإنجيليين فى الأركان ، وفى أسفل الجدران الجانبية صورت ستة وجوه للقديسين وجميعهم متفدين على خلفية زرقاء ... وهؤلاء القديسين مدفونين فى الكاتدرائية المجاورة " (٢) لهذه الكنيسة .

ولقد ساهمت حركة تحطيم الصور بشكل إيجابى فى إنتشار اللون الذهبى بمساحات أكبر ، وسيادته فى مساحة الجدران والتي أصبحت خالية من الأشكال الأدمية، مما أتاح للفنانين توزيع اللون الذهبى بدرجاته وإتجاهات مكعباته المختلفة فى هذه المساحة الشاسعة مكوناً تغطية متينة من الذهب وتأكيداً على العنصر المصور على الجدار المستوى ، وقد أكد ذلك الكاتب « أوتوديموس » بقوله : " مع بداية القرن التاسع الميلادى - الفترة التى أعقبت عصر الصراع الأيقونى - قال اللون الذهبى أعلى قيمة ، وأقصى درجة لونية ، وأصبح هو الطبقة الأساسية فى أى لوحة فسيفساء ، والتي توضع عليها كل الألوان الأخرى بعد ذلك ، وأصبحت الألوان نفسها فهكن وأعمق " (٣) . وما ساعد الفنانين فى تحقيق هذا التأثير اللامع إعتمادهم على الضوء بشكل أساسى ، وهذا الضوء عندما

(1) Edgar, Waterman Anthouy, A History of Mosaics, Hacher Art Books, New York, 1935, P.

41 .

(2) Ibid , P. 118 .

(3) Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul Trench, Trubner, London, 1941, P. 52.

يسقط على اللوحات فإنه يحيط بالشخصيات الرئيسية بهالة من التقديس وذلك من خلال اللون الذهبي المنفذ على نطاق واسع في الخلفية ، وكانت هذه الإنعكاسات الضوئية تتوقف على وضع المشاهد بالنسبة للوحة وحركته في الكنيسة ، كما تتوقف أيضاً على مسار الشمس المتغير باستمرار وتتغير بتغير مسارها وتختلف حسب قوتها، والمساحات المعمارية المنحنية والبارزة لها الدور الكبير في إحداث التأثيرات الجمالية حول هذه الشخصيات فهي تستقبل الضوء وتعكسه وفقاً لإحنائها المختلفة ، وذلك أثناء النهار ، أما في الليل فقد اعتمد على إضاءة المصابيح والشموع الخافتة ، مما يخلق إنعكاسات مناسبة ورفيعة على هذا السطح الذهبي المصور عليه الأشخاص ، فأضواء هذا السطح المعدني تساعد على بروز الصورة المنفذة داخل القباب والمحاربي، حيث تتميز هذه المناطق بتجميع بريق هذا اللون في بؤرة المحراب أو القبو ، لذلك فالسطح المنحني يساعد في زيادة تركيز وهج اللون الذهبي ولعانه، مما يكسب الألوان بريقاً وزهاء ويضفي على أشكالها القوة والمتانة ، وبذلك لم يقتصر استخدام اللون الذهبي على إضفاء تأثير لوني فحسب ، وإنما كان الغرض منه أيضاً إضاءة اللوحة نفسها وما تحويه من عناصر آدمية وزخرفية، وذلك بمساعدة الضوء المباشر أو الغير مباشر .

ولقد اتجه الفنانون في زيادة بريق الذهب إلى تحديد أشكالهم وعناصرهم التشكيلية من الخارج بخطوط قاتمة سوداء أو بيضاء ، بالإضافة إلى اختزالهم بعض التفاصيل الدقيقة ويصفه « أوتو ديموس » المكانة التي وصل إليها هذا اللون بقوله : " وفي هذا الوقت وبهذه الطريقة تحولت الكنائس إلى أشرطة ذهبية جاهزة لإستقبال بعض التصميمات والموضوعات الجديدة " (١) .

واستمر الإعتماد على هذا اللون في الخلفيات ، وبالأخص خلفيات الموضوعات الدينية طوال القرون اللاحقة وإزدهر إزدهاراً واضحاً ومثالنا في ذلك فسيفساء كنيسة آيا صوفيا المنفذة في القبة والقبوات الصغيرة المجاورة لها والتي وصفها العلماء " بالسماة الذهبية نتيجة الإمتداد الواسع لهذه المكعبات الذهبية ، وقد أحصى العلماء هذه السيفساء التي تضمنت حوالي مائة وخمسون مليون قطعة فسيفساء حيث العمل الواحد قد شمل أكثر من ألف قطعة " (٢) .

(1) Loc . Cit .

(2) Carlo, Bertelli, General Editor, The Art of Mosaic, Per Jonas Nordhagen, Byzantine Treasures, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989, P. 102 .

والى جانب هذه الخلفيات فقد ظهرت بعض العناصر الأساسية التى تفننت بهذا اللون - وذلك يعتبر إمتداداً لبيدات الإعتقاد عليه - ونظراً لقدسيته ورمزيته فقد إعتد عليه الفنانون فى تنفيذ ملابس السيد المسيح وعباءته، وخاصة فى فترة طفولته فى كثير من الأعمال ، وذلك إلى جانب اللون الأزرق الذى توافق معه فى بعض الصفات التشكيلية والذى إرتبط بعباءة السيد المسيح والعذراء ، وأكثر الأمثلة تعبيراً عن إتحاد هذين اللونين ، الفسيفساء التى تصور العذراء تحمل المسيح طفلاً فى شكل (١٨٣) حيث يرتدى السيد المسيح عباءته الذهبية، فى حين ظهرت العذراء بعباءتها الزرقاء والموشاة بالخطوط الذهبية فى أطرافها والنقوش الذهبية على الرأس والأكتاف . ويلاحظ فى عباءة السيد المسيح والخلفية ثراء هذه الكمعبات الذهبية التى تداخلت درجاتها المتقاربة مما ساعد على ظهور التجسيد الطبيعى لجسد المسيح الطفل وإظهار الثنايات الحقيقية فى ملابسه ، فضلاً عن تلالؤ هذه الكمعبات المتناثرة فى الخلفية، التى تبدو واضحة خلف العذراء فى يمين اللوحة .

وهذا المظهر الفاخر للفسيفساء الذهبية يكشف عن التطلع إلى الذوق والفخامة فى التصوير الذى تميزت به الفنون خلال هذه القرون البيزنطية . مما يبرز أهمية اللون الذهبى ويجعله فى مقدمة العناصر التشكيلية التى تساهم بقدر كبير فى تحقيق الثراء اللونى فى تكوينات الفسيفساء البيزنطية والذى يكسبها صفتى التكامل والترابط اللونى بين اللوحات المتجاورة فى فراغ الكنيسة .

والى جانب اللون الذهبى فقد إستخدم أيضاً اللون الفضى فى إحداث هذه التأثيرات المضيئة اللامعة ، ولكن بنسب بسيطة بالمقارنة بإنتشار اللون الذهبى وسيادته ، وكان مستخدماً فى تطعيم هذه المساحة الذهبية بواسطة وضع بعض القطع المتناثرة من هذا اللون الفضى لزيادة اللمعان والتلالؤ .

كما تلازم مع اللون الذهبى فى ملئ بعض المساحات داخل لوحات الفسيفساء كالهالات المقدسة التى إمتلأت تماماً بالكمعبات الفضية، كما يتبين من شكل (١٩٢) والثى تحيط برأس أحد الإنجلييين الأربعة ، الذى يحمل الكتاب المقدس،والذى نلاحظ فيه أيضاً إستخدام اللون الذهبى فى تنفيذ الخطوط الخارجية لصحة الكتاب .

كما نلاحظ أيضاً إنتشار الكمعبات الفضية بشكل واضح وعلى مساحة كبيرة تتخللها عناصر زخرفية بجانب أشكال الطيور التى تخللتها أيضاً الكمعبات الذهبية ، ومن الخارج تبدو المساحة الذهبية الممتدة التى إمتدت فى مساحة الإطار الخارجى المحدد

للمساحة الفضية السابقة والتي رسمت فوقها خطوط هندسية متعارضة من اللونين الأخضر والأزرق مكونة مربعات تتوسطها دوائر صغيرة حمراء اللون، كما تبدو في شكل (١٩٣) ، " وشيوع استخدام الفضة في هذه الكنيسة \* ، والمعالجة في براعة تدل على أنه تقليد قديم وهي مستخدمة في خلفية الحليات الجدارية حول السيد المسيح وتمثل وسيلة تهدف إلى إبراز الوجوه ، والأشعة التي تمثلها أعواد الفضة اللامعة مستخدمة في تكثيف الهواء فيما عدا بعض الحالات التي تعتمد على استخدام قطع الفسيفساء الفضية في سبيل التركيز على الرموز ذات الدلالات الخاصة مثل ماء التعميد أو صليب التعميد ، حيث أن الفضة تمتزج مع القطع البيضاء العادية في سبيل إبراز الألوان مثل تلك المستخدمة في الرداء الأبيض للقديسين المحاربين ، بالإضافة إلى الترصيع الفضي على الخلفيات المعمارية الذي يمتزج مع الذهب في سبيل إظهار الضوء الصادر من مدينة الفردوس وعلى الجوانب والأطر الخارجية ، فإن الفضة تبدو مصدراً للضوء بين القطع الذهبية حيث أن الخطوط الفضية تتوازى مع الخطوط الذهبية وتحقق أفضل معدل للإعكاس " (١) .

وتظهر هذه التكتسية الفضية أيضاً في الفسيفساء الأولى في كنيسة آيا صوفيا والتي تنتمي إلى عهد « جستنيان ، حيث اعتمد عليها في زخرفة القباب الداخلية وفي التصميمات التي تغطي الأجزاء الأصلية من القبة ، وهي تتيح للقطع الذهبية عند قمة الجدران وفي المناطق الغير مضاءة جيداً أن تعكس الضوء - كما سبق الإشارة إليها - .

أما الأشرطة الفضية التي تعبر عن الأشعة الضوئية الصادرة من جسد السيد المسيح فقد تكرر ظهورها بصفة خاصة في موضوع التجلي المصور على جدران الكنائس أو في اللوحات الصغيرة ، والتي تبدو في شكل (١٩٤) ، وقد ظهرت المساحات الفضية هنا في الهالات المتدرجة خلف السيد المسيح .

ويجب الإشارة إلى أنه كما اعتمد على اللون الذهبي في المساحات داخل الكنائس، فقد إنتقل ظهوره إلى لوحات الفسيفساء الصغيرة المحمولة والتي بدا فيها الإهتمام الأوضح في إحداث هذه التأثيرات اللامعة نتيجة لإتباع الأساليب التنفيذية المتطورة في عهد « آل باليولوجوس » ، وقد صاحبه اللون الفضي في ذلك، حيث تعتبر هذه الفترة من أهم الفترات التي شهدت الإستخدام الممتد للمكعبات الفضية في هذه اللوحات

(1) Ibid P. 10٦ .

(\*) بنيت هذه الكنيسة من أجل القديس جورج بسالونيك وسميت بإسسه .

الصغيرة ، أوضح مثال لذلك اللوحة التي تصور موضوع صلب السيد المسيح ، كما يبدو شكل (١٩٥) والتي " نفذت خلفيتها بمكعبات اللون الفضى الذى طغى بشكل واضح على لون الخلفية وزاد على عدد المكعبات الذهبية فيها " (١) . وكما يبدو قد تساقطت بعض اجزاء منها وخاصة فى المنطقة المحيطة بجسد كل من السيدة مريم والقديس يوحنا اللذين يقفان على جانبي السيد المسيح .

وكان نتيجة للإزدهار الكبير فى إنتشار هذه الألوان المضيئة وخاصة اللون الذهبى ، والذي كان له الفضل فى تميز الفسيفساء عن غيرها ، أن إنتقل إلى فسيفساء الكنائس الغربية خارج العاصمة كما فى فسيفساء كنيسة القديس مرقس ، على سبيل المثال ، التى غطى الذهب فيها جميع اجزائها المعمارية الداخلية كما يبدو فى شكل (١٩٦) ، التى بدت فيه كالجوهرة المتلألأة ، بالإضافة إلى فسيفساء كنائس صقلية المتعددة التى استخدم فيها اللون الذهبى بهذه الكيفية ، والذي يعد الإعتماد عليه من أهم الملامح التشكيلية المميزة التى تؤكد على إستمرارية وقوة تأثير الفسيفساء البيزنطية التى إنتشرت فى جميع الأقطار المجاورة بالإمبراطورية فى القرون اللاحقة .



---

(1) David Talbot Rice, Art Of the Byzantine Era , Thames And Hudson, Ltd . London , 1963 , P. 174 .



## الفصل الرابع

### انتشار الفن البيزنطى وامتداداه فى الفنون الأخرى

- تمهيد .
- ظهور تأثيرات الفن البيزنطى خارج أنحاء الإمبراطورية .
- الفسيفساء فى صقلية .
- العناصر البيزنطية فى الفسيفساء الإسلامية .
- التصوير الجدارى القبطى .





## الفصل الرابع

### انتشار الفن البيزنطي وامتداده في الفنون الأخرى

#### ● تمهيد :

تسم الفن البيزنطي بسمات فنية خاصة ميزته عن غيره من فنون الحضارات الأخرى ، وكان له تأثيراً فعالاً على هذه الفنون المختلفة ، ونتيجة لإستمرار الحضارة البيزنطية هرونأً طويلة في إمبراطورية مترامية الأطراف ، كان من الطبيعي ان تتسرك آثارها الواضحة على الأقطار المحيطة بها ، ويؤكد ذلك الكاتب « ستيفن رفسمان » بقوله : " إن الإمبراطورية البيزنطية ظلت طوال عمرها كله ذات أثر فعال في حضارة العالم ، وان أوروبا الشرقية مدينة بحضارتها كلها تقريباً لمبشرى القسطنطينية ورجال السياسة فيها ، كما ان أوروبا الغربية ظلت مدينة لها على الدوام بالفضل العميم مدة طويلة من الزمن .... ، على حين أنه حتى الإسلام نفسه كان متعرضاً لتيار متواصل من الأفكار ينساب إليه من ضفاف البسفور " (١) . وقد اختلف هذا التأثير في كل منطقة حسب قربها من مراكز الفن البيزنطي أو بعدها عنه ، كما إصطبغت بعض البلاد بسمات الفن البيزنطي الخالصة ، وبعض البلاد إختلقت فيها هذه السمات البيزنطية مع اساليب الفن المحلية بها، ويظهر ذلك بوضوح في غرب أوروبا في كل من فينيسيا وصقلية .

ولقد كانت هناك بعض الأسباب التي ساعدت في ظهور هذه التأثيرات والتي ترجع إلى - بالإضافة إلى الموقع - سيادة الديانة المسيحية ، وإعتناق بعض الدول لها خارج حدود الإمبراطورية ، وبالتالي خضوعها للسيطرة البيزنطية نتيجة لسلطة الكنيسة الشرقية في القسطنطينية ، وزيادة الإتصال التجاري واتساع رقعة الإمبراطورية ، مما ساعد على ربط الأقاليم ببعضها ، والتوسع في إنشاء الموانئ الساحلية ، كما حدث في فينيسيا التي أصبحت أهم مركز بحري تجارى بين الشرق والغرب " (٢) .

ويتضح احد هذه الأسباب في الإختلاط الإجتماعى الناشئ عن زواج بعض الملوك أو الأمراء في البلاد المجاورة من إمبراطورات وسيدات المجتمع البيزنطي ، كما لجأ

(١) الحضارة البيزنطية ، لرجمة عبد العزيز لوفيق جلود ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٣١٠

(٢) ثروت مكاشة ، تاريخ الفن - الفن البيزنطي ، الجزء الحادى عشر ، دارسماد الصباح ، القاهرة ، ص ٢١٠ .

بعض حكام هذه الدول إلى اباطرة القسطنطينية ، طلباً لإمدادهم بفنائى الفسيفساء ومساعدتهم وإرسال الخامات والألوان المطلوبة لتنفيذ أعمال الفسيفساء ، وقد إنتقل الفنانون أيضاً إلى هذه الأقاليم المجاورة تبعاً للهجرات التى قامت بها العائلات الإيستقراطية من القسطنطينية حيث أن بعض الحرفيين ، تبعوا أسيادهم البيزنطيين ، بينما ظل آخرون يعملون عند الحكام اللاتينيين وذلك فى فترة الإحتلال الصليبي ، فضلاً عن رحلات التبشير والبعثات الدبلوماسية التى كان لها دوراً أساسياً فى إختلاط الشعوب ببعضها .

وبالرغم من قوة التأثير البيزنطى وإنتشاره على هذا المدى الواسع إلا أنه هناك بعض الشعوب التى ظلت بعيدة عن هذا التأثير مثل قبائل القوقاز والألبانيين والجرانسة وهذه الأخيرة " لم تكن لبيزنطه معهم إلا معاملات طفيفة لا تذكر " (١) . وقد كانت بلاد القوقاز على سبيل المثال لا تمثل إلا مصدراً للجتود المرتزقة للإمبراطورية ولاشئ غير ذلك ، ونلاحظ أن الفنانيين البيزنطيين قد تركوا بعض التأثيرات الطفيفة على الفن الألمانى الذى تجلى فى زخارف العمارة الكنسية ، وتقل هذه التأثيرات فى كل من فرنسا وإنجلترا حيث أن وسائل الإتصالات كانت محدودة بينهما ، أما الفترات الطويلة التى دامت فيها الحروب الصليبية مع الإمبراطورية فلم ينتج عنها أى تأثير للعالم اللاتينى بهذه الحضارة العريقة ، " إلا د فريدريك الثانى ، \* وهو الشخص الذى إقتبس عن بيزنطة بعض الأفكار والوسائل التى كانت تستخدمها حكومة الإمبراطورية فى هيئتها القديمة ، وذلك بسبب صداقته الحميمة ببلاد نيقية ، ولم يسرع علماء الغرب فى إدراك مدى ضخامة كنوز العالم المختزنة بالقسطنطينية إلا فى القرن الرابع عشر الميلادى " (٢) .

ولم يقتصر إنتشار الأساليب البيزنطية على العالم الغربى فقط ، وإنما ظهرت أيضاً فى العالم الإسلامى حيث كان يتم تبادل العلماء بين بغداد والقسطنطينية ، بالإضافة للروابط الإجتماعية التى نشأت من زواج بعض الأمراء من النساء العربيات ، وقد حاول الفنانون الأخذ بهذه الأساليب الفنية الجديدة بما يتفق وطبيعة العقيدة الإسلامية ، وتجلى هذا الإندماج الفنى بوضوح فى أعمال الفسيفساء فى المساجد الكبرى .

(١) ستيفن زسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة ميد المزيوتوفيق جاويد ، الطبعة الثانية ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٣٥٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٦٠ ، ٣٦١ .

(٣) أحد الملوك الفرنسيسيين .

كما ظهرت التأثيرات البيزنطية فى كثير من الفنون الأخرى ، مثل الفن القبطى ، والذي برزت فيه هذه التأثيرات بصورة واضحة خاصة فى أعمال التصوير بالفريسك ، وفنون النسيج والمعادن والمنحوتات الجصية والخشبية .

### ● ظهور تأثيرات الفن البيزنطى خارج أنحاء الإمبراطورية :

ظهرت هذه التأثيرات فى الكثير من المدن التى تقع خارج نطاق الإمبراطورية فى الشرق والغرب ، وتمثلت فى العديد من كنائسها ، ويمكن هنا إلقاء الضوء على ثلاثة مناطق خارجها فى كل من روسيا وإيطاليا وصقلية .-

وقد كانت روسيا من ابرز الأماكن التى عبرت عن طابع الفن البيزنطى فى الشرق بما إحتوت عليه من كنائس شهيرة مثل : كنيسة آياصوفيا ، وكنيسة القديس ميخائيل .

أما فى الغرب فظهرت هذه الأساليب البيزنطية فى عدة كنائس فى فينيسيا وتورشيلىو ومورانو فى إيطاليا ، وكنائس سيفالو ومارتورانا وكنيسة بلاتينيا فى صقلية ، وجميع مراحل تطور الفن البيزنطى لم تظهر فى فينيسيا وصقلية ، لأن بعض الأساليب قد إنتقلت إلى فينيسيا فقط ، بينما مراحل أخرى ظهرت فى صقلية ، كما أن بعض المراحل الهامة للتطور البيزنطى لم تظهر فى هذين المركزين مطلقاً ، وعملية الإنتقال بدأت خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر<sup>(١)</sup> . وجميع الكنائس السابقة إحتوت على كم هائل من لوحات الفسيفساء ذات الملامح البيزنطية التى توافرت فى الموضوعات والأسلوب والمعالجات التشكيلية للخطوط والألوان ، ونذكر هنا بعض النماذج التى تؤيد ذلك ، " فى روسيا بدأ الفن البيزنطى يترك آثاره الواضحة منذ نهاية القرن العاشر الميلادى اثناء حكم "فلاديمير" أمير كييف عندما قرر إعتبار المسيحية الدين الرسمى لها ، وعمل على نشرها فى ربوع دولته ، هذا وإن كان هناك فى جنوب روسيا كنائس مسيحية أقدم من هذا التاريخ ، فإن روسيا منذ أيام « فلاديمير ، أصبحت على أوثق الصلات ببيزنطة ، خصوصاً عندما تزوج هو نفسه بأميرة منها ، وتوطدت التجارة والعلاقات الحضارية بين الإثنين ، وأصبحت روسيا إمتداداً للحضارة البيزنطية " (٢) .

(1) Otto Demus, Byzantine Art And The West, New York University Press , New York , 1970 , P. 129 .

(١) داود عبده داود ، الفن البيزنطى ، محيط الفنون ، الفنون التشكيلية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ٢٢٩ .

وإتضحَت الأساليب البيزنطية في إنشاء العديد من الكنائس التي تعتمد على التخطيطات البيزنطية ، ومن أهم الأمثلة التي يجب الإشارة إليها ، نجدُها في كنيسة آياصوفيا ، وهي من أشهر الكنائس المشيدة في كيبث\* ، والتي إعتدت في تصميمها على الطراز البازيليكي الصليبي . وهو أحد أشكال العمارة البيزنطية ، وقد عثر فيها على لوحات فسيفساء بمساحات كبيرة ، تتبع في أسلوبها التقليد البيزنطي ، فهي تضم برنامج فني يماثل في أسلوبه وترتيبه النظام الطبقي الذي سبق وأن ظهر في كنائس منتصف العصر البيزنطي ، ففي القبة صور السيد المسيح الحاكم الأعظم وهو محاط باللائكة والحواريين ، ورموز الإنجليين الأربعة مصورة على الدلايات التي تحمل القبة ، وفي المنطقة السفلى - أسفل المشاهد السابقة - صور الأنبياء والقديسين ، أما العذراء فهي مصورة في الجزء الخارجي البارز من الكنيسة ، وهي مصورة بشكل رمزي وملابس فاخرة توحى بهيئتها الإمبراطورية، هذا إلى جانب الصور في القباب الإسطوانية التي تصور مشاهد آلام السيد المسيح في الجدران الشمالية والجنوبية تتضمن صور من حياة السيد المسيح والقديس « جورج ، والقديس بطرس وكبير اللائكة ميخائيل .

وقد وجدت نماذج في هذه الكنيسة يظهر فيها التقليد الواضح للموضوعات والأساليب البيزنطية، فهناك بعض اللوحات التي تصور<sup>١</sup> مناظر لمضمار سباق الخيل والإمبراطور مصوراً فيها وهو يشاهد المباريات من المقصورة ، علاوة على مشاهد الصيد والموسيقين ، وهذه المشاهد إحتلت مساحة الجدران في تجويف السلالم التي تؤدي إلى الممرات ، كما تظهر لوحة السيد المسيح جالساً على العرش بين ياروسلاف وابنه على أحد الجوانب ، وزوجة ياروسلاف وبناتها على الجانب الآخر<sup>(١)</sup> . وهذه اللوحات تذكر بلوحات التصوير الإمبراطوري المنقذة في كنيسة آياصوفيا بالقسطنطينية والتي تشبهها تماماً .

وتشير فسيفساء كيبث إلى كثير من الإختلافات في المعالجات التشكيلية والتنفيذية ، وذلك يرجع إلى إختلاف العاملين في زخرفة هذه الكنيسة ، " وهي تشير أيضاً إلى أن فناني القسطنطينية قاموا بالعمل فيها ، كما أن مكعبات الفسيفساء المستخدمة تعتمد على مادة الزجاج والحجر المعتم ، والحجر قد إستخدم في الأجزاء المكشوفة من

(1) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press , New York 1994 , P. 222 .

(\*) أسسها ياروسلاف في القرن الرابع عشر الميلادي ، ولعمرضت للحرائق والتلف وأميد إكتشاف أجزاء منها في القرن التاسع عشر الميلادي .

الجسم وإتخذ أحجاماً صغيرة بالمقارنة بالمكعبات الزجاجية التي نضدت بها الملابس والخلفية" (١) . وذلك وفقاً للأساليب التقنية البيزنطية .

وكذا ينطبق الحال في إيطاليا، حيث الكنائس التي إتبعت في تصميماتها وزخارفها الداخلية الأسلوب البيزنطي ، كما في كنيسة القديس « زينو » التي إعتمدت زخارف الفسيفساء في موقع التعميد\* فيها على المفهوم البيزنطي ، كذلك أعمال الفسيفساء الموجودة في كنيسة القديس « إيزيدور » - كلاهما في روما - والتي يظهر فيها خليط من الفن القوطي والبيزنطي الذي يبدو في جمود الشخصيات والخلفيات الزرقاء والتي إستبدلت بالخلفيات الذهبية ، وإضافة الأشكال المعمارية التي حلت بالتدرج محل المساحة الذهبية الواسعة ، " ويقول في ذلك المؤرخ تيكاين (Tikkanen) ، إن مجموعات الصور التي تغطي القباب والأقواس في القسم الغربي ، وتنتمي للقرن الثالث عشر الميلادي تمت على أيدي أساتذة بيزنطيين ، بينما تلك الأعمال الموجودة في القسم الشمالي من إنتاج التلاميذ الإيطاليين اللذين تتلمذوا على أيدي أساتذة بيزنطيين ، ولكن مهما تكن جنسية المنتج لهذه الأعمال فإن هذه الأعمال تستوحى الكثير من المصادر الشرقية وهي من إنتاج الذهن البيزنطي " (٢) .

وهناك نموذج آخر في كاتدرائية "جروتا فيراتا" (Grottaferrata) بالقرب من روما ، مصور فوق قوس النصر ويصور عيد الفصح والحواريين جالسين في مجموعتين متساويتين ، وتسقط فوق رؤوسهم أشعة الشمس والتي يتم التعبير عنها بمساحة مستقيمة ومحددة ، تمتد من أعلى المساحة المصورة ، ولكنها هنا تمتد في خطوط قصيرة فوق رأس كل حوارى ، كما نرى في شكل (١٩٧) . " وهذه الطريقة كانت متبعة خلال القرن الحادى عشر ، والألوان الواضحة البراقة وتباين الملابس يكشفان عن الإعتدال على الأسلوب البيزنطي " (٣) . الذى تجلى بوضوح في فسيفساء دير دافنى .

أما في هينيسيا فقد إختلطت هذه التأثيرات البيزنطية بالأساليب المحلية مما نتج عنه الإتجاه الهينيسى البيزنطى الذى أصبح أحد العوامل الفعالة في فن هينيسيا، وسيطر بوضوح على أعمال الفسيفساء وخاصة في كنيسة القديس إمرقص وفى إثنين من

(1) Dalton, Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press, Oxford, 1911. P. 397 .

(2) Ibid P. 400 .

(3) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics , Hacer Art Books , New York , 1935 , P. 171 .

(\*) فسيفساء موالع التعميد ، ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى .

المواقع بالقرب من فينيسيا في تورشيللو ومورانو\* .

وكنيسة القديس "مرقص" \*\* من الكنائس الشهيرة في فينيسيا وتحتوي على العديد من لوحات الفسيفساء " التي تمثل متحفاً لجميع العصور بين الحادي عشر الميلادي والعصور الحديثة ، ... ، والفسيفساء التي تنتمي للقرون الأولى هي التي تحمل الطابع البيزنطي الذي تم على أيدي الفنانين البيزنطيين واليونانيين ، ويؤكد ذلك رسالة ديزيديريوس (Desiderius) إلى القسطنطينية التي يطلب فيها فنانيين لتنفيذ الأعمال الجدارية ، وذلك يشير إلى صعوبة الحصول على فنانيين محليين ، ونظراً لعدم وجود علاقات تجارية بين فينيسيا والقسطنطينية وقتذاك ، ووجود الرسامين اليونانيين في فينيسيا خلال القرن الثاني عشر يشير إلى أنها بدأت في زخرفة كنائسها تبعاً للثقافة اليونانية ، وكذلك الإستعانة بالفنانين اليونانيين يشير إلى عدم كفاءة الفنانين المحليين " (١) .

وتعتمد هذه الكنيسة في طرازها على القباب المتعددة فهي تحتوي على خمسة قباب وتشبه في نمطها المعماري كنيسة الرسل في القسطنطينية ، ولم يعتمد نظام زخارف الفسيفساء فيها على الترتيب الهرمي نظراً لوجود هذه القباب الخمسة التي اضطر الفنانون في ملئها إلى تصوير التصميمات الثلاثة لزخارف القبة ، وهي ( صورة السيد المسيح ، الصعود ، عيد العنصرة ) - والتي تستخدم معاً جنباً إلى جنب في زخارف منتصف العصر البيزنطي ، وهم في ذلك كانوا يمزجون برنامجين مختلفين معاً - وذلك في القباب الثلاثة الرئيسية. أما القبتان الباهيتان تم ملئها بطريقة عشوائية بمناظر من أسطورة القديس ، حنا ، ومناظر للإنجيليين الأربعة . والتي غلب عليها التفكك نتيجة لفقدان الوحدة الشكلية والموضوعية بينها .

وقد تشابهت موضوعات الفسيفساء بها مع الموضوعات البيزنطية الدينية مثل موضوعي الدخول إلى القدس ، والعشاء الأخير كما يبدو في الشكلين ( ١٩٨ ، ١٩٩ ) ، والتي يظهر في الأولى السيد المسيح مصوراً يمتطي حماراً ويتجه إلى مدينة القدس التي يشار إليها برسم معماري مبسط يظهر في الخلف ويتقدمه بعض الأشخاص الواقفين في استقبال السيد المسيح .

(1) Dalton, Byzantine Art and Archocology, Clarendon Press, Oxford., 1911, P. 399 .

(\*) مورانو عبارة عن جزيرة مجاورة لمدينة تورشيللو .

(\*\*\*) بدء العمل في هذه الكنيسة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، واستمرت المرحلة الأولى من تنفيذ الفسيفساء حتى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادي .

واللوحة الثانية تصور مشهد العشاء الأخير، حيث تمتد منضدة طويلة تشغل اغلب المساحة الجدارية، ويتجمع حولها السيد المسيح والحواريون الإثني عشر اللذين يظهرون في المواجهة، والسيد المسيح يجلس على رأس المنضدة - يسار اللوحة - وجواره يهوذا الخائن .

وبالنظر إلى اللوحتين السابقتين تتضح الأساليب البيزنطية التي ظهرت في تصوير العناصر الأدمية المسطحة والجامدة بالرغم من ظهور محاولات مبدئية للتعبير عن الحركة التي بدت في وضع السيد المسيح في كل منهما، فضلاً عن إيماءات الحواريين، ومحاولة إضفاء التعبيرات المختلفة على ملامح وجوههم، كما نلاحظ عدم مراعاة المنظور وإهمال البعد الثالث وخاصة في لوحة العشاء الأخير التي رسمت فيها المنضدة تشبه المستطيل ذو اليمينين، والتي ينسدل القماش فوقها مكوناً ثنائيات متكررة، عبر عنها الفنان بخطوط بنية اللون مركزها من أعلى، كما تساوت قوائم المنضدة الكبيرة في مستوى الأرضية مع المنضدتين الصغيرتين المرسومتين على جانبي المشهد، وقد رسمت الأشخاص في خلفية اللوحتين على أرضية ذهبية، والسيد المسيح ظهر في اللوحتين مرتدياً عباءته الزرقاء ورداءه الذهبي، وذلك أهم ما يميز أعمال الفسيفساء البيزنطية .

"ومشهد العشاء الأخير بالأخص له سمة وأسلوب بيزنطي قديم .. وذلك حيث أن وضع المنضدة يشبه المنضدة الشرقية التي إتخذت شكلاً نصف دائري والتي تتبع التقليد البيزنطي في القرن السادس الميلادي " (١) . والتي سبق أن ظهرت في فسيفساء كنيسة القديس أبو ليناير الجديدة في موضوع العشاء الأخير، شكل (٨٠ د) . وهذا الشكل المستطيل للمنضدة يعتبر تطوراً لها .

ويصف "هيرثينجتون" (Hertherington) لوحة دخول السيد المسيح القدس بأنها "من أبرز الأمثلة للإشارة إلى الأسلوب البيزنطي القينيسي، كما يؤكد على أن العمل لا بد أن يكون قد تم على أيدي الحرفيين البيزنطيين، فقد صدر امر عام ١٢٥٨م يقضى بأن يستعين كل فنان فسيفساء يوناني بإثنين من الساعدين المحليين، ولذلك ظهرت اللمسة المحلية التي تجمع المؤثرات البيزنطية والرومانسكية والقينيسية القديمة " (٢) .

(1) David Talbot Rice, Art Of The Byzantine Era , Themes And Hudson, LTD . London , 1963 , P. 178 , 179 .

(2) Mosaics , Paul Hamlyn , London , 1967 , P. 37 .

ويبقى الأعمال في هذه الكنيسة تنتمي لعهود لاحقة ويقبل فيها التأثير البيزنطى ويحل محله التأثير الفينيسى ، وذلك نتيجة الإضرابات التى حدثت بسبب القوة المحلية فى فينيسيا التى أوقفت العمل فى الممر المؤدى لصحن الكنيسة قبل منتصف القرن الثالث عشر بحوالى عشر أو خمسة عشر سنة ، كما ان العمل بالجزء الشمالى منها - من صالة المدخل - لم يكن قد إنتهى وإتجه الفقانون إلى تنفيذ أعمال اخرى ، وعندما عادوا مرة أخرى فى أواخر القرن الثالث عشر لتنفيذ الأجزاء الباقية، كانت اساليبهم الفنية والتنفيذية قد تغيرت .

وإنجازات الحرفيين البيزنطيين ظهرت أيضاً فى تورشيللو فى شمال إيطاليا ، وتميز القسيساء فيها بالجودة الرفيعة ، ويجب الإشارة إلى " أن زخرفة القبة فى هذه الكنيسة تمثل نسخة أو تقليداً لقبه كنيسة القديس فيتال مع وجود اربعة ملائكة على الخلفيات الذهبية " (١) . وهى أهم الأعمال فى كاتدرائية تورشيللو التى تحمل الطابع البيزنطى، وهى تحتل مساحة كبيرة تقع على الجانب الغربى ، وهى مقسمة إلى خمسة مساحات افقية ، اكبرها فى مساحة المنطقة العلوية التى تصور موضوع صلب السيد المسيح وحوله الملائكة جيريل وميكائيل ، وتقل المساحات الباقية فى الإرتفاع كلما إتجهنا إلى أسفل ، كما نرى فى شكل (٢٠٠) ، ويتجلى الطابع البيزنطى فى الجمود الذى سيطر على اوضاع الشخصوس ونسب اجسامهم ، كما ننتبين من شكل (١٢٠٠) -تفصيلية من اللوحة السابقة وهى تصور موضوع الحساب الأخير الذى استقل المساحة السفلى من الجدار بجوار المدخل ، ونلاحظ فيها الخطوط الينية من مكعبات الفسيفساء التى تحدد الأجسام ، و التى تعد سمة من سمات فن الفسيفساء البيزنطى ، وتتخلل هذه المساحات اللونية الحمراء والسوداء التى ترمز لألسنة النيران الملتهية ، أما اللون الذهبى فقد ظهر بوضوح فى جزء آخر من الكاتدرائية ، وهو الجزء الخارجى البارز منها ، وقد إنتشر بصورة واسعة لتظهر وسطه العذراء وهى وافقة فى هذه المساحة الكبيرة ، وفى أسفلها يقف الحواريون الإثنى عشر فى مساحة مستقلة يفصل بينهما شريط يحتوى على نقوش كتابية بالحروف اليونانية ، كذلك وجدت هذه الكتابات محددة للمساحة المقوسة التى تقف فيها العذراء ، وقد كانت هذه النقوش الكتابية تكتب لتوضح أسماء الحواريين فى الفسيفساء البيزنطية ، " وصورة العذراء والعلة الجمال لأنها تتميز بالطول والأناقاة وذات أبعاد دقيقة ، وتمائل أفضل أعمال المدرسة القسطنطينية وتبرز روعة ، وجمال

(1) Otto Demus, Byzantine Art And The West, New York University Press , New York , 1970 , P. 137 .



أعمال الفسيفساء القديمة مثل تلك الموجودة في مدينة نيقية<sup>(١)</sup> . والتي نراها في شكل  
(٢٠١) .

وقد وجدت صورة مماثلة لصورة العذراء السابقة في كنيسة « القديس دوناتو »  
في مدينة مورانو\* وفي نفس الجزء الخاص بالآرمن الكنيسة ولها طابع بيزنطي ، ولكنها  
أكثر إستطالة وذات ملامح جادة وهي ذات جودة عالية وقد وصفها بعض النقاد " بأنها  
تفتقر إلى التماسك والروعة اللازمة للأعمال القديمة .. وهي أيضاً بالإضافة إلى  
فسيفساء تورشيللو منسوبة إلى فنانيين يوتانيين من القسطنطينية ، أما الأجزاء الباقية  
فهى من تنفيذ فناني هينيسيا ، وبذلك فإن هذه الأعمال لم تصل إلى المستوى الجمالى  
للأعمال البيزنطية " (٢) .

### ● الفسيفساء في صقلية :

صقلية عبارة عن جزيرة صغيرة في البحر المتوسط ، وكانت في القرون القديمة  
تمثل جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية حتى وقوعها تحت السيادة الإسلامية في النصف  
الثاني من القرن السابع ، وظلت ملتقى العديد من الأجناس المختلفة ، مثل اليونانيين  
والبيزنطيين والرومان والعرب والفرنسيين ، وأخيراً النورمانديين اللذين سيطروا عليها  
عام ١٠٧٢م في القرن الحادى عشر الميلادى بعد نزاع دام قرناً طويلة مع هذه الدول .

وكان النورمانديون حريصين على نشر الثقافة الفنية والإرتقاء بها من خلال  
تدعيم علاقاتهم السياسية مع الدول المجاورة والتي تسمح بالتبادل الفنى ونقل ما هو  
أفضل لديهم ، فكان هناك ترحيب من قبل الحكام بالفنانين البيزنطيين ، كما كان الحكام  
النورمانديون راعين للفن ومشجعين له ، وقاموا بتمويل العديد من الأعمال الفنية  
البيزنطية ومعظم الآثار البيزنطية تنسب إلى السيادة النورماندية .

وقد شهدت الفسيفساء الصقلية تطورات عديدة من قبل التيارات المختلفة ،  
سواء الشرقية ( الإسلامية ) أو البيزنطية ، وكانت الغلبة للتأثيرات البيزنطية التي ظهرت  
بوضوح في هذه الفسيفساء والتي إنحصرت في أربع مناطق متفرقة داخلها ، في سيفالو ،  
ومونريال ، وكنيسة بلاتينا ، وكنيسة مارتورانا .

(1) David Talbot Rice, Art Of the Byzantine Era , Thames And Hudson, Ltd. London ,  
1963 , P. 180 .

(2) Op . Cit , P. 182 .

(\*) تنتمى هذه الفسيفساء إلى بداية القرن الحادى عشر ولكن صورة العذراء فيها تنتمى إلى أواخر القرن الحادى  
عشر حيث حلت محل صورة السيد المسيح ، كما تشير النصوص الكتابية في المساحة الذهبية .

"والفسيفساء الصقلية خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، كانت تمثل أفضل تعبير عن المدرسة البيزنطية في العصور الإسلامية لأن مثل هذه الجودة لم تكن موجودة في أي مكان آخر ، كما أن هذه الأعمال لم تخضع إلى الكثير من أعمال الترميمات التي تخضع العمل الأصلي ، بالمقارنة بفسيفساء فينيسيا " (١) .

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة لأعمال الفسيفساء الصقلية ذات الأسلوب البيزنطي والتي نجدها في كاتدرائية مدينة سيفالو\* . " وهي تحتوي على أقدم نماذج الفسيفساء وخاصة في الجزء الخارجي البارز منها " (٢) . ( حنية الكنيسة ) ، حيث قسم هذا الجزء إلى ثلاث مستويات أفقية أسفل الجزء العلوي المقبب ، والذي احتوى على صور نصفية كبيرة للسيد المسيح ، والتي تتبع النموذج التقليدي البيزنطي لصور السيد المسيح التي كانت تنفذ في القبة ، ونظراً لعدم وجود القبة في هذه الكاتدرائية نفذت صورته في هذا الجزء المقبب ( نصف القبة ) ، وبالتالي رسمت صورة العذراء والقفة بين إثنين من الملائكة على اليمين وإثنين على اليسار ، في المنطقة التي تلي صورة السيد المسيح من أسفل ، وفي المستوى الثاني صور الحواريون الإثنى عشر على جانبي النافذة التي تتوسط الجدار في مساحتين عليا وسفلى تفصلهما أشرطة زخرفية .

واللوحة شكل (٧٠٢) تبين صورة السيد المسيح الحاكم الذي يرتدي عباءته الزرقاء والرداء الذهبي المعتاد ومصور على خلفية ذهبية ، ويمسك الإنجيل الذي حررت عليه النقوش الكتابية ، اللاتينية في صفحة ، واليونانية في الصفحة المقابلة على النص الذي يعنى « إننى المسيح ضوء العالم » - (٣) . وقد تكرر ظهور هذه النقوش الكتابية في الأطر الزخرفية المحددة لمساحة الحنية بأكملها .

ويجب الإشارة إلى " أن هذه الأعمال من تنفيذ الحرفيين اليونانيين المحليين من بيزنطة إلى صقلية بناء على طلب الحكام النورمانديين ، وباقى اللوحات في الجدران الجانبية تمثل أعمالاً من إنتاج التلاميذ الصقليين اللذين تتلمذوا على أيدي اليونانيين والتي تنتمي لتاريخ لاحق " (٤) .

(1) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics, Hacher Art Books, New York, 1935, P. 180.

(2) David Talbot Rice, Art Of the Byzantine Era, Themes And Hudson, Ltd. London, 1963, P. 159.

(3) Ibid, P. 161.

(4) Op. Cit. P. 160.

(٥) تقع مدينة سيفالو على الساحل الشمالي بين باليرمو والطرف الشرقي لصقلية.

وهناك تماثل شديد بين هذه الكاتدرائية وكاتدرائية مونريال\* وخاصة في الجزء الخارجى البارز ، وأسلوب تصويره ، كما نرى في شكل (٢٠٣) التى تظهر فيه المساحة العريضة للفسيفساء الذهبية التى غطت المساحات العليا والجانبية من الجدران والأسقف المقبية ، وتظهر صورة السيد المسيح فى الجزء العلوى منها ، تشبه كثيراً اللوحة السابقة فى سيفالو - كما تراها فى شكل (١٢٠٣) حيث يحمل السيد المسيح الإنجيل المفتوح\* وتظهر الكلمات اليونانية التى تحمل الكلمات « عيسى المسيح القدير »<sup>(١)</sup> . أما الجزء السفلى فهو مقسم إلى مستويين فقط ، يفصل بينهما أشرطة زخرفية ، فى المستوى الأول صورت العذراء وهى جالسة وتحمل المسيح الطفل بين ذراعيها ، تتوسط إثنين من كبار الملائكة ، ونلاحظ انها مرسومة بحجم ضخم حيث تساوت فى إرتفاعها مع أطوال الملائكة الواقفين بجوارها . أما المستوى الثانى فتظهر فيه مجموعة من الشخصيات المقدسة .

وبالإضافة إلى اوضاع الشخصيات السابقة وطرق تصويرهم ، ظهرت التأثيرات البيزنطية فى النقوش الكتابية اليونانية واللاتينية التى ظهرت فى أجزاء داخل الكاتدرائية ، كما نرى فى شكل (٢٠٤) مجموعة من الجمامات المستديرة فى الأطر الزخرفية المحددة للأقواس التى نفذت داخلها صوراً نصفية للقديسين ، والتي تشبه كثيراً الصور النصفية فى كنائس العصر البيزنطى فى كنيسة القديس فيتال براهينا. شكل (٨) ، كما تظهر هذه الصور فى الإطار الزخرفى المحدد للمساحة الذهبية المخصصة لصورة السيد المسيح السابقة .

وقد امتدت هذه التأثيرات إلى الموضوعات المتعددة داخل الكاتدرائية ، حيث وجدت مشاهد عديدة من العهد القديم والحديث - فى صحن الكاتدرائية - كما ظهرت بعض المشاهد التى تصور حياة السيد المسيح ومعجزاته والتي شغلت المساحات الخاصة بالجدران الجانبية التى تعلو الأقواس والتي تحملها الأعمدة ، بالإضافة إلى تصوير مشاهد من حياة القديسين أمثال القديس بطرس والقديس بولس .

\* ومع أن معظم النقوش فى هذه المشاهد محررة باللاتينية ومعظم الزخارف من جانب الصقليين إلا أن الأسلوب التصويرى بيزنطى " (١) . وكاتدرائية « مونريال » من

(1) P. B. Hetherington , Mosaics , Paul Hamlyn , London , 1967 , P. 36.

(2) Dalton , Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press, Oxford , 1911. P. 406.

(\*) تبتمد مونريال عدة أميال عن جنوب باليرمو .

اضخم الكاتدرائيات التي زينت بالفسيفساء وتحتوى على كم هائل من المشاهد التي " تمثل أفضل المشاهد المتكاملة التي نبعث من العالم البيزنطى " (١) . ولكنها بالرغم من ذلك، " تفتقر إلى اللمسة المتميزة للأناقة التي كانت تميز فسيفساء القسطنطينية في العصور القديمة " (٢) .

كما وصف المؤرخون هذه الأعمال بأنها " أقل جودة فنية من باقى الأعمال الفنية المنفذة في صقلية في سيفالو ، ومارتورانا وكنيسةبلاطينا ، وذلك يرجع فى رأيهم إلى جمود وجفاف الألوان ، والأسلوب الفنى غير إبداعى ، كما ينسبون رداءة العمل إلى رغبة الفنانين المنفذين فى الإلتزام بالتقليد القديم دون أى إلهام جديد، بالإضافة إلى العجلة التي تمت فيها هذه الفسيفساء \* (٣) .

وقد تكرر ظهور هذه الموضوعات البيزنطية التي تصور مشاهد من العهد القديم والحديث فى كنيسة مارتورانا \* وكنيسة بلاطينا \*\*\* ، بالإضافة إلى التخطيط الطبقي البيزنطى أيضاً للموضوعات المنفذة ، فتظهر صورة السيد المسيح الحاكم الإلهى فى منتصف القبة ، كما يبدو فى شكل (٢٠٥) ، حيث صور بالطول الكامل ومحاط بالنقوش اليونانية ، أما فى شكل (٢٠٦) الذى يبدو فى صورة نصفية ويمسك الكتاب المقدس بيده اليسرى ، وهو مصور داخل حلية بارزة ، محاطة بالنقش اليونانى أيضاً ، والذى يتضمن الكلمات الآتية : " السماء هى عرشى والأرض موضع قدمى " (١) . وكلاهما متفذين على خلفية ذهبية وتحيط بهما - فى كل لوحة على حدة - صور القديسين والملائكة من كل ناحية .

وفى كنيسة مارتورانا ، تظهر أيضاً الحلقات الدائرية التي تحيط بصور القديسين النصفية، كما تظهر الموضوعات البيزنطية بنوعها على الجدران المقبية التي

(1) David Talbot Rice, Art Of the Byzantine Era, Thames And Hudson, Ltd. London , 1963 , P. 166 .

(2) Ibid , P. 168 .

(3) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics , Hacher Art Books , New York , 1935 , P. 183 .

(4) Dalton, Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press Oxford , 1911. P. 408 .

(\*) استغرق تنفيذ هذه الفسيفساء فترة قصيرة جداً لتأرب ثمانية أعوام .

(\*\*) بنيت هذه الكنيسة تكريماً للمنراه فى عهد أميرال روجير الأول ، والنظرة مارتورانا ، يطلق على المنراه وهو

مقتبس من إسم مؤسس الدير المجاور الملحق بالكنيسة ( ألويانا مارتورانا ) Aloina Martorana .

(\*\*\*) عرفت هذه الكنيسة أيضاً بإسم كنيسة القصر الملكى فى باليرمو .

تلى القبة مثل مشاهد من حياة العذراء ووفاتها ، وبعض موضوعات التصوير الإمبراطوري التي تتضح فى إحدى الصور التي تمثل القديس « جورج » من انطاكية يركع أمام العذراء فى نفس وضع وهيئة الإمبراطور المصور فى فسيفساء كنيسة آياصوفيا . شكل (١١٥) .

وهناك مثال آخر لموضوعات التصوير الإمبراطوري فى نفس الكنيسة ، حيث السيد المسيح يتوج الملك « روجير الثانى » ، كما يتبين فى شكل (٢٠٧) ، والذي يلاحظ فيه " أن مشهد التتويج وأسويبه يتبع نفس تخطيط مشاهد التتويج فى العصر البيزنطى " (١) .

أما كنيسة « بلاتينيا » ، تعتبر " أفضل اثر للنورمانديين فى صقلية " (٢) . وبالإضافة إلى صورة السيد المسيح الرئيسية فى القبة وصور العذراء ، فهى تحتوى أيضاً على العديد من صور الإحتمالات الدينية التي صورت فى منطقة المحراب والتي تصم رحلة العائلة المقدسة والبشارة والتجلى ، والدخول إلى القدس والتي نراها فى شكل (٢٠٨) ، " وهذه الأعمال تمثل ادق الأعمال وأعظمها فى الكنيسة ، والتي تكشف عن أفضل ما فى الأسلوب الصقلى " (٣) . الذى يتضح فيه المهارة التصويرية التي تجلت بوضوح فى موضوع الدخول إلى القدس والذي تفوق على غيره من الموضوعات المشابهة فى الكنائس الأخرى .

حيث إهتم الفنان المصور له بثبات التكوين وحسن توزيع العناصر الأدمية فى الخلفية المليئة بالتفاصيل الدقيقة كما تبدو واقعية المشهد وطبيعته فى صورة الطفل العارى الذى صور فى المستوى الأمامى للوجه ، وهو يبحث عن ملابسه .

وفى نفس الكنيسة فى غرفة الملك « روجير » وجدت لوحات الفسيفساء التي تحتوى على زخارف دنيوية متكاملة من العالم البيزنطى، وهى تصور الوحوش والأشجار وبيدكر ، رايس ، " أن مشاهد الصيد تماثل تماماً تلك النماذج التي تزخرف المنسوجات الشرقية ، والتصميم فارسي الأصل ، وهذه الفسيفساء تشبه لوحات الفسيفساء التي تزخرف العديد من غرف قصر الأباطرة فى القسطنطينية وهى ذات

(1) David Talbot Rice, Art Of the Byzantine Era , Thames And Hudson, Ltd . London , 1963 , P. 166 .

(2) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics , Ilaher Art Books , New York , 1935 , P. 181 .

(3) Ibid , P. 183 .

اسلوب فارسي أيضاً<sup>(١)</sup>. والشكل (٢٠٩) يوضح جزءاً من الجدار في الغرفة الخاصة بالملك «روجير» في القصر الملكي ، وهي كما تبدو فيها مشاهد الصيد والطيور والحيوانات الطبيعية والخرافية المتقابلة والتي تصطف على خلفية من الأشجار التي تم تناولها ومعالجتها بأسلوب تجريدي زخرفي .

وبالإضافة إلى لوحات الفسيفساء العريضة داخل الكنائس المتأثرة بالأساليب البيزنطية ، فقد امتدت هذه التأثيرات إلى اللوحات الصغيرة المحمولة، وأوضح مثال لها هو اللوحة التي تصور موضوع الصلب والتي تقترب في أسلوبها من الأسلوب البيزنطي النموذجي ، كما نرى في شكل (١٩٥) ، وذلك يرجع إلى أنها من إنتاج أحد الحرفيين اليونانيين المجلوين من العاصمة البيزنطية، مثلها في ذلك مثل العديد من الأعمال السابقة .

### ● العناصر البيزنطية في الفسيفساء الإسلامية :

كان وصول التأثيرات البيزنطية إلى العالم الإسلامي نتيجة لأن معظم الأقطار التي دخلها الإسلام ، كانت في وقت ما تابعة للحكم البيزنطي مثل مصر وسوريا<sup>(٢)</sup> ، كما كانت العراق وإيران تحت الحكم الساساني ، وسرعان ما تخلصت هذه البلاد من هذه القوى المسيطرة ، التي تركت آثارها الواضحة المتمثلة في التراث الفني والثقافي ذو الملامح البيزنطية والساسانية ، بالرغم من ظهور الإسلام الذي كان له تأثيراً بالغا على ثقافة البلاد التي دخلها ، ونتج عن تلك الثقافات مزيجاً فنياً ذا طابع خاص ، أصبح يميز تلك الحقبة الفنية في العالم الإسلامي<sup>(٣)</sup>، ومما لاشك فيه أن فن التصوير الإسلامي قد اعتمد على أصول ومصادر فنية ، لعبت دوراً كبيراً في تكوين نواة هذا الفن ويؤيد هذا القول تلك الأمثلة الغزيرة من التصوير الإسلامي التي ماتزال باقية حتى الآن ، والتي تتضح فيها بجلاء هذه الأصول والمصادر الفنية ، وتعكس هذه المصادر الأساليب الفنية لبعض الفنون القديمة التي إنتشرت وإستقرت في البلاد التي فتحها المسلمون مثل : سوريا ومصر والعراق وإيران وأواسط آسيا ، ولكن مما تجدر ملاحظته أن المسلمين ضموا إليهم هذه البلاد وكانت لديهم معرفة سابقة بفن التصوير<sup>(٤)</sup> . وتعتبر بلاد الشام من أبرز المناطق التي توافرت فيها تأثيرات الفن البيزنطي ، حيث إنعكست هذه الأساليب

(1) Art Of the Byzantine Era , Themes And Hudson, Ltd . London , 1963 , P. 172, 174 .

(٢) أبو الحمد فرطى ، التصوير الإسلامي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٣١ .

(٤) وصلت تأثيرات الفن البيزنطي إلى سوريا قبل وصوله مصر

بالأخص على أعمال الفسيفساء التي تزخر مبانها المعمارية كالقصور والمساجد في كل من القدس ودمشق ، وإنحصرت هذه التأثيرات في العناصر الزخرفية التي تضمنتها هذه الأعمال .

ونجد الإختلاف هنا في أن التأثير البيزنطي لم ينتقل إلى الموضوعات، وذلك يرجع إلى تغير نوعية الديانة نفسها ، فلم تعد العقيدة المسيحية التي ألف الفنانون تصوير قصصها وما ارتبط بها من شخصيات مقدسة كالسيد المسيح والعذراء - هذا من ناحية - ومن ناحية أخرى وهي طبيعة الفن الإسلامي الذي كره تصوير الكائنات الحية بصفة عامة وإبتعد عنها بشكل ملحوظ ، وذكره راييس ، " أن هذا الحظر لم يكن مطبقاً في جميع أركان العالم الإسلامي خلال السنوات الأولى من الإسلام ... ، ولا تدرك إذا كان هذا العداء ضد التصوير قد ظهر قبل القرن التاسع الميلادي لأنه لم يكن له تأثير على الفن الدنيوي في ذلك العصر كما يتضح من تصاوير قصر الحير ، وقصير عمره ، وقصر خربة المفجر ، ولكن الحقيقة الماثلة في عدم تصوير الشخصيات في فسيفساء قبة الصخرة أو في دمشق يشير إلى أن التحريم جاء تطبيقه الحبري عام ٦٩٠م " (١) ولذلك نجد أن أغلب الزخارف المنقذة بالفسيفساء يغلب عليها الأشكال الزخرفية المحردة والتي ننتينها على النحو التالي .

فقد ظهرت كثير من العناصر الزخرفية كالهندسية والنباتية والكتابية والحيوانية في الفسيفساء الإسلامية المستمدة من الفسيفساء البيزنطية ، والتي لم تنتشر إنتشاراً واسعاً في هذا العصر ، وتركزت في عدة أماكن قليلة بحيث عرف المسلمون هذا النوع من التصوير الجداري مع بداية العصر الأموي ، ويمكن تقسيم هذا النوع من التصوير إلى نوعين ( قسمين ) : النوع الأول عبارة عن مجموعة من أعمال الفسيفساء التي تزين المباني الدينية ، والنوع الثاني يتضمن أعمال الفسيفساء داخل القصور ( أو المباني الدنيوية بشكل عام ) .

وأروع الأمثلة التي تحتوى على قدر كبير من هذه العناصر ، وتعتبر من أوضح النماذج التي تبرهن على إنتقال هذه العناصر البيزنطية نجدها في ثلاثة من المنشآت الدينية وهم : قبة الصخرة ، والمسجد الأموي بدمشق ، وقبة الظاهر ببيروت بدمشق " (٢) . وتعتمد زخارف الفسيفساء في كل منها على الفسيفساء الزجاجية الملونة ، وقد تم

(١) Islamic Art-Themes And Hudson , London , 1965 , P. 18 .

(٢) ابو الحمد فرعلى ، التصوير الإسلامي ، دار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٤٦ .

تنفيذها في الأجزاء العليا من الجدران ، أما من أسفل فقد كان يفضل وضع ألواح الرخام على غرار ما كان يحدث في الكنائس البيزنطية ، ويكتفى هنا بذكر مثالين فقط ، وهما فسيفساء قبة الصخرة والمسجد الأموي ، فهما الأكثر أهمية ودلالة على الطابع البيزنطى .

## أولاً : زخارف قبة الصخرة :

تتألف زخارف قبة الصخرة من مجموعة من الزخارف المجردة المتشابكة ، والتي تخرج من أواني زهرية وتنتشر في تفرعات تتخذ إتجاهاتها إلى أعلى وتسير في خطوط منحنية وتوجد هذه التشكيلات الزخرفية في رقبة القبة من الداخل . ويتخللها النوافذ التي تشبه العقود ، ويحيط بكل نافذة إطار زخرفي يحتوى على وحدات متنوعة ومكررة .

كما تظهر الزخارف السابقة في أجزاء أخرى داخل اكتاف العقود ، وتجويف القبة نفسه ، وتحتوى على صور لأوراق النباتات الطبيعية كأوراق العنب وأوراق الأكانثس ذات الملامح التشكيلية الزخرفية المتميزة ، بالإضافة إلى أشكال النخيل وثمارها المحردة ، كما يبدو في شكل (٢١٠) ، التي نلاحظ فيها بعض الأطر الزخرفية التي تحدد المساحة من الخارج والتي تظهر على الجانبين وتحتوى على أشكال دائرية بداخلها رسوم هندسية ، وفي بعض الأجزاء تتحول هذه الأشطرلة الهندسية إلى زخارف كتابية إشمطت على آيات من القرآن الكريم ، كما يتبين من شكل (٢١١) والتي كتبت بالمكعبات الذهبية .

وفي مناطق أخرى نجد هذه الأطر الزخرفية تتخلل مساحات الفسيفساء نفسها ، ولكنها في هذه الحالة تحتوى على مجموعة من الورد والفواكة وخاصة العنب والرمان والبلح والتين والكمثرى والتفاح . كما يتبين في شكل (٢١٢) .

ونلاحظ في التفصيليات السابقة ، غلبة الطابع الزخرفي على رسوم الفسيفساء ، التي حرص الفنان فيها على تكييف خطوط تصميماتها مع شكل المساحات المعمارية ، سواء الدائرية أو الإسطوانية أو المسطحة ، وكوشات العقود ، مما يحقق إنسجامها وتآلفها مع العنصر المعماري ، كما يبدو في شكل (٢١٠) والتي تغطى كوشة احد العقود . ذات الشكل المثلث تقريباً وتعلو تيجان الأعمدة - حيث رسم جندع النخلة بدايته من أسفل وتتفرع أوراقها المجردة يميناً ويساراً حسب إتساع مساحة الكوشة .

وقد تميزت هذه الزخارف بالإيقاع اللوئي الفريد حيث إحتوت هذه الفسيفساء على مجموعة متنوعة من ألوان المكعبات التي حرص الفنان على توزيعها في أماكنها



المناسبة مع تحديد العناصر والأشكال المرسومة بالخطوط السوداء ، مما يبرز جمال العناصر المنفذة على الخلفية الذهبية ، وهذه إحدى السمات البارزة للفسيفساء البيزنطية أيضاً ، وقد تخلت هذه الفسيفساء الذهبية بعض المكعبات القضيبة التي تزيد من تلالها ، كما ترى لוחتي شكل (٢١١ ، ٢١٢) ، التي تبرز فيها المساحة ذات اللون الذهبي والحروف الذهبية في الإطار الخارجي .

## ثانياً ، زخارف المسجد الأموي :

تعد زخارف الفسيفساء في هذا المسجد من أهم الآثار الإسلامية في ذلك الوقت ، وقد برزت الأساليب البيزنطية بشكل واضح في لوحات الفسيفساء العديدة التي يزخر بها هذا المسجد ، والتي تشغل مساحات كبيرة من القباب والأجزاء العليا من الجدران والعقود التي تحيط بالصحن والرواق العربي والواجهة الخارجية وواجهة المجاز في قاعة الصلاة ، أما الأجزاء السفلى فهي مغطاة بالرخام ، " وهي تشبه في تنفيذها أسلوب الترخيم في قبة الصحرة ، وهي كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية " (١) .

وتظهر هذه التأثيرات بالتحديد في تسيح الزخارف المعمارية الذي سيطر على اللوحات ، والذي يعتبر العنصر الأساسي فيها ، وهي أهم ما يميز هذه الفسيفساء عن غيرها ، فقد كانت لها الأولوية في الظهور في تلك المناظر الطبيعية المرسومة ، كما في شكل (٢١٣ ، ٢١٤) ، وكما يبدو كانت هذه العماثر تصور منفردة أو في مجموعات منجاورة تتخللها الأشجار الطبيعية والجسور ، ويربط بين هذه الأجزاء نهر طويل يمتد بطول الجدار ، وهو " في العالـب نهر بردى الذي يجتاز دمشق " (٢) . والذي استحدثت فيه المكعبات المضطبة مع المكعبات الحجرية البيضاء لتنعيد المياه وذلك للتعبير عن انعكاسات المياه .

وفي بعض اللوحات كانت هذه العماثر تصور مضممار السباق الذي يحيط به الأشجار والأبراج العالية ، ويذكر الدكتور ، ثروت عكاشة ، " أن قصور الفنان آنذاك من تطبيق قواعد المنظور لم يكشف بوضوح عما يعنيه بهذا التكوين " (٣) .

(١) عبد القادر الريحاي ، العمارة في الحضارة الإسلامية ، مركز النشر العلمي ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ،

المملكة العربية السعودية ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، ص ٦٣ .

(2) Edgar, Waterman Anthony, A History of Mosaics , Hacher Art Books , New York , 1935 , P 130 .

(٣) تاريخ الفن - الفن الإسلامي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧م ، ص ٢٦٩

وهذه المساحة السابقة، الكبيرة من الفسيفساء تحدها اطر زخرفية قوامها عناصر هندسية متشابكة وعناصر كتابية تتضمن آيات من القرآن الكريم ، إلا ان اغلب هذه اللوحات بشكل عام إختفى نتيجة التلف البالغ الذى أحدثته الحرائق والزلازل . وقد احتوت هذه اللوحات بالإضافة للعناصر السابقة على اشكال ووحدات زخرفية اخرى تشبه إلى حد كبير ما وجدت فى قبة الصخرة ، مثل العناصر الطبيعية كالاشجار ذات الطابع الكلاسيكى ، والتي تخرج منها الثمار ، كما يتبين فى شكل (٢١٥) . والذى يظهر فيه شجرة خضراء اللون رسمت فوق كوشة العقد ويحدها اطر زخرفية تحتوى على وحدات مكررة من الثمار والإطار العلوى يفصلها عن مساحة مستطيلة تعلوها تحوى بداخلها اوراق الأكانثوس الكبيرة الحجم والتي تنتشر يمينا ويساراً ، ويقل حجمها كلما إتجهنا إلى أعلى ، وتكرر هذه الوحدات فى قبة الخزنة التي تحملها الأعمدة ، شكل (٢١٦) ، وهى كما يبدو سداسية الشكل ، وتحتوى على هذه التفريعات النباتية واوراق الأكانثوس فى احد الجوانب ، والجانب الآخر يتضمن عنصرين هما : النخلة التى تتوسط هذه المساحة ، والأشكال المعمارية المتضائلة الحجم نسبياً ، وتتبادل هذه الأشكال وتكرر حول جسم الخزنة ، وهى جميعاً محاطة بالأشرطة الزخرفية الدقيقة والمتنوعة المستلهمة من الفسيفساء البيزنطية والتي تشترك جميعها فى الألوان البديعة المتناسقة .

وتعتبر فسيفساء المسجد الأموى بشكل عام ؛ إحدى روائع الأعمال الزخرفية المنفذة بالفسيفساء فى العالم كله ، ومن حيث الأسلوب الفنى تتفوق على اية أعمال اخرى فى سوريا ، وذلك يعود إلى انها تماثل ارضيات الفسيفساء فى قصر القسطنطينية الملكى (١) . وبالرغم من ذلك فقد عترض بعض المؤرخين على نسبة تنفيذ هذه الفسيفساء للفنانين البيزنطيين ، وكذلك فسيفساء قبة الصخرة ، ونسبوا تنفيذها إلى بعض العمال السوريين ، ومن هؤلاء المؤرخين " السيدة مارجریت شان برشيم (Van Berchem) و سوفاجيه (Sauvaget) اللذين نفايا ما جاء على السنة العرب ( فيما يخص ذلك ) ، واللذين ذكروا الروم فى كتاباتهم التاريخية والتي كان المقصود بها العالم المسيحى بصفة عامة (٢) ، ... ، ويذكر الدكتور ، ثروت عكاشة ، " ان الثابت يقيناً أن لغد الروم مقصود به أوروبا عامة وبيزنطة خاصة ، وقد ايد ، هاملتون جب ، فى دراسة حديثة دقة ما ساقه المؤرخون العرب ، ذاهباً إلى ان ميل الأمويين إلى ان يحذو حذو البيزنطيين ، وهو امر مؤكد ، لاقتاً النظر إلى تص لم يتبين للسيدة برشيم ، و سوفاجيه ، الرجوع

(1) David Talbot Rice , Islamic Art, Themes And Hudson , London , 1965 , P. 16 .

(٢) ثروت عكاشة ، تاريخ الفن - الفن الإسلامى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧ ، ص

إليه ، جاء فيه : أن المواد اللازمة لإعداد لوحات الفسيفساء لم تكن متوفرة في تلك البيئة ، كذلك الحرفيون كانوا هم أيضاً يردون إلى دمشق والمدينة المنورة من بيزنطة " (١) .

وقد ساعدت الدراسات الحديثة التي أجراها العالم جيب (Gibb) في تأكيد صحة ما ساقه المؤرخون العرب " مؤكداً ميل الأمويين لإتخاذ التقاليد البيزنطية على أنها كانت حقيقة واضحة " (٢) .

كما يؤيد الدكتور ، ثروت عكاشة ، صحة هذه الآراء من ناحية أخرى بقوله : "فمن المعروف أن المنجزات الفنية في سوريا سواء في محلات النحت أو الحفر على العاج ، أو الفسيفساء قد أخذت في التدهور ابتداء من القرن السادس الميلادي ، وليس من المعقول أن تكون لوحات الفسيفساء في دمشق والقدس المتحاوراة الغاية جاذبية وجمالاً ، قد أبجزها صناع سوريا وقت إضمحلال الحركة الفنية فيها ، بل الأرجح أن نقبل ما دونه المؤرخون العرب أنفسهم من أن ثمة عون وقد من بيزنطة " (٣) . وبما أن الخامات والفنانين والأساليب البيزنطية خالصة، فكان من الطبيعي أن تصبح السمة العامة لأعمال الفسيفساء السابقة بيزنطية في الموضوعات والتكوينات والعناصر الزخرفية والألوان أيضاً .

## ● قصر هشام بخيرية المفجر :

ولقد إمتدت التأثيرات البيزنطية إلى الفسيفساء التي تزين المنشآت الدنيوية والتي وجدت في قصر هشام .

وهذا القصر من " أهم المنشآت الدينية في العصر الإسلامي ويحتوى على نحو مائتي وخمسين جزءاً من لوحات مصورة بالفسيفساء في حالة جيدة داخل القصر وفي مبنى الإستحمام الملحق به " (٤) . وقد عثر فيه على أوضح الأمثلة التي تبرهن على وصول هذه التأثيرات البيزنطية والتي تتمثل في لوحة الفسيفساء المستقلة التي تزين أرضية الصمام ، وهي كما تبدو في شكل (٢١٧) ، عبارة عن شجرة كبيرة تتميز بضخامتها وكثافة أوراقها، وتنتصف اللوحة ، وتشعل أكبر حيز من المساحة الكلية لها ، وعلى جانبيها صورت حيوانات مثل الغزلان ، والأسد الذي ينقض على إحداها في الجانب

(١) المرجع السابق ، نفس المكان .

(٢) أبو الحمد فرغلي ، التصوير الإسلامي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٥٢ .

(٣) تاريخ الفن - الفن الإسلامي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧ ، ص ٢٧٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

الأيمن منها " ويقول إتنجهاوزن (Ettinghausen) في ذلك : إن تصوير الشجرة يحمل قسماً واقعية ، إذ إبتعد المصور عن أسلوب التماثل وأبرز عدم إنتظام غصونها الأساسية وإنشاء إحداها" (١) . وقد حددت الأوراق بمساحات سوداء سميكة شغلت مساحة ملحوظة تبرز جمال الورقات والوانها المتألقة .

والمساحة بشكل عام تتحدد من الخارج بإطار زخرفي، واتخذت الخلفية لوناً واحداً من مكعبات الفسيفساء ، على غرار ما كان متبعاً في الفسيفساء البيزنطية .

" ومنشأ هذه الفسيفساء يرجع في الأصل إلى فسيفساء الأرضيات في العهود البيزنطية القديمة في انطاكية ، وكذلك في قصر الأباطرة البيزنطيين في القسطنطينية ، بإستثناء الحيوانات المصورة في الأسفل فهي تميز التصوير الشرقي ونموذج الأسد الذي يلتهم الغزال يمثل مضموناً شائعاً في إيران " (١) . وذلك دليل على وجود الأساليب الفنية الأخرى بجانب الأساليب البيزنطية والتي إتضحت ايضاً في الوحدات الهندسية التي يظهر فيها الطابع الروماني ، والتي إتسمت بالثراء والتنوع ، إلى جانب موضوعات الصيد ومطاردة الحيوانات لبعضها والتي ترجع للتأثيرات الرومانية ، وإختلاط الأساليب الفنية وإمتزاجها بهذه الصورة من أهم ما يميز العصر الأموي في ذلك الوقت .

وكما إنتقلت هذه الأساليب البيزنطية إلى الفسيفساء الإسلامية بهذه الصورة الواضحة، فقد إمتد تأثيرها ايضاً إلى الفن القبطي، والتي تمثلت في موضوعات التصوير الجداري وطرق معالجتها من الناحية التشكيلية ، والمصورة على الجدران الداخلية للمقابر والمعابد المصرية .

## ● التصوير الجداري القبطي :

إرتبط الفن القبطي في مصر بظهور المسيحية ، وإختلاط الأساليب الفنية الهيلينستية والفرعونية السابقة ، والفنون البيزنطية المعاصرة له بالفنون الشعبية المحلية التي إتسمت بالبساطة والتلقائية ، وكان ذلك في بداية القرن الرابع الميلادي وإستمر بعد الفتح العربي .

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

(2) David Talbot Rice , Islamic Art, Themes And Hudson , London , 1965 , P. 22 .

وقد كان المصريون أول من اعتنقوا هذه الديانة<sup>(١)</sup>. وكان ذلك في ظل السيادة الرومانية المستبدة، وقد تعرضوا بالطبع لمختلف أنواع العذاب التي تحول بينهم وبين اعتناق هذه الديانة الجديدة، والجهر بها، وكان سييل المصريين في ذلك هو الإبتعاد عن بطش الأباطرة في شمال مصر في الأسكندرية\* يصفة خاصة، وإتجهوا إلى جنوبها حيث إختبأوا في المعابد والمقابر حتى يتمكنوا من ممارسة شعائرهم الدينية، وبالتالي تحولت هذه الأماكن إلى أديرة، وكنايس زينوها بأجمل التصاوير الجدارية التي إرتبطت إرتباطاً واضحاً بالديانة المسيحية وتعاليمها، وفقاً للأفكار الفنية السائدة في ذلك الوقت.

ولقد إختلفت نوعية الموضوعات المصورة على الجدران وأسلوب صياغتها، حسب الفترات الزمنية التي نفذت خلالها، وذلك طبقاً للمراحل الثلاث المختلفة التي مر بها الفن القبطي في مصر، وهي:

- ١ - مرحلة الصحوة
- ٢ - مرحلة الإكتمال أو المرحلة القبطية.
- ٣ - مرحلة الإنتشار أو مرحلة فن الأقباط.

المرحلة الأولى: تمتد من القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس<sup>(٢)</sup>. حيث كانت مصر خاضعة للحكم البيزنطي والذي ظهر نفوذه واضحاً في مجال الإدارة والحكم، أما تأثيره الفني ظهر فيما بعد، ويقول الدكتور، ثروت عكاشة: " أن البلاد في تلك الفترة كانت حديثة العهد بالمسيحية ويغلب عليها التأثيرات الوثنية بشكل واضح فتميزت الأعمال بالحركة والحيوية وتقليد الطبيعة، وكان فيها خليطاً يستوحى من وثنيته ومن مسيحيتها، ...، ولم يكن له طابع فني متميز بل كان خليطاً يجمع شيئاً من الطراز اليوناني الروماني في مصر وشيئاً من الطراز الفرعوني"<sup>(٣)</sup>.

المرحلة الثانية: وتعرف أيضاً بالطراز المسيحي، وتنتصر في الفترة من النصف الثاني من القرن الخامس وحتى الفتح العربي وتسمى المرحلة الإنتقالية نتيجة لإستمرار وجود الموضوعات الوثنية القديمة فضلاً عن ظهور بعض الرموز التشكيلية الجديدة الخاصة بالديانة المسيحية.

(١) احمد سليم، اثر إستخدام التصوير الجداري فوق ملامح الطين في تحميل القرية كلابشه بالنوبة، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية العنون الجميلة، جامعة حلوان، ١٩٩٨، ص ٦٧.

(٢) ثروت عكاشة، تاريخ الفن - الفن المصري، الجزء الثالث، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦، ص ١٤٢٦.

(٣) المرجع السابق، نفس المكان.

(٤) كانت أهم مراكز الحصار الهيلينستية.

المرحلة الثالثة : وهى المرحلة الأخيرة التى إختفت منها التأثيرات الهلنستية الوثنية وقلت أيضاً التأثيرات البيزنطية شيئاً قشياً ، وغلب الطابع المسيحى الشعبى ، وقد استطاع الأقباط من خلال تلك المرحلة تحقيق شخصيتهم الفنية المميزة والمستقلة عن غيرها من المراحل السابقة .

وبالرغم من التأثيرات الفنية على الفن القبطى ، إلا أن أهم ما يميزه ، أنه لا يخرج أعماله الفنية أو ينفذها بناء على أوامر إمبراطورية ، كما لم ينل أى تشجيع سواء كان مادياً أو معنوياً من البلاط الملكى ، بإستثناء التوجيهات الفنية التى تلقاها الفنانون من قبل الرهبان ورجال الكنيسة ، والتى لا يمكن الإستغناء عنها عند أداء هذه الأعمال الفنية ، والفن القبطى بذلك إبتعد عن الرفاهية والرخامة والذوق الرفيع الذى إتسم به الفن البيزنطى ، وهذه تعتبر نقطة الإختلاف بين هذين الفنين .

وتعرف الدكتورّة د سعاد ماهر ، الفن القبطى بقولها : " وهكذا نستطيع أن نقول أن طرازاً فنياً جديداً ظهر فى المقابر والكنائس المسيحية الموجودة فى الصحراء الغربية بعيداً عن أعين الحكام ، والرقباء وهو طراز فنى خاص بمسيحي مصر اللذين عرفوا بالأقباط منذ سنة ٢٨٤م ، ... ، ويمتاز هذا الأسلوب الجديد بأنه أسلوب يعدت عناصره عن محاكاة الطبيعة قلم يعن بالمادة وإكتفى بالرمز إليها أو التعبير عنها بأبسط الوسائل وأقلها ، ... . كما لجأ إلى تجريد المادة ورمز إليها بمجرد خطوط هندسية ملا بها فراغات كبيرة" (١) .

وكان من الطبيعي أن يتأثر الفن القبطى بأساليب الفن البيزنطى فهو فن معاصر له ، ومسيطر عليه فى نفس الوقت ، وظهور هذه التأثيرات الفنية البيزنطية فى الفن القبطى لا تنقص من شأنه أو تقلل من قدره كفن مستقل بداته ، وذو طابع خاص فقد ترك بصمات واضحة فى مجالات الفنون المختلفة وقد أثر على الفن البيزنطى\* نفسه .

وتظهر آثار الفن البيزنطى فى فروع الفن المختلفة فى الفن القبطى كالعامة ، والتصوير بنوعية ، وفنون النحت والأخشاب والمنسوجات .

وأهم ما يمكن تناوله هنا هو أعمال التصوير الجدارى التى نفذت بالفريسك على جدران المقابر والأديرة ، والتى تحمل الطابع البيزنطى ، ولكنه يجب الإشارة أولاً إلى

(١) الفن القبطى ، الجهاز المركزى للمكتب الجامعية والعوسية والوسائل التعليمية ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٢٢ .

(٢) ظهور الفن القبطى كان سابقاً لظهور الفن البيزنطى .

نموذج متفرد من أعمال التصوير بالفسيفساء ، وهو من الحالات النادرة التي ظهر فيها فن الفسيفساء البيزنطى فى مصر خلال العصر القبطى ، وهذه الفسيفساء موجودة فى دير القديسة كاترين ، والذي يعتبر من أشهر الأديرة التى شيّدت فى سيناء فى فترة خضوع مصر للسيادة البيزنطية ، وبنيت بأيدى مهندسين بيزنطيين ، وقد تم بناؤه بموجب مرسوم من « جستنيان » ، لذلك كان هذا الدير يحظى بالرعاية من قبل هذا الإمبراطور ، ... ، وفسيفساء هذا الدير هى الوحيدة المتبقية من عهد الإمبراطور جستنيان ، والمنسوبة إلى ورشة فنية بيزنطية بعد القضاء على أعمال الفسيفساء فى القرن الثامن الميلادى - وفسيفساء التجلى فيه بحالة جيدة ، وتكشف عن الإتجاهات الفنية لفناني الفسيفساء خلال العصر البيزنطى " (١) .

وهذه الفسيفساء " تشير إلى التطور البيزنطى الكامل ، وهى تصور موضوع التجلى (٢) . كما يبدو فى شكل (٢١٨) ، حيث يقف السيد المسيح منتصفاً المساحة الرئيسية فى الكنيسة ، ويجاوره كل من النبى موسى وأشعيا ، والحواريين بطرس ويوحنا ، وقد كتبت أسماؤهم بجوار رأس كل واحد منهم بحروف سوداء اللون ، ونلاحظ فيها ان جسد السيد المسيح صور بأبعاد ثنائية مسطحة ، على عكس أجساد الشخصيات الأخرى التى تعمد الفنان إظهار أبعادها الطبيعية المجسمة ، ويحيط بجسد السيد المسيح ثلاث مساحات بيضاوية الشكل ، نفذت بدرجات ثلاثة من اللون الأزرق ، والدرجة الأذكن منها تقع فى الدائرة الداخلية التى رسمت خلف السيد المسيح مباشرة - المساحة الداخلية - "وهذه الهالة الكبيرة تهدف إلى إبراز فكرة الثالوث المقدس ، ... ، وبالتالي فهى تشير إلى طبيعة السيد المسيح الإلهية ، وبذلك فإن هذا التصوير يمثل تعبيراً رمزياً عن العقيدة التى ترى للسيد المسيح طبيعتين ... ، وليس هناك أفضل من هذا العمل الذى يعبر عن الطبيعة الثنائية للسيد المسيح والذي تحول من طبيعته الإنسانية إلى الإلهية فى هذا المشهد " (٣) .

- 
- (1) Kurt Weitzmann , Studies In The Arts At Sinai , Princeton University Press , New Jersey , 1982, P. 405 .
- (2) Carlo Bertelli , General Editor, The Art of Mosaic, Per Jonas Nordhagen, Byzantine Treasures, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989, P. 105 .
- (3) Kurt Weitzmann , Studies In The Arts At Sinai , Princeton University Press , New Jersey , 1982, P 14 .

ومن امام هذه الأطر الثلاثة تخرج الأشعة الضوئية التى تسير فى خطوط مستقيمة وتنتشر يميناً ويساراً على الخلفية الذهبية الممتدة والأشعة الصادرة من جسد السيد المسيح بهذا الشكل تعد من أحد الملامح البيزنطية المميزة<sup>(١)</sup> .

وتحيط هذه المساحة من الخارج - قبة الجزء الخارجى البارز - إطار زخرفى يتضمن صوراً لوجوه مختلفة وضعت داخل جامات مستديرة تخص الحواريين فى الجزء العلوى ، وصور الأنبياء الستة عشر فى الجزء السفلى ، وهذا الجزء السفلى يحتوى على شريط رفيع من الزخارف الكتابية اعلى منطقة الوجوه مباشرة .

ومن اعلى المساحة - المصور فيها موضوع التجلى - توجد صورة للملاكين مجنحين ومتقابلين ، حمل كل منهما فى يديه صليباً وكرة رسم عليها صليب ذهبى صغير .

وقد تشابهت هذه العناصر الزخرفية للرؤوس الآدمية والكتابية ، والملائكة المجنحة مع العناصر الموجودة فى كنيسة القديس فيتال ، مما يؤكد ان اعمال الفسيفساء فى هاتين الكنيسيتين تمت على ايدى فنانين ينتمون جميعاً إلى ورشة فنية واحدة ، كما ان موضوع التجلى هذا مصور ايضاً فى كنيسة القديس ابو لينار بكلاسى ، وقد احتل نفس المساحة الرئيسية ولكنه عولج بأسلوب رمزى ، " حيث الحواريين الثلاثة مصورين فى شكل الخراف ، والسيد المسيح صور فى شكل صليب كبير وينتصف المساحة ايضاً ، والصورة الوحيدة المجسدة تخص القديس ابو لينار المهدي إليه الكنيسة " (٢) . شكل (٩٦) ، وذلك يوضح مدى الإرتباط الفنى بين الأقاليم التابعة للإمبراطورية فى الشرق والعرب ، والتي تجمع بين اساليب فنية واحدة تستمد مصادرها من اصول بيزنطية خالصة .

اما لوحات التصوير الجدارى التى تحمل فى داخلها السمات البيزنطية، فيتم تناولها على النحو التالى :

## أولاً ، أعمال التصوير الجدارى الموجودة فى كاتدرائية فرس ،

وهى تعتبر خير مثال للاديرة التى نشأت فى العصر القبطى المبكر وهى تقع فى جنوب مصر فى بلاد النوبة . ونظراً لأهمية هذه الأعمال فقد قامت البعثة الهولندية

(1) Dalton, Byzantine Art and Archacology, Clarendon Press, Oxford , 1911. P. 655 .

(2) Lyn Rodley, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press , New York 1994 , P. 87.



بنقلها من على الجدران بواسطة الشاش المبلل بالصمغ ووضعها على لوحات خشبية وأعيد تثبيتها فوق الجدران مرة أخرى .

وما زالت هذه التصاوير الجدارية تتمتع بحالة جيدة ، وهى تجمع فى اعمالها بين عناصر فنية مختلفة كالفن التدمرى والسومرى ، ويصف الدكتور ، ثروت عكاشة ، فن فرس فى مجموعة كظاهرة من ظواهر الفن البيزنطى " (١) . فهى تصور مجموعة من المشاهد الدينية التى تتضمن الشخصيات المقدسة والتى كانت تصور الموضوعات البيزنطية كالعذراء والملاك جبريل وبعض الحواريين والملائكة المجنحين ، وقد صورت العذراء جالسة على العرش المتوج بأشكال الصليب الصغيرة ، بالإضافة إلى تصويرها فى موضوع الميلاد الذى رسمت فيه العذراء مصطحجة وخلفها السيد المسيح المولود ، والذى يبدو فى شكل (٢١٩) ، حيث تظهر فيه الملوك الثلاثة الممتلئين الحياذ معالجين بأسلوب فارس .

## ثانياً : تصاوير كنيسة الخروج والسلام :

" لعل من أحسن الأمثلة التى عشر عليها من رسوم الفريسك ، توجد فى هاتين الكنيستين " (٢) وتقع كلتاهما فى منطقة البجوات بالوحدات الخارجة ، وبالنسبة لكنيسة الخروج<sup>٤</sup> فتظهر فى اعمالها التأثيرات البيزنطية التى تتضح فى الرسوم الجدارية التى تزين قبة المقبرة ، وهذه القبة تحتوى على مجموعة من "الزخارف النباتية مثل كرمة العنب وعليها مجموعة من الحليور ويحيط بوسط القبة رسوم تمثل قصص الأنبياء والقديسين التى وردت فى الإنجيل إلى جانب بعض الموضوعات والزخارف المسيحية كأشكال الصليبان " (٣) .

أما رسوم كنيسة السلام فهى تتضمن اعمالاً فنية تجد فيها مجموعة من الأشكال المتجاورة منها ما هو رمزى ومنها ما هو من العهد القديم والجديد . وهذه الموضوعات وجدت مصورة على جدران القبة داخل هذه الكنيسة ، وهذه القبة تشتمل على خمس دوائر متتالية تتحد فى المركز ، والثلاث مستويات الأولى تحتوى على أشكال زخرفية نباتية من أوراق العنب وأكاليل النباتات المتداخلة والتى نفذت على مساحة مستقلة من

(١) ثروت عكاشة ، تاريخ الفن ، العنصرى ، الجزء الثالث ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦ ، ص ١٤٩٢ .

(٢) أحمد سليم ، الر استخدام التصوير الجدارى فوق ملاط الطين فى تجميل قرية كلاتشة بالنوبة ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية المنون الجميلة ، جامعة حلوانم ١٩٩٨ ، ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق . نفس المكان .

(٤) يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى .

اللون الأصفر والأخضر القاتح ، كما يتبين من شكل (٢٢٠) ، أما المستوى الرابع ذو الألوان الداكنة فقد إحتوى على موضوعات متجاورة ومتداخلة وغير مرتبة .

وأوضح هذه الموضوعات يظهر فى الجزئية الخاصة بتصوير آدم وحواء فى موضوع الإغواء ، حيث يقف كل منهما تنتصفهما الشجرة التى إلتف حولها الثعبان تعبيراً عن عملية الإغواء نفسها والتى كانت سبباً فى طردهما من الجنة ، وقد نفذت اجسادهما با اللون الأزرق على الأرضية الصفراء المائلة إلى الدرجات البنية ، وهذه الموضوعات قد سبق تناولها فى الفن البيزنطى ، ويؤكد ذلك الدكتور أحمد فخرى ، قائلاً : " إن التصاوير فيها نفذت بيد فنان ماهر تفوق خطوطه وأوانه مستوى مصورى المزارات الأخرى بكثير ، والطرز بيزنطى خالص شأنه فى ذلك شأن ملابس الأشخاص ، والموضوعات المصورة هنا هى الموضوعات الشائعة من الكتاب المقدس " (١) .

### ثالثاً ، رسوم حنية بأويط ،

من أوضح الأمثلة التى يتضح فيها الأسلوب البيزنطى ، يتمثل فى التوريق العلبقى للشخصيات المقدسة داخل الكنيسة وطريقة تصويرهم ، نتبين ذلك فى شكل (٢٢١) ، الذى يبدو فيه المساحة المعمارية ( حنية الكنيسة ) مقسمة إلى مستويين : المستوى الأعلى هو الجزء المقبب وقد إحتوى على صورة السيد المسيح جالساً على العرش ، وبمسك الكتاب المقدس مفتوحاً كعادة تصويره فى الفن البيزنطى ، ويحيط بالسيد المسيح الإنجلييين الأربعة ، وعلى كل جانب يقف ملاك مجنح ، والمستوى السفلى تظهر به صورة العذراء تحمل الحلفل على ركبتيها وهى جالسة على العرش أيضاً ، ومن حولها الحواريين الإثنى عشر ، بالإضافة إلى إثنين من الكهنة المصريين ، كما يجدر الإشارة إلى الوجوه المرسومة داخل الجوامت المستديرة التى تحيط بالمساحة الخارجية من الحنية .

### رابعاً ، تصاوير دير القديس أرميا ،

يقع هذا الدير فى سقارة وقد عثر فيه على مجموعة من أعمال التصوير الجدارى التى تصور موضوعات مستمدة من حياة السيد المسيح والعذراء والقديسين ، وإحدى هذه التصاوير الهامة توجد فى شرقية الدير ( الحنية ) ، وعليها صورة العذراء

(١) الصحراء المصرية ، جبانة البجوات الخارجة ، ترجمة عبد الرحمن عبد التواب ، هيئة الآثار

وهى تحمل السيد المسيح الطفل وتتمتع بنفس الهيئة ونظرات الأعين، التي إعتاد الفنانون تصويرها في الفسيفساء البيزنطية .

وعلى جدار آخر داخل هذا الدير عثر على لوحة تصور أربعة من القديسين أو الرهبان ، أحدهم يحمل الكتاب المقدس ، والثاني يرفع ذراعيه إلى أعلى ، وقديس آخر رسم على يمين الجدار في وضع السجود على الأرض ، وتحيط برؤوسهم جميعاً الهالات المقدسة - إلا القديس الساجد - فتبين ذلك في شكل (٢٢٢) ، الذي نلاحظ من خلاله وقوف القديسين في وضع المواجهة والنظرات المحدقة ، وطريقة معالجة طيات الملابس ، والكتابات التي تخللت الخلفية، كلها مظاهر تعكس التأثر الشديد بأسلوب التصوير البيزنطي .





## الفصل الخامس

### تجربة الباحثة الفنية ومحاولة إستخلاص قيم جمالية معاصرة مستوحاة من الفسيفساء البيزنطية

- مقدمة.
- الخدمات المستخدمة.
- الأساليب التقنية المتبعة في تنفيذ اللوحات .



## الفصل الخامس

### تجربة الباحثة الفنية ومحاولة إستخلاص قيم جمالية معاصرة مستوحاة من الفسيفساء البيزنطية

#### ● مقدمة :

تتلخص التجربة العملية للباحثة في تنفيذ مجموعة من لوحات الفسيفساء المعلقة التي حاولت فيها الإستفادة من الأسلوب الفنئ للفسيفساء البيزنطية ، ومن بعض القيم التشكيلية والجمالية التي تضمنتها هذه الموضوعات ، والتي إحتوت على تصوير العنصر الأدمى وبعض العناصر النباتية ، ومحاولة تصويرها بأسلوب تحليلى تلخيصى ، على غرار الأسلوب الزخرفى المجرى الذى إتسم به طابع الفن البيزنطى .

وقد تم تنفيذ الأعمال المقدمة فى عدة مراحل ، إهتمت الباحثة من خلالها بتطوير الأسلوب الذى يتناسب مع الموضوعات المختلفة التى تم تصويرها ، كما شمل هذا التطوير أيضاً أسلوب التنفيذ بخامة الفسيفساء بنوعيتها - الخزف والزجاجى - ضمن حيث اشكال المكعبات وأحجامها واتجاهاتها داخل اللوحات المنفذة.

وقد كان للباحثة عدة أعمال سابقة على إعداد الرسالة إهتمت فيها بإستخدام بعض العناصر النباتية ، ومحاولة وضعها فى قالب زخرفى مما يحقق الثراء اللونى فى هذه الفسيفساء ، والإستفادة من الأسلوب الرمزى فى تصوير بعض الموضوعات المختلفة ، وتصوير العنصر الأدمى وبعض الصور الشخصية التى يغلب عليها أسلوب التحوير والتلخيص ، ومحاولة إظهار الطابع الحركى وتحقيق سيادة بعض الألوان فى هذه الأعمال ، وتظهر هذه الصفات التشكيلية فى اللوحات التالية :

اللوحة الأولى : شكل (٢٢٣) ويعتمد التصميم فيها على المساحة المستطيلة التى إنتشرت فوقها زهرات عباد الشمس ، وإمتدت على جانبي المحور المائل للوحة ، واتخذت جميعها الأشكال المستديرة ، فى حين قسمت الخلفية إلى مساحات هندسية متجاورة ، متوازية معاً ومتقاطعة فى بعض الأحيان ، وقد حاولت الباحثة بذلك إحداث نوع من الملاقة التشكيلية بين هذه الأشكال المستديرة المتمثلة فى زهرات عباد الشمس ، وبين الخطوط الرأسية والأفقية وما نتج عنها من مساحات مستطيلة تخللتها ، كما حرصت الباحثة على التقليل من الإحساس بالرتابة من تكرار عنصر واحد فى اللوحة وهو عباد الشمس ، وذلك من خلال تغيير بعض أوضاع هذه الزهرات واتجاهاتها ، وما يترتب

عليه من إختلاف أشكال أوراقها وتداخلها فيما بينها بالإضافة إلى إستخدام اللون الأزرق والأحمر ، ودرجاتهما المختلفة في تصوير بعض هذه الزهور ، وقد إتبعت الباحثة في هذه اللوحة الأسلوب الواقعي الذي يتمثل في نقل الشكل الطبيعي للزهور وأوراقها ، في حين غلب الطابع التحليلي الزخرفي على الخلفية المسطحة التي إحتوت على العديد من الدرجات اللونية الساخنة والباردة ، كما حاولت الباحثة الحصول على أعلى درجة من التلوين داخل كل مساحة على حدة ، كما يبدو في الجزء الأسفل من اللوحة في المساحة الحمراء اللون ، والمساحة التي إحتوتها الدرجات البنفسجية والوردية الفاتحة .

وقد تضمنت هذه المساحة السفلى مساحة صغيرة إعتد في تنفيذها على لون واحد وتبدو في يسار اللوحة حيث تظهر إحدى زهرات عباد الشمس الزرقاء ، وهي مرسومة على اللون الأبيض . وهي تعد بمثابة محاولة أولية وبسيطة من الباحثة في سبيل تعميمها وسيادتها في بعض اللوحات التالية .

أما اللوحة الثانية فهي تبدو في شكل (١٢٢٤) ، وهي عبارة عن مساحة مسطحة تحتوي على مجموعة من الفروع المتداخلة التي تخرج منها أوراق النبات المتنوعة الأحجام والألوان .

وتهدف الباحثة من تصوير هذه الفروع المتداخلة بهذا الشكل إلى إبراز الطابع الحركي الذي يتحقق من خلال العناصر الخطية ، والتي تمثلت في الفروع النباتية التي تسير في إتجاهات دائرية منحنية وتتجه في جميع أنحاء اللوحة .

كما حاولت الباحثة تأكيد الإحساس بالحركة من خلال ترديد هذه الإتجاهات والخطوط المنحنية في الخلفية ، وذلك بواسطة ترصيص مكعبات الفسفيفساء وفقاً للخطوط الأساسية لفروع النبات . كما في شكل (٢٢٤ ب) .

وقد إتبع في تصميم هذه اللوحة وتنفيذها الأسلوب الزخرفي المجرد وقد إتخذ في خلفيتها هنا اللون الأبيض كلون أساسي مع تدعيمه ببعض الدرجات اللونية الهادئة والمشتقة منه ، مثل الأصفر والأوكر والوردي والأخضر الفاتح والأزرق الفاتح .

واللوحتان اللتان تظهزان في شكل (٢٢٥) ، (١٢٢٦) حرصت الباحثة في تصويرهما على إتباع الأسلوب الرمزي . كما إختلفت كل لوحة في موضوعها عن الأخرى .



ويتقسم التكوين في اللوحة الأولى شكل (١٢٢٥) إلى قسمين : القسم الأيمن يتضمن شجرة كبيرة وفتاة صغيرة مقيدة بها وتقف فوق حافة صخرية وتحيط بها الجبال ، أما الجانب الأيسر فيظهر به من أسفل السنة النيران الملتهبة ومن فوقها ثلاثة طيور تحاول التحليق في السماء .

ويتلخص الموضوع في الإشارة إلى بعض القيود والمعوقات التي تعترض الإنسان وتجعله عاجزاً عن الوصول إلى أهدافه ، وقد تمثلت هذه القيود في السلاسل الحديدية السوداء التي تنسدل على جانبي الشجرة التي إختفت أوراقها وحلت محلها أغصان وقروع غريبة الشكل ومتدلية ، وتمتد إلى أسفل لتقيد ذواعى الفتاة وجسدها .

وقد إستخدمت الباحثة بعض الرموز التي ساعدت على تأكيد هذا المعنى ، أهمها تصوير العنصر الأدمى ، فصورت الفتاة التي ترمز للإنسان والتي رسمت وسط مجموعة من الصخور والتلال التي حالت بينها ومنعتها من محاولة الفرار والنجاة من هذه النيران التي تقترب منها في الناحية الأخرى ، في حين تمكنت الطيور الثلاثة بالرغم من صغر حجمها وضعفها من الحصول على حريتها والتخلص من تلك الطبيعة الوحشة .

وقد اعتمدت الباحثة في تصوير هذه اللوحة على الأسلوب التحليلي أو التلخيصي الذي يعتمد على التسطيع ، كما يبدو في جنع الشجرة والتلال الصخرية وفي جسد الفتاة أيضاً ، كما لم تهتم برسم ملامح وجه الفتاة واكتفت الباحثة بحركة رأسها المائلة للتعبير عن هذه الحالة الشعورية . بالإضافة إلى المبالغة في رسم أحجام الطيور وأجنحتها ، واعتمدت في تصويرها وتنفيذها على الأسلوب الزخرفي الذي تمثل في استخدام اللون الأبيض وما تخلله من خطوط حمراء فظهرت هذه الطيور مسطحة إلى حد كبير كما يبدو في شكل ( ٢٢٥ ب ) .

وقد فرض الموضوع على الباحثة إختيار مجموعة معينة من الألوان في تنفيذ هذا العمل لما تتميز به من صفات رمزية متفردة ، فاللون الأبيض الذي يظهر في رداء الفتاة والطيور الثلاثة يوحي بالنقاء والطهارة ، ويبعث الأمل في بداية حياة جديدة بالرغم من وجود بعض المخاطر .

أما اللون الأحمر فهو يتميز بصفات رمزية خاصة ، فقد إختص هنا بالتعبير عن معاني الألم والصراع والمعاناة داخل العمل ، وقد إستخدمت الباحثة العديد من درجاته اللونية المختلفة في تنفيذ لهيب النيران وجذع الشجرة وفروعها ، كما ظهر هذا اللون في جميع أجزاء اللوحة حيث تخلل الجبال والأرض ، كما طغى أيضاً على لون السماء التي إتخذت بعض الدرجات الداكنة من اللون الأزرق والبني فسجى ، والتي توحي بسكون الليل وعمامته .

وقد إستخدم اللون الذهبي في تنفيذ مناطق الضوء الساقط على السلاسل مما يوحي بصلابتها وقوتها ، وذلك بالإشتراك مع اللون الأسود ، وتعتبر هذه اللوحة واحدة من اللوحات التي حاولت الباحثة فيها تحقيق السيطرة والسيادة لأحد الألوان داخل العمل الفني ، وهو اللون الأحمر الذي وجدته الباحثة أنسب الألوان التي قد تساعد في تدعيم الموضوع المصور .

واللوحة الثانية المنفذة تظهر في شكل (٢٢٦ ب) ، ويتضمن التكوين العام لهذه اللوحة إثنين من الوجوه الشخصية ، الوجه الأول يخص فتاة ، والوجه الآخر لرجل قد إتخذ وضع جانبي على يسار اللوحة ، وقد أحاطت بالإثنين مجموعة من أوراق الشجر .

وقد حاولت الباحثة في هذه اللوحة تجسيد معنى رمزياً وهو الجمع بين المتناقضات في الطبيعة التي تتواجد جنباً إلى جنب وتجمع بينها فترات زمنية واحدة ، مثل الليل والنهار - الماضي والمستقبل - الربيع والخريف ، ولا بد لهذه الأزمنة أن تترك آثارها في الأخرى وتؤثر في الإنسان وتأثر بها نتيجة لما تحدثه هذه المتناقضات من حالات شعورية مختلفة ، وأرادت الباحثة التعبير عن أحد هذه المعاني وتصويره في إطار رمزي ، وهو « الربيع والخريف » واعتمدت في ذلك على بعض الرموز التي تضمنت العناصر المرسومة ، والألوان المستخدمة في تصويرها ، وكان سبيلها في التعبير عن الربيع هو رسم رأس فتاة صغيرة السن ، ويبدو ذلك في ملامحها وهزارة شعرها وتتميز بعنق طويلة ممتدة إلى أعلى حيث تصل إلى الأوراق الخضراء اليانعة في أعلى اللوحة ، وهي تتقدم اللوحة وترتفع برأسها من المستوى الذي رسمت فيه رأس الرجل التي أرادت الباحثة من خلالها تجسيد الخريف؛ مؤكداً ذلك برسمه في سن متقدمة ويوضع جانبي مغمض العين وفي حالة سكون تام ، وقد تساقطت حوله مجموعة من الأوراق الذابلة ، ومن خلال

هذا العمل حاولت الباحثة التعبير عن معنى خاص ، وهو أنه بالرغم من هذا التضاد الواضح ، وبعد المسافة بين الربيع والخريف ، إلا أنه يمكن أن يكون هناك نقطة تلاقي بينهما ، والتي تمثلت هنا في تجاور هذين الوجهين المتقاربين ، وتحقيق العلاقة التشكيلية بين بعض الخطوط كإمتداد خصلات شعر الفتاة لتمتاز بالورقيات التي تعانق وجه الرجل من ناحية - في يسار اللوحة - ، كما تتصل هذه الخصلات بالأوراق الخضراء في أعلى يمين اللوحة .

وقد لجأت الباحثة في تحقيق هذا المعنى إلى الإعتماد على اللون الأخضر ودرجاته المتعددة في تصوير بشرة الفتاة كما يبدو في وجهها وعنقها وبعض خصلات شعرها ، فضلاً عن بروز رأسها من وسط هذه الأوراق الخضراء الزاهية ، وهذا اللون يتميز بإشاعة الحيوية ، كما أنه يوحي بالإستقرار والنماء ، في حين سيطر اللون الرمادي على بشرة الرجل وملامحه الساكنة التي فقدت حيويتها ونضارتها ، ويتجلى ذلك في لون الخد والشفتين ، بالإضافة إلى الدرجات اللونية المستخدمة في الأوراق التي مالت إلى الإصفرار وذلك للإيحاء بجفافها وذبولها .

وقد سيطر اللون الأخضر بشكل عام على اللوحة وبدا تأثيره في بعض الأجزاء حيث إصطبغ اللون الرمادي ببعض الدرجات اللونية الخضراء في رأس الرجل ، وتحقيقاً لعنصر الترابط اللوني فقد تم توزيع بعض الدرجات الرمادية في خصلات شعر الفتاة وفي مقدمة رأسها أعلى الجبهة مباشرة ، بالإضافة إلى ظهورها أيضاً في منطقة الذقن .

والى جانب الدرجات الخضراء فقد ظهرت بعض الدرجات اللونية الداكنة التي تخللت جميع أجزاء اللوحة مثل الدرجات الرمادية والبنية المائلة إلى السواد التي قد تتلاءم مع طابع الحزن الذي طغى على الجو العام للوحة والتي حرصت الباحثة على إظهاره في ملامح الفتاة وخاصة في نظرة عينيها .

وقد إعتمدت الباحثة على العناصر الأدمية والنباتية في تصوير إحدى هذه اللوحات التي تحمل الأسلوب الرمزي والتي تظهر في شكل ( ٢٢٧ ) ، وتحتوي على شجرة كبيرة تتميز بضخامة أوراقها ، وكثافتها وتوسطها فتاة تجلس فوق الغصان الشجرة وتحنى برأسها لأسفل ، وتهدف الباحثة من تصوير الفتاة هنا إلى محاولة الإعتماد على المنصر الأدمي لتحقيق بعض الأهداف والمعاني الحسية - وتتميز بخصلات الشعر الطويلة الناعمة والتي تنسدل فوق جبهتها وكثفها ، وتمتد يميناً ويساراً لتتخلل المسافات البينية لأوراق الشجر .

وكان الغرض من إتخاذ الفتاة وضع الثبات في الجلوس هو الإيحاء بسكون الليل وهدوئه ، كما أن تصوير الفتاة في منتصف الشجرة - مركز اللوحة - بالإضافة إلى المساحة الظلية التي رسمت أسفل الشجرة ، يساعده على تحقيق عنصر الإتزان في التكوين .

وقد رسمت الشجرة بقامدتها فوق مساحة لونية باردة تشير إلى زرقة السماء وبرودتها ، أما خلفية الشجرة فقد قسمت إلى مساحتين جمعت بين الألوان الساخنة والباردة ، كما حرصت الباحثة على إستخدام اللون الأحمر ودرجاته الداكنة ، وتوزيعه في أماكن متفرقة داخل اللوحة ، وذلك في محاولة لتحقيق التناغم والإنسجام اللوني، حيث حرصت الباحثة على إحداث التأثيرات اللونية المتعددة في أوراق الشجر ، والتي إمتزجت درجاتها المختلفة مع اللون الأحمر الذي كان مصدره خصلات شعر الفتاة .

وفي شكل ( ٢٢٧ ب ) - اللوحة المنضنة - حرصت الباحثة على تحديد العناصر المرسومة من الخارج باللون الأسود ، ( جميع أوراق الشجرة وجذعها والقاعدة الظلية المرسومة أسفلها باللون الأسود ) كما تم تحديد بعض أوراق الشجرة من الخارج كما يبدو في الناحية اليسرى من اللوحة في الخط الأبيض السميك أسفل الشجرة ، وقد رسم بجانبه خطأ آخر باللون الأحمر الذي تخلل أيضاً بعض الأجزاء السفلية من قاعدة الشجرة .

وقد تناولت الباحثة الأسلوب التحليلي المجرد في معالجة جسد الفتاة ، كما تم التعبير عن ملامح وجهها بخطوط مبسطة ، وذلك لعدم أهمية دراسة الملامح وإظهار التفاصيل بها، في حين إهتمت الدارسة بنقل الشكل الطبيعي لأوراق الشجرة .

وقد كانت هناك عدة محاولات من الباحثة في تصوير الوجوه الأدمية والشخصية التي إتبعت من خلالها بعض الأساليب الفنية المختلفة ، والتي ظهرت في اللوحات الآتية :

اللوحة شكل ( ٢٢٨ ) وقد تم تنفيذها في مرحلة الإعداد لهذه الدراسة - وهي تضم وجهاً لفتاة شغل مساحة اللوحة بأكملها ، وقد تم التركيز على رسم الملامح الأساسية فقط للوجه فظهرت بحجم كبير .

وبالرغم من إهتمام الباحثة بدراسة النسب الطبيعية وتجسيد الوجه الإنساني ، إلا أنها لم تهتم بنقل جميع التفاصيل الطبيعية مثل تصوير العين بدون حدقة ورسم الحاجبين في صورة خطين منحنين ، بالإضافة إلى الخطوط الزاوية السمكة التي حلت محل خصلات الشعر .

ولم تعتمد الباحثة على الأسلوب الواقعي في استخدام الدرجات اللونية الحقيقية ، كما يبدو بوضوح في سيطرة اللون الأزرق على وجه الفتاة ، وبالأخص في منطقة العيون والشفتين وخصلات الشعر الداكنة ، وقد أرادت من خلال هذا اللون التعبير عن لون ماء النيل الذي يروى مصر ويمتد بين أراضيها مما ينتج عنه خصوبة الأرض ونماؤها ونضوج ثمارها ، والتي حاولت الإشارة إليها من خلال بعض الألوان مثل اللون البنّي والأخضر والدرجات الحمراء والوردية ، كما إهتمت الباحثة بتنفيذ الوجه الذي يتضمن العديد من الدرجات اللوتية الزرقاء على مساحة بيضاء تماماً تشوبها بعض الزرق في قاعدة اللوحة ، وذلك حتى تساعد على وضوح الشكل وبروزه إلى الأمام .

وتعتبر هذه اللوحة أولى التجارب الفنية التي حاولت فيها الباحثة تحقيق سيادة احد الألوان كاللون الأزرق .

واللوحة شكل (١٢٢٩) تتضمن احد هذه الوجوه الأدمية ، حيث تظهر فتاة وقد تم تصويرها في وضع جانبي تماماً ، وتبدو خصلات شعرها الذهبية تنسدل على كتفها وتمتد حتى تغطي الجزء السفلي من اللوحة ، كما رسمت يدها اليسرى مرفوعة لتحمل إحدى هذه الخصلات ، وتظهر في خلفية اللوحة مساحة مستطيلة إتخذت درجات لونية فاتحة وتتوسط هذه المساحة زهرية صغيرة امتلأت بمجموعة من فروع النبات وتحمل بعض الورد الصغيرة .

وقد إلتزمت الباحثة بتصوير الملامح الطبيعية لوجه الفتاة ، كما إهتمت بإظهار اللون الحقيقي لبشرتها ، وراعت تحديد مناطق الظل والنور من خلال الحصول على الدرجات اللوتية المتقاربة للون البشرة ، كما إتبعته الباحثة أيضاً الأسلوب التلخيصي المبسط في رسم فروع النبات وأوراقها وزهراتها ، كما حرصت على إظهار بعض السمات البيزنطية في هذه اللوحة بشكل خاص ، فقد توافر فيها بعض المعالجات التشكيلية مثل تجاهل المنظور والأبعاد الثلاثية بين عناصر اللوحة، المتمثلة في وجه الفتاة وعلاقتها بالزهريّة المرسومة على خط أفقي سميك يشبه حافة الناظفة ، بالإضافة إلى اللون الذهبي الذي إستخدم في تنفيذ خصلات الشعر الغزيرة، كما يبدو في اللوحة المنفذة شكل ( ٢٢٩ ب ) ، فشغل مساحة لونية كبيرة داخل اللوحة ، فضلاً عن إستخدام ما يقرب من ثمانى درجات مختلفة منه - سعياً وراء تحقيق الثراء اللوني وليس بفرض التجسيم - لذلك لم تجد الباحثة أنسب من الدرجات الصفراء والخضراء والبرتقالية الساخنة كي تتوافق مع بريق اللون الذهبي وتندمج معه ، إلى جانب تكرار هذه المعينات الذهبية في فروع النبات وأوراقها ، كما تخللت أيضاً جسم الزهرية الأزرق .

وتكرار اللون الذهبي في هذين المستويين المختلفين من الأسباب الأساسية التي ساعدت على غلبة التسطيح في اللوحة ، بالإضافة إلى استخدام اللون الأزرق القوي الذي صورت به الزهرية في خلفية اللوحة، مما جعلها تبرز إلى الأمام حتى تساوت مع المستوى الذي رسمت فيه الفتاة في المقدمة ، وذلك مما يتعارض مع قواعد المنظور المونو التي توحى بالبعد واللانهائية .

وأخر هذه المعالجات تتمثل في استخدام لون واحد من مكعبات المسيفساء في خلفية اللوحة التي قسمت إلى مساحتين إحتوت كل منها على مساحة لونية منفصلة عن الأخرى ، فاللون ( التركواز ) غطى المساحة العلوية من رأس الفتاة ، كما تخلل خصلات الشعر الخلفية، أما المساحة الأخرى المستقلة الخاصة بالزهرة فقد إقتصرت لونها على اللون الأبيض وبعض الدرجات المتقاربة المشتقة منه ، وكأنت الباحثة تهدف من تغيير اللون في هاتين المساحتين إلى التفريق بينهما ومحاولة إيجاد علاقة تشكيلية لونية خاصة فقط ، وليس الإحساس بالعمق وتغيير الأبعاد .

وقد حاولت الباحثة في هذه اللوحة الإعتماد على الألوان القليلة في تصويرها، فقد استبعدت العديد من الدرجات اللونية الساخنة والباردة وإقتصرت على هذه الألوان المحدودة .

وأخر التجارب الفنية تبدو في شكل ( ١٢٣٠ ) وهي عبارة عن صورة شخصية للباحثة .

وعلى غرار اللوحات الشخصية المنغدة داخل الأقمار المستديرة داخل الكنائس ، فقد تم إعداد أرضية للوحة الخشبية وتجهيزها وفقاً للشكل البيضاوي الذي رسمت فيه صورة الباحثة حيث تظهر الرأس والأكتاف فقط ، وقد تم إحاطتها بإطار زخرفي يحيط بها من الخارج ، وإحتوى هذا الإطار على فرع نباتي مبسط تخرج منه بعض الوركيات والثمار الصغيرة ، التي تتوسطه وتسير وفقاً لهذا الشكل البيضاوي .

وقد أرادت الباحثة من هذا الشكل الهندسي الجديد، الخروج عن الشكل التقليدي للوحة المستطيلة أو المربعة ، كما تميزت مساحات المسيفساء داخل الكنائس البيزنطية ذات الأشكال المتعددة والتي تم إحاطتها بأشرطة زخرفية تتبع نفس الشكل الخارجى للوحات .

وقد نفذت هذه الصورة شكل (٢٣٠ ب) بإتباع الأسلوب الواقعي في نقل الملامح المميزة للشخصية والإهتمام بتصوير الألوان الحقيقية للبشرة وخصلات الشعر ، كما إهتمت الباحثة بتسجيل ثانياً الملابس التي ترتديها الشخصية المرسومة وتمثل هذه اللوحة الإستخدام الأوسع للون الذهبي ودرجاته والذي نفذت به خلفية اللوحة وهو أهم ما يميز الفسيفساء البيزنطية بشكل خاص ، كما إستخدم هذا اللون أيضاً في تنفيذ فرع النبات الزخرفي المحيط بها وظورت من بينها الدرجات الذهبية التي تم حرقها فوق المكعبات الخزفية الحمراء .

وتحقيقاً لأكبر إنعكاس ضوئي لهذا اللون وزيادة بريقة ولمعانه ، فقد تم تنفيذ الوشاح الذي يغطي الأكتاف باللون الأزرق ، وهو أكثر الألوان ملاءمة وتوافق مع هذا اللون الذهبي ، إلى جانب طبيعة هذا اللون اللامعة التي تفرض على الفنان تجنب إستخدام الدرجات الفاتحة وإستبدالها بالدرجات الداكنة التي تبرز هذا اللون وتزيد من لمعانه ، ونتيجة لتجاور ألوان البشرة وقربها من مساحة الخلفية الذهبية المحيطة بالوجه ، فقد إستخدمت الدرجات السوداء والحمراء والبنية الداكنة لتنفيذ لون الشعر ، كما رسمت بعض الخصلات الصغيرة السوداء على الجانب الأيسر للوجه حتى تفصل البشرة عن تلك المساحة الذهبية .

## ● الخامات المستخدمة :

إستخدمت الباحثة خامات تصويرية مختلفة في مرحلة إعداد التصميمات الأولية الخاصة باللوحات ، وهذه الخامات هي ألوان الباستيل بنوعيتها ( الطباشيرية ) Soft Pastel ، و ( الشمعية ) Oil Pastel ، والألوان الأكريلية ، تمهيداً لتنفيذها جميعاً بخامة الفسيفساء ، وقد ساعد كل نوع من هذه الألوان المختلفة في حصول الباحثة على بعض الملامح المميزة لكل موضوع على حدة ، فقد ساهمت طبيعة هذه الخامات في تأكيد موضوع العمل المصور ، فعلى سبيل المثال تميزت ألوان الباستيل بالدرجات اللونية الهادئة واحتوت على العديد من الدرجات المتقاربة ، فضلاً عن شفافيتهما العالية التي تساعد في سرعة تسجيل التفاصيل في مناطق الأضواء والظلال ، فكانت أكثر الألوان التي تحققت من خلالها رمزية الموضوعات المصورة .

وبالنسبة لمرحلة تنفيذ هذه التصميمات بخامة الفسيفساء ، فقد وجدت الباحثة أن هذه الألوان ( ألوان الباستيل ) تمكّنها من الحصول على أقصى درجات التنوع اللوني الذي فرض على الباحثة توفير عدد كبير من درجات مكعبات الفسيفساء المتقاربة ،

حتى يتسنى لها الإنتقال التدريجى من لون إلى آخر حسب التصميم المرسوم ، كما فرضت أيضاً أسلوباً معيناً فى طريقة تقطيع المكعبات ، وخاصة أن الباحثة إلتزمت إلى حد كبير بالخطوط العامة والتفاصيل الدقيقة بكل تصميم عند تنفيذه بخامة الفسيفساء، مع إدراك نوعية كل خامة وخصائصها وما تحدثه من إختلاف فى السطوح والمعالجات التشكيلية والتقنية .

وقد إعتمدت الباحثة فى تنفيذ هذه اللوحات على نوعين من خامات الفسيفساء ، وهى الفسيفساء الخزفية والفسيفساء الزجاجية ، فهاتان الخامتان تتساويان فى ثرائهما اللونى ونعومة السطح ولعانه ، وتسعى الباحثة فى تجربتها العملية إلى صبغ لوحات الفسيفساء بطابع الثراء اللونى وإكسابها قيمة فنية متميزة ، أسوة بالفسيفساء البيزنطية ذات الألوان الزاهية والمتنوعة .

وقد تم الحصول على أكبر عدد من الدرجات اللونية المشتقة من الألوان الأساسية - الساخنة والباردة - المتباينة والمتقاربة وذلك عن طريق حرق الأكاسيد المختلفة فوق البلاطات الخزفية والزجاجية فى الأفران الخاصة بالحريق .

ومن ثم توفرت مجموعة لونية نادرة - غير متوفرة فى الفسيفساء الخزفية والزجاجية - وقد وصل عند هذه الدرجات التى تم إعدادها وحرقها فى الفرن إلى ثمانية وسبعين درجة لونية ، بما فى ذلك اللون الذهبى الذى إنفرد بإثنى عشر درجة من بينها اللامع والمطفاً ، وقد تم الحصول عليها من خلال التحكم فى كمية لسائل الذهبى وكثافته ، فكلما زادت كمية الطلاء وغطت المكعب بأكمله ، كلما زاد بريق اللون ولعانه عند الحريق ، كما تساهم الألوان الأصلية الخاصة بكل مكعب قبل تغطيته بأكسيد الحريق فى ظهور درجات لونية مختلفة من اللون الواحد ، مثال ذلك يختلف اللون الذهبى المحروق فوق أرضية حمراء من اللون الذهبى المحروق فوق أرضية خضراء ، وذلك لأن الطلاء الأصيل أثناء عملية الحريق ينصهر بفعل درجات الحرارة العالية وبالتالي يتم إندماجه مع السائل الذهبى الجديد فيعطى نتيجة لونية متميزة ، وقد ساعدت هذه الطريقة على توافر الإنسجام والتناغم اللونى إلى حد ما داخل اللوحات السابقة ، وخاصة وأن اللون الذهبى يبتعد كثيراً عن طليعة الألوان الأخرى المألوفة ، حتى لا يصبح لوناً قريباً وغير متآلف مع الألوان المحيطة به داخل العمل .



وقد تحكمت الباحثة أيضاً فى تأثير السطح الخارجى الخاص بالمكعب الذهبى اللون ، وذلك عن طريق تعريض هذه المكعبات المظلمة بالسائل الذهبى إلى الحريق مرتين ، فينتج عنها خشونة سطح المكعب نفسه ، كما أنه يعطى بريقاً خاصاً ، مما يقلل من حدة اللمعان التى قد لا تكون مرغوبة فى بعض الأحيان .

ومما ساعد على زيادة بريق السطح الذهبى ولعانه إنتقاء المكعبات الخزفية ذات السطح المتعرج - لحرق الأكاسيد الذهبية - فهى تحتوى على البروزات التى تستقبل أكبر كمية من الضوء بالمقارنة بالمناطق الفالرة بها ، ومن خلال ترصيصها بجوار بعضها يمكن الحصول على بعض الإنعكاسات المختلفة داخل المساحة الذهبية فى اللوحة ، وقد استخدمت هذه المكعبات فى اللوحتين اللتين ظهر بهما اللون الذهبى .

## ● خطوات الإعداد :

تم تنفيذ اللوحات السابقة بالطريقة المباشرة ، وعلى غرار تنفيذ اللوحات الصغيرة المحمولة ( البيزنطية ) حيث اشتركت جميعها فى الأرضية الخشبية - ذات العوارض الخشبية المثبتة فى جوانبها الأربعة - حيث تم نقل التصميمات وطبعها فوق هذا السطح الخشبي بعد تكبيرها حسب المساحة المطلوبة .

أما المادة المستخدمة فى عملية اللصق ، فهى عبارة عن محلول الفراء الأبيض المخفف بالماء الذى يسكب فوق مساحة منفذة بمكعبات الفسيفساء ، وذلك بعد الإنتهاء من العمل أو لتثبيت بعض الأجزاء ، مثل ملامح الوجوه أو أوراق الشجر والزهور التى تتميز مكعباتها بالأحجام الصغيرة ، والتى يصعب وضع أية مكعبات أخرى بجوارها حتى لا تتداخل هذه المكعبات وتتحرف عن شكل الخطوط الأصلية المرسومة أسفلها ، وتتم هذه العملية بالتدرج حتى يغطى السطح الخشبي تماماً بالمكعبات ، ثم تنزع طبقة الفراء بواسطة الماء الساخن .

وتأتى بعد ذلك مرحلة ملأ الفراغات البيئية لمكعبات الفسيفساء ، وذلك عن طريق تحضير عجينة من الأسمنت الأبيض المخلوط بالماء ، وهذه العجينة الأسمنتية تساعد فى عملية تثبيت المكعبات فيما بينها مع السطح الخشبي . وبعد تنظيف اللوحة من آثار هذه العجينة وجفافها ، يتم تلوين الفراغات البيضاء الناتجة عن وضع هذه العجينة ويتم تغيير الألوان فى كل جزئية حسب المساحة اللونية التى تمثلها وفقاً للتصميم الأصيل .

## ● الأساليب التقنية المتبعة في تنفيذ اللوحات :

حرصت الباحثة في تنفيذها للوحات السابقة على تحقيق بعض العلاقات التشكيلية والمعالجات التقنية وذلك من خلال التنوع في احجام مكعبات الفسيفساء وأشكالها ، فقد إحتوت هذه الأعمال على اشكال مختلفة للمكعبات التي إلتخذت الشكل المربع والمستطيل والمثلث وشبه المنحرف التي ظهرت في كل لوحة على حدة .

وقد إلتصمت الباحثة للوحات - او بعض اجزاء منها - التي تظهر في الأشكال (٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ب ، ٢٢٨) بقطع الفسيفساء المستطيلة والمربعة ، وقد كانت هناك اللوحات التي إقتصرت في تنفيذها على الشكل المربع وخاصة في خلفية اللوحة التي تبدو في شكل (٢٢٩ ب) ذات اللون التركواز الفاتح الذي يحيط بوجه الفتاة وشعرها ، وقد إلتخذت هذه المكعبات في البداية خطوطاً متجاورة محددة لرأس الفتاة ثم إلتخذت بعد ذلك إتجاهات متداخلة رأسية وأفقية ، وتتخللها بعض الإنحناءات البسيطة في إتجاهاتها ، كما إتمتدت خلفية اللوحة شكل (٢٢٤ ب) على هذه المكعبات المتقاربة الحجم والتي تسير في خطوط وإتجاهات دائرية منحنية .

وقد كانت هناك بعض المحاولات التي قامت بها الباحثة لتغيير شكل المكعب المربع أو المستطيل المعتادين في تنفيذ لوحات الفسيفساء ، هدفاً منها للحصول على اسلوب جديد للتنفيذ ، وكان سبيلها في ذلك هو إستخدام الشكل المثلث أو الشبه منحرف ، وأولى اللوحات التي ظهرت فيها هذه الأشكال الجديدة هي لوحة شكل (٢٢٣) . حيث حاولت الباحثة فيها الوصول إلى الشكل الهندسي المثالي للمثلث إلى جانب بعض الأشكال الشبه منحرفة والعشوائية والتي تبدو بوضوح في المساحات المقسمة إلى اشكال هندسية ( مستطيلة ومربعة ) تستقل كل مساحة منها بلون يختلف عن الآخر .

وقد ساعدت هذه التجربة في الإعتماد بصورة أكبر على هذا الشكل الجديد من قطع الفسيفساء حيث انه يضمنى على اللوحة طابعاً جمالياً خاصاً ، وتكسب العمل قيمة تصويرية وتشكيلية ، فهذا الشكل يتيح تداخل العديد من الدرجات اللونية داخل مساحة اللون الواحدة ، وتحقيق الترابط والإنسجام اللوني بين الدرجات المتقابلة دون الشعور بعملية الإنتقال المفاجئة للألوان ، كاللون البرتقالي والأزرق في اللوحة السابقة على سبيل المثال .

والأعمال السابقة قد تضمنت في تنفيذها جميع هذه الأشكال المختلفة لقطع الفسيفساء ، حيث حرصت الباحثة على توزيع هذه الأشكال بما يتلاءم مع أماكنها المناسبة داخل اللوحة ، وذلك حسب التصميم المرسوم .

فبالإضافة إلى أن أغلب المساحات قد شغلتها المكعبات المثلثة والعشوائية ، فقد خصصت المكعبات المستطيلة لتنفيذ جذوع الأشجار وأغصانها وفروعها ، وفي خصلات شعر الفتيات وملابسهن ، سواء في فسيفساء الموضوعات أو الصور الشخصية ، وفي الحدود الفاصلة بين مساحتين مختلفتين كما في شكل ( ٢٢٧ ب ) ، وشكل ( ٢٢٩ ب ) ، وقد استعانت الباحثة ببعض القطع الزجاجية الملونة الحمراء التي استخدمتها في تنفيذ القلادة التي ترتديها في شكل ( ٢٣٠ ب ) . كما لجأت للوصول إلى نتائج فنية مختلفة من خلال التحكم في لون العجينة الأسمنتية وسمكها التي توضع بين مكعبات الفسيفساء ، فقد تم صبغ العجينة الأسمنتية باللون الأحمر ، واللون الرمادي قبل وضعها في اللوحتين شكلي ( ٢٢٥ ب ، ٢٢٦ ب ) .

كما إعتمدت أيضاً على سمك هذه الفراغات الأسمنتية في الحصول على بعض الخطوط الرفيعة والتفاصيل الدقيقة التي يصعب تقطيع مكعب الفسيفساء وفقاً لهذه المساحة التي تقل في أغلب الأحيان عن الخمسة مليمترات ، حيث يتم ترك هذه المساحات الصغيرة خالية بدون مكعبات ، وبعد الإنتهاء من الخطوات التنفيذية للعمل الفني ، يتم تلوين هذه المساحة بالألوان المناسبة لها ، كما في الخطوط السوداء التي تحدد العيون في منطقة الجفون في فسيفساء الصور الشخصية ، وفي الخطوط الخارجية المحددة لجميع الأوراق الخاصة بزهور عباد الشمس في اللوحة شكل ( ٢٣٣ ) ، وكان الفرض من ذلك هو إكساب هذه الأوراق الإحساس بالرقّة والليونة التي تتناسب مع طبيعة هذه الزهور .

كما إعتمدت الباحثة على هذه الطريقة في تحقيق إحدى الأساليب التقنية المميزة للفسيفساء البيزنطية ، وهي تحديد العناصر المرسومة من الخارج بخطوط سوداء من مكعبات الفسيفساء ، ولكن في هذه الحالة إستبدلت المكعبات بهذه الفواصل الأسمنتية ، التي حرصت على إظهارها خاصة في لوحة شكل ( ٢٢٧ ب ) ، حيث تبدو فيها الخطوط السوداء محددة لكل ورقة من ورقات الشجرة المرسومة بالإضافة إلى تحديد جذمى الشجرة السفليين مع القاعدة التي تركز عليها هذه الشجرة .

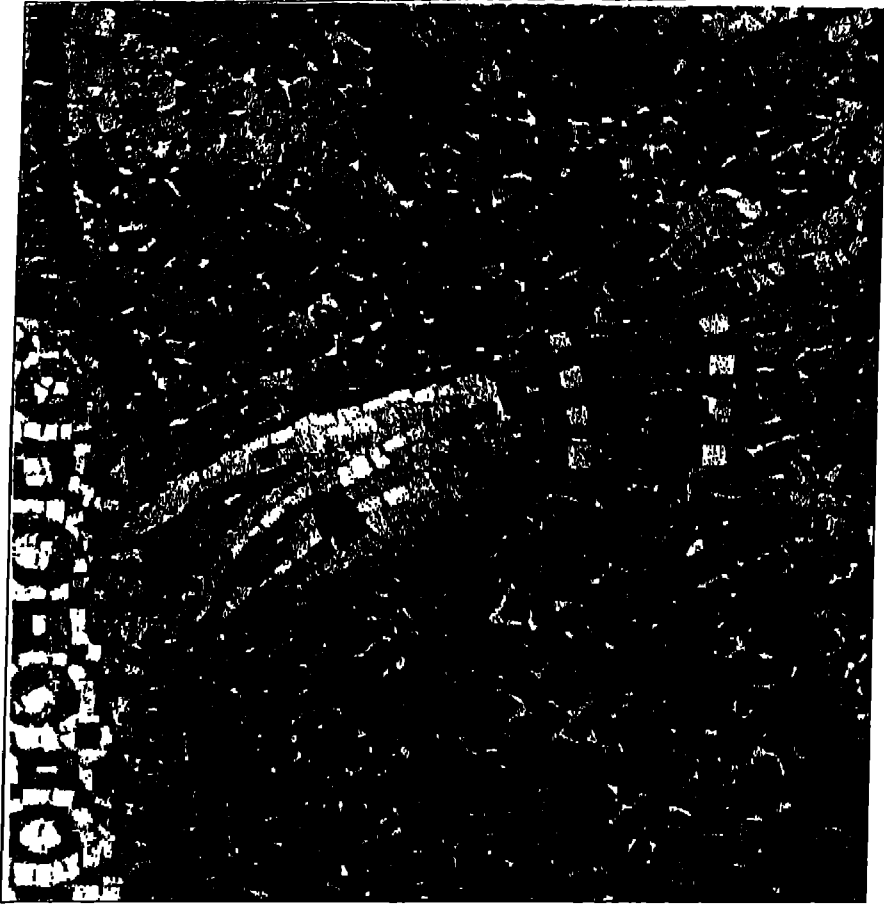


-٣٥٢-



شكل رقم (١٣٥) القديس بطرس - (تفصيلية) قبة المعمودية الأريانية  
راقينا - القرن الخامس الميلادي .





شكل رقم (١٣٦) يد السيدة چوانينا - تفصيلية من لوحة فسيفساء الإمبراطورة تيودورا  
كنيسة القديس فيتال - رافينا - القرن السادس الميلادي.







شكل رقم (١٣٧) رأس أحد الملائكة الذي يقف بجوار عرش السيد المسيح - قسيفساء كنيسة القديس أبولينار الجديدة - رافينا - القرن السادس الميلادي .



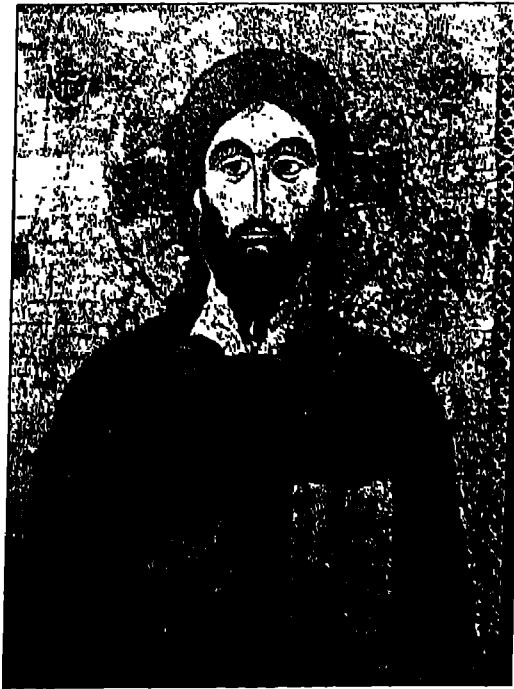
شكل رقم (١٣٨) صورة وجه أحد القديسين - قسيفساء كنيسة القديس جورج سالونيك - القرن الثامن الميلادي .



-٣٥٦-



شكل رقم (١٣٩) المسيح الحاكم الأعظم - فسيفساء قبة كنيسة المخلص - القسطنطينية  
القرن الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (١٤٠) السيد المسيح - فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة - المتحف القومي  
فلورنسا - القرن الثاني عشر الميلادي.



-٣٥٧-



شكل رقم (١٤١) رجل وجمل يحمل طفلين - فسيفساء القصر العظيم المقدس - القسطنطينية  
القرن السابع الميلادي •



شكل رقم (١٤٢) صور للقديسين في وضع المواجهة - فسيفساء كنيسة القديس أبولينار الجديدة  
رافينا - القرن السادس الميلادي •





شكل رقم (١٤٣) تجسيد للعظيم ذو الجلالة - فسيفساء كنيسة القديس فيتال - رافينا القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (١٤٤) النبي إبراهيم وزوجته سارة بتمثال القربان للإله - فسيفساء كنيسة القديس فيتال - رافينا - القرن السادس الميلادي.







شكل رقم (١٤٥) السيد المسيح - فسيفساء تبة الجانبة الخارجي البارز (شرقية الكنيسة)  
كنيسة القديس فيثال - رافينا - القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (١٤٦) إبتان من الأنهار المجدولة - (تفصيلية) فسيفساء القبة (شرقية الكنيسة)  
كنيسة القديس فيثال - رافينا - القرن السادس الميلادي.





شكل رقم (١٤٧) العذراء تحمل المسيح طفلا - فسيفساء شرقية كنيسة نيقية -  
القرن التاسع الميلادي.



شكل رقم (١٤٨) العذراء تحمل المسيح طفلا - فسيفساء شرقية كنيسة ثورشيلاو  
القرن الحادي عشر الميلادي.





شكل رقم (١٤٩) الملائكة المجنحون - فسيفساء قبة الكنيسة الأسقفية - رافينا القرن الخامس الميلادي.



شكل رقم (١٥٠) العذراء تحمل المسيح طفلا بين الملائكة - فسيفساء كنيسة القديس أبولينار الجديدة - رافينا - القرن السادس الميلادي.



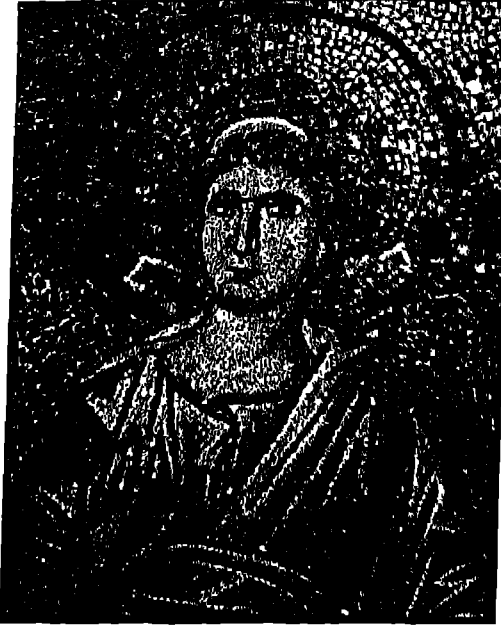


شكل رقم (١٥١) الملاك جبريل (كبير الملائكة) - فسيفساء قوس النصر - كنيسة أيا صوفيا -  
القسطنطينية - القرن التاسع الميلادي.





-٣٦٢-



شكل رقم (١٥٢) الملاك أرافانيل يحمل صولجاناً - فسيفساء كنيسة (فيتي كامبي)  
القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (١٥٣) النبي موسى يتسلم الوصايا العشر - فسيفساء دير القديسة كاترين  
سيناء - القرن السادس الميلادي.



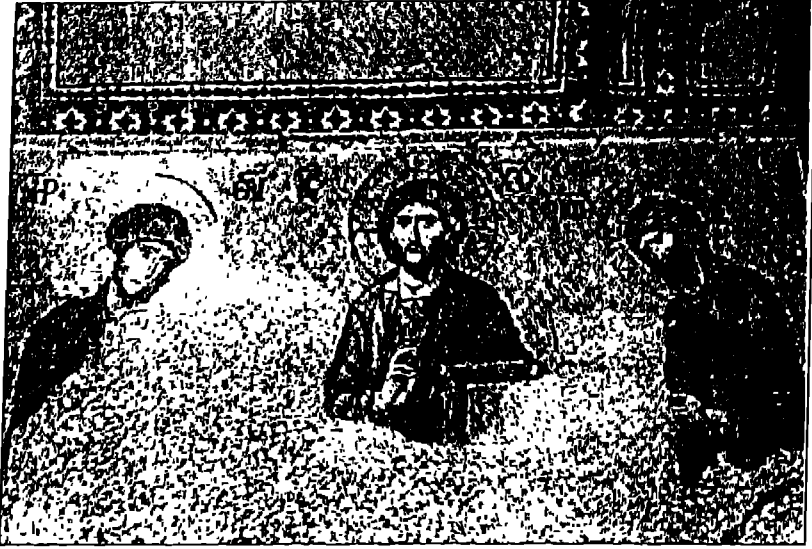


شكل رقم (١٥٤) القديس قيثال - (تفصيلية) فسيفساء شرقية الكنيسة - كنيسة القديس قيثال -  
راقينا - القرن السادس الميلادي .



شكل رقم (١٥٥) القديس جورج - فسيفساء إحدى الجدران الجانبية أسفل القبة - كنيسة  
المخلص - القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي .





شكل رقم (١٥٦) الضراعة - السيد المسيح بين القديس يوحنا والعذراء - فسيفساء القاعة الجنوبية - كنيسة آيا صوفيا - القسطنطينية - القرن الثاني عشر الميلادي.



شكل رقم (١٥٧) جندي روماني - فسيفساء كنيسة نيامون - خيوس - القرن الحادي عشر الميلادي.





شكل رقم (١٥٨) رجل مسن (يمثل نهر الأردن) - (تفصيلية) فسيفساء تعميد السيد المسيح - قبة المعمودية الأريانية - رافينا - القرن الخامس الميلادي .



شكل رقم (١٥٩) وفاة العذراء - فسيفساء كنيسة مار تورانا - باليرمو - القرن الثاني عشر الميلادي .





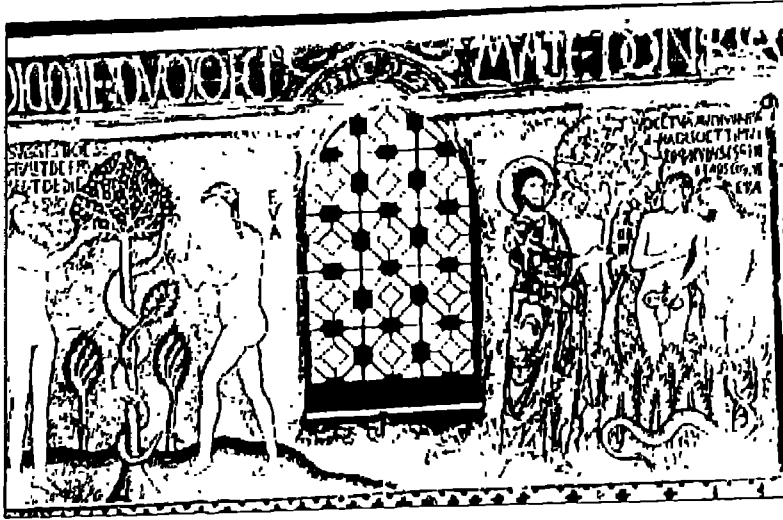


شكل رقم (١٦٠) السيد المسيح يحطم أبواب الجحيم - (تجسيد مدينة الأموات) - فسيفساء دير دافني - أتيكا - القرن الحادي عشر الميلادي .

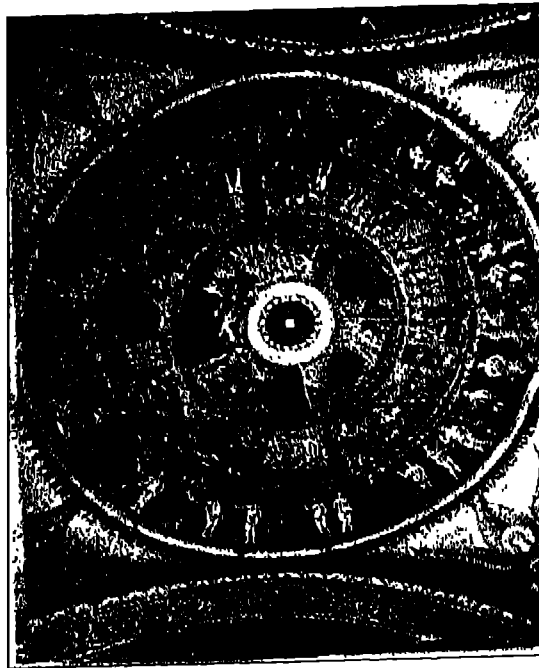


شكل رقم (١٦١) عبادة المجوس - فسيفساء دير دافني - أتيكا - القرن الحادي عشر الميلادي .





شكل رقم (١٦٢) موضوع الإغواء والطرود - فسيفساء كنيسة بلايتيا - باليرمو -  
القرن الثاني عشر الميلادي .



شكل رقم (١٦٣) موضوعات الخلق - فسيفساء قبة كنيسة القديس مرقس - فينيسيا  
القرن الحادي عشر الميلادي .



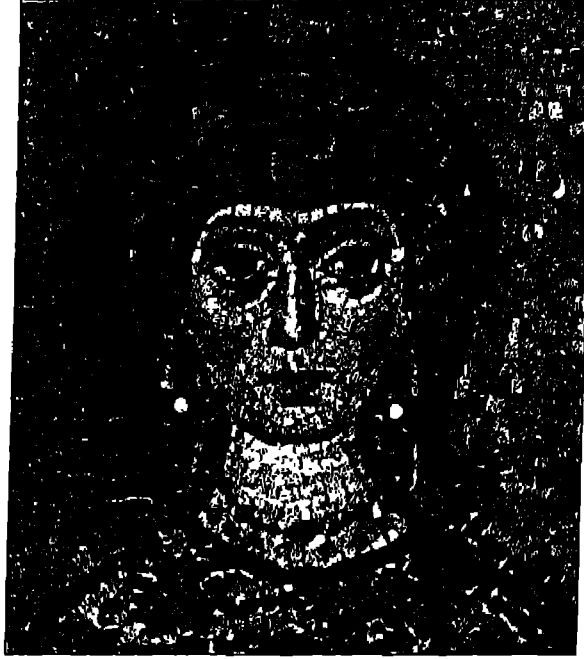


شكل رقم (١٦٤) مشهد من حياة السيد المسيح - فسيفساء كنيسة المخلص - القسطنطينية  
القرن الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (١٦٥) وجه أحد القادة الفوطيين - (تفصيلية) الإطار الخارجي - فسيفساء القصر  
العظيم المقدس - القسطنطينية - القرن السابع الميلادي.





شكل رقم (١٦٦) وجه السيدة جواتينا - (تفصيلية) فسيفساء الإمبراطورة تيودورا -  
كنيسة القديس فيتال - رافينا - القرن السادس الميلادي .

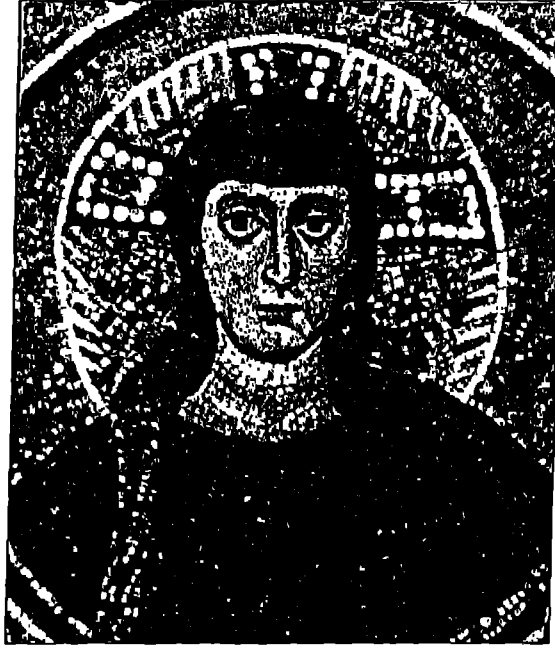


شكل رقم (١٦٧) صورة شخصية للإمبراطور إلكسيوس - فسيفساء الممر الجنوبي (الجناح  
الإمبراطوري) كنيسة آيا صوفيا - القسطنطينية - القرن الثاني عشر الميلادي .

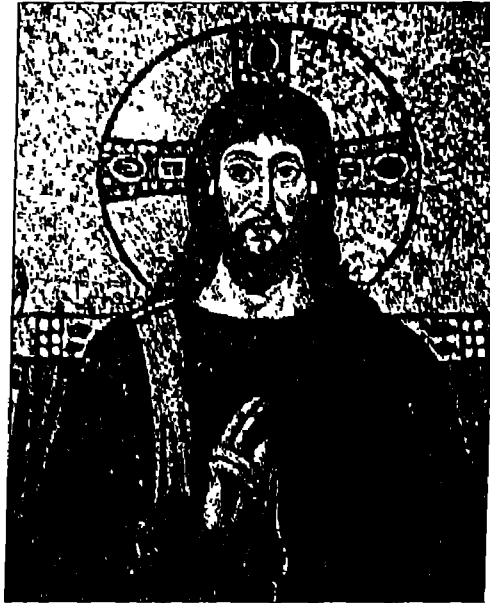




-٣٧١-



شكل رقم (١٦٨) صورة نصفية للسيد المسيح شابا داخل حلية جدارية - فسيفساء قمة القوس الشمالي الشرقي - الكنيسة الأسقفية - رافينا - القرن الخامس الميلادي.



شكل رقم (١٦٩) السيد المسيح ملتجيا - (تفصيلية) فسيفساء الجدار الجنوبي - كنيسة القديس أبولينار الجديدة - رافينا - القرن السادس الميلادي.





شكل رقم (١٧٠) صورة كاملة للنبي صمويل - فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة  
أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.



شكل رقم (١٧١) صورة نصفية للعدراء والطفل - فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة  
متحف بيانكي - اليونان. أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.



-٣٧٢-



شكل رقم (١٧٢) صورة نصفية للقديس نيكولاس - فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة  
أواخر القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (١٧٣) صورة نصفية للقديس جون كريستوم - فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة  
مجموعة دامبرانتوس أوكس - واشنطن - D.C - منتصف القرن الرابع عشر الميلادي.



-٣٧٤-



شكل رقم (١٧٤) الخول إلى القدس - فسيفساء دير دافني - أتيكا  
القرن الحادي عشر الميلادي .



شكل رقم (١٧٥) القديس أرون والقديس ستيفن - فسيفساء دير دافني - أتيكا  
القرن الحادي عشر الميلادي .







شكل رقم (١٧٦) صور نصفية داخل الميداليات - العذراء والقديس يوحنا - فسيفساء قبة هوزيوس لوكاس - بالقرب من دافني - أثينا - القرن الحادي عشر الميلادي .



شكل رقم (١٧٧) صورة نصفية داخل ميدالية - السيد المسيح - فسيفساء قبة كنيسة هوزيوس لوكاس بالقرب من دافني - أثينا - القرن الحادي عشر الميلادي .



-٣٧٦-



شكل رقم (١٧٨) السيد المسيح والعذراء والنبي إسحق - فسيفساء كنيسة المخلص القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي.

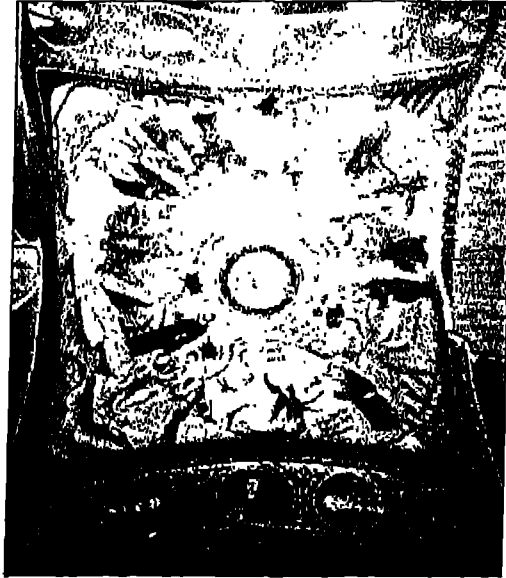


شكل رقم (١٧٩) الشهداء الأربعون - فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة - واشنطن القرن الرابع عشر الميلادي.





شكل رقم (١٨٠) غسل الأقدام - فسيفساء إحدى المحاريب الجانبية - كنيسة هوزيوس لوكاس  
بالقرب من دافني - أثينا •



شكل رقم (١٨١) مشاهد من حياة السيد المسيح - فسيفساء إحدى القباب الجانبية للصحن  
الخارجي - كنيسة المخلص - القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي •





شكل رقم (١٨٢) العذراء والطفل - (تفصيلية) فسيفساء الجناح الإمبراطوري الجنوبي  
كنيسة أيا صوفيا - القسطنطينية - القرن الثاني عشر الميلادي .



شكل رقم (١٨٣) العذراء والطفل - فسيفساء الجانب الجنوبي للمساحة الرئيسية (شرقية  
الكنيسة) كنيسة المخلص - القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي .







شكل رقم (١٨٤) ميلاد السيد المسيح - فسيفساء دير دافني - أتيكا - القرن الثاني عشر الميلادي .

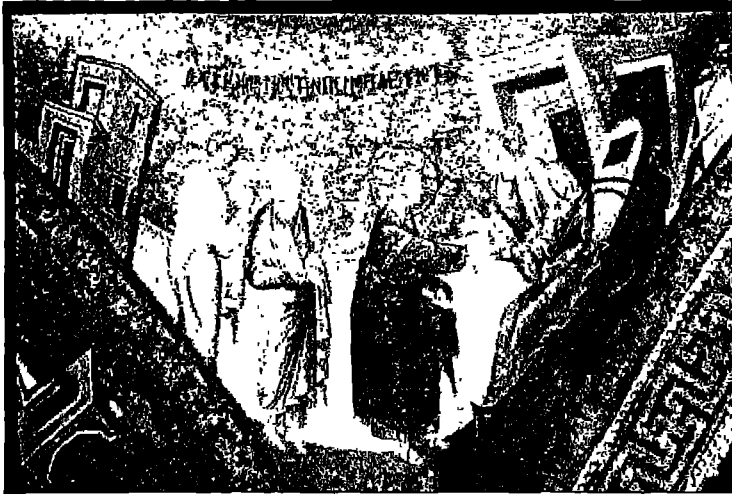


شكل رقم (١٨٥) تفصيلية من فسيفساء إسحق - كنيسة مونزيال - صقلية .





شكل رقم (١٨٦) رقصة سالومي - تفصيلية من فسيفساء كنيسة القديس مرقص - قنيسيا  
القرن الرابع عشر الميلادي.



شكل رقم (١٨٧) المسيح يشفي المرضى - فسيفساء الدلاية الشمالية الشرقية من القبة - كنيسة  
المخلص - القسطنطينية - القرن الرابع عشر الميلادي.





شكل رقم (١٨٨) وجه أدمي - (تفصيلية) فسيفساء القصر العظيم المقدس - القسطنطينية  
القرن السابع الميلادي.

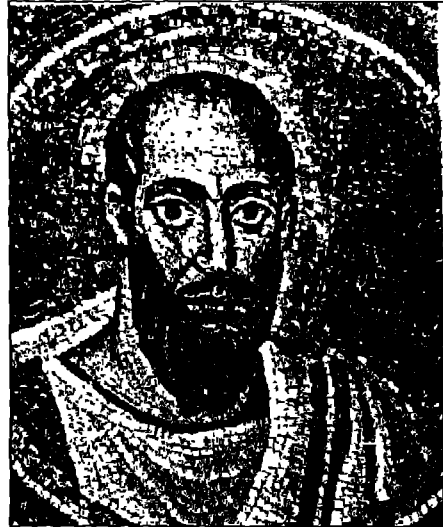


شكل رقم (١٨٩) وجه الحواري أندرو - فسيفساء الكنيسة الأسقفية - راقينا  
القرن الخامس الميلادي.





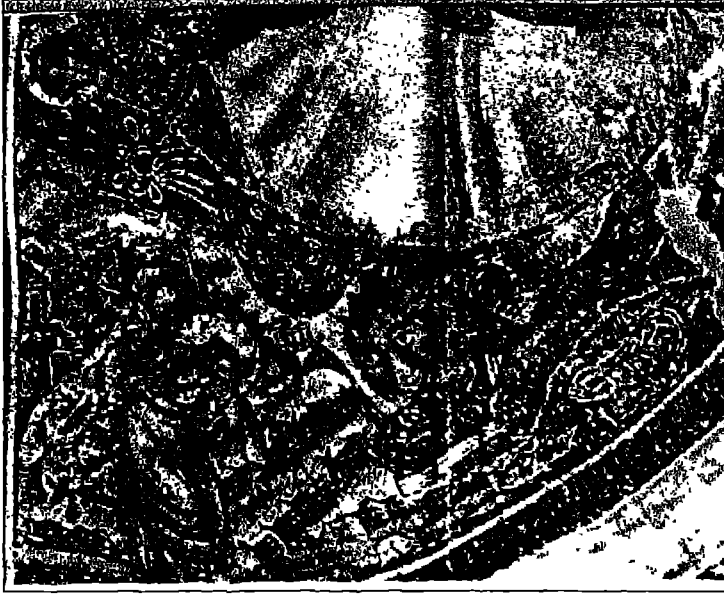
شكل رقم (١٩٠) صورة لوجه أحد القديسين - فسيفساء كنيسة القديس جورج - سالونيك  
القرن الثامن الميلادي.



شكل رقم (١٩١) صورة نصفية للحواري بولس داخل إحدى الجمامت المستديرة - فسيفساء  
الكنيسة الأسقفية - رافينا - القرن الخامس الميلادي.







شكل رقم (١٩٢) تفصيلية من فسيفساء السيد المسيح والإتجيليين الأربعة - كنيسة  
القدس ديقيد - سالونيك •



شكل رقم (١٩٣) زخارف الطيور على لوزنية فضية - (تفصيلية) فسيفساء إحدى المحاريب  
الجانبية المنحنية - كنيسة القديس جورج - سالونيك - القرن الثامن الميلادي •





شكل رقم (١٩٤) موضوع التجلي - فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة - أوائل القرن الثالث عشر الميلادي - متحف اللوفر .

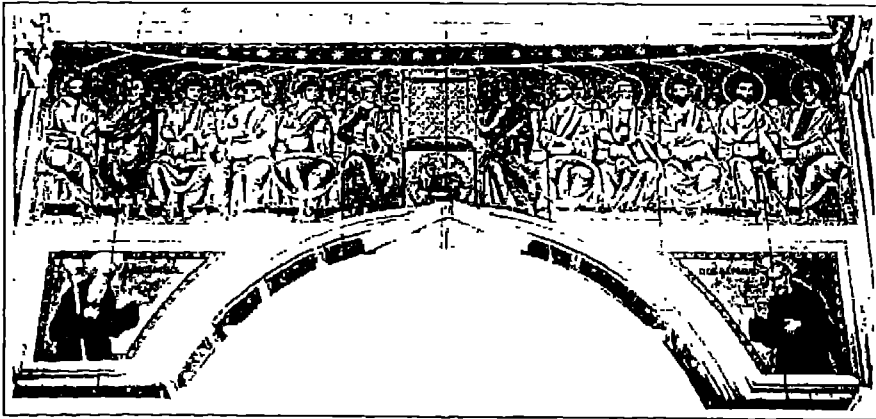


شكل رقم (١٩٥) صليب السيد المسيح - فسيفساء اللوحات الصغيرة المحمولة - صقلية القرن الثاني عشر الميلادي .





شكل رقم (١٩٦) فسيفساء صحن كنيسة القديس مرقس - فينيسيا  
القرن الحادي عشر الميلادي •

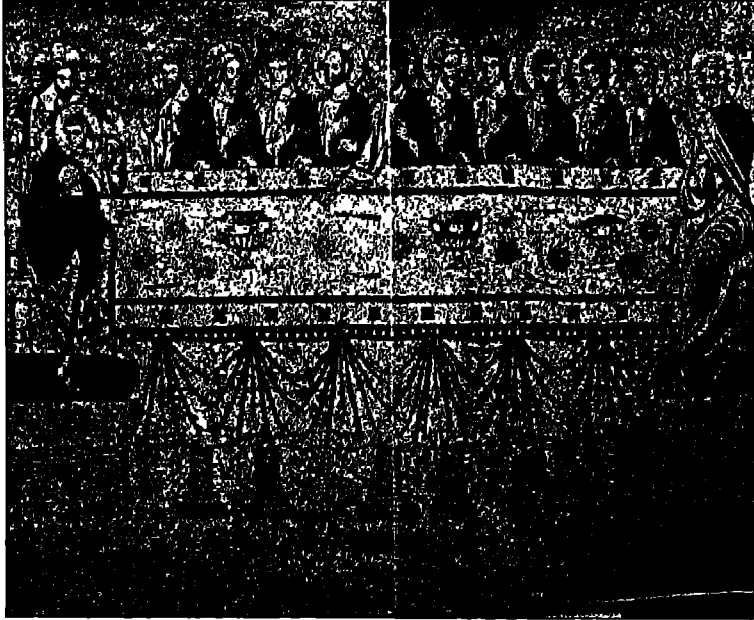


شكل رقم (١٩٧) الحواريون - فسيفساء قوس النصر - كنيسة جروتافيراتا - روما - القرن  
الثاني عشر الميلادي - تأثيرات بيزنطية •





شكل رقم (١٩٨) دخول السيد المسيح القدس - فسيفساء كنيسة القديس مرقص - قينيسيا - القرن الثالث عشر الميلادي - تأثيرات بيزنطية في إيطاليا .



شكل رقم (١٩٩) العشاء الأخير - فسيفساء كنيسة القديس مرقص - قينيسيا - أوائل القرن الثاني عشر الميلادي - تأثيرات بيزنطية في إيطاليا .

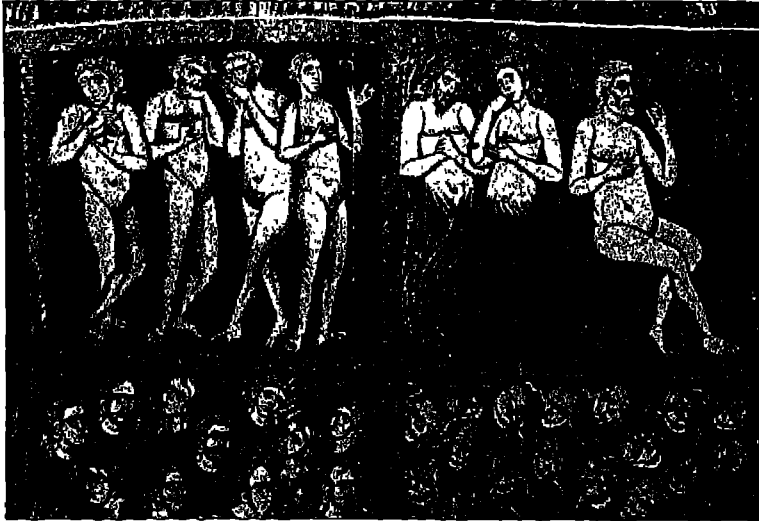




-٣٨٧-



شكل رقم (٢٠٠) الحساب الأخير - فسيفساء الجدار الغربي لكاتدرائية تورشيللو - القرن الثاني عشر الميلادي - تأثيرات بيزنطية في ايطاليا .



شكل رقم (٢٠٠-أ) الجحيم - (تفصيلية) من فسيفساء الحساب الأخير - كاتدرائية تورشيللو القرن الثاني عشر الميلادي .





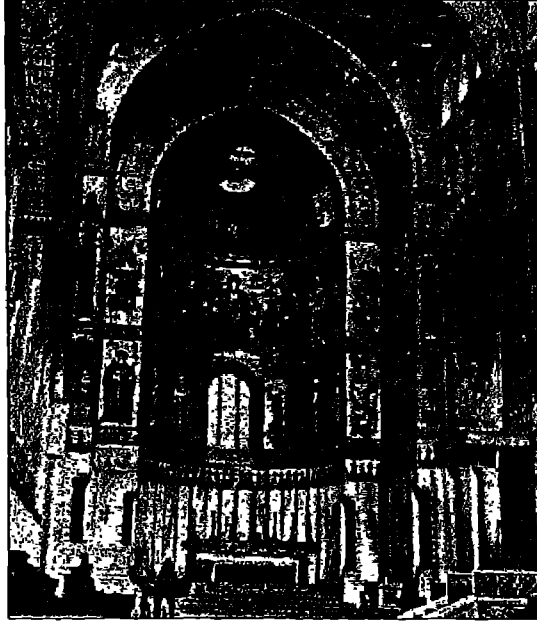
شكل رقم (٢٠١) العذراء تحمل القديس طفلا - فسيفساء الحنية الرئيسية - كاتدرائية تورشيللو القرن الحادي عشر الميلادي - تأثيرات بيزنطية .



شكل رقم (٢٠٢) السيد المسيح - فسيفساء حنية كنيسة سيفالو - صقلية - القرن الثاني عشر الميلادي - تأثيرات بيزنطية .



-٣٨٩-

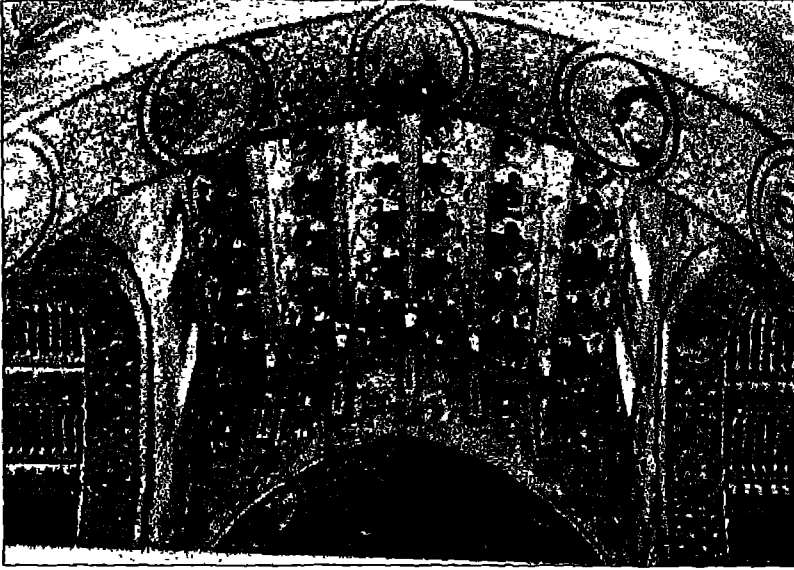


شكل رقم (٢٠٣) فسيفساء شرقية كاتدرائية مونريال - صقلية - أواخر القرن الثاني عشر  
الميلادي - تأثيرات بيزنطية .



شكل رقم (٢٠٣-أ) السيد المسيح - (تفصيلية) - فسيفساء حنية كاتدرائية مونريال .





شكل رقم (٢٠٤) وجوه القديسين داخل الجوامت المستديرة - تفصيلية - فسيفساء كاتدرائية  
مونريال - صقلية .



شكل رقم (٢٠٥) فسيفساء القبة والجدران الجانبية - كنيسة مارتورانا - باليرمو - القرن  
الثاني عشر الميلادي - تأثيرات بيزنطية .





-٣٩١-

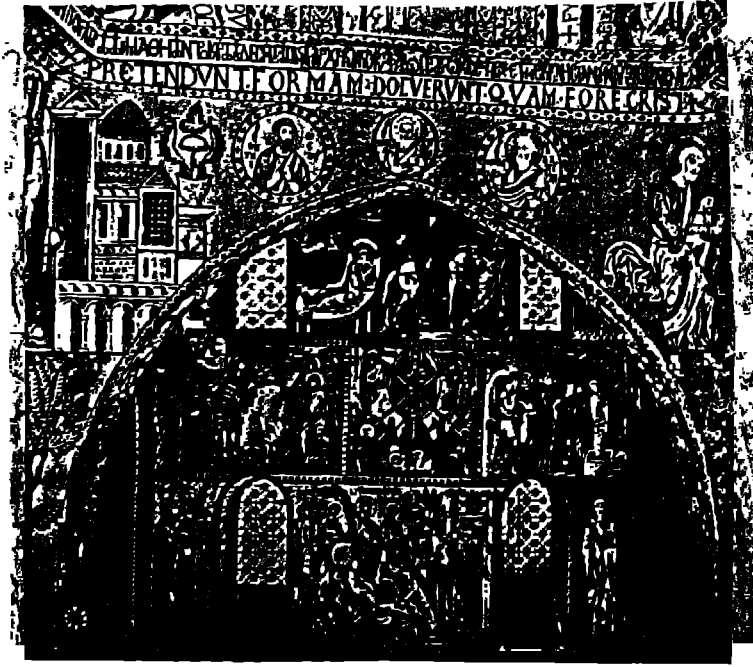


شكل رقم (٢٠٦) صورة نصفية للسيد المسيح - فسيفساء قبة كنيسة بلايتيا - باليرمو  
تأثيرات بيزنطية .

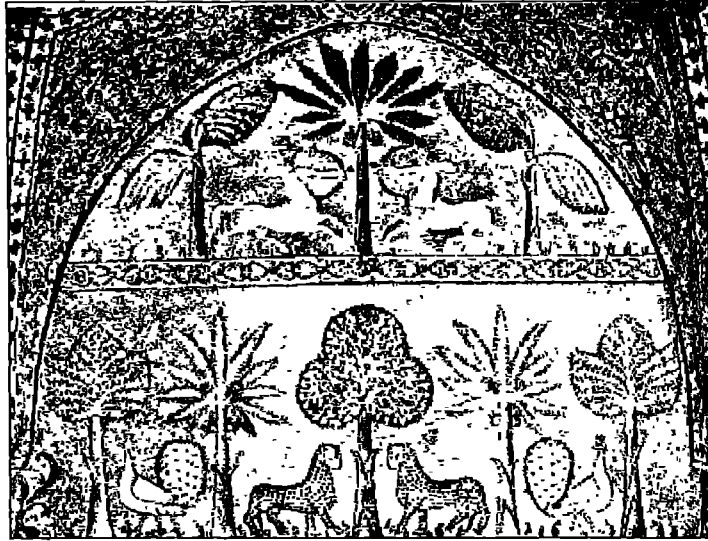


شكل رقم (٢٠٧) السيد المسيح يتوج الملك روجر الثاني - كنيسة مارتورانا - باليرمو  
القرن الثاني عشر الميلادي - تأثيرات بيزنطية .





شكل رقم (٢٠٨) موضوعات الإحتفالات الدينية - فسيفساء المساحة الرئيسية (أسفل القبة) كنيسة بلايتيا - باليرمو - تأثيرات بيزنطية .



شكل رقم (٢٠٩) زخارف نباتية وحيوانية - فسيفساء حجرة القصر الملكي - كنيسة بلايتيا - باليرمو - تأثيرات بيزنطية .





شكل رقم (٢١٠) زخارف هندسية ونباتية مجردة - فسيفساء قبة الصخرة (فسيفساء إسلامية)  
القرن السابع الميلادي - تأثيرات بيزنطية •

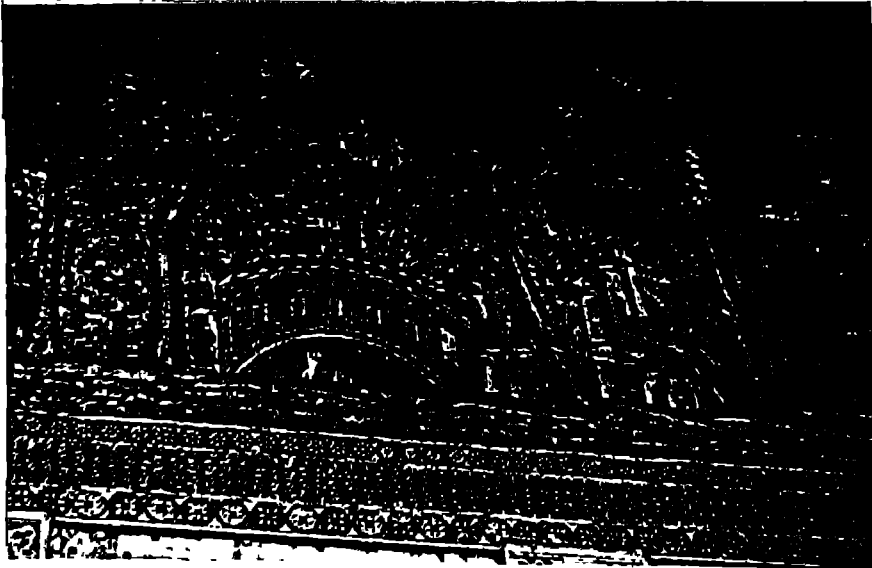


شكل رقم (٢١١) زخارف كتابية - فسيفساء قبة الصخرة - فسيفساء إسلامية - القرن السابع •





شكل رقم (٢١٢) زخارف نباتية - فسيفساء قبة الصخرة - فسيفساء إسلامية - القرن السابع الميلادي •



شكل رقم (٢١٣) أشكال العمائر والأشجار - فسيفساء الرواق الغربي - صحن الجامع الأموي دمشق - فسيفساء إسلامية - القرن الثامن الميلادي •







شكل رقم (٢١٤) منظر طبيعي - فسيفساء الرواق الغربي - الجامع الأموي .



شكل رقم (٢١٥) شجرة مثمرة على أرضية ذهبية - فسيفساء إحدى كوشات الأعمدة  
المسجد الأموي - دمشق - فسيفساء إسلامية - القرن الثامن الميلادي .





شكل رقم (٢١٦) فسيفساء جسم الخزانة - صحن الجامع الأموي - دمشق - فسيفساء إسلامية القرن الثامن الميلادي .



شكل رقم (٢١٧) شجرة تتوسط الحيوانات - أرضية من الفسيفساء - قصر هشام بخربة المفجر فسيفساء إسلامية - تأثيرات بيزنطية .



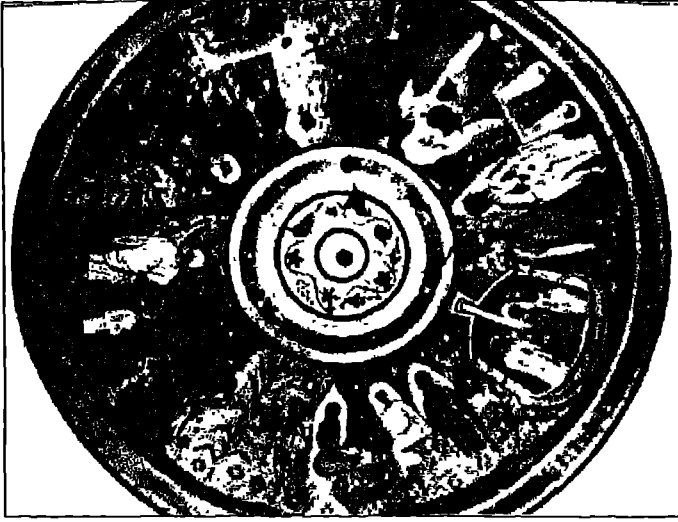


شكل رقم (٢١٨) موضوع التجلي - فسيفساء حنية الكنيسة - دير القديسة كاترين - سيناء  
القرن السادس الميلادي.



شكل رقم (٢١٩) العنراء في موضوع الميلاد - تصوير جداري - كاتدرائية فرس  
بلاد النوبة.





شكل رقم (٢٢٠) رسوم القبة - موضوعات دينية - كنيسة السلام - مقابر البجوات •



شكل رقم (٢٢١) السيد المسيح جالسا على العرش والعذراء تحمل السيد المسيح بين الحواريين  
تصوير جداري (فريسك) - حنية كنيسة باويط - القرن الخامس الميلادي •







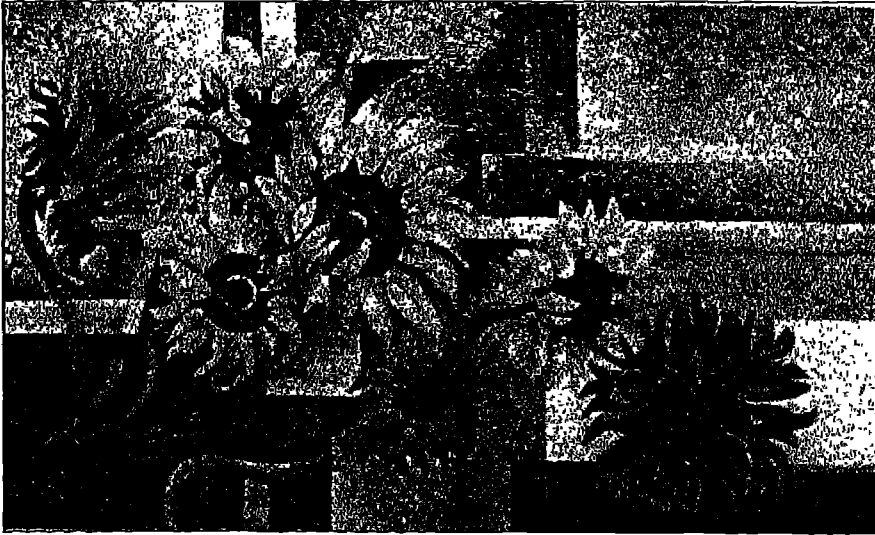
شكل رقم (٢٢٢) مجموعة من القديسين - رسم جداري - دير القديس أرميا - سقارة  
القرن السادس الميلادي •



-٤٠٠-



شكل رقم (٢٢٣-أ) تصميم لوحة "عياد الشمس" - ألوان الباستيل (الطباشيرية) -  
من أعمال الياخته - ١٩٩٨م - ٦٠×٣٠سم



شكل رقم (٢٢٣-ب) لوحة "عياد الشمس" - فسيفساء - من أعمال الياخته - ١٩٩٨م  
٦٠×١٢٠سم





شكل رقم (٢٢٤-أ) تصميم لوحة "أوراق الشجر" - ألوان الياسستيل (الشمعية) - من أعمال  
الباحثة - ٢٠٠٠م - ٢٠ × ٢٠سم



شكل رقم (٢٢٤-ب) تنفيذ لوحة "أوراق الشجر" - فسيفساء - من أعمال الباحثة - ٢٠٠١م  
٦٠ × ٦٠سم



-٤٠٢-



شكل رقم (L-٢٢٥) تصميم لوحة "قيود" - ألوان الباستيل (الطباشيرية) - من أعمال الباحثة  
- ١٩٩٩ م - ٢١x٢٩سم



شكل رقم (٢٥٥-ب) تنفيذ لوحة "قيود" - فسيفساء - من أعمال الباحثة - ٢٠٠٠م -  
٧٥x١١سم





-٤٠٣-



شكل رقم (أ-٢٢٦) تصميم لوحة "الربيع و الخريف" - ألوان الباستيل (الشمعية) - من أعمال  
الباحثة - ١٩٩٩م - ٤٠ × ٦٠ سم



شكل رقم (ب-٢٢٦) تنفيذ لوحة "الربيع و الخريف" - قسيفساء - من أعمال الباحثة -  
٢٠٠٠م - ٦٢ × ٧٦ سم



-٤٠٤-



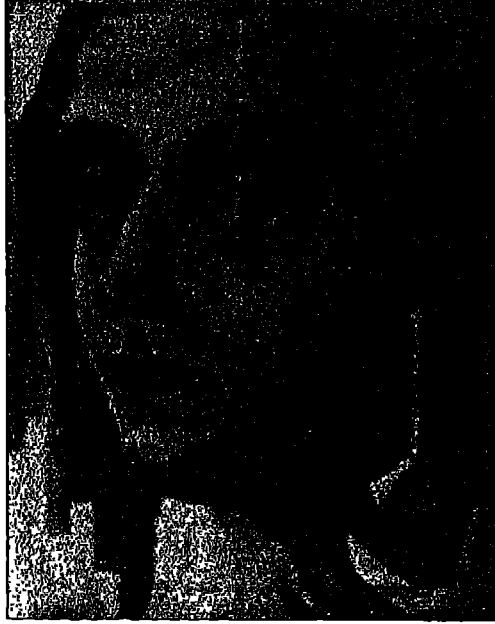
شكل رقم (٢٢٧-أ) تصميم لوحة "غروب" - ألوان الباستيل (الشمعية) - من أعمال الباحثة -  
١٩٩٩م - ٤٠×٣٠سم



شكل رقم (٢٢٧-ب) تنفيذ لوحة "غروب" - فسيفساء - من أعمال الباحثة - ٢٠٠٠م -  
٨٥×٦٠سم



-٤٠٥-



شكل رقم (٢٢٨-أ) تصميم لوحة "وجه من مصر" - ألوان الباستيل (الشمعية) - من أعمال  
الباحثة - ١٩٩٨م - ٢٠x٢٣,٥سم



شكل رقم (٢٢٨) لوحة "وجه من مصر" - فسيفساء - من أعمال الباحثة - ١٩٩٨م  
٦٠x٧٠سم





شكل رقم (٢٢٩-أ) تصميم لوحة "فتاة وزهور" - ألوان الباستيل (الشمعية) - من أعمال  
الباحثة - ٢٠٠٠م - ٢١x٢٨سم



شكل رقم (٢٢٩-ب) تنفيذ لوحة "فتاة وزهور" - فسيفساء - من أعمال الباحثة - ٢٠٠٠م  
٥٢x٦٠سم





-٤٠٧-



شكل رقم (٢٣٠-أ) صورة شخصية للباحثة - ألوان الباستيل (الشمعية) مع ألوان الأكريليك -  
من أعمال الباحثة - ٢٠٠٠م - ٨٠×٦٠سم



شكل رقم (٢٣٠-ب) تنفيذ الصورة الشخصية - فسيفساء - من أعمال الباحثة - ٢٠٠١م  
٨٠×٦٠سم



## ● نتائج البحث :

- ١ - إتضح من خلال الدراسة السابقة الأهمية البالغة والمكانة الرفيعة التي وصلت إليها الفسيفساء البيزنطية التي اشرت بشكل واضح على غيرها من الفنون لذلك يجب الاستفادة من تلك الخصائص الفنية المميزة لهذا الفن ، والإستعانة بها في الإرتقاء بعملية الإبداع الفنى والنهوض بها ، بوصف هذا الفن أحد الفنون المتفردة والذي لا يقل أهمية عن فنون الحضارات القديمة كالقن الفرعونى أو الإغريقى .
- ٢ - كما تبين من تلك الدراسة قلة المراجع العربية والكتب الفنية التي تختص بدراسة الخصائص الفنية لهذه الفترة الزمنية الهامة في تاريخ الفن ، لذلك يتبغى التركيز على دراسة الأنواع المختلفة من الفنون التي نشأت في تلك الفترة ، والإهتمام بشكل خاص بتوفير الدراسات العربية المتخصصة في التعريف بجماليات فن الفسيفساء البيزنطى ، وذلك على مستوى القارئ العادى والمتخصص ، وهذا الأخير يشمل الطلاب في المرحلة الجامعية ومرحلة الدراسات العليا ، وذلك عن طريق تدعيم المناهج الدراسية التي يتلقاها هؤلاء الطلاب في كليات الفنون المختلفة .
- ٣ - من خلال التجربة الفنية التي أجرتها الباحثة ، أمكتها التوصل إلى أن خامة الفسيفساء يمكن التعامل معها بوصفها إحدى الخامات التصويرية التي من خلالها يتم تنفيذ الأعمال الفنية المختلفة ، وليس مجرد خامات حجرية وصناعية صلبة يصعب الحصول منها على أية قيمة فنية تعبيرية ، ويقتصر تنفيذها على المساحات الجدارية الكبيرة المتصلة بالمباني والمنشآت المعمارية ، لذلك يجب تشجيع إقامة المعارض الفنية التي تتضمن لوحات الفسيفساء ذات المساحات الصغيرة والكبيرة ، والتي يمكن حملها ونقلها من مكان إلى آخر ، وتوفير فرص العرض لهذه اللوحات داخل المعارض الفنية العامة التي تهتم وزارة الثقافة بإقامتها، وتحرص على تنميتها.
- ٤ - الإستفادة من السمات الفنية والتقنية للفسيفساء البيزنطية في إخراج أعمال التصوير الجدارية المعاصرة ذات المساحات الكبيرة ، والتي يمكن تنفيذها داخل وخارج بعض المنشآت الدينية والسياحية ( على الجدران والأرضيات ) ، أملاً في إحياء الطابع الفنى لهذه الفسيفساء في قالب تشكيلي جديد يضاف على المكان قيمة فنية متميزة، وخاصة إذا إستخدم اللون الذهبى على نطاق واسع ؛ ومحاولة إستخدام بعض الخامات المختلفة الأنواع ، والمتجانسة في طبيعتها ، كالفسيفساء الخزفية والزجاجية والرخامية ، على سبيل المثال ، وذلك للحصول على تأثيرات سطحية متنوعة .









## قائمة المراجع

- قائمة المراجع باللغة العربية.
- قائمة المراجع باللغة الأجنبية.





● أولاً : مراجع باللغة العربية :

- ١ ( أبو الحمد محمود فرغلى : التصوير الإسلامى ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة .  
١٩٩١ . )
- ٢ ( أبو صالح الألفى : الفن الإسلامى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف القاهرة . ١٩٨٤ . )
- ٣ ( أحمد فخري : الصحراء المصرية، جبانة اليجوات الخارجة . ترجمة : عبد الرحمن  
عبد التواب ، هيئة الآثار المصرية ، ١٩٦٩ . )
- ٤ ( أشرف سيد محمد البحشوتجى : كنائس ملوى الأثرية (دراسة أثرية معمارية) . دار  
نهضة الشرق . جامعة القاهرة ، ١٩٩٦ . )
- ٥ ( ألفت يحيى حمودة : الطابع العمارى بين التأصيل والمعاصرة . الدار المصرية  
اللبنانية . القاهرة . ١٩٨٧ . )
- ٦ ( باهور لبيب : العصور المسيحية الأولى - محيط الفنون - الفنون التشكيلية . دار  
المعارف بمصر . ١٩٧٠ . )
- ٧ ( برنارد مايرز : الفنون التشكيلية وكيف تتذوقها ، ترجمة : سعد المتصورى . سعد  
القاضى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ . )
- ٨ ( توفيق أحمد عبد الجواد : تاريخ العمارة ، الجزء الثانى ، العصور المتوسطة  
والأوروبية والإسلامية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ . )
- ٩ ( ثروت عكاشة : تاريخ الفن - الفن البيزنطى ، الجزء الحادى عشر . دار سعد  
الصباح ، القاهرة . )
- ١٠ ( \_\_\_\_\_ : تاريخ الفن - الفن الرومانى ، المجلد الثانى (التصوير) ، الهيئة  
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣ . )
- ١١ ( \_\_\_\_\_ : تاريخ الفن - الفن الفارسى القديم ، الجزء الثامن ، دار المستقبل  
العربى ، القاهرة ، ١٩٨٩ . )
- ١٢ ( \_\_\_\_\_ : تاريخ الفن - الفن المصرى ، الجزء الثالث ، دار المعارف ، القاهرة ،  
١٩٧٦ . )
- ١٣ ( \_\_\_\_\_ : تاريخ الفن - الفن الإسلامى ، (مطبعة فيتيقيا ، بيروت ، لبنان  
طبع اللوحات) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٧ . )

- (١٤) داود عبده داود : الفن البيزنطي - محيط الفنون - الفنون التشكيلية . دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .
- (١٥) ركي محمد حسن : الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي . دار الكتب المصرية . القاهرة ، ١٩٤٠ .
- (١٦) ستيقن رسيان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد . الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
- (١٧) سعاد ماهر : الفن القبطي ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية . القاهرة . ١٩٧٧ .
- (١٨) عبد القادر الرياحي : العمارة في الحضارة الإسلامية . مركز النشر العلمي . جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، المملكة العربية السعودية . ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- (١٩) عفيف البيهسي : موسوعة تاريخ الفن والعمارة - الفنون القديمة . دار الرائد اللبناني . الحازمية . لبنان ، ١٩٨٢ .
- (٢٠) مصطفي عبد الله شبحه : دراسات في العمارة والفنون القبطية . هيئة الآثار المصرية . القاهرة . ١٩٨٨ .
- (٢١) ميشيل بيشرييلو : مادبا كنائس وفسيفساء ، ترجمة : ميشيل صباح . جورج سابا . أنطون عيسى ، مطبعة الآباء الفرنسيسكان ، القدس . ١٩٩٣ .
- (٢٢) نعمت إسماعيل علام : فنون الشرق الأوسط في الفترات ( الهيلينستية - المسيحية - الساسانية ) الطبعة الثانية المعدلة ، دار المعارف . القاهرة ، ١٩٨٠ .
- (٢٣) هنري رياض : الفن اليوناني حتي آخر العصر الهيلينستي ، محيط الفنون . الفنون التشكيلية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

## • ثانياً : الرسائل العلمية :

- (١) أحمد سليم : أثر استخدام التصوير الجداري فوق ملاط الطين في تجميل قرية كلابشة بالنوبة ، رسالة ماجستير ، كلية الفنون الجميلة ، جامعة حلوان ، ١٩٩٨ .
- (٢) نهاد عبد المنعم : فسيفساء عصر النهضة والإستفادة منها في التصميمات الجدارية لإحدى القرى السياحية ، رسالة ماجستير ، كلية الفنون الجميلة ، جامعة حلوان ، ١٩٩٦ .

● **References:**

- 1 ) Anthony Edgar Waterman, A History of Mosaics, Hacher Art Book, New York, 1935.
- 2 ) Bank Alice, Byzantine Art, Aurora Art Publishers, Leningrad, 1977-1985.
- 3 ) Bernard Berenson, Aesthetics and History, Doubleday & Company, Inc., Garden City, N.Y., 1954 .
- 4 ) Bertelli Carlo , General Editor, The Art of Mosaic, Jonas Nordhagen, Per, The Christian World, Byzantine Treasures, Bertelli Carlo, Portative Mosaics, Barralittler, Xavier, Mosaic Vaults and Floors in Islam and West, Cassell Publishers Limited, Great Britain, 1989 .
- 5 ) Bovini Guiseppe, Ravenna, Harry N. Abrams, Inc., Publishers, New York.
- 6 ) Charbonneaux Jean, Martin Roland, Villard François, Crèce Hellenistique, Gallimard, 1970.
- 7 ) Dalton, Byzantine Art and Archaeology, Clarendon Press, Oxford, 1911.
- 8 ) Daszewski W. A., Alexandria and Alexandrianism, The J. Paul Getty Museum Malibu, California, 1996 .
- 9 ) Demus Otto, Byzantine Art and the West, New York, University Press, New York, 1970 .
- 10 ) Demus Otto, Byzantine Mosaic Decoration, K. Paul, Trench, Trubner, London, 1941 .
- 11 ) Hamilton, J. Arnott, Byzantine Architecture and Decoration, B.T. Baisford, L.T.D., London, 1933.

- 12) Hetherington P.B., Mosaics, Paul Hamlyn, London, 1967.
- 13) Huyghe René , L'Art et L'homme I, Librairie Larousse, Paris, 1957.
- 14) Huyghe René ( General Editor ), Art and Mankind ( Larousse Encyclopedia of Byzantine and Medieval Art ), Promentheus Press, New York, 1963 .
- 15) Jenkins Louisa, Mills Barbara, The Art of Making Mosaics, D. Van Nostrand Company , INC., New Jersey, Toronto, London, New York, 1957 .
- 16) Lucie Edword, Art and Civilization, Lourence King, London, 1992.
- 17) Malraux , André, Salles . Georges, Parthes et Sassanides, Librairie Gallimard, France, 1962.
- 18) Mango Cyril, The Art of the Byzantine Empire, Prentice, Hall, INC., Englewood Cliffs, New Jersey, 1972.
- 19) Pollett J.J., Art in the Hellenistic Age, Cambridge University Press, New York, 1986 .
- 20) Rice David Talbot, Art of the Byzantine Era, Themes and Hudson, Ltd., London, 1963.
- 21) Rice David Talbot, Constantinople ( Byzantium - Istanbul), Paul Elek, Productions Limited, London, 1965.
- 22) Rice David Talbot, Jslamic Art, Thames and Hudson, London, 1965.
- 23) Rice Talbot, Byzantine Art, Penguin Book, Ltd., Harmondsworth, Meddlesex, Great Britain, 1935 .
- 24) Rodley Lyn, Byzantine Art and Architecture, Cambridge University Press, New York, 1994 .

- 25) Rudolf Arnheim, Art and Visual Perception, University of California Press, Berkeley, Los Angeles, London, 1984 .
- 26) Stierlin Henri, Orient Byzantine ( De Constantinople al Armenie et deSyrie en Edhiopie), Office du Livre S.A. Fribourg (Suisse), 1988 .
- 27) Weitzmann Kurt, Classical Heritage in Byzantine Near Eastern Art, Uarious Reprints, London, 1981.
- 28) Weitzmann Kurt, Studies in the Arts at Sinai, Princeton University Press, New Jersey, 1982.
- 29) Wentinck Charles, The Human Figure in Art from Prehistoric Times to the Present Day, Smeets Publisher, Amsterdam, 197-? .
- 30) Zucher Paul, Style in Painting, Dover Publications, Inc., New York, 1963 .





## ملخص البحث





## ملخص الرسالة

تتكون الرسالة من مقدمة وثلاثة أبواب :

### • الباب الأول :

وعنوانه : " الفنون المؤثرة في نشأة التصوير البيزنطي " وقد تم الإشارة فيه إلى الفنون السابقة للفن البيزنطي ، والتي شاركت في تكوينه الفني ، وهو يتألف من ثلاثة فصول :

### الفصل الأول : « الفن الساساني وعناصره الزخرفية »

وتبدأ الدراسة في هذا الفصل بلوحة تاريخية تشير إلى كيفية إقامة الدولة الساسانية وتأسيسها على يد الملك « اردشير الساساني » - في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي - الذي اراد ان يوقف زحف الإمبراطورية الرومانية على إيران وضمها لملكاتها ، وكانت الدولة الفرثية هي التي تحكم إيران في ذلك الوقت، فضلاً عن عدم استقرار الأحوال السياسية للبلاد ، وكثرة الفتن والمنازعات بين الأمراء ، مما دعى الملك « اردشير » إلى الثورة على « اربطبان الخامس ، حاكم الدولة الفرثية آنذاك ، والإنتصار عليه ، وبذلك تأسست الدولة الساسانية التي استمرت أربعة قرون .

وقد ساعد الموقع الجغرافي لإيران على نشأة الفن الساساني الذي يعد من اعظم مراحلها الفنية ، كما كان لحكام الدولة الساسانية دوراً كبيراً في ازدهار هذا الفن وتألقه ، وذلك من خلال إهتمامهم بالفن والفتن ، وتعتبر فترة حكم الملك « شاپور الأول » - ابن الملك « اردشير » الساساني اقصى فترات ومراحل الفن الساساني ازدهاراً ، وذلك في جميع مجالاته الفنية التي تنوعت بين النقوش الجصية التي غلبت على معظم الأعمال الفنية ، بجانب أعمال التصوير الجداري الذي قل استخدامه في تلك الفترة ، والفنون الصغيرة كالأخشاب والمعادن والمنسوجات والعاج ... إلخ .

وقد سادت في الفن الساساني نوعية معينة من الموضوعات التي تضمنت الأحداث التاريخية الهامة وتسجيل إنتصارات اللوك ، كما ظهرت أيضاً أعمالاً تصور رحلات الصيد ومشاهد مطاردة الحيوانات ، بالإضافة إلى مشاهد الإحتفالات التي كانت تقام داخل القصور الملكية ، وكانت هذه الأعمال جميعها تصور فوق النقوش الجصية .

وقد تمت الإشارة إلى بعض أعمال الفسيفساء المنفذة في أراضيات قصر بيشابور الأول ، والتي إحتوت أيضاً على تصوير بعض الشخصيات الأدمية الهامة ، وهى تحمل في داخلها تأثيرات رومانية ، ولم يكن لهذه الفسيفساء الساسانية تأثيرات واضحة في الفسيفساء البيزنطية إلا من خلال الأطر الخارجية المحددة لأعمال الفسيفساء ، ولكن التأثير الأكبر يرجع إلى العناصر الزخرفية والنباتية والحيوانية والكتابية - التى ظهرت على الأواني والأباريق والمنسوجات والنقوش الحجرية - والتي تميز الفن الساساني بوفرتها وتعددتها بالإضافة إلى اشكال الرؤوس الأدمية والتي كانت توضع في الأطر الخارجية بالإضافة للعناصر السابقة . حيث نجدها قد إنتقلت إلى الفسيفساء البيزنطية وتخللت جميع لوحات الفسيفساء المنفذة داخل الكنائس ، وكانت هذه العناصر الزخرفية الساسانية المصدر الرئيسى في تكوين فن الفسيفساء البيزنطى وصيغه بهذا الطابع الزخرفى المميز .

### الفصل الثانى : « الفن الهيلينستى ومحاكاة الطبيعة »

تتناول الباحثة في هذا الفصل دراسة فن آخر ينتمى إلى حقبة تاريخية هامة ، بدأت في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد ، واستمرت حتى بداية القرن الرابع الميلادى ، وهذه الفترة تعرف بالعصر الهيلينستى التى تمت فيها سيطرة الإسكندر على معظم الدول العربية في الشرق ، سيّ حرم على نشر الثقافة الهيلينية في هذه البلاد ، وقد نتج عن مزج هاتين الحضارتين المختلفتين الفن الهيلينستى .

وقد إنتسمت هذه الحقبة الفنية إلى مرحلتين : المرحلة الأولى هى التى إستمرت حتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، أى الفترة التى إستمرت فيها بلاد الشرق تابعة لحكم الإسكندر وأتباعه ، أما المرحلة الثانية التى بدأت مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد ، وهى التى تعرضت فيها هذه الممتلكات الشرقية لسيطرة الحكم الرومانى ، وقد تأثر الفن في هذه الدول بطبيعة الحال بهذه الظروف السياسية ، فنجد في الفترة الأولى يحمل تأثيرات هيلينية بحتة ، أما في الفترة الثانية فيلاحظ فيها غلبة التأثيرات الرومانية الغربية والتي إتضحت في كثير من الأعمال التصويرية .

وقد كانت هناك بعض العوامل التى أثرت في تكوين الفن الهيلينستى بشكل عام ، فبالإضافة إلى الدور الذى قامت به التأثيرات الشرقية في صيغ الفن الهيلينستى بالطابع الروحى ، فقد كان هناك خمسة إتجاهات أثرت تأثيراً خاصاً على جميع فروع الفن في تلك الفترة وهى :

- ١ - السعى إلى الثراء .
- ٢ - العقلية المسرحية .
- ٣ - العقلية الدراسية .
- ٤ - الفردية .
- ٥ - النظرة العامة الخالية من التعصب القومي .

وأهم أنواع الفنون خلال هذا العصر، والتي تم الإشارة إليها هي فن الفسيفساء ، وذلك لما تميزت به هذه الفسيفساء من الثراء والتنوع في موضوعاتها ومساحاتها التي ملأت العديد من القصور والدور والمنازل الفاخرة ، ونفذت في الأرضيات وعلى الجدران ، وقد إعتد الفنانون في ذلك على أنواع مختلفة من خامات الفسيفساء ، وقد شملت الدراسة أيضاً التعرف على الأنواع المتعددة للموضوعات المصورة في المباني السابقة والتي قسمت إلى خمسة أنواع وهي :

- ١ - الموضوعات الأسطورية .
- ٢ - الموضوعات المسرحية .
- ٣ - موضوعات الزخرفة العامة .
- ٤ - موضوعات التصوير الملكي .
- ٥ - المشاهد الطبيعية .

وتميزت موضوعات الفسيفساء الهيلينستية بالإلتزام بالواقعية ، ومحاكاة الطبيعة ، والتعبير عن الإنفعالات والحركات المختلفة .

كما إختصت الدراسة بإلقاء الضوء على أعمال الفسيفساء في أهم مراكز الفن الهيلينستى ، وهما مدينتى الأسكندرية وإتطاكية ، وقد إتخذت أعمال الفسيفساء في كل منهما طابعاً فريداً ، إرتبط بالظروف البيئية والفنية في كل مدينة .

وفي نهاية هذا الفصل تتعرض الباحثة بالتفصيل إلى شرح كل سمة من سمات الفسيفساء الهيلينستية ، مع ذكر أهميتها ومدى تأثير الفسيفساء البيزنطية والتي تجلت في إنتقال بعض الموضوعات والسمات القنية ، مثل إظهار الطابع الحركى إلى حد ما ، والإهتمام بالثراء اللوئى الذى أصبح فيما بعد من أهم السمات الفنية المميزة للفسيفساء البيزنطية ، إلى جانب إنتقال بعض أشكال الأطر الزخرفية الهيلينستية كما هي لتحديد لوحات الفسيفساء داخل الكنائس البيزنطية .

### الفصل الثالث :

#### « الفنون المسيحية المبكرة والموضوعات الدينية الرمزية »

ويختص هذا الفصل بدراسة الفن المسيحي المبكر ، وهو ثالث الفنون المؤثرة في نشأة الفن البيزنطى ، والذي يعد له أكبر الأثر في تكوينه وإرتباطه به إرتباطاً شديداً ،

.. ٤٤٢

وخاصة وأنه كان هناك عامل مشترك بين هذين الفنين ، والسبب الحقيقي في ظهورهما ، وهذا العامل هو الديانة المسيحية التي كان لها السيطرة التامة على الأعمال في كليهما .

وقد ظهرت الديانة المسيحية في النصف الأول من القرن الأول الميلادي في فلسطين ، أثناء الحكم الروماني ، وقد لاقت هجوماً عنيفاً منذ البداية ، ولم يعتنقها إلا القليل ، وتم ذلك سراً نتيجة للإضطهادات التي كانوا يتعرضون إليها من قبل الحكام الرومان اللذين تولوا الحكم في تلك الفترة ؛ ولم ينته تعذيب الرومان للمسيحيين إلى أن تم إعلان الديانة المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية البيزنطية الجديدة في القرن الرابع الميلادي .

ويعتبر القرنين الرابع والخامس الميلاديين الفترة التي ينتمى إليها الفن المسيحي المبكر ، الذي تأثر بتعاليم الدين المسيحي ، وإرتبط بأفكاره ومعتقداته ، كما كان يحمل في داخله بعض تأثيرات من الفن الهيلينيستي الروماني بالإضافة إلى تأثيره بالفنون الشرقية الخاصة بكل إقليم .

وكان نتيجة إرتباط هذا الفن المسيحي المبكر بالديانة المسيحية أن رفض الفنانون تصوير الكائنات الحية وإبتعدوا عنها تماماً بأمر الرهبان والقساوسة ، واكتفوا بالإعتماد على الزخارف النباتية والهندسية ، واكتفوا بالإشارة إلى الكائنات الحية أو التعبير عنها في صور رمزية مختلفة إرتبطت في أذهانهم برموز عقائدية معينة ، وبذلك أصبحت الرمزية أهم سمة تميز الفن المسيحي المبكر الذي إعتد على تصوير الأشخاص والحيوانات والنباتات بأسلوب مجرد يبتعد عن الطبيعة .

ونلاحظ من خلال الأمثلة الخاصة بأعمال الفسيفساء المسيحية والفسيفساء البيزنطية ، الإقتراب الشديد في نوعية الموضوعات ورمزيتها بالإضافة إلى ظهور نفس الشخصيات الدينية الهامة مثل السيد المسيح والعنراء والأنبياء والقديسين ورجال الدين ، والتي تبين من خلالها أن الفن البيزنطي يعد مرحلة متطورة من الفن المسيحي المبكر إلى حد كبير .

## ● الباب الثاني :

وعنوانه : " فسيفساء العصر البيزنطي " ويتعرض البحث في هذا الباب إلى دراسة أسباب إزدهار فن الفسيفساء البيزنطي وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

## الفصل الأول : تأثيرات البيئة المحلية فى تكوين الأعمال الفنية ،

وتبدأ الدراسة فى هذا الفصل بالإشارة إلى الفترة التاريخية الهامة فى الإمبراطورية البيزنطية التى كانت بدايتها الفعلية فى القرن الرابع الميلادى على يد مؤسسها الإمبراطور « قسطنطين » ، وسميت عاصمتها الجديدة القسطنطينية نسبة إليه ، والتى ظلت العاصمة الأساسية لها حتى سقطت فى القرن الخامس عشر الميلادى على أيدي الأتراك العثمانيين .

وهذا يعنى أن الإمبراطورية البيزنطية قد استمرت ما يقرب من إحدى عشر قرناً من الزمان تميزت خلالها بإتساع ممتلكاتها ، حيث ضمت العديد من الأقاليم الشرقية والغربية فى قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا .

ويتناول البحث بعض النقاط الرئيسية التى كانت من الأسباب الهامة التى أدت إلى إعتلاء القسطنطينية هذه المكانة الرفيعة بين دول العالم آنذاك ، مما ساعد فى كونها أهم مراكز الفن البيزنطى عبر هذه القرون الطويلة ؛ وأهم هذه الأسباب هو الموقع الجغرافى الذى تميزت به القسطنطينية بين دول العالم الآسيوى والأفريقى والأوروبى ، فقد إحتلت موقعاً متوسطاً جعلها نقطة إلتقاء العديد من هذه الدول ، وذلك عن طريق الإلتصال البحرى والبرى ، كما أنها أصبحت أيضاً وسيلة الإلتصال والتبادل التجارى فى الوقت الذى لم تظهر فيه أية مدينة أخرى تعادلها فى هذا الموقع الفريد .

وبالإضافة إلى سمة الموقع ، فقد كانت هناك مجموعة من العوامل التى إرتبطت بظروف البيئة المحلية ونشأتها فى الإمبراطورية ، والتى كان لها أكبر الأثر فى تكوين الملامح الفنية ، ويمكن ذكرها على النحو التالى :

١ - العوامل السياسية : وترتبط هذه العوامل بنظام الحكم السياسى داخل العاصمة وخارجها ، كما تشتمل أيضاً على الشؤون الحربية والعسكرية ، بالإضافة إلى الدور الذى يقوم به رجال الدين والإرادة الشعبية فى إستقرار الأحوال السياسية للبلاد ، مما ساعد على توفير البيئة الملائمة لنشأة الفنون المختلفة وإزدهارها .

٢ - العوامل الإجتماعية : وهى تختص بدراسة صفات المجتمع البيزنطى ومميزاته ومسأوله ، وذكر ما يتعلق بها من التقاليد الأسرية وعادات الزواج ، وإهتمامات الشعب البيزنطى بالعلوم والتعليم ، والإشارة إلى مدى إرتباط هذه العوامل بالفن البيزنطى وتأثره بها .

٢- العامل الدينى : وكان لهذا العامل دور هام فى ارساء دعائم هذا الفن الجديد ، فقد اثرت الديانة المسيحية تأثيراً كبيراً فى اسلوب الفن والفنانين ، وذلك من خلال فترة زمنية معينة فى بداية العصر البيزنطى عرفت بفترة تحطيم الصور والأعمال الفنية التى منعت تصوير بعض الأشكال والموضوعات ، وكان لها الدور الرئيسى فى إتخاذ الفن البيزنطى بشكل عام ، والفسيفساء البيزنطية بشكل خاص هذا الأسلوب المتفرد.

## الفصل الثانى :

### « العمارة الكنسية البيزنطية وعلاقتها بفن الفسيفساء »

تتحصر اهمية هذا الفصل فى أنه يلقى الضوء على نوع خاص من الفنون وهو العمارة التى ساهمت بدور فعال فى إثراء الفسيفساء البيزنطية وإزدهارها بهذه الصورة ، ومنذ بداية العصر البيزنطى كانت هناك بعض المباني والقاعات المخصصة للعبادة والاجتماعات الدينية ، ولم ترتق هذه العماائر البيزنطية وتظهر بصورتها النهائية المكتملة إلا فى القرن السادس الميلادى الذى شهد تشييد العديد من الكنائس فى الأقاليم المختلفة داخل الإمبراطورية .

وقد تأثرت العمارة ببعض العوامل التى إرتبطت بطبيعة كل إقليم المحلية الخاصة ، وقد تم ذكر هذه العوامل حسب أهميتها ، وهى كالاتى :

١- العامل الدينى : يعد هذا العامل من اقوى الدوافع التى كانت وراء بناء العديد من العماائر الكنسية الضخمة ، فقد كان ظهور هذا النوع الدينى من العماائر أحد النتائج المترتبة على سيادة العقيدة المسيحية وهيمنتها ، وبناء على اوامر الأباطرة والرهبان تم تشييد العديد من الكنائس التى تميزت بالعظمة والفخامة ، بما يتناسب مع قوة العقيدة المسيحية ومكانتها .

٢- العامل المناخى : يتدخل هذا العامل إلى حد كبير فى إختلاف الشكل الخارجى والداخلى للبناء الذى يتضمن فتحات النوافذ ومساحاتها وإرتفاعاتها ، كما يتحكم ايضاً فى إختيار بعض العناصر المعمارية مثل تقضيل بناء الأسطح المنحنية ، كالقبة التى كانت أنسب العناصر المعمارية التى تتلاءم مع الطبيعة المناخية للإقليم حيث انها تقلل من شدة الحرارة .

٣- العامل البيولوجى : وهذا العامل يتعلق بالمواد الطبيعية الأولية التى تستخرج من طبقات الأرض وتستخدم فى البناء كالحجارة والطين والزلط المستخدم فى

الخرسانية ، بالإضافة إلى طبيعة الأرض ذاتها من حيث خصوبتها وجديدها ،  
فالمناطق التي تتميز بترتبتها الخصبة القابلة للزراعة تساعد على إستقرار الزراع  
والصناع مما يساعد في النهوض بعملية البناء نفسها .

٤ - العامل التكنولوجي : يتلخص هذا العامل في الإعتماد على الأساليب التنفيذية  
الحديثة والمتطورة للحصول على أفضل العمائر وأرقاها ، وقد اثر هذا العامل على  
اشكال العمارة البيزنطية وطرق بنائها ، فمن خلاله يتم التوصل إلى بعض  
الأساليب الإنشائية في طريقة توسيع مساحات الكنائس الداخلية ( رأسياً وأفقياً ) ،  
وذلك عن طريق زيادة عدد القباب الرئيسية والثانوية المحمولة على المثلاث  
الكروية أو الحنيات الأفقية المستخدمة في التغطية .

وبالإضافة للعوامل السابقة ، فقد تنوعت اشكال العمائر وأحجامها حسب  
التصميمات الداخلية والتخطيطات المعمارية التي أدت إلى تغير الشكل الخارجى لها ،  
حيث إعتمدت عمارة الكنائس البيزنطية على أربعة أنواع مختلفة من الطرز التي تحمل  
في داخلها التأثيرات الشرقية والغربية ، ويمكن ذكر هذه الطرز على النحو الآتى :

■ أولاً : الطراز البازيليكى : وهو طراز روماني ، ويتكون عادة من قاعة مستطيلة تبدأ  
بالمدخل وتنتهى عند منطقة المذبح أو شرقية الكنيسة ، وتخللها صفان من  
الأممودة أو ثلاثة صفوف في بعض الأحيان ، ويطلق على هذا النوع إسم  
الكاتدرائيات ، وقد اختلفت الخامة المستخدمة في بناء سقوفها ، ففي الشرق  
إعتمد على الأسطح الحجرية في التغطية بدلاً من السقوف الخشبية التي  
إستخدمت في الغرب ، وأهم الكنائس التي بنيت على هذا الطراز هي كنيسة  
القديس ابو لينا الجديدة في رافينا .

■ ثانياً : الطراز المركزي المغطى بقبة : وأهم ما يميز هذا الطراز عنصر القبة الذي  
يغطي مركز المبنى ، وهو الذي يعتمد على نوعين من المساقط الأفقية : الأول  
يعتمد على المسقط الأفقى المستدير وترجع هذه المباني إلى الأصول الوثنية حيث  
كانت مخصصة كمقابر أو اضرحة أو تستخدم كمواقع للتعميد ، وأقدم هذه الأنواع  
كنيسة القديسة كوستانزا بروما ، وأوضح مثال لها في المعمار البيزنطى كنيسة  
القديس فيتال برفاينا ، والنوع الثانى يعتمد على التخطيط الأرضى المربع ،  
وهذا النوع من الطرز يحظى بأهمية كبيرة في المعمار البيزنطى حيث كان الأساس  
الذى قامت عليه التخطيطات المعمارية التالية ، ويتمثل هذا التخطيط في كنيسة  
القديس سرجيوس وياكوس في القسطنطينية .

■ ثالثاً ، الطراز الصليبي : تعتمد الكنائس المبنية وفق هذا الطراز على المستط الأفقى لأضلاع الصليب الأربعة ، والتي تتقاطع جميعها فى نقطة واحدة هى مركز الصحن فى الكنيسة ، وهذا المركز تعلوه القبة الأساسية ويعتبر هذا التخطيط طرازاً بيزنطياً خالصاً فهو أكثر الطرز ارتباطاً بالديانة المسيحية وتعبيراً عنها ، لإعتماده على شكل الصليب فى تصميماته الأصلية ، ومثال ذلك ضريح جالا بلاسيديا براهينا .

■ رابعاً ، الطراز المتعدد القباب : يجمع هذا الطراز بين التخطيط البازيليكى والطراز المقيب ، ويسمى بالكاتدرائيات المقبية لما يميزه من إستطالة صحن الكنيسة ، وكثرة عدد القباب التى تغطى المركز والأجنحة الجانبية كما فى كنيسة القديس يوحنا ، وأقدم هذه النماذج كنيسة القديسة إيرينى بالقسطنطينية .

ويظهر شكل آخر من هذا الطراز وهو الذى يعتمد على شكل الصليب الإغريقى المتساوى الأضلاع ، وهو مغطى بخمسة قباب حيث القبة الرئيسية تعلو نقطة تقاطع الأربعة أضلاع ( الأذرع ) ، والقباب الأخرى تغطى الأذرع نفسها وأوضح مثال على ذلك هو كنيسة القديس مرقص فى فينسيا .

كما تعرضت الباحثة إلى ذكر بعض الكنائس المشيدة خارج انحاء الإمبراطورية فى كل من روسيا وصقلية وفينسيا والتي تحمل الكثير من الأصول البيزنطية .

ويختتم هذا الفصل بعرض بعض العناصر المعمارية المختلفة التى تتكون منها الكنائس كأسطح المستوية والمنحنية وما إشتملت عليه من الجدران والقباب والقبوات والحنيات والأعمدة وما يعلوها من القناطر والدلايات ( المعلقات ) التى تحمل القبة ، والإشارة إلى مدى ارتباطها بأعمال الفسيفساء المنفذة فى كل جزئية على حده .

## الفصل الثالث :

### « الموضوعات التى تناولها فن الفسيفساء البيزنطى »

وفى بداية هذا الفصل يتم الحديث بشكل عام عن الفسيفساء البيزنطية فى مراحلها الأولى خلال القرن السادس والسابع والثامن الميلاديين ، وذلك تهيئاً للدخول فى موضوع الدراسة التى تبدأ من القرن التاسع الميلادى وتنتهى مع أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وهذه القرون السابقة لا يمكن تجاهلها أو إختزالها عند الحديث عن هذه الفسيفساء البيزنطية والنسب كانت سبباً فى نضوجها ووصولها إلى هذه المكانة الرفيعة .



وبالإضافة إلى القسطنطينية كان هناك مدينتى رافينا وسالونيك - أهم مراكز الفسيفساء البيزنطية - التى ظهرت فى كل من الكنائس المختلفة التى إحتوت على موضوعات الفسيفساء المتنوعة ، والتى وجدت لها إمتدادات فنية إستمرت حتى القرون الأخيرة من العصر البيزنطى .

وقبل التعرف على الموضوعات التى تناولها فن الفسيفساء البيزنطى تناولت الدراسة تأثير حركة تحطيم الصور التى بدأت فى النصف الأول من القرن الثامن واستمرت حتى منتصف القرن التاسع الميلادى ، والتى تسببت فى ظهور بعض العناصر الهندسية والنباتية التى غلبت عليها المعالجة التشكيلية المجردة ، بالإضافة إلى أشكال الصليب التى نفذت على مساحات واسعة حرص فيها الفنانون على خلوها من أية عناصر أخرى . كما كانت هذه الحركة سبباً فى تقسيم الموضوعات الفنية المنفذة بالفسيفساء إلى نوعين :

النوع الأول : وهو الموضوعات الدنيوية والتى إقتصرت وظيفتها ووجودها على تجميل وتزيين أرضيات القصور والنازل الفاخرة التى تخص الأباطرة والملوك والأمراء ، كما إقتصرت أيضاً هذه الأعمال على تسجيل مشاهد الحياة اليومية ورحلات الصيد ، وتصوير الكائنات الحية الأدمية والحيوانية التى تميزت فى معالجتها بالأسلوب الواقعى الكلاسيكى ، والذي يتمثل فى رسم الشكل الطبيعى للإنسان والحيوان وتحقيق عنصر الثراء اللونى .

وأهم التماذج التى تعبر عن هذه الموضوعات هو فسيفساء القصر العظيم المقدس بالقسطنطينية ، وقد ظهر من هذه الأعمال الدنيوية بعض الفسيفساء المنفذة داخل الكنائس ، وعرفت هذه الأعمال بموضوعات التصوير الإمبراطورية ، والتى إختصت بتصوير أحد الملوك أو الأباطرة بصحبة السيد المسيح أو العذراء أو بصحبة الإثنين معاً ، وذلك فى العديد من الكنائس التى إستمرت حتى نهاية عصر الفسيفساء البيزنطية .

والنوع الثانى : الموضوعات الدينية : وهى الموضوعات التى إهتمت بتصوير قصص الكتاب المقدس وإعتمد الفنانون على إتباع الأسلوب القصصى الروالى فى سرد الأحداث الدينية ، وتميزت هذه الموضوعات بظهور الشخصيات الدينية المقدسة كالسيد المسيح ، والعذراء والأنبياء ، والقديسين ، ورجال الدين . وقد كان لهذه الموضوعات الإنتشار الأوسع فى فن الفسيفساء البيزنطى ، وإليها ينسب إزدهاره وتآلقه.

وبالإضافة إلى هذه المساحات الهائلة فى الكنائس ، كانت هناك اللوحات الصغيرة المحمولة التى ظهرت فى القرن الثانى عشر الميلادى - والتى تحمل نفس النوعية الدينية لهذه الموضوعات ، فقد كانت تعلق داخل الكنائس فى منطقة المذبح ، واعتمدت غالبية هذه اللوحات على تصوير الشخصية الواحدة والهامة ايضاً مثل السيد المسيح - والذي كان يظهر فى بعض الحالات بصحبة العذراء - أو احد القديسين البارزين والذين قاموا بدور كبير فى نشر العقيدة ، كما ظهرت بعض صور للإحتفالات الدينية داخل هذه اللوحات مثل موضوع صلب السيد المسيح .

### ● الباب الثالث :

وعنوانه : " القيم الجمالية لفن الفسيفساء البيزنطى " ، ويتضمن

هذا الباب خمسة فصول :

### الفصل الأول :

التقنيات المختلفة للإستعمال الفنى لخامة الفسيفساء البيزنطية ،

تبدأ هذه الجزئية من الدراسة بتعريف خامة الفسيفساء وما تتميز به من صلابة ومثانة وبما تضيفه على اللوحات من تأثيرات سطحية لامعة ومتفردة ، فضلاً عن الأسلوب الخاص الذى أوجده هذه الخامة ، والذي أكسبها الطابع المجرى الذى تحدثه هذه الكميات نتيجة لتجاور بعضها البعض وذلك حسب إختلاف أنواعها سواء كانت احجاراً طبيعية كالرخام ، او صناعية كالفسيفساء الخزفية والزجاجية ، وقد تم الإشارة إلى طريقة التصنيع الخاصة بهما للحصول على الألوان المختلفة ، وهذا النوع الأخير - الفسيفساء الصناعية - إعتد عليه بصورة أكبر خلال العصر البيزنطى ، فقد أتاح توافر العديد من الدرجات اللونية التى ساعدت فى إثراء هذه الفسيفساء وتميزها ، وقد حاول الفنانون التوفيق بين نوعية هذه الخامات وإمكان تنفيذها ، فقد إستخدم الرخام والفسيفساء الحجرية فى الأرضيات أو الأسطح التى تتحمل التآكل والإحتكاك الشديد ، أما الفسيفساء الزجاجية والأحجار الطبيعية فكان يفضل تثبيتها فوق الجدران العلوية والقباب وفى اللوحات الصغيرة ، وبالرغم من هذا الفصل بين طبيعة الخامات وإستخداماتها إلا أنه كانت هناك اللوحات التى جمعت فى تنفيذها بين هذه الأنواع المختلفة ، حرصاً من الفنانين على الوصول بأعمال الفسيفساء إلى أقصى درجات الجمال الفنى التى تثرى لوحاتهم وتخدم أغراضهم المقدسة ، وتأتى بعد ذلك الإشارة إلى كيفية إعداد لوحات الفسيفساء وتجهيز الأرضيات - الأسطح المعمارية - المراد التنفيذ فوقها .

وقد إتبع البيزنطيون فى عملية التفتيت طريقتين هما :

١ - الطريقة المباشرة : وهى التى يتم فيها وضع قطع الفسيفساء باليد مباشرة فوق طبقة الملاط الطازجة .

٢ - الطريقة الغير مباشرة : وهى تتلخص فى تجهيز العمل بأكمله على مساحة ورقية تتساوى فى حجمها مع مساحة الجدار ، ويتم لصق قطع الفسيفساء بواسطة مساحة كبيرة من الورق ثم يتم تثبيتها على الملاط ، وبعد جفافها تماماً يتم نزع الورق الملصق على سطح الفسيفساء اللامعة بواسطة الماء الدافئ ، وذلك بالنسبة للأسطح المعمارية .

اما اللوحات الصغيرة فقد كان يتم تنفيذها على لوحات خشبية صغيرة ويتم رسم التصميم فوق السطح الخشبي ويستخدم فى عملية اللصق فى هذه الحالة ، خليط الراتنج والشمع الذى يغطى سطح اللوحة ثم يثبت عليها قطع الفسيفساء بعد ذلك .

ويتناول هذا الفصل فى نهايته دراسة الأحجام المختلفة لمكعبات الفسيفساء ، والتى تطورت بتطور الفن خلال العصر البيزنطى ، إلى أن وصلت لوحة الفسيفساء فى أواخر هذا العصر إلى درجة عالية من التنفيذ أصبح من الصعب التفريق بينها وبين اللوحات المنفذة بالخامات التصويرية الأخرى ، بالإضافة إلى إتبع أسلوب المعالجة التقنية ، والذى يلاحظ من خلال إتجاه وضع المكعبات وترتيبها ، أو من خلال تقاريفها وتباعدتها ، فضلاً عن الإعتماد على الطريقة المباشرة التى كانت سبباً فى إتخاذ مكعبات الفسيفساء أوضاعاً مائلة فى التثبيت وخاصة فى المساحات المنفذة باللون الذهبى أو الفضى فتضى على الفسيفساء بريقاً يزيد العمل قدسية وسحراً متميزين .

## الفصل الثانى :

«تناول العنصر الأدمى والصور الشخصية فى فسيفساء العصر البيزنطى»

ويتنقسم الدراسة فى هذا الفصل إلى شقين : الشق الأول : وتعرض فيه الدراسة لأهم العناصر التشكيلية فى هذه الفسيفساء والتى قامت بدور هام فى تميزها ، وهو العنصر الأدمى حيث كان الأساس الذى قامت عليه غالبية الموضوعات الدنيوية والدينية ، وإختلاف أسلوب تناوله من نوع إلى آخر وذلك طبقاً لتأثيرات الفنون المحيطة به ، فالموضوعات الدنيوية إعتمدت على الأسلوب الواقعى والكلاسيكى فى تصوير جسم الإنسان ، وإعتمد فى ذلك على الأصول الهيلينستية الرومانية ، أما الموضوعات

الدينية فقد إتخذ فيها هذا العنصر الطابع المجرد الذى إبتعد عن الشكل الطبيعى للجسم البشرى ، وغلب عليه التسطیح بما يتوافق مع أفكار العقيدة المسيحية التى كرهت تصويره تماماً .

وفى ختام الحديث عن العنصر الأدمى تمت الإشارة إلى نقطة هامة ، وهى تصوير الجسد العارى فى هذه الفسيفساء لأنها بذلك تتعارض بشدة مع قدسية العقيدة الدينية وتشدها ، لذا فقد تناولت الباحثة أسباب ظهور الجسد العارى فى الفسيفساء البيزنطية ، وفى أى الأقاليم الشرقية أم الغربية ، وذكر مدى تأثير كل من الفنون الشرقية والغربية فى أسلوب تصويره ، مع عرض لبعض هذه النماذج فى فسيفساء الكنائس المختلفة خلال العصر البيزنطى .

أما الشق الثانى فقد تناول الصور الشخصية وأهميتها فى فن الفسيفساء خصوصاً وأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعنصر الأدمى وتشارك معه فى الأهمية ، وقد تنوعت هذه الصور الشخصية بين الصور القردية والثنائية والجماعية ، وتبعاً لوجود نوعين فقط من الموضوعات الدينية والدنيوية ، فقد ظهرت الصور الشخصية الدينية والدنيوية أيضاً ، وإذا كانت الصور الشخصية الدنيوية تهتم بنقل الملامح الطبيعية لأصحابها كما فى لوحات الإمبراطور « جستنيان » والإمبراطورة « تيودورا » إلى جانب صور الأباطرة فى اللوحات المستقلة أو داخل موضوعات التصوير الإمبراطورية ، إلا أن الصور الدينية كان الهدف الأساسى منها هو تقديس هذه الشخصيات وإعلاء مكانتها ، وقد ظهرت أشكال مختلفة لهذه الصور ، فقد كانت هناك الصور التصفية والصور الكاملة التى تظهر فيها الشخصية بطولها الكامل .

وبخلاف هذه اللوحات الصغيرة المحمولة التى تم تعليقها فى منطقة المذبح - فقد تم توزيع صور الشخصيات والوجوه الأدمية فى مواقع معينة خصصت لها داخل الكنائس ، فكانت صور الأشخاص الجالسين يفضل تصويرها فى المناطق المنحنية مثل الحنيات والدلايات ، أما الشخصيات الواقفة فيفضل تصويرها على الجدران الرأسية أو الأفقية البرميلية حتى يظهرون فى الوضع الطبيعى لهم حيث الرأس إلى أعلى والقدم لأسفل حتى تتوافق مع فراغ الكنيسة .

أما الصور التصفية فقد كان يفضل وضعها داخل إطار يحيط بها من كل ناحية ، حتى يتم قطع الجنوع السفلية للأشخاص وينطبق الحال على الميداليات الدائرية التى تظهر بها الرأس والأكتاف فقط .

## الفصل الثالث :

### « الحركة واللون في تكوينات الفسيفساء البيزنطية »

تبدأ الدراسة في هذا الفصل بعرض الأساليب الفنية المختلفة التي ظهرت في أعمال الفسيفساء البيزنطية من حيث كونها أعمالاً فنية تصويرية يتوافر فيها بعض العناصر التشكيلية والقيم الجمالية .

وقد تعددت هذه الأساليب خلال هذه الفترة البيزنطية فجمعت بين الأسلوب الكلاسيكي والأسلوب التحفظي المجرد والأسلوب التعبيري .

وحيث أن السيادة كانت للأسلوب التحفظي المجرد إلا أن الكلاسيكية كانت من الإتجاهات التي ظلت قائمة خلال هذه الفترة الفنية ، وساعدت في استمراره بالرغم من إختفائها في بعض الأحيان وعودتها مرة أخرى في فترة الإحياء الفني خلال القرن التاسع الميلادي ، كما تم الإشارة إلى بعض التأثيرات الخارجية والتي كان لها دوراً واضحاً في تفسير هذه الإتجاهات مثل التأثيرات الوثنية ثم التأثيرات الهيلينستية وأخيراً التأثيرات الغربية والتي برزت في ظهور الأسلوب التعبيري وخاصة في نهاية العصر البيزنطي .

ثم ينتقل البحث إلى وصف التكوينات البيزنطية بشكل عام ، وما تتسم به من صفات خاصة حيث المساحات الجدارية الشاسعة التي تفرض على الفنانين ملئها بمجموعات من الأشخاص والعناصر المحيطة .

كما إعتد الفنانون البيزنطيون أيضاً على إتباع مجموعة من أسس التصميم المختلفة مثل تحقيق التوازن بين توزيع الكتل ( العناصر الأدمية والحيوانية والمعمارية ) ، والفراغ الناتج عنها ، وتحقيق تكامل العمل الفني من خلال ترابط هذه العناصر فيما بينها .

وقد تميزت الفسيفساء البيزنطية بنوع خاص من الحركة ( المحسوسة ) أو المدركة - الغير مباشرة - التي يتحكم فيها الفنانون من خلال البناء العام للكيسة الذي ينتج عنه نوع من الحركة الإيقاعية في الكاتدرائيات ، أو الحركة الدائرية في القباب المركزية ، فضلاً عن الأجزاء المعمارية الداخلية التي تتضمن الأسطح المنحنية كالقوالب أو المحاريب .

- ٤٠ -

وقد تطور المفهوم الحركي لهذه العناصر الأدمية طوال هذه الفترة الفنية فمنذ البداية إقتصرت الحركة فيها على الإيماءات البسيطة ومد الأيدي وتطاير الملابس ، وذلك هدفاً لسد الفجوات الفراغية داخل التكوينات بشكل عام ، ولكن مع تضوج فن الفسيفساء وظهور الموضوعات الدينية أصبح لحركة الشخص داخل اللوحة دوراً كبيراً في التعبير عن بعض المعانى والأفكار الدينية .

كما ساعدت عودة التأثيرات الهيلينستية ، في زيادة الإيقاع الحركي في هذه التكوينات بشكل ملحوظ ، وخاصة في أعمال كنيسة كورا Chora في العاصمة ، بالإضافة إلى بعض الأمثلة للفسيفساء في التناثس خارج الإمبراطورية في كل من صقلية وبنيسيا .

وتأتى بعد ذلك أهمية العنصر اللوني في تكوينات الفسيفساء فبالإضافة إلى أنه يوضح الحركة ويدعمها فقد كان له أكبر الأثر في إزدهار الفسيفساء البيزنطية التي تميزت بالطابع الزخرفي والثراء اللوني الملحوظ ، حيث إعتد الفنانون على العديد من الدرجات اللونية الساخنة والباردة والتي إتسمت بزهاؤها وقوتها .

وقد لجأ الفنانون البيزنطيون إلى الإعتماد على إتباع نظام لوني داخل الكنائس يتبع التكوين الهرمي للموضوعات ، فكانت المساحات السفلية للجدران تحتوى على الدرجات الداكنة ثم تتدرج إلى أعلى حتى تصل إلى أقصى الدرجات الفاتحة لتصوير الملائكة بجوار السيد المسيح في القبة ، وكان للأساليب الكلاسيكية الدور الكبير في زيادة الثراء اللوني للفسيفساء البيزنطية إلى جانب تأثير التصوير بالفريسك في ذلك الوقت الذي كان سبباً في تكوين العديد من الدرجات اللونية المشتقة من الألوان الأساسية .

وكانت سيطرة اللون الواحد من أهم السمات المميزة لهذه الفسيفساء ، وقد تبين ذلك من خلال إستخدام اللونين الأزرق والذهبي حيث إرتبط كل منهما إرتباطاً كبيراً بالعقيدة المسيحية ، وكانا أنسب الألوان للتعبير عن سمو العقيدة وروحانياتها .

ويختتم هذا الجزء بإلقاء الضوء على أهم الألوان التي طغت على هذه الفسيفساء وهي الألوان الذهبية والفضية ، والتي كان لها دوراً بارزاً في تحقيق الأثر اللامع البراق لأعمال الفسيفساء ، واهتمت الباحثة بدراسة تطور إستخدامات اللون الذهبي منذ البداية ، حيث كان يتخلل بعض العناصر الزخرفية والنباتية والكتابية إلى أن سيطر سيطرة تامة على خلفيات اللوحات وغطى مساحات شاسعة داخل الكنائس .

## الفصل الرابع ،

« إنتشار الفن البيزنطى وإمتداده فى الفنون الأخرى ،

كان من الطبيعى ان يترك الفن البيزنطى - الذى إستمر قروناً طويلة داخل إمبراطورية مترامية الأطراف ، والتي تجمع بينها وحدة دينية واحدة وعاصر خلالها العديد من الفنون - تأثيراته الفنية فى فنون بعض الأقاليم التى تقع خارج حدود الإمبراطورية ، وتنقسم الدراسة فى هذا الفصل إلى شقين :

■ **الشق الأول :** يتضمن تأثير فن الفسيفساء البيزنطى على كل من روسيا وصقلية وقيسيا ، وتظهر تأثيرات الفن البيزنطى فى هذه الأقاليم نتيجة لإستقدام المهندسين المعماريين والفنانين المنفذين من القسطنطينية ، فضلاً عن التأثيرات الفنية المحلية التابعة لهذه الأقاليم ؛ وتتلكح هذه التأثيرات فى إنتقال بعض السمات البيزنطية المميزة مثل ظهور بعض الكنائس التى تعتمد على التخطيط الصليبي كما فى روسيا وقيسيا ، وإشتملت الفسيفساء بداخلها على نفس موضوعات الإحتفالات الدينية وإتبعت فى ترتيبها نظام التسلسل الطبقي ، كما تضمنت بعض المعالجات التشكيلية والأساليب التنفيذية التى تميزت بها الفسيفساء البيزنطية .

وقد تناولت الباحثة دراسة ظهور هذه التأثيرات فى كل من كنيسة آياصوفيا بكيبث ( بروسيا ) وبعض الكنائس فى روما وكنيسة القديس مرقص بقيسيا ، إلى جانب بعض الكنائس فى تورشيللو ومورانو بالقرب من قيسيا ، أما فى صقلية فقد تعرضت الباحثة بالتفصيل إلى مدى تأثير هذه الفسيفساء البيزنطية فى عدة كنائس فى أماكن متفرقة داخلها فى كل من سيفالو ومونريال وكنيسة بلاتنيا وكنيسة مارتوراننا .

■ **والشق الثانى :** يتناول إنتقال السمات المميزة للفسيفساء البيزنطية إلى كل من الفن الإسلامى والفن القبطى . وتتلكح هذه التأثيرات فى مجموعة العناصر الزخرفية والنباتية والكتابية ، والتي ظهرت بوضوح فى الفسيفساء الإسلامية ، حيث إشتكرت هذه الفسيفساء مع الفسيفساء البيزنطية فى التأثر الشديد بالتعاليم الصارمة الخاصة بكل ديانة على حدة ، والتي منعت تصوير الكائنات الحيوى الموضوعات الدينية .

وفى الجزء الخاص بالتأثيرات البيزنطية على الفن القبطى ، تتعرض الدراسة لنموذج متفرد من الفسيفساء فى دير القديسة كاترون فى سيناء ؛ حيث ينتمى بناء هذا الدير وتفنيد الفسيفساء بداخله إلى فترة الفن القبطى فى مصر .

وقد ظهرت آثار الفن البيزنطى فى فروع الفن القبطى المختلفة كالعمارة والتصوير وفتون النحت والأخشاب والمنسوجات ، ولكن الدراسة تتركز فى هذه الجزئية على تأثير الفسيفساء البيزنطية فى أعمال التصوير الجدارى التى نفذت بالفريسك على جدران المقابر والكنائس المصرية القديمة ، التى تنحصر فى إنتقال بعض الموضوعات والشخصيات الدينية ، وتناول بعض السمات التشكيلية مثل إستخدام الأطر الخارجية التى تتضمن رؤوس الأدميين والعناصر الكتابية التى تتخلل مساحات الجدار بين القديسين وإيماءات الأيدى .

### الفصل الخامس :

» تجرية الباحث ومحاولة إستخلاص قيم جمالية معاصرة مستوحاة من الفسيفساء البيزنطية ،

وقد تضمن هذا الفصل عدة لوحات تم تنفيذ بعضها فى مرحلة الإعداد لهذه الدراسة ، وقد إنتزمت الباحث فى تنفيذ هذه اللوحات المنفصلة بالتنفيذ الدقيق وفقاً للتصميمات الأولية المرسومة .

كما حاولت الباحث الإستفادة من جماليات هذه الفسيفساء وتفردتها فى رسم التصميمات وتنفيذها ، حيث تناولت هذه الأعمال الموضوعات التى سيطر عليها الأسلوب الرمزى ، كما تنوعت عناصرها التى إحتوت على العنصر الأدمى والعناصر النباتية المجردة ، إلى جانب بعض اللوحات التى تضمنت الصور الشخصية المختلفة ، ومحاولة الجمع بينها فى بعض اللوحات .

فضلاً عن الإستعانة ببعض الأساليب التقنية ومعالجتها التشكيلية المتميزة ذات الطابع الخاص والتى تمثلت فى تحقيق بعض الصفات التشكيلية والتى تتعلق بظهور العنصر الحركى داخل بعض هذه اللوحات ، كما إرتبطت أيضاً بسيادة بعض الألوان والحصول على أقصى درجات التنوع والثراء اللوى ، أسوة بالفسيفساء البيزنطية ، كما إهتمت الباحث بالتركيز على ظهور الملون الذهبى وإستخداماته المختلفة فى هذه اللوحات والإشارة إلى التجارب التى أجرتها الباحث فى سبيل الحصول على درجات ذهبية متنوعة .







### The fifth chapter : The experiment of the researcher

and the attempt to deduce the aesthetic contemporain values from the Byzantine mosaic .

This chapter deals with the precise execution of the independent paintings according to the dawn primmary designs as the researcher had attempted to use the asthetics of these mosaic in drawing these designs and the adopted methods in execution , for these works deals with the top dominated by the symbolic style as they are varied in their elements which include the dominated by the symbolic style as they are varied in their elements which included the human element and the abstract plant elements beside some paintings which included different personal pictures , with the resort to some technical styles and their distinguished plastic treatment of specific character through the realization of some plastic aspects which are related to the appearance of dynamic element inside some of the paintings and its relation to the dominance of some colors and achieve the utmost level of diversity and color richness , following the example of Byzantine mosaic , then the researcher shows his interest in the appearance of golden color and its different uses in these paintings and the reference to the experiments conducted by the researcher to obtain varied golden tones.

and its expansion to the other parts . The Byzantine art for long centuries had left its arts of some regions outside the confines of the Empire , The study in this chapter is divided into two branches , the first includes the influence of Byzantine art on Russia , Sicily and Venice beside the local artistically influences of these regions due to the transfer of some Byzantine aspects like the appearance of some churches which depend on the cross plan in Russia and Venice with the representation of regions celebration through a hierarchical sequence with plastic treatment and executive styles which distinguish by Byzantine mosaic .

The second branch deals with the transfer of distinct aspects of Byzantine mosaic to the islamic and coptic arts , with these influences of a group of decorative , plant and written elements as in the islamic mosaic like the Byzantine mosaic strongly affected with the strict instructions of each religion which forbids the painting of living creatures . The influences of Byzantine art had appeared in the different branches of coptic art like the architecture , painting , arts of sculpture wood and textile but the study in this section emphasizes on the influence of Byzantine mosaic in the works of mural painting in the fresco of the walls in the graves and Egyptian churches through the transfer of some religious subjects and personalities with the demonstration of some plastic aspects like the use of external frames which include the human heads and writings on the surfaces of walls between the saints with the hand gestures.

- ٤٢٦ -

movement in the central domes beside the architectural parts which comprise the curved surfaces like the spheres.

This dynamic conception had been exclusive on the simple hints like the stretch of hands and the rise of cloth to fill the gaps inside the composition , for the return of the Hellenistic influences and the impression of Baroque style at the end of Byzantine age had contributed to the increase of dynamic rhythm in these composition in Churches as inside and outside the capital beside the Byzantine mosaic , for the artists has depended on many hot and cold color degrees due to their brilliance with the adoption of color systems inside the church fringe through the sequence of pyramidal composition of the subjects were the lower surfaces of walls surfaces of walls contain the dark tones which are graded to the upper side through the bright tones in the presentation of angles beside the Christ at the lintel , the classical styles had the general role in the enhancement of the color richness , beside the influence of fresco painting which had been the cause in the creation of many color tones derived from the main colors .

This section ends with a highlight on the important colors of mosaic like the golden and silver to achieve the brilliant effect , therefore the researcher is interested in the evaluation of the uses of golden color in the plant and decorative elements and in the backgrounds , to cover large surfaces of the churches .

The fourth chapter : The propagation of the Byzantine art

- ٤٢٧ -

and western arts on the style of figuration , while the second branch deals with the appearance of religious and secular pictures as the second represent the natural aspects of the responsibilities as in the paintings of Justinian and Theodora while the religious pictures seek to glorify these personalities as in the bust picture and complete pictures of the full length of the personalities beside the small and portable paintings , at the altar in Churches to represent the seated persons in the curved places like the arches and the painting of standing personalities on the vertical walls or the cylindrical domes , as for the first pictures , inside the frames with the elimination of the lower part of the persons for the same principle on the spherical medals which represent the head and the shoulders

The third chapter : The motion and colour in the composition of Byzantine mosaic .

This chapter begins with the artificial methods in the works of mosaic (Byzantine mosaic ) which represent the pictorial works which include some of the plastic elements and aesthetic values with the dominance of the conservatives style and the classic style which had contributed in its reappearance during the period of revival in the Ninth century and a reference to some external influences such as the Hellenistic influences and the western influences and the expressive style by the end of Byzantine age the Byzantine mosaic is distinguished by a special kind of movement which is the rhythmic movement in the cathedrals or the round

- 1- The direct method : which consists of laying the mosaic by hand on the fresh mortar layer .
- 2- The indirect way : which consists in the preparation of work on a surface (papersurface ) to be placed in the wall through the adhesion of mosaic on this paper which will be fixed on the mortar , then it will be removed from the brilliant mosaic surface by warm water , For the small paintings , executed on small wooden plates with the drawing of design in the wooden surface with the use of adhesion and wax mixture which covers the surface of the painting , then it will be possible to fix the mosaic.

The end of this chapter discuss the volumes of mosaic cubes and the adoption of technical treatment in the arrangement of cubes in a inclined shape to gain the brilliance for the holiness of the work .

The second chapter : deals with the human element and personal pictures in the mosaic of Byzantine art . The study in the chapter is divided into two branches . the first deals with the plastic elements and their importance to the human element in many secular and religious themes where the secular themes had depended on the classic and real style in painting the human body while the religious themes even in the abstract way as the Christian creed had rejected , the possibility of drawing the human body , however there was painting of nude body in contradiction to the religion with a demonstration of the causes of that and the effect of Eastern

The second type : The religious topics which treats the painting of biblical events in a narrative style with the appearance of holy personalities like Jesus , the Virgin, the prophets and saints .

There were portable paintings or icons in the second century that treat the same kind of subjects in the altar of churches for the painting of the Christ, the virgin and the saints who had played a great role in the propagation of Christian creed beside the pictures about the religious celebration , The third unit. The values and aesthetics of Byzantine mosaic art .

This unit included five chapters : The first chapter : (The different techniques for the artistically use of material of Byzantine mosaic ). This section begins with a definition of this material its hardening and ability to confer brilliant superficial effects beside the special style suggested with the dependence of this material and the abstract nature produced by these cubes due to this proximity according to their different types like the marble or the ceramic or glass , (particular glass) due to the multiple colour, however the artists had tried to reconcile between these materials and to use the marble and stone in surfaces of wear and friction , while the glass and natural stones for the supperwalls , and despite the distinction between the materials there had been the paintings which combine different materials in order to improve the resistant effect and achieve the aesthetic level to serve their holy purposes . The Byzantine had adopted two ways in the execution :

another form of this style which depends on the cross with equal sides and five domes and the main dome above the intersection of the sides as in the church of saint March at Venice .

This chapter ends with demonstration of some architectural elements like the straight and curved surfaces , walls , domes and transport .

The third chapter has the title of : ‘ The subject of topics treated by the Byzantine mosaic .

The research discuss the first stage of Byzantine mosaic during the sixth to eighth centuries which had witnessed the maturity of Byzantine , mosaic as in the cities of Ravenna and Salonika which include different churches that represent varied mosaic topics with a reference to the iconoclasm and the appearance of geometrical and plant elements — in an abstract or in addition to the motif of the cross on large spaces , with the treatment of two kinds of topics .

The first types : The religious topics , for the decoration of floors of the fancy houses and palaces belonging to the emperors and the registration of daily life spectacles such as views from hunting scenes painting of human and animal creatures in a classical style .

Among the important patterns which express , these topics there is the mosaic of holy place at constantinople and churches about the material topics with the painting of kings and emperors in the company of Christ and vierg or both of them .



- ٤٤١ -

architecture for the enlargement of the inner surface of churches through the use of main and secondary domes supported on the spherical triangles .

In addition<sup>to</sup> that the shapes and volumes of buildings had varied according to the internal designs and architectural plans , as the architecture of churches had depended on four different styles due to the eastern and western influences .

First : The Basilical style : which is roman one , which depends on a rectangular hall with two rows of columns , or four rows known in the name of cathedral.

Second : The central style: covered with the dome : with the dome which covers the center of building and on two types of horizontal elevation, such as the round horizontal elevation in the graves and the older or of churches , the second style depends on the square ground plan , and was important in the Byzantine architecture in churches such as saint Serguis and Bacchus

Third : The crossed plan : which depends on the horizontal elevation of the sides of the cross which inter-set in one point which is the tympanum , the center is covered with the main dome , this plan is Byzantine and Christian and a mean to express the Christianity .

Fourth : The multi domed style : which combines the basilica form or plan and the domed plan as in the domed cathedral due to the elongated tympanum and the number of domes which covers the center and lateral wings like in the church of saint john and saint Irene at constantinople there is

the supports for this new art for the Christianity had a strong effect on the style of art during the period of iconoclasm with the prohibition of paintings some forms and subjects .

### *Byzantine*

**The second chapter :** The architecture and its relation to the mosaic art : This chapter highlights the architecture which had contributed in enriching the Byzantine mosaic in the religious Byzantine buildings which had not been improved to its final stage until the Eleventh century with the construction of many churches , the following represents the factors of affecting this architecture in each local region .

- 1- **The religious factor :** which is the strongest factor behind the construction of huge churches as a result of the Christian creed upon the order of emperors and saints for the construction of churches .
- 2- **The climatic factor :** which intervenes in the difference between the external and internal form of construction with the apertures in the windows and the selection of some architectural elements like the curved surfaces and the lintels to reduce the temperature in some regions .
- 3- **The geological factor :** related to the raw materials from the ground and used in the constructions such as the stone , the brick and the pebbles and the soil itself in the regions rich with this material .
- 4- **The technological factor :** which represents the dependence on the modern means to construct the buildings , this factor had influenced the Byzantine

-٤٤٣-

local environment in the composition of artistically works , with reference made to the historical period of Byzantine empire from the fourth century of the hand of its founder the emperor Constantine who calls its new capital the Constantinople after him and which remained its capital till its fall in the fifth century by the Ottoman Turks in a way that the Byzantine Empire had extended eleven centuries due to expansion of its territories to include the Eastern and western regions in Asia , Africa and Europe .

The research then deals with the main points<sup>the</sup> causes that enhanced the Constantinople to a fine position such as the geographical location which is distinguished from the African . European and Asian countries for it is the interruption of many countries and a commercial way between them .

In addition to that , there was some factors related to the local conditions which has a strong effect on the composition of artificial factories as follows :

- 1- The political factor : related to the political rule inside and outside the capital and the role of religious officials and popular will in the stability of political base to treat the suitable environment for the development of arts.
- 2- The social factors : related to the advantages and disadvantages of the Byzantine society and the familial customs and the interests of Byzantine people in science and education .
- 3- The religious factor : which had the role of stability and

- ۳۳۳ -

which became subsequent by among the important artistic aspects. Which distinguish. The Byzantine art beside the transfer of some decorative frames of Hellenistic art to confine the mosaic paintings in the Byzantine churches.

The third chapter: The early Christian art and symbolic religions topics:

This chapter deals only with the early Christian arts which is the third art to influence the Byzantine art, due to a common factor between them, which in the Christianity which had full control on both, this Christianity had appeared in the first half of the first century in Palestine faced with a violent resistance and adopted secretly due to the Roman persecution, and the torture of Christians till the official declaration of this religion in the Byzantine art in the fourth century.

The Christianity had its beginning in the fourth and fifth centuries, and had made some influences on the Hellenistic art beside the influence of eastern arts and the objection by the christianism to paint the living creatures with the possibility to paint the plant and geometrical decorations through the symbolization of living creatures, therefore symbolism became the important aspect to distinguish the early Christian art in an abstract style away from the nature .

The second unit : Mosaic of Byzantine age ; This unit deal with the causes of flourishment of mosaic Byzantine art through three chapters : The first chapter: The difference of

- ٤٤٥ -

concerned with the propagation of Hellenistic culture in a way to achieve the mix between these two different civilization this period is divided into two phases: the first up to the end of the first century while the east countries were dependent on Alexander and his successors, the second had begun with the end of first century B.C., accordingly the art in the East and the Roman empire, had been subject to the political circumstances and the Hellenistic influences, beside the Roman ones as evident from many pictural works, for there had been some factors which had influenced the development of Hellenistic art in a way to suggest five trends.

- 1- the search for richness.

- 2- The theatrical mentality.

- 3- The scholar mentality.

- 4- The individualism.

- 5- The general perspective free from fanaticism.

Among the important fields of arts in this era, there are the Hellenistic mosaic which had covered a variety of topics in Luxurious palaces on the floors and walls. This chapter deals also with the painted topics, of five kinds 1- The legendary topic. 2- The theatrical topic. 3- The natural landscape. 4- Subjects of royal painting. 5- Subjects of general decoration the chapter also emphasis on the mosaic works in Alexandric and Antioch where they took a unique character, by the end of this chapter, we will discuss each aspect of the Hellenistic mosaic, its significance, and influence on the Byzantine mosaic, and the color richness

## Summary

This thesis is composed of an introduction, and three units, The first unit has the title of "The arts which influence the rise of Byzantine painting", with the reference to the arts preceding the Byzantine art and which had contributed to his technical composition, this unit is comprised of three chapters:

The first chapter: The Sassanian art and its decorative elements:

This chapter deals with the history of foundation of Sassanian nation by the king Ardchir who had worked on to oppose the stretch of Roman Empire to Iran and against Artban the fifth, country which lasted for four centuries.

The strategic location of Iran had contributed to the development of Sassanian art through the role of the rulers like king Chabor the first and his reign that had witnessed the variety of art fields like the plastic inscriptions in many works beside the mural painting and the minor arts, while the Sassanian art had been attached to kind of topics especially the historical themes about the victories of kings, the chapter also demonstrate the mosaic on the palace of Bishapor with the painting of some human personalities.

The second chapter: The Hellenistic art and imitation of nature:

This chapter deals with another art form within the first half of the fourth century till the fourth century known as the Hellenistic period under the reign of Alexander



HELWAN UNIVERSITY  
FACULTY OF FINE ARTS  
PAINTING DEPARTMENT

**THE DEVELOPMENT OF MOSAIC IN BYZANTINE AGE  
(FROM NINE<sup>th</sup> CENTURY TO THIRTEEN<sup>th</sup> CENTURY)**

**Prepared By:**

**NRMIN FATHI EL-MASRY**

**Demonstrator of painting Department**

**Faculty of Fine Arts-Helwan University**

**THESIS INTRODUCED TO PAINTING DEPARTMENT**

**FACULTY OF FINE ARTS , HELWAN UNIVERSITY FOR  
MASTER DEGREE PAINTING DEPARTMENT (murals)**

**Supervision by :**

**Prof. Dr. SABRY MOHAMED MANSOUR**

**Professor of painting Department**

**Faculty of Fine Arts –Helwan University**

**January 2001**









